التفسير المحرر للقرآن الكريم

من سورة النبأ إلى سورة الانشقاق

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر سابقًا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثاني والأربعون

الدرر السنية
www.dorar.net





التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة النبأ إلى سورة الإنشقاق)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الواحد والأربعون - القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - ط١ الظهران، ١٤٤٣ هـ

١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٩-١٣-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- التفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤٣/١٣٠٠٣

رقم الإيداع: ١٤٤٣/١٣٠٠٣

ردمك: ٩-١٣-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)



المملكة العربية السعودية
٠١٣٨٦٨٠١٢٣ ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ nashr@dorar.net
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv



للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة النبأ إلى سورة الإنشقاق)

إعدادُ

القِسمِ العِلميِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

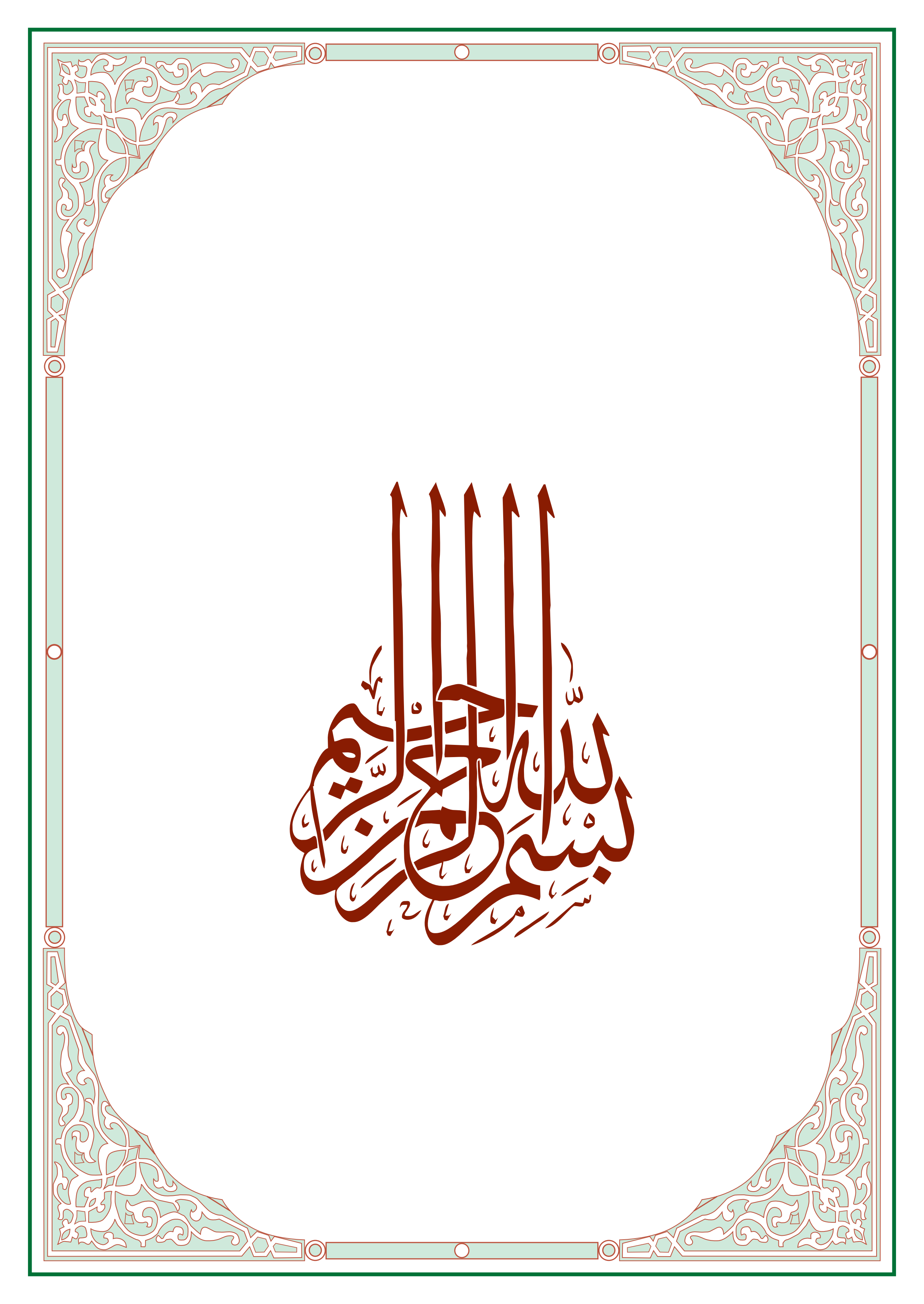
الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشرافُ العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

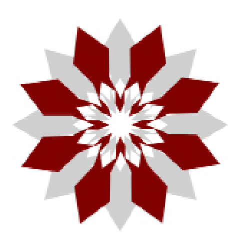
المجلد الثاني والأبعون

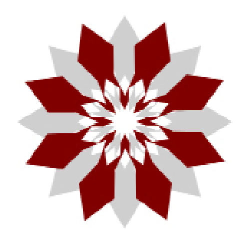


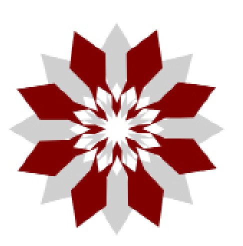

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ النَّبَأِ







سُورةُ النَّبَإِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (النَّبَإِ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ النَّبَأِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

إثباتُ البَعثِ، وتهويلُه، وإنذارُ مُنكِريه[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- سؤالُ المُشرِكينَ عن القُرآنِ الَّذي جاء به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم وما

---

(١) وَجهُ التَّسمية: سُمِّيَت بذلك؛ لافتِتاحِها بلَفظِ النَّبَأ في قَولِه تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩٧).

قال ابنُ عاشور: (سُمِّيتْ هذه السُّورةُ في أكثَرِ المصاحِفِ، وكُتُبِ التَّفسيرِ، وكُتُبِ السُّنَّةِ «سُورةَ النَّبَإِ»؛ لِوُقوعِ كلمةِ ﴿النَّبَإِ﴾ في أوَّلِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥).

وتُسمَّى أيضًا سورةَ ﴿عَمَّ﴾ و﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾؛ تسميةً لها بأوَّلِ جملةٍ فيها. وتُسمَّى «سورةَ التَّساؤُلِ»؛ لوُقوعِ ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ في أوَّلِها. وتُسمَّى «سورةَ المُعْصِراتِ»؛ لقولِه تعالى فيها: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: ١٤]. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥).

(٢) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبِقاعي (٣/ ١٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦، ٥٨).

اشتَمَل عليه مِن التَّوحيدِ والبَعثِ إلى غيرِ ذلك، وتهديدُهم بسُوءِ المصيرِ إذا ما استمَرُّوا في طُغيانِهم وإنكارِهم لِما جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

٢- إقامةُ الأدِلَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وعلى عظيمِ قُدرتِه، وإمكانِ حُصولِ البَعثِ.

٣- ذِكرُ أحداثِ يومِ القيامةِ، ووَصْفُ أهوالِه.

٤- بيانُ ما أعَدَّه اللهُ سُبحانَه للكافِرينَ مِن عذابٍ في جهنَّمَ.

٥- بيانُ ما أعَدَّه اللهُ عزَّ وجلَّ للمُتَّقينَ مِن النَّعيمِ في الجنَّةِ.

٦- تقريرُ أنَّ يومَ القيامةِ حَقٌّ لا رَيبَ فيه، وأنَّه يَنبغي تقديمُ العَمَلِ الصَّالحِ مِن قَبلِ أن يأتيَ هذا اليومُ.

٧- الإنذارُ بعذابٍ قَريبٍ، وعَرْضُ الأعمالِ على العبادِ؛ خَيرِها وشَرِّها، وتمنِّي الكافِرِ في ذلك اليومِ أنْ لو كان تُرابًا.



الآيات (١-٥)

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ (١) عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ (٢) ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ (٥)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلنَّبَإِ﴾: أي: الخَبَرِ العظيمِ الشَّأنِ، والمرادُ به هنا القُرآنُ أو البَعْثُ، وأصلُ (نبأ): الإتيانُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، والخبرُ يَأْتي مِن مكانٍ إلى مكانٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بأُسلوبِ الاستِفهامِ؛ لِتَشويقِ السَّامِعِ إلى المُستفهَمِ عنه، ولتَهويلِ أَمْرِه، وتَعظيمِ شَأنِه، قائِلًا سُبحانَه: عن أيِّ شَيءٍ يَتساءَلُ مُشرِكو قُرَيشٍ؟ عن الخَبَرِ العَظيمِ، وهو القُرآنُ وما اشتَمل عليه مِن التَّوحيدِ والبَعْثِ وغيرِ ذلك، الَّذي هم فيه مُختَلِفونَ، ثمَّ قال الله تعالى متوعِّدًا ومهدِّدًا: كلَّا سيَعلَمونَ عِلْمَ اليَقينِ ما كَذَّبوا به، وعاقِبةَ تَكذيبِهم، ثُمَّ كَلَّا سيَعْلَمونَ صِدْقَ القُرآنِ ووُقوعَ البَعْثِ الَّذي كَذَّبوا به.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ (١)﴾.

أي: عن أيِّ شَيءٍ عَظيمٍ يَتساءَلُ مُشرِكو قُرَيشٍ[2]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥، ٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١١٢).
قال الرَّاغبُ: (النَّبَأُ: خَبَرٌ ذو فائدةٍ عَظيمةٍ يَحصُلُ به عِلمٌ أو غَلَبةُ ظَنٍّ، ولا يُقالُ للخبرِ في الأصلِ نَبأٌ حتَّى يَتضمَّنَ هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ). ((المفردات)) (ص: ٧٨٨، ٧٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦). =



= قال الواحدي: (﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أصلُه: «عَنْ ما»، فأُدغِمَت النُّونُ في الميمِ، وحُذِفَت ألِفُ «ما»، كقَولِهم: فِيمَ، وبِمَ). ((الوسيط)) (٤/ ٤١١).
والضَّميرُ في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ لكُفَّارِ قُرَيشٍ. وقيل: لجميعِ النَّاسِ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٤).
ممَّن اختار أنَّ المرادَ كفَّارُ مكَّةَ ومُشرِكو قُرَيشٍ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، ومكِّي، والزمخشري، والنسفي، والخازن، وأبو حيَّان، وابن كثير، والبِقاعي، والعُلَيمي، والشربيني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١١٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٨١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٨٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٥٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٨٨).
قال الواحديُّ: (قال المفسِّرونَ: لَمَّا بُعِث رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وأخبَرَهم بتوحيدِ الله، والبعثِ بعدَ الموتِ، وتلا عليهم القرآنَ؛ جعَلوا يَتساءَلونَ بيْنَهم، فيَقولونَ: ماذا جاء به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم؟ وما الَّذي أتى به؟ فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾). ((الوسيط)) (٤/ ٤١١).

وقال ابن عطيَّةَ: (يحتملُ الضَّميرُ في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أن يريدَ جميعَ العالَمِ، فيكونَ الاختِلافُ حينَئذٍ يُرادُ به تصديقُ المؤمنينَ، وتكذيبُ الكافِرين، ونَزَغاتُ المُلحِدين. ويحتمِلُ أن يُرادَ بالضَّميرِ الكفَّارُ من قُرَيشٍ، فيكونَ الاختِلافُ شكَّ بعضٍ، وتكذيبَ بعضٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٣).
فعلى الاحتمالِ الأول فالَّذين كانوا يَتساءَلون هم الكفَّارُ والمؤمنونَ، وكانوا جميعًا يَتساءَلونَ عنه؛ أمَّا المُسلِمُ فلِيَزدادَ بصيرةً ويقينًا في دينِه، وأمَّا الكافرُ فعلى سبيلِ السُّخريةِ، أو على سبيلِ إيرادِ الشُّكوكِ والشُّبُهاتِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦).
وذكر ابنُ عاشورٍ -على الاحتمالِ الثاني- أنَّ قولَه: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ إمَّا أن يكونَ بسُؤالِ بَعضِهم بعضًا سؤالَ مُتطَلِّعٍ للعِلمِ؛ لأنَّهم حينَئذٍ لم يَزالوا في شكٍّ مِن صِحَّةِ ما أُنبِئوا به، ثمَّ استقَرَّ أمرُهم على الإنكارِ، أو أنَّهم يَتظاهَرونَ بالسُّؤالِ، وهم موقِنونَ بانتفاءِ وُقوعِ ما يَتساءَلونَ عنه؛ فيَكونونَ قَصَدوا بالسُّؤالِ الاستهزاءَ.
ثمَّ ذكَر ابنُ عاشور أنَّ الوَجهَ هو حَملُ الآيةِ عليهما، قال: (لأنَّ المُشرِكينَ كانوا مُتفاوِتينَ في التَّكذيبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨).

﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا فَخَّم ما يَتساءَلونَ عنه، مُعَجِّبًا منهم فيه؛ بيَّنَه بقَولِه إعلامًا بأنَّ ذلك الإبهامَ ما كان إلَّا للإعظامِ: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ﴾[1].

﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾.

أي: يتَساءلونَ عن الخَبَرِ العَظيمِ، وهو ما اشتَمل عليه القرآنُ مِن التَّوحيدِ والبعثِ وغيرِ ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦).

قيل: المرادُ بالنبأِ -أي: الخبرِ- العظيمِ: القرآنُ. وممَّن اختاره: السمرقنديُّ، والرازيُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦).

قال الواحدي: (ومعنى: ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ القرآنُ في قولِ جميعِ المفَسِّرينَ، وهو قولُ الكَلْبيِّ، ومُقاتِلٍ، ومجاهِدٍ، وقَتادةَ، وسُفْيانَ). ((البسيط)) (٢٣/ ١١١). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٥٧).

ورواه ابنُ مَرْدويه عن ابنِ عبَّاسٍ، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٩٠).

وقال الواحديُّ أيضًا: (هو: القرآنُ في قولِ الجميعِ. ومعناه: الخبَرُ العظيمُ الشَّأنِ؛ لأنَّه يُنبئُ على التَّوحيدِ، وتصديقِ الرَّسولِ، والخبَرِ عمَّا يجوزُ وعمَّا لا يجوزُ، وعن البَعثِ والنُّشورِ). ((الوسيط)) (٤/ ٤١١).

ونَسَب البَغَويُّ هذا القولَ إلى الأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٩).

وقيل: هو البَعثُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ أبي زَمَنين، والنَّسَفيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ في روايةٍ عنه، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٨٨).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ النَّبأَ العَظيمَ هو رسالةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وشريعتُه، وما جاء =

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ * أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧، ٦٨].

﴿ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ٣﴾.

أي: الَّذي اختَلَف فيه أهلُ مَكَّةَ[(١)].

= به مِن القرآنِ المُشتَمِلِ على التَّوحيدِ والبَعثِ وغيرِ ذلك: ابنُ جُزَي، وأبو حيَّان، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥).

قال ابنُ عاشور: (يَشملُ كُلَّ نَبأٍ عَظيم أنبَأهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم به، وأوَّلُ ذلك إنباؤُه بأنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ، وما تضَمَّنَه القُرآنُ مِن إبطالِ الشِّركِ، ومِن إثباتِ بَعثِ النَّاسِ يومَ القيامةِ، فما يُروى عن بعضِ السَّلَفِ مِن تعيينِ نبأٍ خاصٍّ: يُحمَلُ على التَّمثيلِ؛ فعن ابنِ عبَّاسٍ: هو القرآنُ. وعن مُجاهِدٍ وقَتادةَ: هو البَعثُ يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠).

قال ابنُ جُزَي (ويتعلَّقُ ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ﴾ بفعلٍ مَحذوفٍ يُفَسِّرُه الظَّاهِرُ، تقديرُه: يَتساءَلونَ عن النَّبأ. ووقعت هذه الجُملةُ جوابًا عن الاستفهامِ، وبيانًا للمَسْؤولِ عنه، كأنَّه لَمَّا قال: عَمَّ يَتساءَلونَ؟ أجاب فقال: يَتساءَلونَ عن النَّبأِ العظيمِ. وقيل: يتعلَّقُ ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ﴾ بـ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ الظَّاهِرِ، والمعنى على هذا: لأيِّ شَيءٍ يَتساءَلونَ عن النَّبأِ العظيمِ؟ والأوَّلُ أفصَحُ وأبرَعُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥).

قيل: المرادُ: اختِلافُ الكُفَّارِ فيما يَصِفونَ به النَّبَأَ العَظيمَ؛ كُفْرًا وتكذيبًا به. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الشَّوكانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠، ١١).

وقيل: معنى اختلافِهم: أنَّ مِنهم مَنْ آمَنَ به، ومنهم مَن كَفَر به. وممَّن قال بهذا في الجُملةِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَيْن: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩١).

قال ابنُ جُزَي (إن كان الضَّميرُ في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ لكُفَّارِ قُرَيشٍ، فاختِلافُهم أنَّ مِنهم مَن يقطَعُ =

﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٤﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَزعُمُ المكذِّبونَ بالقُرآنِ والمُنكِرونَ للبَعْثِ وغيرِه ممَّا جاء به، وهم سيَعلَمونَ عِلْمَ اليَقينِ ما كَذَّبوا به، عندَ مَوتِهم ويومَ القيامةِ، وسيَعلَمونَ حَقًّا عاقِبةَ تَكذيبِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ * إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ * فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٠ - ٧٢].

﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٥﴾.

أي: ثمَّ ليس الأمرُ كما يَزْعُمونَ، فهم حَتْمًا سيَعْلَمونَ صِدْقَ القُرآنِ وما اشتمَل

= بالتَّكذيبِ، ومنهم مَن يشُكُّ، أو يكونُ اختِلافُهم قَولَ بَعضِهم: سِحرٌ، وقولَ بَعضِهم: شِعرٌ وكِهانةٌ، وغيرَ ذلك، وإن كان الضَّميرُ لجميعِ النَّاسِ فاختِلافُهم أنَّ منهم المؤمِنَ والكافِرَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٤).

وقيل: يجوزُ أن يكونَ الاختِلافُ بالإقرارِ والإنكارِ على كَونِ ضميرِ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ للكفَّارِ أيضًا، بأن يُجعلَ ضميرُ ﴿هُمۡ﴾ للسَّائلينَ والمَسْؤولينَ. يُنظر: ((حاشية الخفاجي على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٣٠٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٠٣).

وقال ابن كثير بعدَ أن ذكر أنَّ المرادَ تَساؤُلُ المشركين: (قوله: ﴿ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾ يعني: النَّاسُ فيه على قولَينِ: مؤمنٌ به، وكافرٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١).

قال البِقاعي: (﴿كَلَّا﴾ أي: ليس ما سألُوا عنه واختَلَفوا فيه بمَوضِعِ اختِلافٍ أصلًا، ولا يَصِحُّ أن يَطرُقَه رَيْبٌ بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ؛ فلْيَنزَجِروا عن ذلك، ولْيَرْتَدِعوا قبْلَ حُلولِ ما لا قِبَلَ لهم به). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٩٣).

عليه، كوُقوعِ البَعْثِ الَّذي كَذَّبوا به، وسيَعْلَمونَ عاقِبةَ ذلك[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ سُؤالٌ، وقَولُه: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ جوابُ السَّائِلِ، والمجيبُ هو اللهُ تعالى، وذلك يدُلُّ على عِلْمِه بالغَيْبِ، بل بجَميعِ المعلوماتِ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فيه سؤالٌ: ما الفائدةُ في أن يُذكَرَ الجَوابُ معه؟

الجوابُ: لأنَّ إيرادَ الكلامِ في مَعرِضِ السُّؤالِ والجوابِ أقرَبُ إلى التَّفهيمِ والإيضاحِ، ونظيرُه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[٣] [غافر: ١٦].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ عِظَمُ ما جاء به الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن الوَحْيِ، وأنَّه نَبَأٌ عَظيمٌ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ * ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾

- قولُه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ افتِتاحُ الكلامِ بالاستِفهامِ عن تَساؤُلِ جماعةٍ عن نَبأٍ عَظيمٍ، افتِتاحُ تَشويقٍ ثمَّ تَهويلٍ وتَفخيمِ الشَّأنِ لِما سيُذكَرُ بعدَه، كأنَّه لفَخامتِه وخُروجِه عن حُدودِ الأجناسِ المعهودةِ خَفيَ جِنسُه فيُسأَلُ عنه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)). ويُنظر ما يأتي (ص: ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣٢).

فهو مِن الفواتحِ البديعةِ؛ لِما فيها مِن أُسلوبٍ عَزيزٍ غيرِ مألوفٍ، ومِن تَشويقٍ بطَريقةِ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ، المحصِّلةِ لتَمكُّنِ الخبرِ الآتي بعْدَه في نفْسِ السَّامعِ أكمَلَ تَمكُّنٍ[١].

- ولَمَّا كان هذا الافتتاحُ مُؤْذِنًا بعَظيمِ أمْرٍ، كان مُؤذِنًا بالتَّصدِّي لقولٍ فصْلٍ فيه، ولَمَّا كان في ذلك إشعارٌ بأهَمِّ ما فيه خَوضُهم يَومَئذٍ، يُجعَلُ افتِتاحُ الكلامِ به مِن بَراعةِ الاستِهلالِ[٢].

- وضَميرُ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ ضَميرَ جَماعةِ الغائبينَ مُرادًا به المُشرِكونَ مِن أهلِ مكَّةَ، ولم يَسبِقْ لهم ذِكرٌ في هذا الكلامِ، ولكنَّ ذِكرَهم مُتكرِّرٌ في القرآنِ، فصاروا مَعروفينَ بالقَصدِ مِن بعضِ ضَمائرِه وإشاراتِه المُبهَمةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦).

وبراعةُ الاستهلالِ: هي كَونُ ابتداءِ الكلامِ مُناسِبًا للمقصودِ، وأنْ يكونَ أوَّلُ الكلامِ دالًّا على ما يُناسِبُ حالَ المتكلِّمِ، مُتضمِّنًا لِمَا سِيقَ الكلامُ من أجْلِه مِن غيرِ تصريحٍ، بل بألْطَفِ إشارةٍ يُدرِكُها الذَّوقُ السَّليمُ، ومِن أحسَنِ صُوَرِ براعةِ الاستهلالِ مَوقِعًا، وأبلَغِها معنًى: فواتحُ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ، ومنها الحُروفُ المقطَّعةُ؛ فإنَّها تُوقِظُ السَّامعينَ للإصغاءِ إلى ما يَرِدُ بعدَها؛ لأنَّهم إذا سمِعوها مِن النَّبيِّ الأُمِّيِّ عَلِموا أنَّها والمَتْلُوَّ بعْدَها مِن جهةِ الوحيِ، وفيها تنبيهٌ على أنَّ المتلوَّ عليهم مِن جنسِ ما يَنظِمونَ منه كلامَهم، مع عجْزِهم عن أنْ يأتوا بمِثلِه. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٤٥)، ((الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم)) لعصام الدين الحنفي (١/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٢)، ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لابن معصوم (١/ ٥٣)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٠).

- وقيلَ: هو سؤالُ استِهزاءٍ أو تَعجُّبٍ، وإنَّما هم موقِنونَ بالتَّكذيبِ[١].

- ولَمَّا كان الاستِفهامُ مستعمَلًا في غيرِ طلبِ الفَهمِ، حَسُن تعقيبُه بالجوابِ عنه بقولِه: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾، فهو بَيانٌ لشَأنِ المسؤولِ عنه إثرَ تَفخيمِه بإبهامِ أمْرِه، وتَوجيهِ أذهانِ السَّامِعينَ نحوَه، وتَنزيلِهم مَنزِلةَ المستفهِمينَ؛ فإنَّ إيرادَه على طَريقةِ الاستِفهامِ مِن علَّامِ الغُيوبِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّه لانقطاعِ قَرينِه، وانعدامِ نَظيرِه خارجٌ عن دائرةِ عُلومِ الخَلْقِ، خَليقٌ بأنْ يُعتنَى بمَعرفتِه ويُسألَ عنه، كأنَّه قيلَ: عنْ أيِّ شيءٍ يَتساءَلونَ؟ هل أُخبِرُكُم بِه؟ ثمَّ قيلَ بطَريقِ الجوابِ: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾، على مِنهاجِ قولِه تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فـ(عَنْ) مُتعلِّقةٌ بما يدُلُّ عليه المذكورُ مِن مُضمَرٍ حقُّه أنْ يُقدَّرَ بعدَها؛ مُسارَعةً إلى البيانِ، ومُراعاةً لتَرتيبِ السُّؤالِ، هذا هو الحقيقُ بالجزالةِ التَّنزيليَّةِ[٢].

- ووُصِفَ النَّبأُ بالعظيمِ هنا زيادةً في التَّنويهِ به؛ لأنَّ كَونَه وارِدًا مِن عالِمِ الغَيبِ زادَه عِظَمَ أوصافٍ وأهوالٍ، فوَصْفُ النَّبأِ بالعظيمِ باعتبارِ ما وُصِف فيه مِن أحوالِ البعثِ فيما نزَلَ مِن آياتِ القرآنِ قبْلَ هذا[٣].

وقيل: لَمَّا كان في مَقامِ التَّفخيمِ له، وصَفَه تأكيدًا بقولِه: ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾، مع أنَّ النَّبأَ لا يُقالُ إلَّا لخبرٍ عظيمٍ شأنُه؛ ففي ذلك تَنبيهٌ على أنَّه مِن حقِّه أن يُذعِنَ له كلُّ سامعٍ، ويَهتَمَّ بأمرِه، لا أنْ يَشُكَّ فيه ويَجعَلَه مَوضِعًا للنِّزاعِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٤، ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩١).

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلنَّبَإِ﴾ قيل: هو تَعريفُ الجنسِ؛ فيَشملُ كلَّ نبأٍ عظيمٍ أنبأَهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم به[١].

- وقد وُصِفَ النَّبأُ بقولِه تعالَى: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ بعدَ وصْفِه بالعظيمِ؛ تأكيدًا لخطرِه إثرَ تأكيدٍ، وإشعارًا بمَدارِ التَّساؤلِ عنه[٢].

- والضَّميرُ في ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ تأكيدٌ، وفيه معْنى الاختصاصِ، ولم يكنْ لقُرَيشٍ اختصاصٌ بالاختلافِ، لكنْ لَمَّا كان خَوضُهم فيه أكثَرَ، وتعنُّتُهم له أظْهَرَ؛ جُعِلوا كأنَّهم مَخصوصونَ به[٣].

- وفي قولِه: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ جِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ في صِلةِ المَوصولِ دونَ أنْ يقولَ: (الَّذي يَختلِفونَ فيه) أو نحوَ ذلك؛ لتُفيدَ الجملةُ الاسميَّةُ أنَّ الاختِلافَ في أمرِ هذا النَّبأِ مُتمكِّنٌ منهم، ودائمٌ فيهم؛ لدَلالةِ الجملةِ الاسميَّةِ على الدَّوامِ والثَّباتِ[٤].

- وتَقديمُ ﴿فِيهِ﴾ على ﴿مُخْتَلِفُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بالمجرورِ، وللإشعارِ بأنَّ الاختلافَ ما كان مِن حقِّه أنْ يَتعلَّقَ به، مع ما في التَّقديمِ مِن الرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾

- ﴿كَلَّا﴾ حرْفُ رَدْعٍ وإبطالٍ لشَيءٍ يَسبِقُه غالبًا في الكلامِ، يَقتضي ردْعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١).

(٥) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

المنسوبِ إليه، وإبطالَ ما نُسِب إليه، وهو هنا رَدعٌ لِلَّذين ﴿يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ * ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾ [النَّبأ: ١-٣]، وإبطالٌ لِما تَضمَّنَتْه جملةُ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ مِن تَساؤلٍ مَعلومٍ للسَّامِعينَ، فمَوقعُ الجملةِ مَوقعُ الجوابِ عن السُّؤالِ؛ ولذلك فُصِلَتْ ولم تُعطَفْ؛ لأنَّ ذلك طَريقةُ السُّؤالِ والجوابِ، والكلامُ وإنْ كان إخبارًا عنهم فإنَّهم المقصودونَ به، فالرَّدعُ موجَّهٌ إليهم بهذا الاعتبارِ، والمعنى: إبطالُ الاختِلافِ في ذلك النَّبأِ، وإنكارُ التَّساؤلِ عنه، ذلك التَّساؤلُ الَّذي أرادوا به الاستهزاءَ وإنكارَ الوُقوعِ، وذلك يُثبِتُ وُقوعَ ما جاءَ به النَّبأُ وأنَّه حقٌّ؛ لأنَّ إبطالَ إنكارِ وُقوعِه يُفْضي إلى إثباتِ وُقوعِه[١].

- والغالبُ في استعمالِ (كَلَّا) أنْ تُعقَّبَ بكلامٍ يُبيِّنُ ما أجمَلتْه مِن الرَّدعِ والإبطالِ؛ فلذلك عُقِّبتْ هنا بقولِه: ﴿سَيَعۡلَمُونَ﴾، وهو زيادةٌ في إبطالِ كلامِهم بتحقيقِ أنَّهم سيُوقِنونَ بوُقوعِه، ويُعاقَبونَ على إنكارِه، فَهُمَا عِلْمانِ يَحصُلانِ لهم: عِلمٌ بحقِّ وُقوعِ البعثِ، وعِلمٌ في العِقابِ عليه، ولذلك حُذِفَ مَفعولُ ﴿سَيَعۡلَمُونَ﴾؛ لِيَعُمَّ المَعلومَيْنِ؛ فإنَّهم عندَ الموتِ يَرَون ما سَيَصيرون إليه بعدَ الموتِ[٢].

- أو حُذِفَ ما يَتعلَّقُ به العِلمُ على سبيلِ التَّهويلِ، أي: سَيَعلَمونَ ما يَحُلُّ بهم[٣].

- وتَضمَّنَ هذا الإبطالُ وما بعدَه إعلامًا بأنَّ يومَ البعثِ واقعٌ، وتَضمَّنَ وعيدًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١، ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢).

- ومِن مَحاسنِ هذا الأسلوبِ في الوعيدِ أنَّ فيه إيهامًا بأنَّهم سيَعلَمونَ جوابَ سؤالِهم الَّذي أرادوا به الإحالةَ والتَّهكُّمَ، وصَوَّروهُ في صورةِ طلبِ الجوابِ، فهذا الجوابُ مِن بابِ قولِ النَّاسِ: الجوابُ ما تَرى لا ما تَسمَعُ[١].

- قولُه: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ بطَريقِ الاستِئنافِ أنَّهم سوف يَعلَمونَ أنَّ ما يَتساءَلونَ عنه ويَضحكونَ منه حقٌّ، وتَعليلٌ للرَّدعِ. والتَّعبيرُ عمَّا يُلاقونَه مِن فُنونِ الدَّواهِي والعُقوباتِ بالعِلمِ؛ لوُقوعِه في مَعرضِ التَّساؤلِ والاختِلافِ[٢].

- والسِّينُ في قولِه: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ للتَّقريبِ والتأكيدِ؛ أُكِّدَ الكلامُ بحرْفِ الاستِقبالِ الَّذي شأنُه إفادةُ تقريبِ المستقبَلِ[٣].

- قولُه: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ارتقاءٌ في الوعيدِ والتَّهديدِ؛ فإنَّ (ثُمَّ) لَمَّا عطَفَتِ الجملةَ فهي للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ؛ وهو أنَّ مَدلولَ الجملةِ الَّتي بعدَها أَرْقى رُتبةً في الغرضِ مِن مَضمونِ الجملةِ الَّتي قبْلَها، ولَمَّا كانتِ الجملةُ الَّتي بعدَ (ثُمَّ) مِثلَ الجملةِ الَّتي قبْلَ (ثُمَّ)، تَعيَّنَ أنْ يكونَ مضمونُ الجملةِ الَّتي بعدَ (ثُمَّ) أَرْقى درجةً مِن مضمونِ نظيرِها، ومعنى ارتقاءِ الرُّتبةِ أنَّ مضمونَ ما بعدَ (ثُمَّ) أَقْوى مِن مضمونِ الجملةِ الَّتي قبلَ (ثُمَّ)، وهذا المضمونُ هو الوعيدُ، فلمَّا استُفيدَ تحقيقُ وُقوعِ المتوعَّدِ به بما أفادَهُ التَّوكيدُ اللَّفظيُّ -إذ الجملةُ الَّتي بعدَ (ثُمَّ) أكَّدَتِ الجملةَ الَّتي قبْلَها[٤]- تَعيَّنَ انصرافُ معنى ارتقاءِ رتبةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢).

(٤) جملةُ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ توكيدٌ للأُولى ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ مِن حيثُ المعنى، وإن كانتْ ليستْ توكيدًا باعتبارِ اصطلاحِ النَّحْويِّينَ؛ لأنَّه فُصِل بيْنَها وبيْنَ الَّتي قبْلَها بحرفِ العطفِ، والتَّوكيدُ لا يُفصَلُ بيْنَه وبيْنَ مؤكَّدِه بشَيءٍ مِنَ الحروفِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥، ٢٦).

معنى الجملةِ الثَّانيةِ وهو أنَّ المتوعَّدَ به الثَّانيَ أعظَمُ ممَّا يَحسَبونَ(١).

وقيل: كُرِّرَ قولُه: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾؛ لأنَّ الأوَّلَ توعُّدٌ للكُفَّارِ بما يَرَونَه عِندَ النَّزعِ، والثَّاني توعُّدٌ لهم بما يَصيرونَ إليه مِن عذابِ الآخِرةِ، أو الأوَّلَ توعُّدٌ بأهوالِ القيامةِ، والثَّانيَ توعُّدٌ بما بعدَها مِن النَّارِ وحَرِّها، أو الأوَّلَ رَدعٌ عن الاختِلافِ، والثَّانيَ عن الكفرِ(٢).



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٥).

الآيات (٦-١٦)

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿مِهَٰدًا﴾: أي: فِراشًا وبِساطًا، ومَكانًا مُمَهَّدًا مُوَطَّأً، وأصلُ (مهد): يدُلُّ على تَوطئةٍ وتَسهيلٍ للشَّيءِ[(١)].

﴿أَوْتَادًا﴾: جمعُ وَتِدٍ، والوَتِدُ: عُودٌ غَليظٌ، أسفَلُه أدَقُّ مِن أعلاه، يُدَقُّ في الأرضِ؛ لتُشَدَّ به أطنابُ الخيمةِ، وأصلُ (وتد): يدُلُّ على الثَّباتِ والرُّسوخِ[(٢)].

﴿سُبَاتًا﴾: أي: راحةً لأبدانِكم؛ لانقِطاعِكم فيه عن الأعمالِ، وأصلُ (سبت): يدُلُّ على راحةٍ وسُكونٍ[(٣)].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤، ١٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) (٣/ ١٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين (٢/ ١٦٥).

قال الراغب: (أصلُ السَّبْتِ: القطعُ). ((المفردات)) (ص: ٣٩٢).

وقال ابن عاشور: (والسُّباتُ: بضمِّ السِّينِ وتخفيفِ الباءِ اسمُ مصدرٍ بمعنَى السَّبْتِ، أي: =

﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾: أي: شَمسًا وَقَّادةً مُضيئةً، والوَهَجُ: يَجمَعُ النُّورَ والحَرَّ، وأصلُ (سرج): يدُلُّ على الحُسْنِ والزِّينةِ والجَمالِ، ومِنْ ذلك السِّراجُ، سُمِّي بذلك لضِيائِه وحُسْنِه، وأصلُ (وهج): يدُلُّ على حَرٍّ وتوَقُّدٍ[1].

﴿الْمُعْصِرَاتِ﴾: أي: السَّحائِبِ الَّتي تَجيءُ بالمطَرِ، مأخوذٌ مِنَ العَصْرِ؛ لأنَّ السَّحابَ يَنعَصِرُ فيَخرُجُ منه الماءُ، وأصلُ (عصر): يدُلُّ على ضَغطِ شَيءٍ حتَّى يتحَلَّبَ[2].

﴿ثَجَّاجًا﴾: أي: سَيَّالًا مُنصَبًّا بشِدَّةٍ، والثَّجَّاجُ: الكثيرُ المنصَبُّ، وأصلُ (ثجج): يدُلُّ على صَبِّ شَيءٍ[3].

﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾: أي: بَساتينَ مُلْتَفَّةً بالنَّباتِ والشَّجَرِ، والأَلْفافُ: الشَّجَرُ يَلتَفُّ بَعْضُه ببَعضٍ، وأصلُ (جنن): السَّتْرُ والتَّغطيةُ، ومنه سُمِّي البُستانُ جَنَّةً؛

= القطع، أي: جعلْناه لكم قطعًا لعملِ الجسدِ بحيثُ لا بُدَّ للبدنِ منه، وإلى هذا أشار ابنُ الأعرابيِّ وابنُ قُتيبةَ إذْ جَعَلا المعنى: وجَعَلْنا نومَكم راحَةً، فهو تفسيرُ معنًى). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨).

وقيل :كأنَّه إذا نام فقد انقطَع عن النَّاسِ. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٢/ ٢٦٨)، ((ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن)) لغلام ثعلب (ص: ٥٥١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٦) و(٦/ ١٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٦، ٨٨٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٤٠، ٢٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٥).

لأنَّه يستُرُ داخلَه بالأشجارِ، ويُغطِّيه، وأصلُ (لفف): يدُلُّ على تلَوِّي شَيءٍ على شَيءٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا مَظاهِرَ قُدرتِه: أَلَمْ نَجعَلِ الأرضَ مُذَلَّلةً للنَّاسِ مُمَهَّدةً يَستَقِرُّونَ عليها ويَنتَفِعونَ بها؟ وجَعَلْنا الجِبالَ مُثَبِّتةً للأرضِ؛ حتَّى لا تَضطَرِبَ بأهْلِها، وخَلَقْناكم ذُكُورًا وإناثًا؛ لِيَحصُلَ التَّزاوُجُ بَيْنَكم، وجَعَلْنا نَومَكم راحةً لكم مِن تَعَبِ سَعْيِكم وأعمالِكم بالنَّهارِ، وجَعَلْنا اللَّيلَ غِطاءً يُغَطِّيكم بظَلامِه، وجَعَلْنا النَّهارَ وَقْتًا لسَعْيِ النَّاسِ في مَصالِحِهم وأرْزاقِهم، وبَنَيْنا فَوقَكم سَبْعَ سَمَواتٍ في غايةِ القُوَّةِ والصَّلابةِ، وجَعَلْنا شَمسًا مُضيئةً شَديدةَ التَّوَقُّدِ، وأنزَلْنا مِن السَّحابِ ماءَ المطَرِ الغَزيرَ؛ لِنُخرِجَ بهذا المطَرِ أنواعَ الحُبوبِ والنَّباتاتِ، وبَساتينَ أشجارُها كثيرةٌ مُلْتَفٌّ بَعْضُها ببَعْضٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى عنهم إنكارَ البَعثِ والحَشرِ، وأراد إقامةَ الدَّلالةِ على صِحَّةِ الحَشرِ؛ قدَّم لذلك مقدِّمةً في بيانِ كَونِه تعالى قادِرًا على جميعِ المُمكِناتِ، عالِمًا بجميعِ المعلوماتِ؛ وذلك لأنَّه مهما ثَبَت هذان الأصلانِ ثَبَت القَولُ بصِحَّةِ البَعثِ، وإنَّما أثبَت هذَينِ الأصلينِ بأنْ عدَّد أنواعًا مِن مخلوقاتِه الواقعةِ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١) و(٥/ ٢٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٥)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٤).

وَجهِ الإحكامِ والإتقانِ؛ فإنَّ تلك الأشياءَ مِن جِهةِ حُدوثِها تدُلُّ على القُدرةِ، ومِن جهةِ إحكامِها وإتقانِها تدُلُّ على العِلمِ، ومتى ثَبَت هذان الأصلانِ، وثبت أنَّ الأجسامَ مُتساويةٌ في قَبولِ الصِّفاتِ والأعراضِ؛ ثبَتَ -لا مَحالةَ- كَونُه تعالى قادِرًا على تخريبِ الدُّنيا بسَماواتِها وكواكِبِها وأرضِها، وعلى إيجادِ عالَمِ الآخرةِ؛ فهذا هو الإشارةُ إلى كيفيَّةِ النَّظمِ[1].

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦)﴾.

أي: ألَمْ نَجعَلِ الأرضَ فِراشًا للنَّاسِ، مُذَلَّلةً لهم، يَستَقِرُّونَ عليها، ويَنتَفِعونَ بها[2]؟

كما قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧)﴾.

أي: وجَعَلْنا الجِبالَ مُثَبِّتةً للأرضِ، فلا تَضطَرِبُ بأَهْلِها[3].

كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَّر بما في الظَّرْفِ -الَّذي هو فَرْشُهم- مِنَ الدَّلالةِ على تمامِ القُدْرةِ؛ أتْبَعَه التَّذكيرَ بما في المظروفِ، وهو أنفُسُهم؛ لتَجتَمِعَ آياتُ الأنفُسِ والآفاقِ، فيَتبيَّنَ لهم أنَّه الحَقُّ، فقال[1]:

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ٨﴾.

أي: وخَلَقْناكم ذُكُورا وإناثًا؛ لِيَحصُلَ التَّزاوُجُ بَيْنَكم، ويَخرُجَ النَّسْلُ منكم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر ما هو سبَبٌ لبقاءِ النَّوعِ؛ ذكَرَ ما هو سببٌ لحِفظِه مِن إسراعِ الفَسادِ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧، ١٨).

وممَّن ذهب إلى المعنى المذكورِ في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ كثير، والسعدي، وابن عاشور.

يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: خَلَقْناكم أصنافًا مُتقابِلةً، فهم بَيْنَ ذكَرٍ وأُنثى، وصغيرٍ وكبيرٍ، وأسْوَدَ وأحمَرَ، وجميلٍ ودميمٍ... إلى غيرِ ذلك مِمَّا يختَلِفُ النَّاسُ فيه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والبِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٦).

وأيضًا فقد انتَقَلَ مِن الاستِدلالِ بخلْقِ النَّاسِ إلى الاستِدلالِ بأحوالِهم، وخَصَّ منها الحالةَ الَّتي هي أقوى أحوالِهم المعروفةِ شبَهًا بالموتِ الَّذي يَعقُبُه البعثُ، وهي حالةٌ متكرِّرةٌ لا يَخْلُونَ مِن الشُّعورِ بما فيها مِن العِبرةِ؛ لأنَّ تدبيرَ نظامِ النَّومِ وما يَطرَأُ عليه مِن اليقظةِ أشبَهُ حالٍ بحالِ الموتِ وما يعقُبُه مِن البعثِ[1].

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾.

أي: وجَعَلْنا نَومَكم قاطِعًا لحركتِكم، فتَحصُلُ به راحتُكم مِن تَعَبِ سَعْيِكم وأعمالِكم[2].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر النَّومَ أتْبَعَه وَقْتَه الأليقَ به، مُذَكِّرًا بنِعمةِ الظَّرْفِ الزَّمانيِّ بعدَ التَّذكيرِ بالظَّرفِ المكانيِّ، فقال[3]:

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾.

أي: وجَعَلْنا اللَّيلَ غِطاءً يَتغشَّاكم سَوادُه، وتُغَطِّيكم ظُلْمَتُه، كما يُغطِّي الثَّوبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢،٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٧).

البَدَنَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [الفرقان: ٤٧]

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر خَلْقَ نِظامِ اللَّيلِ؛ قُوبِلَ بذِكْرِ خَلْقِ نِظامِ النَّهارِ(٢).

﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾.

أي: وجَعَلْنا النَّهارَ وَقْتًا يَطلُبُ فيه النَّاسُ أرزاقَهم، ويَسعَونَ في مَصالِحِهم(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

ناسَبَ بعدَ ذِكرِ اللَّيلِ والنَّهارِ -وهما مِن مَظاهِرِ الأُفقِ المسمَّى سماءً- أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠، ٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦، ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧).
قال ابن عاشور: (المَعاشُ: يُطلَقُ مصدرَ «عاش» إذا حَيِيَ، فالمَعاشُ: الحياةُ، ويُطلَقُ اسمًا لِما به عَيشُ الإنسانِ مِن طعامٍ وشرابٍ على غيرِ قياسٍ، والمعنيانِ صالحانِ للآيةِ؛ إذ يكونُ المعنى: وجعَلْنا النَّهارَ حياةً لكم، شُبِّهَتِ اليقظةُ فيه بالحياةِ، أو يكونُ المعنى: وجعَلْنا النَّهارَ معيشةً لكم). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢).

يُتْبَعَ ذلك وما سبقَه مِن خلْقِ العالَمِ السُّفليِّ بذِكرِ خلْقِ العوالِمِ العُلويَّةِ(١).

﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ١٢﴾.

أي: وبَنَيْنا فوقَكم سَبْعَ سَمَواتٍ في غايةِ القُوَّةِ والصَّلابةِ والإحكامِ(٢).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨].

﴿وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر السَّقفَ، ذكَرَ بَعضَ ما فيه مِن أمَّهاتِ المنافِعِ(٣).

وأيضًا ذِكرُ السَّمَواتِ يُناسِبُه ذِكرُ أعظَمِ ما يُشاهِدُه النَّاسُ في فَضائِها، وذلك الشَّمسُ؛ ففي ذلك مع العِبرةِ بخَلْقِها عِبرةٌ في كَونِها على تلك الصِّفةِ، ومِنَّةٌ على النَّاسِ باستفادتِهم مِن نُورِها فوائِدَ جَمَّةً(٤).

﴿وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ١٣﴾.

أي: وجَعَلْنا شَمسًا مُضيئةً شَديدةَ التَّوَقُّدِ والإضاءةِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧).

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

مُناسَبةُ الانتِقالِ مِن ذِكرِ السَّمواتِ إلى ذِكرِ السَّحابِ والمطرِ قويَّةٌ[١]. ومِن ذلك أنَّها استِدلالٌ بحالةٍ أُخرى مِن الأحوالِ الَّتي أَودَعَها اللهُ تعالى في نِظامِ الموجوداتِ، وجعَلَها مَنشأً شبيهًا بحياةٍ بعدَ شبيهٍ بموتٍ أو اقترابٍ منه، ومَنشأَ تَخلُّقِ موجوداتٍ مِن ذرَّاتٍ دقيقةٍ، وتلك حالةُ إنزالِ ماءِ المطرِ مِن الأَسْحِبةِ على الأرضِ، فتُنبِتُ الأرضُ به سَنابلَ حَبٍّ وشجرًا وكَلأً، وتلك كلُّها فيها حياةٌ قريبةٌ مِن حياةِ الإنسانِ والحيوانِ، وهي حياةُ النَّماءِ، فيكونُ ذلك دليلًا للنَّاسِ على تصَوُّرِ حالةِ البعثِ بعدَ الموتِ بدليلٍ مِن التَّقريبِ الدَّالِّ على إمكانِه؛ حتَّى تَضمحِلَّ مِن نفوسِ المُكابرينَ شُبَهُ إحالةِ البعثِ[٢].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾.

أي: وأنزَلْنا مِن السَّحابِ المُثْقَلِ بالمياهِ ماءَ المطَرِ المُنصَبَّ على الأرضِ بتَتابُعٍ وكَثْرةٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم: ٤٨].

وقال سُبحانَه: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ [عبس: ٢٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٣، ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦).

﴿لِنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ١٥﴾.

أي: لِنُخرِجَ بهذا المطَرِ أنواعَ الحُبوبِ -كالقَمْحِ، والشَّعيرِ، والذُّرَةِ، والأَرُزِّ- وأنواعَ النَّباتاتِ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨).

ممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿حَبًّا﴾ أي: مِمَّا يأكُلُه النَّاسُ كالقمحِ والشَّعيرِ وما يُقتاتُ، ﴿وَنَبَاتًا﴾ أي: ما يكونُ قُوتًا للأنعامِ والدَّوابِّ كالحشيشِ والعشبِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والقرطبي، والنسفي، وابنُ جُزَي، والخازن، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧).

قال الرازي: (كلُّ شَيءٍ نبت مِن الأرضِ فإمَّا ألَّا يكونَ له ساقٌ وإمَّا أن يكونَ، فإن لم يكُنْ له ساقٌ فإمَّا أن يكونَ له أَكْمامٌ وهو الحَبُّ، وإمَّا ألَّا يكونَ له أكمامٌ وهو الحشيشُ، وهو المرادُ هاهنا بقولِه: ﴿وَنَبَاتًا﴾، وإلى هذَينِ القِسمَينِ الإشارةُ بقولِه تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ [طه: ٥٤]. وأمَّا الَّذي له ساقٌ فهو الشَّجرُ، فإذا اجتمَع منها شَيءٌ كثيرٌ سُمِّيَتْ جَنَّةً، فثبَت بالدَّليلِ العقليِّ انحِصارُ ما يَنبُتُ في الأرضِ في هذه الأقسامِ الثَّلاثةِ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١).

وقال الزَّجَّاجُ: (كلُّ ما حُصِد فهو حَبٌّ، وكلُّ ما أكَلَتْه الماشيةُ مِن الكَلأِ فهو نَباتٌ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٧٢).

وقال البِقاعي: (﴿وَنَبَاتًا﴾ يتفكَّهون ويتنزَّهون فيه، وتعتَلِفُه البهائِمُ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٩٩).

وقال الرَّسْعَني: (﴿وَنَبَاتًا﴾ يأكُلُه النَّاسُ والأنعامُ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٤٧).

وقال ابن كثير: (﴿حَبًّا﴾ يُدَّخَرُ للأَناسيِّ والأنعامِ، ﴿وَنَبَاتًا﴾ أي: خَضِرًا يُؤكَلُ رَطبًا). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٤).

وقال أبو حيَّان: (ثَنَّى بالنَّباتِ، فشَمِلَ كُلَّ مَا يَنْبُتُ مِن شَجَرٍ وحَشِيشٍ، ودَخَل فيه الحَبُّ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٥).

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٧ - ٣٢].

﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)﴾.

أي: ونُخرِجَ بالمطَرِ بَساتينَ وحدائِقَ أشجارُها كثيرةٌ مُجتَمِعةٌ، مُلْتَفٌّ بَعْضُها ببَعْضٍ؛ لكَثْرتِها، وتَقارُبِها، وتداخُلِ أغصانِها(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ...﴾ قرَّرَهم تعالى على النَّظَرِ في آياتِه الباهِرةِ، وغرائِبِ مخلوقاتِه التي ابتَدَعها من العَدَمِ الصِّرْفِ، وأنَّ النَّظَرَ في ذلك يُفْضي إلى الإيمانِ بما جاءت به الرُّسُلُ مِنَ البَعْثِ والجزاءِ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ استِدلالٌ يَتضمَّنُ امتِنانًا، وفي ذلك الامتِنانِ إشعارٌ بحِكمةِ اللهِ تعالَى؛ إذ جعَلَ الأرضَ مُلائمةً للمخلوقاتِ الَّتي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٤، ١٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨).
قال ابنُ جرير: (أهلُ التَّأويلِ مُجمِعونَ على أنَّ معناه: مُلْتَفَّةٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨).
وقال ابنُ كثير: (﴿وَجَنَّاتٍ﴾ أي: بَساتينَ وحدائقَ مِن ثمراتٍ مُتنَوِّعةٍ، وألوانٍ مُختَلِفةٍ، وطُعومٍ ورَوائِحَ مُتفاوِتةٍ، وإنْ كان ذلك في بقعةٍ واحدةٍ مِنَ الأرضِ مُجتَمِعًا). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٤).

عليها؛ فإنَّ الَّذي صنعَ هذا الصُّنعَ لا يُعجِزُه أنْ يخلُقَ الأجسامَ مرَّةً ثانيةً بعدَ بِلاها، والغرضُ مِنَ الامتنانِ هنا تذكيرُهم بفضلِ اللهِ؛ لعلَّهم أنْ يَرْعَوُوا عن المكابَرةِ، ويُقبِلوا على النَّظرِ فيما يَدْعوهم إليه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تبليغًا عن اللهِ تعالى[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ الأزواجُ: جمْعُ زَوج، وهو اسمٌ للعددِ الَّذي يُكرِّرُ الواحدَ تكريرةً واحدةً، وقد وُصِف به كما يُوصَفُ بأسماءِ العَددِ؛ فقولُه: ﴿أَزْوَاجًا﴾ أفادَ أنْ يكونَ الذَّكرُ زَوجًا للأُنثى والعكسُ، فالذَّكرُ زَوجٌ لأُنثاهُ، والأُنثى زوجٌ لِذَكَرِها[2].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾، أُعقِبَ الاستِدلالُ بخلْقِ الأرضِ وجبالِها بالاستِدلالِ بخلقِ النَّاسِ؛ للجَمعِ بيْنَ إثباتِ التَّفرُّدِ بالخلْقِ وبيْنَ الدَّلالةِ على إمكانِ إعادتِهم، والدَّليلُ في خلقِ النَّاسِ على الإبداعِ العظيمِ -الَّذي الخلْقُ الثَّاني مِن نوعِه- أمكَنُ في نُفوسِ المستدَلِّ عليهم، قال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[3] [الذاريات: ٢١].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: ذُكُورًا وإناثًا مِن جِنسٍ واحِدٍ؛ لِيَسكُنَ كُلٌّ منهما إلى الآخَرِ، فتَكونَ المودَّةُ والرَّحمةُ، وتَنشَأَ عنهما الذُّرِّيَّةُ[4].

٥- في قولِه: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ إيماءٌ إلى ما في ذلك الخلْقِ مِن حِكمةِ إيجادِ قوَّةِ التَّناسُلِ مِن اقترانِ الذَّكرِ بالأُنثى، وهو مَناطُ الإيماءِ إلى الاستِدلالِ على إمكانِ إعادةِ الأجسادِ؛ فإنَّ القادرَ على إيجادِ هذا التَّكوينِ العجيبِ ابتِداءً بقوَّةِ التَّناسُلِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦).

قادرٌ على إيجادِ مِثلِه بمِثلِ تلك الدِّقَّة أو أدَقَّ[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ ذِكْرُ الجَعْلِ القَدَرِيِّ، ويُقابِلُه الجَعْلُ الشَّرْعيُّ، كقَولِه تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، وقَولِه: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾[2] [المائدة: ١٠٣].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ فيه امتِنانٌ على النَّاسِ بخلْقِ نظامِ النَّومِ فيهم؛ لتحصُلَ لهم راحةٌ مِن أتعابِ العملِ الَّذي يَكْدَحونَ له في نَهارِهم؛ فاللهُ تعالى جعَلَ النَّومَ حاصلًا للإنسانِ بدونِ اختيارِه، فالنَّومُ يُلجِئُ الإنسانَ إلى قطعِ العملِ؛ لتحصُلَ راحةٌ لمجموعِه العصبيِّ الَّذي رُكنُه في الدِّماغِ، فبتِلك الرَّاحةِ يَستجِدُّ العصبُ قُواهُ الَّتي أَوهَنَها عمَلُ الحَواسِّ وحرَكاتُ الأعضاءِ وأعمالُها، بحيثُ لو تَعلَّقَتْ رغبةُ أحدٍ بالسَّهرِ لا بدَّ له مِن أنْ يَغلِبَه النَّومُ، وذلك لُطفٌ بالإنسانِ؛ بحيثُ يحصُلُ له ما به مَنفعةُ مَدارِكِه قَسْرًا عليه لئلَّا يَتهاوَنَ به؛ ولذلك قيل: إنَّ أقَلَّ النَّاسِ نَومًا أقصَرُهم عُمرًا، وكذلك الحيوانُ[3].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ مِن إتمامِ الاستدلالِ الَّذي قبْلَه وما فيه مِن المِنَّةِ؛ لأنَّ كونَ اللَّيلِ لِباسًا حالةٌ مهيِّئةٌ لتكيُّفِ النَّومِ، ومُعِينةٌ على هنائِه والانتفاعِ به؛ لأنَّ اللَّيلَ ظُلمةٌ عارِضةٌ في الجوِّ مِن مُزايَلةِ ضوءِ الشَّمسِ عن جزءٍ مِن كُرةِ الأرضِ، وبتلك الظُّلمةِ تَحتجِبُ المرئيَّاتُ عن الأبصارِ، فيَعسُرُ المشيُ والعملُ والشُّغلُ، ويَنحَطُّ النَّشاطُ، فتَتهيَّأُ الأعصابُ للخمولِ، ثمَّ يَغْشاها النَّومُ، فيَحصُلُ السُّباتُ بهذه المقدِّماتِ العجيبةِ، فلا جَرَمَ كان نظامُ اللَّيلِ آيةً على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩).

انفرادِ اللهِ تعالى بالخلْقِ وبديعِ تقديرِه، وكان دليلًا على أنَّ إعادةَ الأجسامِ بعدَ الفناءِ غيرُ متعذِّرةٍ عليه تعالى، فلو تَأمَّلَ المُنكِرون فيها؛ لَعَلِموا أنَّ اللهَ قادرٌ على البعثِ، فَلَمَا كذَّبوا خبَرَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم به. وفي ذلك امتنانٌ عليهم بهذا النِّظامِ الَّذي فيه اللُّطفُ بهم، وراحةُ حياتِهم، لو قدَروهُ حقَّ قَدْرِه لَشكَروا وما أَشرَكوا، فكان تذكُّرُ حالةِ اللَّيلِ سريعَ الخُطورِ بالأذهانِ عِندَ ذِكرِ حالةِ النَّومِ، فكان ذِكرُ النَّومِ مُناسَبةً للانتِقالِ إلى الاستِدلالِ بحالةِ اللَّيلِ على حسَبِ أفهامِ السَّامِعينَ(١).

٩- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ النَّهارُ: الزَّمانُ الَّذي يكونُ فيه ضَوءُ الشَّمسِ منتشرًا على جزءٍ كبيرٍ مِن الكُرةِ الأرضيَّةِ، وفيه عِبرةٌ بدِقَّةِ الصُّنعِ وإحكامِه؛ إذ جُعِل نِظامانِ مختَلِفانِ مَنشؤُهما سُطوعُ نورِ الشَّمسِ واحتِجابُه فوقَ الأرضِ، وهما نِعمتانِ للبَشرِ مختلِفتانِ في الأسبابِ والآثارِ؛ فنِعمةُ اللَّيلِ راجعةٌ إلى الرَّاحةِ والهدوءِ، ونعمةُ النَّهارِ راجعةٌ إلى العملِ والسَّعيِ؛ لأنَّ النَّهارَ يَعقُبُ اللَّيلَ، فيكونُ الإنسانُ قد استجَدَّ راحتَه، واستعادَ نشاطَه، ويَتمكَّنُ مِن مختلِفِ الأعمالِ؛ بسببِ إبصارِ الشُّخوصِ والطُّرقِ(٢).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ أنَّه سُبحانَه سمَّى الشَّمْسَ سِراجًا وضِياءً؛ لأنَّ فيها مع الإنارةِ والإشراقِ تَسخينًا وإحراقًا، فهي بالنَّارِ أشبَهُ، بخلافِ القَمرِ؛ فإنَّه ليس فيه مع الإنارةِ تَسخينًا؛ فلهذا قال: ﴿جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾(٣) [يونس: ٥].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا *

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩، ٢٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢١).
(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٣٦٨).

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ أنَّه لَمَّا ذَكَرَ سُبحانَه السِّرَاجَ الوَهَّاجَ -الَّذي به الحرارةُ واليُبُوسةُ- ذَكَرَ ما يُقابِلُ ذلك، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ والماءُ فيه رطوبةٌ وفيه بُرودةٌ، وهذا الماءُ أيضًا تَنْبُتُ به الأرضُ وتحيا به، فإذا انضاف ماءُ السَّماءِ إلى حرارةِ الشَّمسِ حَصَلَ في هذا إنضاجٌ للثِّمارِ، ونموٌّ لها على أكمَلِ ما يكونُ[1].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا * لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ أنَّه سُبحانَه يَخْلُقُ الأسبابَ والحِكَمَ[2].

١٣- قال تعالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا * لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ في الآيةِ استِدْلالانِ: استِدلالٌ بإنزالِ الماءِ مِن السَّحابِ، واستدلالٌ بالإنباتِ، وفي هذا أيضًا مِنَّةٌ على المُعرِضينَ عن النَّظرِ في دلائلِ صُنعِ اللهِ، الَّتي هي دَواعٍ لشُكرِ المُنعِمِ بها؛ لِما فيها مِن مَنافعَ للنَّاسِ مِن رِزقِهم ورزقِ أنعامِهم، ومِن تَنعُّمِهم وجَمالِ مَرائيهم؛ فإنَّهم لو شكَروا المُنعِمَ بها لَكانوا عِندَما يَبلُغُهم عنه أنَّه يَدْعوهم إلى النَّظرِ في الأدِلَّةِ مُستعدِّينَ للنَّظرِ، بتوقُّعِ أنْ تكونَ الدَّعوةُ البالغةُ إليهم صادقةَ العزوِ إلى اللهِ، فما خَفِيَتْ عنهم الدَّلالةُ[3].

١٤- قولُه تعالى: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ بُيِّنَتْ حِكمةُ إنزالِ المطرِ مِن السَّحابِ بأنَّ اللهَ جعَلَه لإنباتِ النَّباتِ مِن الأرضِ؛ جمعًا بيْنَ الامتِنانِ والإيماءِ إلى دليلِ تقريبِ البعثِ؛ لِيحصُلَ إقرارُهم بالبعثِ، وشُكرُ الصَّانعِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨).

(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾

- لَمَّا كان أعظَمُ نَبأٍ جاءهُم به القرآنُ إبطالَ إلهيَّةِ أصنامِهم، وإثباتَ إعادةِ خلْقِ أجسامِهم -وهما الأصلانِ اللَّذانِ أثارَا تَكذيبَهم بأنَّه مِن عندِ اللهِ، وتَألُّبَهم على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَرويجَهم تَكذيبَه؛ جاء هذا الاستِئنافُ بَيانًا لإجمالِ قولِه: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾[1] [النبأ: ٢، ٣].

- قولُه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾، بدَأَ بما هم دائمًا يُباشِرونَه[2].

- جمَعَ اللهُ لهم في هذه الآياتِ الاستدلالَ على الوحدانيَّةِ بالانفرادِ بالخلْقِ، وعلى إمكانِ إعادةِ الأجسادِ للبَعثِ بعدَ البلى بأنَّها لا تَبلُغُ مَبلَغَ إيجادِ المخلوقاتِ العظيمةِ، ولكونِ الجُملةِ في مَوقعِ الدَّليلِ لم تُعطَفْ على ما قبْلَها[3].

- والاستِفهامُ في ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾ تَقريريٌّ، وهو تقريرٌ على النَّفيِ، كما هو غالبُ صِيَغِ الاستفهامِ التَّقريريِّ؛ أنْ يكونَ بعدَه نفيٌ، والأكثرُ كونُه بحرفِ (لم)، وذلك النَّفيُ كالإعذارِ للمُقرَّرِ إنْ كان يُريدُ أنْ يُنكِرَ، وإنَّما المقصودُ التَّقريرُ بوُقوعِ جعلِ الأرضِ مِهادًا، لا بنفْيِه، فحرفُ النَّفيِ لمجرَّدِ تأكيدِ معنى التَّقريرِ، فالمعْنى: أَجَعَلْنا الأرضَ مهادًا[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢، ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥١).

- قولُه: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾ فيه الالْتِفاتُ إلى الخِطابِ؛ للمُبالَغةِ في الإلزامِ والتَّبكيتِ، والكلامُ موجَّهٌ إلى مُنكِري البعثِ، وهم الموجَّهُ إليهم الاستفهامُ[1].

- وجعْلُ الأرضِ: خلْقُها على تلك الحالةِ؛ لأنَّ كَونَها مِهادًا أمرٌ حاصلٌ فيها مِن ابتداءِ خلْقِها ومِن أزمانِ حُصولِ ذلك لها مِن قبلِ خلْقِ الإنسانِ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، والمعنى: أنَّه خلَقَها في حالِ أنَّها كالمِهادِ؛ فالكلامُ تشبيهٌ بليغٌ، ففي قوله: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾ تشبيهٌ للأرضِ بالمِهادِ؛ إذ جُعِل سطحُها ميسَّرًا للجلوسِ عليها والاضطجاعِ، وبالأَحْرى المشيُ، وذلك دليلٌ على إبداعِ الخلقِ، والتَّيسيرِ على النَّاسِ[2].

- والتَّعبيرُ بـ﴿نَجۡعَلِ﴾ دونَ (نخلُق)؛ لأنَّ كَونَها مِهادًا حالةٌ مِن أحوالِها عِندَ خلْقِها أو بعدَه، بخلافِ فعلِ الخَلْقِ؛ فإنَّه يَتعدَّى إلى الذَّاتِ غالبًا، أو إلى الوصفِ المقوِّمِ للذَّاتِ[3].

- ومناسَبةُ ابتداءِ الاستِدلالِ على إمكانِ البَعثِ بخلْقِ الأرضِ: أنَّ البعثَ هو إخراجُ أهلِ الحشرِ مِن الأرضِ؛ فكانت الأرضُ أسبَقَ شَيءٍ إلى ذهنِ السَّامعِ عِندَ الخَوضِ في أمرِ البعثِ، أي: بعثِ أهلِ القبورِ، وجعلُ الأرضِ مِهادًا يَتضمَّنُ الاستدلالَ بأصلِ خلْقِ الأرضِ على طريقةِ الإيجازِ؛ ولذلك لم يُتعرَّضْ إليه بعدُ عِندَ التَّعرُّضِ لخلقِ السَّمواتِ[4].

- قولُه: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾ الإخبارُ عن الجِبالِ بأنَّها أَوتادٌ على طريقةِ التَّشبيهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣، ١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

البليغ؛ أيْ: كالأوتادِ. ومُناسَبةُ ذِكرِ الجِبالِ دعا إليها ذِكرُ الأرضِ وتَشبيهُها بالمِهادِ الَّذي يكونُ داخلَ البيتِ، فلمَّا كان البيتُ مِن شأنِه أنْ يخطُرَ ببالِ السَّامعِ مِن ذِكرِ المِهادِ، كانتِ الأرضُ مُشبَّهةً بالبيتِ، فشُبِّهتْ جبالُ الأرضِ بأَوتادِ البيتِ. وأيضًا فإنَّ كثرةَ الجِبالِ النَّاتئةِ على وجهِ الأرضِ قد يخطِرُ في الأذهانِ أنَّها لا تُناسِبُ جعْلَ الأرضِ مِهادًا؛ فكان تشبيهُ الجبالِ بالأَوتادِ مُستملَحًا بمنزلةِ حُسنِ الاعتذارِ، فيجوزُ أنْ تكونَ الجبالُ مُشبَّهةً بالأَوتادِ في مجرَّدِ الصُّورةِ، ويَجوزُ أنْ تكونَ الجِبالُ مُشبَّهةً بأوتادِ الخَيمةِ في أنَّها تشُدُّ الخَيمةَ مِن أنْ تَقلعَها الرِّياحُ أو تُزلزلَها[(١)].

- وغالِبُ سُكَّانِ الأرضِ -وخاصَّةً العربَ- لهم مَنافعُ جَمَّةٌ في الجِبالِ؛ فمنها مَسايِلُ الأَوديةِ، وقراراتُ المياهِ في سُفوحِها، ومَراعي الأنعامِ، ومُستعصَمُهم في الخوفِ، ومَراقبُ الطُّرقِ المُؤدِّيةِ إلى دِيارِهم إذا طَرَقَها العدُوُّ؛ ولذلك كثُرَ ذِكرُ الجِبالِ مع ذِكرِ الأرضِ؛ فكانتْ جملةُ ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ إدماجًا[(٢)] مُعترِضًا بينَ جملةِ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾ [النَّبأ: ٦] ﴿وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾[(٣)] [النَّبأ: ٨].

- وقولُه: ﴿وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ معطوفٌ على التَّقريرِ الَّذي في قولِه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾ [النَّبأ: ٦]، والتَّقديرُ: وأَخلَقْناكُم أزواجًا؟ فكان التَّقريرُ هنا على أصلِه؛ إذ المُقرَّرُ عليه هو وُقوعُ الخلْقِ؛ فلذلك لم يقلْ: (ألم نَخلُقْكم أزواجًا؟). والمعطوفُ عليه ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾ وإنْ كان فِعلًا مضارعًا، فدخولُ (لَمْ) عليه صيَّرَه في معنى الماضي؛ لِما هو مقرَّرٌ مِن أنَّ (لم) تَقلِبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤، ١٥).

(٢) يُنظر تعريفُ الإدماجِ (ص: ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥).

معنى المضارعِ إلى المُضيِّ؛ فلذلك حسُنَ عطفُ ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ۞ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾ [النَّبأ: ٦، ٧]، والكلُّ تقريرٌ على شَيءٍ مَضَى. وإنَّما عُدِلَ في ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ عن أنْ يكونَ الفعلُ فِعلًا مضارعًا مِثلَ المعطوفِ هو عليه؛ لأنَّ صِيغةَ المضارعِ تُستعمَلُ لقَصدِ استحضارِ الصُّورةِ للفعلِ؛ فالإتيانُ بالمضارعِ في ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾ [النَّبأ: ٦] يُفيدُ استدعاءَ إعمالِ النَّظرِ في خلقِ الأرضِ والجبالِ؛ إذ هي مَرئيَّاتٌ لهم، والأكثرُ أنْ يَغفُلَ النَّاظِرونَ عن التَّأمُّلِ في دقائقِها؛ لتَعوُّدِهم بمُشاهَدتِها من قبْلِ سِنِّ التَّفكُّرِ؛ فإنَّ الأرضَ تحتَ أقدامِهم لا يَكادونَ يَنظُرونَ فيها، بَلْهَ أنْ يَتفكَّروا في صُنعِها، والجبالَ يَشغَلُهم عن التَّفكُّرِ في صُنعِها شُغلُهم بتجشُّمِ صُعودِها، والسَّيرِ في وَعْرِها، وحراسةِ سوائمِهم مِن أنْ تَضِلَّ في شِعابِها، وصَرفِ النَّظرِ إلى مسالكِ العدوِّ عِندَ الاعتلاءِ إلى مَراقِبِها، فأُوثِرَ الفعلُ المضارعُ مع ذِكرِ المصنوعاتِ الحَريَّةِ بدقَّةِ التَّأمُّلِ واستِخلاصِ الاستدلالِ؛ ليكونَ إقرارُهم ممَّا قُرِّروا به على بصيرةٍ، فلا يَجِدوا إلى الإنكارِ سبيلًا، وجيءَ بفعلِ المُضيِّ هنا وما بعدَه؛ لأنَّ مفاعيلَ فِعلِ (خلَقْنا) وما عُطِف عليه ليستْ مُشاهَدةً لهم، وذُكِرَ لهم مِن المصنوعاتِ ما هو شديدُ الاتِّصالِ بالنَّاسِ من الأشياءِ الَّتي تَتوارَدُ أحوالُها على مُدرَكاتِهم دوامًا، فإقرارُهم بها أيسَرُ؛ لأنَّ دَلالتَها قريبةٌ مِن البديهيِّ[(١)].

- وعُبِّر هنا بفِعلِ (الخلْقِ) دونَ (الجَعْلِ)؛ لأنَّه تكوينُ ذواتِهم، فهو أدَقُّ مِن الجَعلِ[(٢)].

- وضميرُ الخِطابِ في قولِه: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ للمُشرِكينَ الَّذين وُجِّهَ إليهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥، ١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٦).

التَّقريرُ بقولِه: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾ [النَّبأ: ٦]، وهو الْتفاتٌ مِن طريقِ الغَيبةِ إلى طريقِ الخِطابِ[١].

- وانتصَبَ ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ على الحالِ مِن ضَميرِ الخِطابِ في (خَلَقْنَاكُمْ)؛ لأنَّ المقصودَ الاستدلالُ بخلقِ النَّاسِ وبكونِ النَّاسِ أزواجًا، فلمَّا كان المناسبُ لفعلِ (خلَقْنا) أنْ يَتعدَّى إلى الذَّواتِ؛ جيءَ بمفعولِه ضميرَ ذواتِ النَّاسِ، ولَمَّا كان المناسِبُ لكونِهم أزواجًا أنْ يُساقَ مَساقَ إيجادِ الأحوالِ، جيءَ به حالًا مِن ضَميرِ الخِطابِ في (خَلَقْناكُمْ)، ولو صُرِّح له بفعلٍ لَقيل: (وخلَقْناكم وجعَلْناكم أزواجًا)، على نحوِ ما تَقدَّمَ في قولِه: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾ [النَّبأ: ٦]، وما يأتي مِن قولِه: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا﴾[٢] [النَّبأ: ٩].

- وفي قولِه: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ استِدلالٌ على عَظيمِ قُدرةِ اللهِ وحِكمتِه، وامتنانٌ على النَّاسِ بأنَّه خلَقَهم، وأنَّه خلَقَهم بحالةٍ تَجعَلُ لكلِّ واحدٍ مِن الصِّنفينِ ما يصلُحُ لأنْ يكونَ له زوجًا؛ لِيحصُلَ التَّعاونُ والتَّشارُكُ في الأُنسِ والتَّنعُّمِ؛ ولذلك صِيغَ هذا التَّقريرُ بتعليقِ فعلِ (خلَقْنا) بضميرِ النَّاسِ، وجعلِ ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ حالًا منه؛ لِيحصُلَ بذلك الاعتبارُ بكِلا الأمْرينِ، دونَ أنْ يُقالَ: (وخلَقْنا لكم أزواجًا). وفي ذلك حَمْلٌ لهم على الشُّكرِ بالإقبالِ على النَّظرِ فيما بُلِّغَ إليهم عن اللهِ الَّذي أسعَفَهم بهذه النِّعمِ على لِسانِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتعريضٌ بأنَّ إعراضَهم عن قَبولِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ ومُكابَرتَهم فيما بلَغَهم مِن ذلك كُفرانٌ لِنعمةِ واهبِ النِّعمِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧، ١٨).

- وأُوثِرَ فِعلُ (جعَلْنا) هنا؛ لأنَّ النَّومَ كيفيَّةٌ يُناسِبُها فِعلُ الجَعْلِ لا فِعلُ الخلْقِ المناسِبُ للذَّواتِ، فإضافةُ (نوم) إلى ضميرِ المخاطَبينَ ليستْ للتَّقييدِ لإخراجِ نَومِ غيرِ الإنسانِ؛ فإنَّ نومَ الحيوانِ كلِّه سُباتٌ، ولكنَّ الإضافةَ لزيادةِ التَّنبيهِ للاستدلالِ، أي: إنَّ دليلَ البعثِ قائمٌ بَيِّنٌ في النَّومِ الَّذي هو مِن أحوالِكم، وأيضًا لأنَّ في وصفِه بسُباتٍ امتنانًا، والامتنانُ خاصٌّ بهم؛ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾[1] [يونس: ٦٧].

- إنَّما أُوثِرَ لفظُ (سُباتٍ)؛ لِما فيه مِن الإشعارِ بالقطعِ عن العملِ؛ لِيُقابِلَه قولُه بعدَه: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾[2] [النَّبأ: ١١].

- قولُه: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾، أي: يَستُرُكم بظَلامِه كما يستُرُكم اللِّباسُ، ولعلَّ المرادَ به -أي: باللِّباسِ- ما يُستتَرُ به عندَ النَّومِ مِن اللِّحافِ ونحوِه؛ فإنَّ شبَهَ اللَّيلِ به أكمَلُ، واعتبارَه في تحقيقِ المقصدِ أدْخَلُ، فهو جعَلَ اللَّيلَ محلًّا للنَّومِ الَّذي جُعِلَ مَوتًا، كما جعَلَ النَّهارَ محلًّا لليقظةِ المعبَّرِ عنها بالحياةِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾[3]. وقيل: المَعْنيُّ مِن جعْلِ اللَّيلِ لِباسًا يَحومُ حولَ وصفِ حالةٍ خاصَّةٍ باللَّيلِ عُبِّر عنها باللِّباسِ؛ فيجوزُ أنْ يكونَ اللِّباسُ محمولًا على معنى الاسمِ، وهو المشهورُ في إطلاقِه، أي: ما يَلبَسُه الإنسانُ مِن الثِّيابِ، فيكونُ وصفُ اللَّيلِ به على تَقديرِ كافِ التَّشبيهِ على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، أي: جعَلْنا اللَّيلَ للإنسانِ كاللِّباسِ له، فيجوزُ أنْ يكونَ وجهُ الشَّبَهِ هو التَّغشيةَ، وتحتَه ثلاثةُ مَعانٍ؛ أحدُها: أنَّ اللَّيلَ ساترٌ للإنسانِ كما يَستُرُه اللِّباسُ، فالإنسانُ في اللَّيلِ يَختلي بشؤونِه الَّتي لا يَرتكِبُها في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٨، ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٦).

النَّهارِ؛ لأنَّه لا يُحِبُّ أنْ تراها الأبصارُ، وفي ذلك تعريضٌ بإبطالِ أصلٍ مِن أصولِ الدَّهريِّينَ أنَّ اللَّيلَ رَبُّ الظُّلمةِ، وهو مُعتقَدُ المَجوسِ، وهم الَّذين يَعتقِدون أنَّ المخلوقاتِ كلَّها مَصنوعةٌ مِن أصلينِ -أي: إلَهينِ-: إلهِ النُّورِ، وهو صانعُ الخيرِ، وإلهِ الظُّلمةِ، وهو صانعُ الشَّرِّ. والمعنى الثَّاني مِن معنيَيْ وجهِ الشَّبهِ باللِّباسِ: أنَّه المشابَهةُ في الرِّفقِ باللَّابسِ والملاءمةِ لراحتِه، فلمَّا كان اللَّيلُ راحةً للإنسانِ، وكان مُحيطًا بجميعِ حَواسِّه وأعصابِه؛ شُبِّه باللِّباسِ في ذلك. والمعنى الثَّالثُ: أنَّ وجهَ شَبهِه باللِّباسِ هو الوقايةُ؛ فاللَّيلُ يَقي الإنسانَ مِن الأخطارِ والاعتداءِ عليه، فكان العربُ لا يُغيرُ بعضُهم على بعضٍ في اللَّيلِ؛ وإنَّما تقعُ الغارةُ صباحًا؛ ولذلك إذا غِيرَ عليهم يصرُخُ الرَّجُلُ بقومِه بقولِه: يا صَباحاهْ! ويُقالُ: صبَّحَهم العدوُّ، وكانوا إذا أقاموا حرَسًا على الرُّبى -ليراقِبَ ما عَسى أنْ يَطرُقَهم مِن الأعداءِ- يُقيمونَه نَهارًا، فإذا أظلَمَ اللَّيلُ نزَلَ الحرَسُ[1].

- ولَمَّا كان مُعظَمُ العملِ في النَّهارِ مِن أجْلِ المَعاشِ، أُخبِر عن النَّهارِ بأنَّه مَعاشٌ، وقد أشعَرَ ذِكرُ النَّهارِ بعدَ ذِكرِ كلٍّ مِن النَّومِ واللَّيلِ بملاحظةِ أنَّ النَّهارَ ابتداءُ وقتِ اليقظةِ الَّتي هي ضدُّ النَّومِ، فصارتْ مقابَلتُهما بالنَّهارِ في تقديرِ: وجعَلْنا النَّهارَ واليقظةَ فيه معاشًا، ففي الكلامِ اكتِفاءٌ[2] دلَّتْ عليه المقابَلةُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠، ٢١).

(٢) الاكتفاءُ: هو أنْ يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ ﴾ إيجازٌ بالحذفِ على سبيلِ الاكتِفاءِ، إذِ التَّقْديرُ: تَقيكُمُ الحَرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (١/ ٢٨٢)، =

وبذلك حصَلَ بيْنَ الجُمَلِ الثَّلاثِ مُطابَقتانِ مِن المحسِّناتِ البديعيَّةِ لفظًا وضِمْنًا[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا﴾

- التَّعبيرُ عن خلْقِ السَّماءِ بالبناءِ مَبنيٌّ على تَنزيلِها مَنزِلةَ القِبابِ المضروبةِ على الخَلقِ؛ فعُبِّرَ بالفِعلِ (بنَيْنا) في هذه الآيةِ لمعنى: خلَقْنا ما هو عالٍ فوقَ النَّاسِ؛ لأنَّ تكوينَه عاليًا يُشبِهُ البناءَ؛ ولذلك كان قولُه: ﴿فَوْقَكُمْ﴾ إيماءً إلى وَجهِ الشَّبَهِ في إطلاقِ فِعلِ (بنَيْنا)، مع ما فيه مِن تنبيهِ النُّفوسِ للاعتبارِ والنَّظرِ في تلك السَّبْعِ الشِّدادِ[٢].

- وقيل: البناءُ يكونُ أبعَدَ مِن الآفةِ والانحلالِ مِن السَّقفِ، فذَكَر قولَه: ﴿وَبَنَيْنَا﴾؛ إشارةً إلى أنَّه وإن كان سَقفًا لكِنَّه في البُعدِ عن الانحلالِ كالبناءِ؛ فالغَرَضُ مِن اختيارِ هذا اللَّفظِ هذه الدَّقيقةُ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ تقديمُ الظَّرفِ على المفعولِ ليسَ لِمُراعاةِ الفواصلِ فقط، بل للتَّشويقِ إليه؛ فإنَّ ما حقُّه التَّقديمُ إذا أُخِّرَ تَبْقى النَّفْسُ مترقِّبةً له، فإذا ورَدَ عليها تمكَّنَ عندَها فضلَ تمكُّنٍ[٤].

- والمرادُ بالسَّبْعِ الشِّدادِ: السَّمواتُ، فهو مِن ذِكرِ الصِّفةِ وحذفِ الموصوفِ للعِلمِ به؛ كقولِه تعالى: ﴿حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]؛ ولذلك جاء الوصفُ

= ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٧).

باسمِ العددِ المؤنَّثِ؛ إذ التَّقديرُ: سبعُ سمواتٍ[(١)].

- والسِّراجُ: المِصباحُ الَّذي يُستضاءُ به، والكلامُ على التَّشبيهِ البليغِ، والغرضُ مِن التَّشبيهِ تقريبُ صِفةِ المُشبَّهِ إلى الأذهانِ، وزِيدَ ذلك التَّقريبُ بوصفِ السِّراجِ بالوهَّاجِ، أي: الشَّديدِ السَّنا (الضَّوءِ). وأُوثِرَ فعلُ (جعَلْنا) دونَ (خلَقْنا)؛ لأنَّ كونَها سِراجًا وهَّاجًا حالةٌ مِن أحوالِها، وإنَّما يُعلَّقُ فعلُ الخلْقِ بالذَّواتِ[(٢)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۞ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۞ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾

- الثَّجَّاجُ: المُنصَبُّ بقوَّةٍ، ووَصْفُ الماءِ هنا بالثَّجَّاجِ للامتِنانِ[(٣)].

- وجيءَ هنا بفعلِ ﴿لِّنُخْرِجَ﴾ دونَ نحوِ (لِنُنبِتَ)؛ لأنَّ المقصودَ الإيماءُ إلى تصويرِ كيفيَّةِ بعْثِ النَّاسِ مِن الأرضِ؛ إذ ذلك المقصدُ الأوَّلُ مِن هذا الكلامِ؛ فإنَّه لَمَّا كان المَقصدُ الأوَّلُ مِن آيةِ سُورةِ (ق) هو الامتِنانَ، جِيءَ بفعلِ (أنْبَتْنا) في قولِه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾ [ق: ٩] الآيةَ، ثمَّ أُتبِعَ ثانيًا بالاستِدلالِ به على البَعثِ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]، والبعثُ خُروجٌ مِن الأرضِ؛ قال تعالَى: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ في سُورةِ (طه) [الآية: ٥٥][(٤)].

- قولُه: ﴿حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ بدأَ بالحَبِّ؛ لأنَّه الَّذي يُتقوَّتُ به، كالحِنطةِ والشَّعيرِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢، ٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٦، ٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٥).

وقيل: تقديمُ الحَبِّ مع تأخُّرِه عن النَّباتِ في الإخراجِ؛ لأصالتِه وشرَفِه؛ لأنَّ غالبَه غذاءُ الإنسانِ(١).

- قَولُه: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا﴾ أخَّر الجنَّاتِ في الذِّكرِ؛ لأنَّ الحاجةَ إلى الفَواكِهِ ليست ضَروريَّةً(٢).

- ووجْهُ إيثارِ لفظِ (جنَّاتٍ) أنَّ فيه إيماءً إلى إتمامِ المِنَّةِ؛ لأنَّهم كانوا يُحِبُّونَ الجنَّاتِ والحدائقَ؛ لِما فيها مِن التَّنعُّمِ بالظِّلالِ والثِّمارِ والمياهِ وجمالِ المَنظرِ؛ ولذلك أُتْبِعَتْ بوصفِ ﴿أَلۡفَافًا﴾؛ لأنَّه يَزيدُها حُسنًا، ومَساقُ الآيةِ هنا الامتِنانُ بما فيه نعيمُ النَّاسِ(٣).

- وأَلْفافٌ: اسمُ جمْعٍ لا واحدَ له مِن لفظِه، وهو مِثلُ أَوْزاعٍ وأَخْيافٍ، أي: كلُّ جَنَّةٍ مُلتفَّةٌ، أي: مُلتفَّةُ الشَّجرِ بعضِه ببعضٍ، ولَمَّا كانتِ الأشجارُ لا يَلتَفُّ بعضُها على بعضٍ في الغالبِ إلَّا إذا جمَعَتْها جَنَّةٌ، أُسنِدَ ألفافٌ إلى جنَّاتٍ بطريقِ الوَصفِ، ولعلَّه مِن مُبتكَراتِ القُرآنِ(٤).

- وبهذا الاستِدلالِ والامتنانِ خُتِمَتِ الأدِلَّةُ الَّتي أُقيمَتْ للمشركين على انفرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ، وتَضمَّنَتِ الإيماءَ إلى إمكانِ البعثِ وما أُدمِجَ فيها مِن المِنَنِ عليهم؛ عساهم أنْ يَذكُروا النِّعمةَ فيَشعُروا بواجبِ شُكرِ المُنعِمِ، ولا يَستفظِعوا إبطالَ الشُّركاءِ في الإلهيَّةِ، ويَنظُروا فيما بلَغَهم عنه مِن الإخبارِ بالبعثِ والجزاءِ، فيَصرِفوا عقولَهم للنَّظرِ في دلائلِ تصديقِ ذلك. وقد ابتُدِئَتْ هذه الدَّلائلُ بدلائلِ خلْقِ الأرضِ وحالتِها، وجالَتْ بهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٧، ٢٨).

الذِّكْرى على أهمِّ ما على الأرضِ مِن الجمادِ والحيوانِ، ثمَّ ما في الأُفقِ مِن أعراضِ اللَّيلِ والنَّهارِ، ثمَّ تَصاعَدَ بهم التَّجوالُ بالنَّظرِ في خلْقِ السَّمواتِ، وبخاصَّةٍ الشمسُ، ثمَّ نزَلَ بهم إلى دلائلِ السَّحابِ والمطرِ، فنزَلوا معه إلى ما يخرُجُ مِن الأرضِ مِن بدائعِ الصَّنائعِ ومُنتهى المنافعِ، فإذا هم يَنظُرونَ مِن حيثُ صدَروا، وذلك مِن رَدِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ(١).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨).

ورَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ -ويُعرَفُ أيضًا بالتَّصديرِ-: هو أنْ تكونَ اللَّفظةُ بعَيْنِها تقدَّمتْ في أوَّلِ الكَلامِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِه، وبتعبيرٍ آخَرَ: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظَينِ المُكرَّرَينِ، أو المُتجانِسَينِ، أو المُلحَقَينِ بهما في أوَّلِ الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسامٍ؛ الأوَّلُ: أن يُوافِقَ آخِرُ الفاصِلةِ آخِرَ كَلِمةٍ في الصَّدرِ؛ كقولِه تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، والثَّاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلَ كَلمةٍ منه؛ كقولِه: ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، والثَّالثُ: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلِماتِه؛ كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥١٤).

الآيات (١٧-٢٠)

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مِيقَـٰتًا﴾: أي: وَقْتًا ومِيعادًا، والميقاتُ: الوقتُ المضروبُ للشَّيءِ، والوَعدُ الَّذي جُعِلَ له وَقْتٌ، وأصلُ (وقت): يدُلُّ على حَدِّ شَيءٍ في زَمانٍ وغَيرِه[(١)].

﴿ٱلصُّورِ﴾: أي: القَرْنِ الَّذي يَنفُخُ فيه إسرافيلُ الملَكُ الموكَّلُ به[(٢)].

﴿أَفْوَاجًا﴾: أي: جَماعاتٍ، والفَوجُ: الجَماعةُ مِنَ النَّاسِ، وأصلُ (فوج): يدُلُّ على تجَمُّعٍ[(٣)].

﴿سَرَابًا﴾: أي: هَباءً وغُبارًا مُنتَشِرًا كالسَّرابِ في عَينِ النَّاظِرِ، والسَّرابُ: ما رأيتَ مِن الشَّمسِ كالماءِ نِصفَ النَّهارِ، وأصلُ (سرب): يدُلُّ على الاتِّساعِ والذَّهابِ في الأرضِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٥).
قال ابن حجر: (مِيقاتٌ وهو مِفعالٌ مِن الوقتِ، وهو القَدْرُ المحدَّدُ للفعلِ مِن الزَّمانِ أو المكانِ). ((فتح الباري)) (٢/ ٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥، ٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٥)، ((تذكرة =

المعنى الإجماليّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا بعضَ أهوالِ يومِ القيامةِ: إنَّ يَومَ القيامةِ الَّذي يَحكُمُ اللهُ فيه بيْنَ عِبادِه يومٌ مُحَدَّدٌ بوَقتٍ مُعَيَّنٍ لجَمعِ النَّاسِ، يَومَ يَنفُخُ المَلَكُ في القَرْنِ لبَعْثِ النَّاسِ، فتأتونَ مِن قُبورِكم إلى مَوضِعِ العَرْضِ جَماعاتٍ، وتتشَقَّقُ السَّماءُ فتكونُ أبوابًا مَفتوحةً، وتُقلَعُ الجبالُ مِن أماكِنِها فتكونُ هَباءً.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا بَيانٌ لِما أجمَلَه قولُه تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ * ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ٢، ٣]، وهو المقصودُ مِن سِياقِ الفاتحةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها السُّورةُ، وهيَّأَتْ للانتقالِ مُناسَبةُ ذِكرِ الإخراجِ مِن قولِه: ﴿لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا﴾ [النَّبأ: ١٥] إلخ؛ لأنَّ ذلك شُبِّهَ بإخراجِ أجسادِ النَّاسِ للبعثِ، كما قال تعالَى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ إلى قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ في سُورةِ (ق)[1] [٩- ١١].

﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ١٧﴾.

أي: إنَّ يَومَ القيامةِ الَّذي يَحكُمُ اللهُ فيه بيْنَ عِبادِه يومٌ مُحَدَّدٌ بوَقتٍ مُعَيَّنٍ لجَمعِ النَّاسِ للحِسابِ والجَزاءِ[2].

= الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩، ٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠].

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾.

أي: وذلك واقِعٌ يومَ يَنفُخُ المَلَكُ في القَرْنِ لبَعْثِ النَّاسِ أحياءً يومَ القيامةِ، فتأتونَ -أيُّها النَّاسُ- مِن قُبورِكم إلى مَوضِعِ العَرْضِ للحِسابِ والجَزاءِ زُمَرًا وجَماعاتٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((جاء أعرابيٌّ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ما الصُّورُ؟ قال: قرنٌ يُنفَخُ فيه))[2].

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾.

أي: وتتشَقَّقُ السَّماءُ وتَنفَرِجُ، فتكونُ أبوابًا مَفتوحةً[3].

= وقال البِقاعي: (﴿كَانَ﴾ أي: في عِلْمِ اللهِ وحِكْمتِه كَونًا لا بُدَّ منه، جُعِلَ فيه كالجِبِلَّةِ في ذوي الأرواحِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨، ١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٠، ٢٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩، ٣٠).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٤٧٤٢)، وأحمدُ (٦٥٠٧) باختلافٍ يسيرٍ، والترمذيُّ (٢٤٣٠)، والنسائيُّ (١١٤٥٦) واللَّفظُ لهما.

حَسَّنه الترمذيُّ، وصَحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٥٥٠)، ووافقه الذهبي في ((التلخيص)) (٢/ ٥٥٠)، وذَكَر ثُبوتَه ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (٥/ ٣٠٨)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٠/ ٩)، وصَحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠).=

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ [الحاقة: ١٦، ١٧].

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر السَّقْفَ، ذَكَر أقرَبَ الأرضِ إليه وأشَدَّها، فقال[1]:

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾.

أي: وتُقلَعُ الجبالُ مِن أماكِنِها وتتفَتَّتُ تُرابًا، وتكونُ هَباءً، يُخيَّلُ إلى النَّاظِرِ أنَّها شيءٌ، وليسَتْ بشيءٍ[2].

= قال البِقاعي: (﴿فَكَانَتْ﴾ أي: كُلُّها كَيْنونةً كأنَّها جِبِلَّةٌ لها ﴿أَبْوَٰبًا﴾ أي: كثيرةً جدًّا؛ لكثرةِ الشُّقوقِ الكبيرةِ بحيث صارت كأنَّها لا حقيقةَ لها إلَّا الأبوابُ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٠٢).

قيل: إنَّها تكونُ أبوابًا؛ مِن أجْلِ نُزولِ الملائكةِ. وممَّن قال بهذا: الثعلبيُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، والنسفي، وابن كثير، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١١٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠).

قال الماوَرْدي: (﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ فيه وجهانِ:

أحدُهما: سُيِّرَتْ أي: أُزيلَتْ عن مَواضِعِها.

الثَّاني: نُسِفَتْ مِن أُصولِها). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٨٥).

قال ابنُ عاشور: (السَّرابُ: ما يَلُوحُ في الصَّحاري مِمَّا يُشبِهُ الماءَ وليس بماءٍ، ولكِنَّه حالةٌ في الجوِّ القَريبِ تَنشَأُ مِن تَراكُمِ أبْخِرَةٍ على سَطحِ الأرضِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣). =

كما قال تعالى: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ١٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ دليلٌ على كَمالِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ أنَّ هذه السَّبْعَ الشِّدادَ يَجعَلُها اللهُ تعالى يومَ القيامةِ كأنْ لم تكُنْ، فتكونُ أبوابًا(1).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ فيه سُؤالٌ: وهو أنَّ الآيةَ تُفيدُ أنَّ السَّماءَ بكُلِّيَّتِها تَصيرُ أبوابًا، فكيف يُعقَلُ ذلك؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ تلك الأبوابَ لَمَّا كَثُرت جدًّا صارت كأنَّها ليست إلَّا أبوابًا مُفَتَّحةً، كقَولِه: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢]، أي: كأنَّ كُلَّها صارت عُيونًا تتفَجَّرُ.

= وقال ابن عطيَّة: (وقولُه تعالى: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ عِبارةٌ عن تلاشيها وفَنائِها بعْدَ كَونِها هَباءً مُنْبَثًّا، ولم يَرِدْ أنَّ الجبالَ تعودُ تُشبِهُ الماءَ على بُعدٍ مِن النَّاظِرِ إليها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٥).

وقال الشنقيطي: (ذكَرَ جلَّ وعلا أنَّه يَجعلُ الجبالَ سَرابًا، فقال: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾. وبيَّن في موضعٍ آخَرَ أنَّ السَّرابَ عِبارةٌ عن لا شَيءَ؛ وهو قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ إلى قولِه: ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩]). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٨٣) بتصرف.

وقال البقاعي: (﴿وَسُيِّرَتِ﴾ أي: حُمِلَت بأيسَرِ أمرٍ على السَّيرِ ﴿ٱلْجِبَالُ﴾ على ما تَعلَمونَ من صَلابتِها وصُعوبتِها في الهواءِ، كأنَّها الهباءُ المنثورُ، وعلى ذلك دَلَّ قولُه: ﴿فَكَانَتْ﴾ أي: كَيْنونةً راسخةً ﴿سَرَابًا﴾ أي: لا نرى فيها إلَّا خَيالًا يتراءى، وهي سائِرةٌ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ، ثمَّ تخفى؛ لتناثُرِ أجزائِها كالهَباءِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٠٢).

قال الألوسي: (﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي: فصارتْ بعدَ تسييرِها مِثلَ سرابٍ، فتُرى بعدَ تفَتُّتِها وارتفاعِها في الهواءِ كأنَّها جبالٌ، وليست بجبالٍ، بل غُبارٌ غليظٌ مُتراكِمٌ يُرى مِن بعيدٍ كأنَّه جبلٌ، كالسَّرابِ يُرى كأنَّه بحرٌ مثلًا، وليس به). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١٣).

(1) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠).

الوجهُ الثَّاني: هذا مِن بابِ تقديرِ حَذْفِ المضافِ، والتَّقديرُ: فكانت ذاتَ أبوابٍ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ عائِدٌ إلى مُضمَرٍ، والتَّقديرُ: فكانت تلك المواضِعُ المفتوحةُ أبوابًا لِنُزولِ الملائكةِ، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾[1] [الفجر: ٢٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ ذَكَر تعالى في مَواضِعَ مِن كتابِه أحوالَ هذه الجِبالِ على وُجوهٍ مُختَلِفةٍ، ويمكِنُ الجَمعُ بيْنَها:

بأنَّ **أوَّلَ أحوالِها**: الاندِكاكُ، وهو قَولُه: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الحاقة: ١٤].

والحالةُ الثَّانيةُ لها: أنَ تَصيرَ ﴿كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، وذَكَر اللهُ تعالى ذلك في قَولِه: ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ * وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٤، ٥] وقَولِه: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ * وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾ [المعارج: ٨، ٩].

والحالةُ الثَّالثةُ: أن تصيرَ كالهَباءِ، وذلك أن تتقَطَّعَ وتتبَدَّدَ بعدَ أن كانت كالعِهْنِ، وهو قَولُه تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا * وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا * فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾ [الواقعة: ٤ - ٦].

والحالةُ الرَّابعةُ: أن تُنسَفَ؛ لأنَّها مع الأحوالِ المتقَدِّمةِ قارَّةٌ في مَواضِعِها، والأرضُ تحتَها غيرُ بارزةٍ، فتُنسَفُ عنها بإرسالِ الرِّياحِ عليها، وهو المرادُ مِن قَولِه: ﴿فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا﴾ [طه: ١٠٥].

والحالةُ الخامِسةُ: أنَّ الرِّياحَ تَرفَعُها عن وَجهِ الأرضِ، فتُطَيِّرُها شُعاعًا في

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٢٦).

الهواءِ كأنَّها غُبارٌ، فمَن نَظَر إليها مِن بُعْدٍ حَسِبَها لتَكاثُفِها أجسامًا جامِدةً، وهي في الحقيقةِ مارَّةٌ، إلَّا أنَّ مُرورَها بسَبَبِ مرورِ الرِّياحِ بها صَيَّرَها مُندَكَّةً مُتفَتِّتةً، وهي قَولُه: ﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، ثمَّ بَيَّن أنَّ تلك الحرَكةَ حَصَلت بقَهْرِه وتَسخيرِه، فقال: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ﴾ [الكهف: ٤٧].

الحالةُ السَّادِسةُ: أنْ تَصيرَ سَرابًا، بمعنى: لا شَيءَ، فمَن نَظَر إلى مَواضِعِها لم يجِدْ فيها شيئًا، كما أنَّ مَن يَرى السَّرابَ مِن بُعْدٍ إذا جاء الموضِعَ الَّذي كان يَراه فيه لم يَجِدْه شَيئًا(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ سُؤالٌ: أنَّه كيف التَّوفيقُ مع قولِه سُبحانَه: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]؟

الجوابُ: أنَّه وردتْ نصوصٌ في اليومِ الآخِرِ مختلِفةٌ في هذا وفي غيرِه، حتَّى في بني آدمَ وَرَدَ أنهم يُحشَرون زُرْقًا -يعني: المجرِمينَ منهم- ووَرَدَ: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ولا تَعارُضَ بيْنَها؛ لأنَّ يومَ القيامةِ مِقدارُه خمسونَ ألْفَ سَنَةٍ؛ فتَتَغيَّرُ الأحوالُ وتَنتقِلُ وتَختَلِفُ، وإذا كنَّا نرى أنَّ الجوَّ يَختَلِفُ في الدُّنيا بيْن عَشِيَّةٍ وضُحاها، وبيْن يومٍ وآخَرَ، وبيْن أُسبوعٍ وأُسبوعٍ، وبيْن شَهرٍ وشَهرٍ، وبيْن السَّنَةِ أوَّلِها وآخِرِها؛ فإنَّ الجبالَ والأحوالَ يومَ القيامةِ تتغيَّرُ مِن شيءٍ إلى آخَرَ؛ ولذلك نقولُ: كلُّ النُّصوصِ في يومِ القيامةِ، الَّتي ظاهِرُها التَّعارُضُ، ليس فيها تعارُضٌ، بل تُحمَلُ على تغيُّرِ الأحوالِ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ۞ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣، ١٤).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٧).

- قولُه: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ...﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ أُعقِبَ به قولُه: ﴿لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا﴾ الآيةَ [النَّبأ: ١٥] فيما قُصِدَ به مِن الإيماءِ إلى دليلِ البعثِ، وهذا رَدٌّ لسؤالِهم تَعجيلَه وعن سَببِ تَأخيرِه، وهو سؤالٌ يُريدونَ منه الاستهزاءَ بخَبَرِه، والمعنى: أنْ ليس تأخُّرُ وُقوعِه دالًّا على انتفاءِ حصولِه، وفي هذا إنذارٌ لهم بأنَّه لا يُدرَى لَعلَّه يَحصُلُ قريبًا[(١)].

- وأُكِّد الكلامُ بحرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ لأنَّ فيه إبطالًا لإنكارِ المُشرِكينَ وتكذيبِهم بيومِ الفَصلِ[(٢)].

- وأُوثِرَ التَّعبيرُ بـ﴿يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ﴾؛ لإثباتِ شَيئينِ؛ أحدُهما: أنَّه بيَّنَ ثُبوتَ ما جحَدوهُ مِن البعثِ والجزاءِ، وذلك فصلٌ بيْنَ الصِّدقِ وكَذِبِهم، وثانيهما: القضاءُ بيْنَ النَّاسِ فيما اختلَفوا فيه، وما اعتَدى به بعضُهم على بعضٍ[(٣)].

- و أفاد فعلُ ﴿كَانَ﴾ أنَّ توقيتَه متأصِّلٌ في عِلمِ اللهِ؛ لِما اقتَضتْه حِكمتُه تعالى الَّتي هو أعلَمُ بها، وأنَّ استعجالَهم به لا يُقدِّمُه على ميقاتِه[(٤)].

- قولُه: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا﴾ دَلَّ السِّياقُ على متعلَّقِ ميقاتٍ، أي: كان ميقاتًا للبعثِ والجزاءِ، وكَونُ يومِ الفِصلِ مِيقاتًا كِنايةٌ تَلويحيَّةٌ[(٥)] عن تَحقيقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩، ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تَنقسِمُ الكِنايةُ باعتبارِ الوسائطِ (اللَّوازمِ) والسِّياقِ إلى أربعةِ أقسامٍ: تعريض، وتلويح، ورمْز، وإيماء؛ فالتَّعريضُ اصطِلاحًا: هو أنْ يُطلَقَ الكلامُ ويُشارَ به إلى معنًى آخَرَ يُفهَمُ مِن السِّياقِ، نحوُ قولِك للمؤْذي: «المسلِمُ مَن سَلِمَ المسلمونَ مِن لِسانه ويَدِه»؛ تعريضًا بنَفيِ صِفةِ الإسلامِ عن المؤذي. والتَّلويحُ اصطِلاحًا: هو الَّذي كثُرَتْ وسائطُه بلا تَعريضٍ، ويُنتقَلُ فيه إلى الملزومِ =

وُقوعِه؛ إذ التَّوقيتُ لا يكونُ إلَّا بزمنٍ مُحقَّقِ الوُقوعِ ولو تأخَّرَ وأبطَأَ[١].

- قولُه: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ بدَلٌ مِن ﴿يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ﴾، وفائدةُ هذا البدلِ حصولُ التَّفصيلِ لبعضِ أحوالِ الفَصلِ وبعضِ أهوالِ يومِ الفصلِ، أو عطفُ بَيانٍ له، مُفيدٌ لزيادةِ تَفخيمِه وتهويلِه[٢].

- وبُنِيَ ﴿يُنفَخُ﴾ إلى النَّائبِ؛ لعدمِ تَعلُّقِ الغرضِ بمعرفةِ النَّافخِ؛ وإنَّما الغرضُ معرفةُ هذا الحادثِ العظيمِ، وصورةِ حصولِه[٣].

- قولُه: ﴿فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا﴾ الفاءُ فصيحةٌ تُفصِحُ عن جملةٍ قد حُذِفَتْ؛ ثِقةً بدلالةِ الحالِ عليها، وإيذانًا بغايةِ سرعةِ الإتيانِ، أي: فتُبعثونَ مِن قُبورِكم، فتَأتونَ إلى الموقفِ عَقيبَ ذلكَ مِن غيرِ لُبثٍ أصْلًا[٤].

- وعُطِفَ (تَأْتون) بالفاءِ؛ لإفادةِ تَعقيبِ النَّفخِ بمَجيئِهم إلى الحِسابِ[٥].

- وحُذِفَ ما يحصُلُ بيْنَ النَّفخِ في الصُّورِ وبينَ حضورِهم؛ لزيادةِ الإيذانِ

= بواسِطةِ لَوازِمَ، نحوُ قولِ المرأةِ في حديثِ أمِّ زَرْعٍ: (زَوجي رفيعُ العِمادِ، طويلُ النِّجادِ، عظيمُ الرَّمادِ)، فقولُها: (عظيمُ الرَّمادِ) يدُلُّ على كثرةِ الجَمرِ، وهي على كثرةِ إحراقِ الحطَبِ، وهي على كثرةِ الطَّبائخِ، وهي على كثرةِ الأكَلةِ، وهي على كثرةِ الضِّيفانِ، وهي على أنَّه مِضْيافٌ؛ فانتقَلَ الفِكرُ إلى جملةِ وسائطَ. والرَّمزُ اصطلاحًا: هو الذي قلَّت وسائطُه، معَ خفاءٍ في اللُّزومِ بلا تعريضٍ نحو: فلانٌ عريضُ القفا، أو عريضُ الوسادةِ؛ كناية عن بلادتِه وبلاهتِه. والإيماءُ أوِ الإشارةُ اصطلاحًا: هو الذي قلَّت وسائطُه، معَ وضوحِ اللُّزومِ، بلا تعريضٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٠٢ وما بعدها)، ((التِّبيان في البيان)) للطِّيبي (١٤٥ - ١٥٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٦ - ٢٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١).

بسرعةِ حصولِ الإتيانِ حتَّى كأنَّه يحصُلُ عِندَ النفخِ في الصُّورِ، وإنْ كان المعنى: يُنفَخُ في الصُّورِ فتَحْيَوْنَ فتَسيرونَ فتَأتونَ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبًا﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ مَعطوفةً على جُملةِ ﴿يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾، ويكون التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي (فُتِحَت)؛ لتحقيقِ وُقوعِ هذا التَّفتيحِ حتَّى كأنَّه قد مَضى وُقوعُه(٢).

- قولُه: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبًا﴾ على قِراءةِ ﴿وفُتِّحت﴾ بتشديدِ الفَوقيَّة، فهو مُبالَغةٌ في فعلِ الفتحِ بكثرةِ الفتحِ أو شِدَّتِه؛ إشارةً إلى أنَّه فتحٌ عظيمٌ؛ لأنَّ شقَّ السَّماءِ لا يَقدِرُ عليه إلَّا اللهُ. وعلى قِراءةِ ﴿وَفُتِحَتِ﴾ بتخفيفِ الفوقيَّةِ على أصلِ الفِعلِ؛ فمجرَّدُ تعلُّقِ الفتحِ بالسَّماءِ مُشعِرٌ بأنَّه فتحٌ شديدٌ، فالتَّفتُّحُ والفتْحُ سواءٌ في المعنى المقصودِ، وهو تَهويلُ يومِ الفصْلِ(٣).

- وفُرِّع على انفِتاحِ السَّماءِ بفاءِ التَّعقيبِ ﴿فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبًا﴾، أي: ذاتَ أبوابٍ. على قولٍ. والإخبارُ عن السَّماءِ بأنَّها أبوابٌ جَرى على طَريقِ المبالَغةِ في الوصْفِ بذاتِ أبوابٍ؛ للدَّلالةِ على كَثرةِ المَفاتِحِ فيها حتَّى كأنَّها هي أبوابٌ(٤).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ تَشبيهٌ بليغٌ حُذِفَتْ منه الأداةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢).

قرأ الكوفيُّون: عاصِمٌ وحَمزةُ والكِسائيُّ وخلَفٌ بالتَّخفيفِ، وقرأ الباقونَ بالتَّشديدِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢، ٣٣).

وحُذِف وجهُ الشَّبهِ أيضًا؛ وهو أنَّ المرئيَّ خلافُ الواقعِ، فكما يُرى السَّرابُ مِن بعيدٍ للظَّامئِ المُلْتاحِ(١) كأنَّه ماءٌ، فيَستبشِرُ به ويَخِفُّ إليه، حتَّى إذا أدرَكَه بعدَ طُولِ الأَيْنِ(٢) لم يَجِدْه شيئًا، وكذلك تُرى الجبالُ كأنَّها جبالٌ وليستْ كذلك في نفْسِ الأمرِ؛ إذ تُرى على صورةِ الجبالِ ولم تَبقَ على حقيقتِها؛ لِتَفتُّتِ أجزائِها وانبثاثِها(٣).

- وقد أُدمِجَ في هذا التَّشبيهِ تشبيهُ حالِ الجبالِ بحالِ السَّحابِ في تَخلْخُلِ الأجزاءِ وانتفاشِها كما يَنطِقُ به قولُه تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، يُبدِّلُ اللهُ تعالى الأرضَ ويُغيِّرُ هيئتَها، ويُسيِّرُ الجبالَ على تلك الهيئةِ الهائلةِ، ثمَّ يُفرِّقُها في الهواءِ، وذلك قولُه تعالَى: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾(٤).

- والتَّعبيرُ بالفِعلِ الماضي ﴿وَسُيِّرَتِ﴾؛ لتحقيقِ وُقوعِ هذا التَّسييرِ حتَّى كأنَّه قد مضى وُقوعُه(٥).



(١) المُلْتاحِ: أي: العَطِشِ. يقال: لاحَ لَوْحًا ولُواحًا: عَطِشَ. والْتاحَ مِثلُه. يُنظر: ((الصَّحاح)) للجوهري (١/ ٤٠٢)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٧/ ١٠٢).

(٢) الأَيْن: الإعياء. يُنظر: ((الصَّحاح)) للجوهري (٥/ ٢٠٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢، ٣٣).

الآيات (٢١-٣٠)

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿جَهَنَّمَ﴾: اسمٌ للنَّارِ الَّتي يُعذِّبُ اللهُ بها في الآخرةِ، قيل: هي أعجميَّةٌ، وقيل: هي اسمٌ عربيٌّ، سُمِّيَتْ نارُ الآخرةِ بها؛ لِبُعْدِ قَعرِها، حُكيَ أنَّه قيل: رَكِيَّةٌ جِهِنامٌ، أي: بعيدةُ القعرِ، وقيل: اشتِقاقُها مِن الجُهومةِ، وهي الغِلَظُ، وسُمِّيَتْ بذلك؛ لِغِلَظِ أمْرِها في العذابِ[(١)].

﴿مِرْصَادًا﴾: أي: مَوضِعَ رَصْدٍ وترَقُّبٍ لأعداءِ اللهِ، فهي مِفْعَالٌ مِنَ الرَّصْدِ، وهو التَّرَقُّبُ، وأصلُ (رصد): يدُلُّ على تهيُّؤٍ لرِقْبةِ شَيءٍ[(٢)].

﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾: أي: للضَّالِّينَ المُتجاوِزينَ لحدود الله، وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوَزةُ الحَدِّ في العِصيانِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٥/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٥، ١٢٦) و(٢٤/ ٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١٢/ ٧٩٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠).

﴿مَـَٔابًا﴾: أي: مَرْجِعًا ومَصيرًا ومَأْوًى، وأصلُ (أوب): يدُلُّ على رُجوعٍ[١].

﴿أَحْقَابًا﴾: أي: دُهورًا مُتتابِعةً، جمعُ الحقبِ، أي: الدَّهرِ، وأصلُ (حقب): يدُلُّ على حَبسٍ[٢].

﴿بَرْدًا﴾: أي: بُرودةً تخفِّفُ عنهم حرَّ النَّارِ، وأصلُ (برد) -على ذلك-: خِلافُ الحَرِّ، وقيل: البَرْدُ في هذا المَوضِعِ النَّومُ، يُقالُ: منَعَ البَرْدُ البَرْدَ، أي: منَعَ البَرْدُ النَّومَ، قيل: سُمِّيَ النَّومُ بَرْدًا؛ لأنَّه يرخي المفاصلَ، ويُسكنُ الحرَكاتِ، وأصلُ (برد) -على ذلك-: السُّكونُ والثُّبوتُ[٣].

﴿حَمِيمًا﴾: أي: ماءً حارًّا شَديدَ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم) هنا: يدُلُّ على الحَرارةِ[٤].

﴿وَغَسَّاقًا﴾: أي: ما يَسيلُ مِن جُلودِ أهلِ النَّارِ، وهو الصَّديدُ، مِن قَولِهم: غَسَقَت عَينُه: إذا انصَبَّت، والغَسَقانُ: الانصِبابُ. وقيل: هو الزَّمهريرُ الَّذي انتهى بَرْدُه، يُحرِقُهم ببَرْدِه كما تُحرِقُهم النَّارُ بحَرِّها[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤١-٢٤٣)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٦٣، ١٦٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٣٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٦)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ٦٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٦).

﴿وِفَاقًا﴾: أي: مُوافِقًا لأعمالِهم، والوَفْقُ: المُطابَقةُ بيْن الشَّيئَينِ، وأصلُ (وفق): يدُلُّ على مُلاءَمةِ الشَّيئَينِ[1].

﴿كِذَّابًا﴾: أي: تكذيبًا مفرطًا، وأصلُ (كذب): يدُلُّ على خِلافِ الصِّدقِ[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۞ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا﴾

﴿لِّلطَّاغِينَ﴾ يجوزُ أنْ يتعلَّقَ بمَحذوفٍ صِفةٍ لـ«مِرْصَادًا»، أي: كائنًا للطَّاغِينَ، أو بمحذوفٍ حالٍ مِن ﴿مَآبًا﴾ كان صفةً له، فلمَّا تقدَّم عليه صار حالًا منه، أي: كانت مرجعًا ومأوًى كائنًا لهم، ويجوزُ أن يكونَ مُتعَلِّقًا بنَفْسِ «مِرْصَادًا» أو بنفْسِ «مَآبًا»؛ لأنَّه بمعنى مَرْجِعٍ.

﴿مَآبًا﴾: خَبَرٌ ثانٍ لـ«كان»، أو بَدَلٌ مِن ﴿مِرْصَادًا﴾ بَدَلَ كُلٍّ مِن كُلٍّ[3].

٢- قَولُه تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾

﴿جَزَآءً﴾: مفعولٌ مُطلَقٌ لفِعلٍ مَحذوفٍ، أي: يُجزَونَ بذلك جَزاءً. ﴿وِفَاقًا﴾: نَعتٌ له مَنصوبٌ[4].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾

«كُلَّ» مَنصوبٌ على الاشتِغالِ مَفعولٌ به لِفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: أحصَيْنا،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٥٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١٦).

يُفَسِّرُه الفِعلُ المذكورُ بَعْدُ، وجُملةُ ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ تفسيريَّةٌ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ.

﴿كِتَابًا﴾ فيه وَجهانِ؛ أحَدُهما: أنَّه مفعولٌ مُطلَقٌ نائبٌ عن المصدَرِ مِنْ معنى «أَحْصَيْنا»؛ فإنَّ الإحصاءَ والكَتْبَ يتشارَكانِ في معنى الضَّبطِ، فإمَّا أن يُؤَوَّلَ ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ بـ«كَتَبْناه» أو ﴿كِتَابًا﴾ بـ«إحصاءً». الثَّاني: أن يكونَ مَصدرًا مُؤَوَّلًا بُمشتَقٍّ مَنصوبٍ على الحالِ، بمعنى: مَكتوبًا في اللَّوحِ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا جزاءَ الكافِرينَ يومَ القيامةِ: إنَّ جَهَنَّمَ تَرصُدُ أهْلَها وتَرْقُبُهم يومَ القيامةِ، وتكونُ مَصيرًا للَّذين طَغَوا في الدُّنيا ومرجعًا في الآخِرةِ، ويَمكُثونَ فيها دُهورًا طَويلةً لا انقِضاءَ لها، لا يَذوقُونَ فيها بَرْدًا ولا شَرابًا، لكنْ يَذوقونَ ماءً شَديدَ الحرارةِ، وما يَسيلُ مِن صديدِ أهلِ النَّارِ؛ جزاءً مُوافِقًا لأعمالِهم السَّيِّئةِ في الدُّنيا.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه الأسبابَ الَّتي أدَّتْ بهم إلى هذا العذابِ، فيقولُ: إنَّهم كانوا في الدُّنيا لا يُؤمِنونَ بالبَعْثِ والحِسابِ في الآخِرةِ، وكَذَّبوا بآياتِ اللهِ تعالى تكذيبًا، وكُلُّ شَيءٍ مِن أعمالِ العِبادِ أو غَيرِها مَكتوبٌ مَعدودٌ، لا يَخْفى على اللهِ تعالى منه شَيءٌ. ويُقالُ للكُفَّارِ في جَهَنَّمَ: ذُوقوا هذا العَذابَ، فلن نَزيدَكم إلَّا عَذابًا فوقَ ما أنتم فيه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾.

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها شروعٌ في تفصيلِ أحكامِ الفصلِ الَّذي أُضيفَ إليه اليومُ، إثْرَ بيانِ هَولِه[1].

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١)﴾.

أي: إنَّ جَهَنَّمَ تَرصُدُ أهْلَها وتَرْقُبُهم يومَ القيامةِ، فلا يُجاوِزُها مَن وَجَب عليه دُخولُها، واستَحَقَّ العَذابَ فيها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

وعن أبي هُرَيرةَ وأبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥).

قال البِقاعي: (﴿كَانَتْ﴾ أي: جِبِلَّةً وخَلْقًا). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٠٣).

وقال الشَّوكاني: (كانت في حُكْمِ اللهِ وقَضائِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٢).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ معنى ﴿مِرْصَادًا﴾: أنَّ جهنَّمَ ذاتُ رَصدٍ، أي: ارتِقابٍ وتطَلُّعٍ، فتَرْقُبُ مَن يَجتازُها وتَرصُدُهم، فلا يُجاوِزُها مَن وَجَب عليه دُخولُها: ابنُ جرير، وهو ظاهِرُ اختيارِ الزَّجَّاج، واختاره الواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٦٦).

وممَّن ذَهَب إلى أنَّ النَّارَ مُرصَدةٌ، أي: مُعَدَّةٌ ومُهَيَّأةٌ للطَّاغِينَ: ابنُ كثير، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠).

قال البَغَوي: (﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ طريقًا ومَمَرًّا، فلا سَبيلَ لأحَدٍ إلى الجنَّةِ حتَّى يَقْطَعَ النَّارَ). ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٠).

وقيل: معنى الآيةِ: أنَّ جهنَّمَ مَوضِعُ رَصدٍ يَرصُدُ فيه خَزَنةُ النَّارِ الكُفَّارَ لِيُعَذِّبوهم فيها. وممَّن ذكَرَ هذا المعنى: البِقاعي، والشوكاني، وذهب إليه ابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥).

عليه وسلَّم قال: ((يُضرَبُ الصِّراطُ بيْنَ ظَهرانَيْ[١] جهنَّمَ، فأكونُ أنا وأُمَّتي أوَّلَ مَن يُجيزُ[٢]، ولا يتكَلَّمُ يومَئذٍ إلَّا الرُّسُلُ، ودَعْوى الرُّسُلِ يومَئذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سلِّمْ، وفي جَهنَّمَ كَلاليبُ[٣] مِثلُ شَوْكِ السَّعْدانِ[٤]، غَيرَ أنَّه لا يَعلَمُ قَدْرَ عِظَمِها إلَّا اللهُ، تَخطَفُ النَّاسَ بأعمالِهم؛ فمِنهم مَن يُوبَقُ[٥] بعَمَلِه، ومِنهم مَن يُخَرْدَلُ[٦] ثمَّ يَنْجو))[٧].

﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ٢٢﴾.

أي: تكونُ جهنَّمُ للَّذين طَغَوا في الدُّنيا، فجاوَزوا حُدودَ اللهِ تعالى: مَصيرًا ومَرجِعًا في الآخِرةِ[٨].

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا ٢٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّن أنَّ جَهنَّمَ مآبٌ للطَّاغِينَ؛ بيَّنَ كَمِّيَّةَ استِقرارِهم هناك، فقال[٩]:

(١) بيْنَ ظَهرانَيْ جَهنَّمَ: أي: بيْنَ طَرَفَيْها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٥٤).
(٢) يُجيزُ: أي: يَمضي عليه ويَقطَعُه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٢٠).
(٣) الكَلاليبُ: جَمعُ كَلُّوبٍ، وهو حديدةٌ مَعطوفةُ الرَّأسِ يُعلَّقُ فيها اللَّحمُ، وتُرسَلُ في التَّنُّورِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٢١).
(٤) السَّعْدان: نَبتٌ له شوكةٌ عَظيمةٌ مِثلُ الحَسَكِ مِن كُلِّ الجوانِبِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٢٢).
(٥) يوبَقُ: أي: يُهلَكُ. يُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطَّابي (١/ ٥٣٣)، ((تفسير غريب ما في الصحيحين)) للحميدي (ص: ٢٩٤).
(٦) يُخردَلُ: أي: يُقطَّعُ ويُصرَعُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٢٢).
(٧) رواه البخاري (٨٠٦) واللَّفظُ له، ومسلم (١٨٢).
(٨) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠).
(٩) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥).

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا ﴿٢٣﴾﴾.

أي: يَمكُثونَ في جهنَّمَ مُدَدًا طَويلةً لا انقِضاءَ لها(١).

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾.

أي: لا يَذوقُ الطَّاغُونَ في جَهَنَّمَ بَرْدًا يُبَرِّدُ أبدانَهم، ويَكسِرُ شِدَّةَ الحَرِّ، ولا شَرابًا يُبَرِّدُ بَواطِنَهم أو يُزيلُ عَطَشَهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٧-١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٤، ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: أنَّهم يَلْبَثونَ فيها أحقابًا مُتتاليةً لا انقِضاءَ لها، كُلَّما مضى حُقبٌ تَبِعَه حُقبٌ آخَرُ: ابنُ قُتَيْبةَ، والقرطبيُّ، وهو ظاهِرُ اختيار البِقاعي، وذهب إليه ابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: أنَّهم لابِثونَ في النَّارِ أحقابًا لا يَذوقونَ فيها بَرْدًا ولا شَرابًا، أي: يُعَذَّبونَ بهذا النَّوعِ مِنَ العَذابِ أحقابًا، وثَمَّ أحقابٌ أُخَرُ لسائِرِ أنواعِ العَذابِ. وهذا القَولُ مال إليه ابنُ جرير، واختاره الزَّجَّاجُ، واستظهره الشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٦، ٢٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٧٣)، ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٥٠). ويُنظر أيضًا: ((الرد على من قال بفناء الجنة والنار)) لابن تيمية (ص: ٦٤، ٦٥).

قال ابن كثير: (قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ لهلالٍ الهَجَريِّ: ما تَجِدونَ الحُقبَ في كتابِ الله المُنزَّلِ؟ قال: نَجِدُه ثمانين سَنةً، كلُّ سنةٍ اثْنا عشَرَ شهرًا، كلُّ شهرٍ ثلاثون يَومًا، كلُّ يومٍ ألْفُ سَنةٍ. وهكذا رُويَ عن أبي هُرَيرةَ، وعبدِ الله بنِ عَمرو، وابنِ عبَّاسٍ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ، وعَمرِو بنِ مَيمونٍ، والحسَنِ، وقَتادةَ، والرَّبيعِ بنِ أنسٍ، والضَّحَّاك. وعن الحسَنِ والسُّدِّيِّ أيضًا: سبعون سَنةً كذلك. وعن عبدِ الله بنِ عَمرٍو: الحقبُ أربعونَ سَنةً، كلُّ يومٍ منها كألْفِ سَنةٍ ممَّا تَعُدُّونَ. رواهما ابنُ أبي حاتمٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٥).

قال الرَّاغبُ الأصفهانيُّ: (﴿أَحۡقَابًا﴾ قيل: جمعُ الحُقُبِ، أي: الدَّهرِ، قيل: والحِقْبةُ ثمانونَ عامًا، وجَمْعُها حِقَبٌ، والصَّحيحُ أنَّ الحِقْبةَ مُدَّةٌ مِنَ الزَّمانِ مُبهَمةٌ). ((المفردات)) (ص: ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧)، ((تفسير ابن =

﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾.

أي: لَكِنْ يَذوقونَ في جَهنَّمَ ماءً شَديدَ الحرارةِ، وما يَسيلُ مِن أهلِ النَّارِ مِن

= عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠).

وممَّن اختار -في الجملةِ- المعنى المذكورَ لقولِه: ﴿بَرْدًا﴾: ابنُ جرير، والنَّحَّاسُ، والرازي، وابن جُزَي، وأبو حيَّان، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي، ونَسَبَه ابنُ عطيَّةَ للجمهور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ٨٣)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٧).

قال أبو حيَّان: (الظَّاهِرُ -وهو قَولُ الجُمهورِ- أنَّ البَرْدَ هو مَسُّ الهواءِ القَرِّ، أي: لا يَمَسُّهم منه ما يُستَلَذُّ ويَكسِرُ شِدَّةَ الحَرِّ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٧).

وقيل: ﴿بَرْدًا﴾ أي: نَومًا. وممَّن اختاره: أبو عُبَيْدةَ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والسِّجِسْتانيُّ، والرَّاغبُ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٨٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٧).

ونُسِب هذا القولُ إلى ثعلبٍ، والأخفَشِ، والكِسائيِّ، والفرَّاءِ، وقُطْرُبٍ، والفضلِ بنِ خالدٍ، ومُعاذٍ النَّحْويِّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٦)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٣١).

قال الفرَّاء: (إنَّ النَّومَ لَيُبْرِدُ صاحِبَه، وإنَّ العَطْشانَ لَيَنامُ فيبردُ بالنَّومِ). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٢٨).

وقال ابن جرير: (ليس هو باسمِه المعروفِ، وتأويلُ كتابِ اللهِ على الأغلبِ مِن معروفِ كلامِ العربِ، دونَ غيرِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٦).

وقال ابن عاشور: (حَمْلُ الآيةِ عليه تَكَلُّفٌ لا داعِيَ إليه، وعَطْفُ ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ يُناكِدُه). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧).

وقال الزجاج: (وجائزٌ أن يكونَ لا يَذوقونَ فيها بَرْدَ رِيحٍ ولا ظِلٍّ ولا نَوْمٍ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٧٣).

صَديدٍ وغَيرِه، وهو معَ نتنِ رائحتِه شديدُ البرودةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿... فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٤].

﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾.

أي: ذلك العِقابُ للطَّاغِينَ مُوافِقٌ لأعمالِهم السَّيِّئةِ في الدُّنيا، فلم يَظْلِمْهم اللهُ تعالى، وإنَّما ظَلَموا أنفُسَهم(٢).

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّن على الإجمالِ أنَّ ذلك الجزاءَ كان على وَفْقِ جُرْمِهم؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧، ٢٨، ٣١، ٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٠، ١٨١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٧)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٥،٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧،٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠، ٣١).
قال ابن كثير: (والغَسَّاقُ: هو ما اجْتَمَع مِن صديدِ أهلِ النَّارِ وعَرَقِهم ودُموعِهم وجُروحِهم، فهو باردٌ لا يُسْتَطاعُ مِن بَرْدِه، ولا يُواجَهُ مَن نَتْنِه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٧).
ويُنظر ما تقدَّم في تفسير الآية (٥٧) من سورة (ص).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١).

شَرَح أنواعَ جَرائِمِهم[١].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾.

أي: إنَّهم كانوا في الدُّنيا لا يُؤمِنونَ بالبَعْثِ، ولا بأنَّهم يُحاسَبونَ ويُجازَوْنَ على أعمالِهم في الآخِرةِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧).

قال ابن جُزَي: (قيل: معنى ﴿يَرْجُونَ﴾ هنا: يَخافونَ، وقيل: ... الرَّجاءُ على أصلِه. وقيل: ﴿لَا يَرْجُونَ﴾: لا يَتوقَّعونَ أصلًا، ولا يَخطرُ ببالِهم). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٥٣) و(٢/ ٤٤٦).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ هنا أي: لا يَخافونَ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ قُتَيْبةَ، وابنُ جرير، وابن أبي زَمَنِين، والواحديُّ، والسمعاني، والرَّسْعَني، والقرطبي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٦٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٤٠)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٧)، ((تفسير العليمي (٧/ ٢٦٤).

قال الواحديُّ: (لا يَخافونَ أن يُحاسَبوا. قاله مقاتلٌ، والمفسِّرونَ). ((البسيط)) (٢٣/ ١٣٤).

ونسَبَه ابنُ الجوزيِّ للجمهور. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٠).

وقال النَّحَّاسُ: (قيل: ﴿يَرْجُونَ﴾ بمعنى: يَخافونَ؛ لأنَّ مَن رجا شيئًا يَلحَقُه خَوفٌ مِن فَواتِه، فغلَّب إحدى الخِيفتَينِ). ((إعراب القرآن)) (٥/ ٨٤).

قال الواحدي: (﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾: لا يَخافونَ أن يُحاسَبوا، والمعنى: كانوا لا يؤمِنونَ بالبعثِ، ولا بأنَّهم يُحاسَبونَ). ((الوسيط)) (٤/ ٤١٥).

وممَّن اختار أنَّ الرَّجاءَ على أصلِه: الزَّجَّاجُ، والشَّوكانيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١).

قال الزَّجَّاجُ: (﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي: لا يؤمِنونَ بالبعثِ، ولا بأنَّهم يُحاسَبونَ، ويَرجونَ ثوابَ حِسابٍ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٧٤). =

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا هو النَّوعُ الثَّاني مِن قبائِحِ أفعالِ الكُفَّارِ(١).

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨﴾.

أي: وكانوا يُكَذِّبونَ بآياتِ اللهِ تعالى تكذيبًا شَديدًا مع وُضوحِها ودَلالتِها على الحَقِّ(٢).

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۝٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّن أنَّ فَسادَ حالِ الكُفَّارِ في القُوَّةِ العمَليَّةِ وفي القوَّةِ النَّظَريَّةِ بلَغ إلى أقصى الغاياتِ، وأعظَمِ النِّهاياتِ- بيَّن أنَّ تفاصيلَ تلك الأحوالِ في كَمِّيَّتِها وكيفيَّتِها معلومةٌ له، وقَدْرَ ما يُستحَقُّ عليه مِن العِقابِ مَعلومٌ له(٣).

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۝٢٩﴾.

أي: وكُلَّ شَيءٍ مِن أعمالِ العِبادِ أو غَيرِها مكتوبٌ مَعدودٌ مَضبوطٌ، لا يَخفى

= وقال السعدي: (﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي: لا يؤمِنونَ بالبعثِ، ولا أنَّ اللهَ يُجازي الخَلْقَ بالخَيرِ والشَّرِّ؛ فلذلك أهمَلوا العملَ للآخرةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧).

وقال ابن كثير: (﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي: لم يَكونوا يَعتقِدونَ أنَّ ثَمَّ دارًا يُجازَوْنَ فيها ويُحاسَبونَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٩).

على اللهِ تعالى منه شَيءٌ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣].

﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا شرح أحوالَ العِقابِ أوَّلًا، ثمَّ ذكر كَونَه ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ:٢٦]، ثمَّ بيَّن تفاصيلَ أفعالِهم القبيحةِ، وظَهَر صِحَّةُ ما ذكره أوَّلًا مِن أنَّ ذلك العِقابَ كان جزاءً وِفاقًا- لا جَرَمَ أعاد ذِكرَ العِقابِ[(٢)].

﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

أي: يُقالُ للكُفَّارِ في جَهَنَّمَ تَوبيخًا وتَقريعًا لهم: فذُوقوا هذا العَذابَ، وسنَزيدُكم عذابًا فوقَ ما أنتم فيه[(٣)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢).
قال القرطبي: (قيل: أي: كَتَبْناه في اللَّوحِ المحفوظِ لتَعرِفَه الملائكةُ. وقيل: أراد ما كُتِبَ على العِبادِ مِن أعمالِهم، فهذه كتابةٌ صَدَرَت عن الملائكةِ الموكَّلينَ بالعبادِ بأمْرِ اللهِ تعالى إيَّاهم بالكِتابةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ يدُلُّ على أنَّ جهنَّمَ كانت مخلوقةً، لِقَولِه تعالى: ﴿مِرْصَادًا﴾ أي: مُعَدَّةً -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وإذا كان كذلك كانت الجنَّةُ أيضًا كذلك؛ لأنَّه لا قائِلَ بالفَرْقِ[(١)].

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِّلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ إنَّ الشِّركَ أقصى الطُّغيانِ؛ إذ المشرِكون باللهِ مُعرِضونَ عن عبادتِه، ومتكبِّرون على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حيث أَنِفوا من قَبولِ دعوتِه، وهم المقصودُ مِن معظَمِ ما في هذه السُّورةِ، كما يصَرِّحُ به قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٢٧، ٢٨]. هذا، وإنَّ المُسلِمينَ المُستخِفِّينَ بحقوقِ اللهِ، أو المعتدينَ على النَّاسِ بغيرِ حقٍّ، واحتقارًا لا لمجرَّدِ غلَبةِ الشَّهوةِ - لهم حظٌّ مِن هذا الوعيدِ بمِقدارِ اقترابِهم مِن حالِ أهلِ الكفرِ[(٢)].

= (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣).
قال ابنُ عاشور: (الزِّيادةُ المنفيَّةُ في قَولِه: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ يجوزُ أن تكونَ زيادةَ نوعٍ آخَرَ مِن عذابٍ يكونُ حاصِلًا لهم، كما في قَولِه تعالى: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]. ويجوزُ أن تكونَ زيادةً مِن نوعِ ما هم فيه مِن العذابِ، بتكريرِه في المستقبَلِ. والمعنى: فسَنَزيدُكم عذابًا زيادةً مُستَمِرَّةً في أزمِنةِ المُستقبَلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا﴾ وَجهُ الجَمْعِ بيْنَ الأحقابِ المذكورةِ هنا مع الدَّوامِ الأَبَديِّ الَّذي في آياتٍ دالَّةٍ عليه؛ مِن أَوْجُهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ قولَه: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا﴾ متعلِّقٌ بما بَعْدَه، أي: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا﴾ في حالِ كَونِهم ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾، فإذا انقضَت تلك الأحقابُ عُذِّبوا بأنواعٍ أُخَرَ مِن أنواعِ العَذابِ غيرِ الحَميمِ والغَسَّاقِ. ويدُلُّ لهذا تصريحُه تعالى بأنَّهم يُعَذَّبونَ بأنواعٍ أُخَرَ مِن أنواعِ العَذابِ غيرِ الحَميمِ والغَسَّاقِ، في قَولِه تعالى: ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٧، ٥٨].

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ هذه الأحقابَ لا تَنْقَضي أبَدًا.

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّا لو سَلَّمْنا دَلالةَ قَولِه: ﴿أَحۡقَابًا﴾ على التَّناهي والانقِضاءِ فإنَّ ذلك إنَّما فُهِمَ مِن مفهومِ الظَّرفِ، والتَّأبيدُ مُصَرَّحٌ به منطوقًا، والمنطوقُ مُقدَّمٌ على المفهومِ، كما تقرَّرَ في الأُصولِ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أنَّه لَمَّا نُفِيَ ذَوقُ البَرْدِ والشَّرابِ فرُبَّما تُوُهِّمَ أنَّهم لا يَذُوقونَ غيرَهما، فقال: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أنَّ الذَّوقَ لا يَختَصُّ بالفَمِ، وإنَّما هو في لُغةِ العَرَبِ: وُجودُ طَعمِ الشَّيءِ. والاستِعمالُ يدُلُّ على ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، وقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٥٠، ٢٥١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٧٢).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٧٠).

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ [الطلاق: ٩][١]؛ فلَفْظُ «الذَّوقِ» يُستعمَلُ في كلِّ ما يُحسُّ به ويَجِدُ أَلَمَه أو لَذَّتَه[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ أنَّ تفاوُتَ أهلِ النَّارِ في العَذابِ هو بحَسَبِ تَفاوُتِ أعمالِهم الَّتي دَخَلوا بها النَّارَ[٣].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّ الكُفَّارَ كانوا قد أتَوا بأنواعٍ مِنَ القبائِحِ والكبائِرِ، فما السَّبَبُ في أنْ خَصَّ اللهُ تعالى هذا النَّوعَ مِن الكُفرِ بالذِّكرِ في أوَّلِ الأمرِ؟

الجوابُ: لأنَّ رَغبةَ الإنسانِ في فِعْلِ الخَيراتِ وفي تَرْكِ المحظوراتِ إنَّما تكونُ بسَبَبِ أن ينتَفِعَ به في الآخِرةِ، فمَن أنكَرَ الآخِرةَ لم يُقْدِمْ على شَيءٍ مِنَ المُستحسَناتِ، ولم يُحجِمْ عن شَيءٍ مِنَ المُنكَراتِ؛ فقَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ تنبيهٌ على أنَّهم فَعَلوا كُلَّ شَرٍّ، وتَركوا كُلَّ خَيرٍ[٤].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ يدُلُّ على كَونِه تعالى عالِمًا بالجُزْئيَّاتِ[٥].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ ذِكْرُ كِتابِ اللهِ الكَونيِّ، ويُقابِلُه الكِتابُ الشَّرعيُّ، كقَولِه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[٦] [البقرة: ١٨٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ ردٌّ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ

(١) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٩١).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١١٠).
(٣) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٨١).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣١/ ٢٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٠٦).

الَّذين يُنكِرون الكتابَ السَّابقَ؛ لأنَّه مَجمَعُ الأشياءِ، فدَخَلَ فيه الخيرُ والشَّرُّ، والإيمانُ والكفرُ، وصارتْ الكتابةُ متقدِّمةً على الأفعالِ، فخَرَجَتِ الأفعالُ عليها، ولم يُمكنِ المَحيصُ عنها(١).

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ فيه سؤالٌ: أليس أنَّه تعالى قال في صفةِ الكُفَّارِ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ﴾ [آل عمران: ٧٧]، فهنا لَمَّا قال لهم: ﴿فَذُوقُواْ﴾ فقد كَلَّمهم؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ تقديرَ الآيةِ: فيُقالُ لهم: ﴿فَذُوقُواْ﴾.

الوَجهُ الثَّاني: أن يقالَ: إنَّ قولَه: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ﴾، أي: ولا يكلِّمُهم بالكلامِ الطَّيِّبِ النَّافِعِ؛ فإنَّ تخصيصَ العُمومِ غيرُ بعيدٍ، لا سيَّما عندَ حُصولِ القرينةِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ﴾ إنَّما ذكَرَه لبيانِ أنَّه تعالى لا ينفعُهم، ولا يُقيمُ لهم وزنًا، وذلك لا يحصُلُ إلَّا مِن الكلامِ الطَّيِّبِ(٢).

وأيضًا فيومُ القيامةِ يومٌ طويلٌ، فيُكلِّمُهم الله تعالى في وقتٍ، ولا يُكلِّمُهم في آخَرَ.

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ هذه الآيةُ أشَدُّ الآياتِ في شِدَّةِ عَذابِ أهلِ النَّارِ. أجارنا اللهُ تعالى منها(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ۝ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ۝ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ كلامٌ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦).

مُستأنَفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في وصْفِ أهوالِ جهنَّمَ بعدَ أنْ فُرِغَ مِن وَصْفِ الأهوالِ العامَّةِ ليومِ القِيامةِ(١).

- ويَجوزُ أنْ تكونَ جملةُ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا﴾ في موضعِ خبرٍ ثانٍ لـ (إنَّ) مِن قولِه: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا﴾ [النَّبأ: ١٧]، والتَّقديرُ: إنَّ يومَ الفصلِ إنَّ جهنَّمَ كانتْ مِرصادًا فيه للطَّاغينَ، والعائدُ مَحذوفٌ دَلَّ عليه قولُه: ﴿مِرۡصَادٗا﴾، أي: مِرصادًا فيه، أي: في ذلك اليومِ؛ لأنَّ معنى المِرصادِ مُقترِبٌ مِن معنى المِيقاتِ؛ إذ كِلاهما مُحدَّدٌ لجزاءِ الطَّاغينَ. ودُخولُ حرْفِ (إنَّ) في خبرِ (إنَّ) يُفيدُ تأكيدًا على التَّأكيدِ الَّذي أفادَه حرفُ التَّأكيدِ الدَّاخلُ على قولِه: ﴿يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ﴾، وتكون الجُملةُ مِن تَمامِ ما خُوطِبوا به بقولِه: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا﴾ [النَّبأ: ١٨]. والتَّعبيرُ بالطَّاغِينَ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ للتَّسجيلِ عليهم بوصْفِ الطُّغيانِ، والإيماءِ إلى سَببِ جعْلِ جهنَّمَ لهم؛ لأنَّ مُقتضى الظَّاهرِ أنْ يقولَ: (لكم مآبًا).

ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا﴾ مُستأنَفةً استِئنافًا بَيانيًّا عن جُملةِ ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا﴾ [النَّبأ: ١٧] وما لَحِقَ بها؛ لأنَّ ذلك ممَّا يُثيرُ في نفوسِ السَّامعينَ تَطلُّبَ ماذا سيَكونُ بعدَ تلك الأهوالِ، فأُجيبَ بمَضمونِ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا﴾ الآيةَ؛ وعليه فليس في قولِه: ﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾ تَخريجٌ على خِلافِ مُقتضى الظَّاهرِ(٢).

- وابتُدِئ بذِكرِ جهنَّمَ؛ لأنَّ المَقامَ مَقامُ تهديدٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤، ٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤).

- وقال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ دونَ أنْ يُقالَ: إنَّ جهنَّمَ مِرصادٌ؛ للدَّلالةِ على أنَّ جَعْلَها مِرصادًا أمرٌ مُقدَّرٌ لها[١].

- ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿مِرْصَادًا﴾ مَصدرًا على وزْنِ المِفعالِ، أي: رَصدًا. والإخبارُ عن جهنَّمَ بأنَّها ﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ للمُبالغةِ، حتَّى كأنَّها أصلُ الرَّصدِ، أي: لا تُفْلِتُ أحدًا ممَّنْ حَقَّ عليهم دُخولُها. ويجوزُ أنْ يكونَ مِرصادٌ زِنَةَ مُبالَغةٍ للرَّاصِدِ الشَّديدِ الرَّصْدِ، مِثلَ صِفةِ (مِغيارٍ، ومِعطارٍ)، وُصِفَتْ به جهنَّمُ، ولم تَلحَقْه (ها) التَّأنيثُ؛ لأنَّ جَهنَّمَ شُبِّهتْ بالواحدِ مِن الرَّصَدِ -بتَحريكِ الصَّادِ-، وهو الواحدُ مِن الحرسِ الَّذي يقفُ بالمَرْصَدِ؛ إذ لا يكونُ الحارسُ إلَّا رجُلًا[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ﴾ قولُه: ﴿لِلطَّاغِينَ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿مِرْصَادًا﴾، ومُتعلَّقُ ﴿مَآبًا﴾ مُقدَّرٌ دلَّ عليه ﴿لِلطَّاغِينَ﴾، فيكونُ كالتَّضمينِ في الشِّعرِ؛ إذ كانت بَقيَّةً لِما في القَرينةِ الأُولى في القَرينةِ المُواليةِ، فتَكونُ القرينةُ طويلةً. أو مُتعلَّقُ ﴿مِرْصَادًا﴾ مَحذوفٌ دَلَّ عليه قولُه: ﴿لِلطَّاغِينَ مَآبًا﴾، والتَّقديرُ: مِرصادًا للطَّاغينَ، وقولُه: ﴿لِلطَّاغِينَ﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿مَآبًا﴾؛ قُدِّم عليه لإدخالِ الرَّوْعِ على المُشرِكينَ الَّذين بشِركِهم طَغَوْا على اللهِ. وهذا أحسَنُ؛ لأنَّ قرائنَ السُّورةِ قِصارٌ، فيَحسُنُ الوقفُ عندَ ﴿مِرْصَادًا﴾؛ لتكونَ قرينةً[٣].

- والتَّعريفُ في ﴿لِلطَّاغِينَ﴾ للعَهدِ؛ فالمرادُ به المُشرِكونَ المخاطَبونَ بقولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥، ٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والقرينةُ: هي القطعةُ مِن الكلامِ تُجعَلُ مُزاوِجةً للأخرى، وهي أخصُّ مِن الفقرةِ، والقرينتانِ في النَّثرِ بمنزلةِ البيتِ مِن الشِّعرِ. يُنظر: ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (٢/ ٦٧١).

﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾[1] [النَّبأ: ١٨].

- وكلمةُ ﴿أَحْقَابًا﴾ جمعٌ مرادٌ به الطُّولُ العظيمُ والكثرةُ؛ لأنَّ أكثرَ استعمالِ الحُقُبِ والأحقابِ أنْ يكونَ في حيثُ يُرادُ توالي الأزمانِ، ويُبيِّنُ هذا الآياتُ الأُخرى الدَّالَّةُ على خُلودِ المُشركينَ، فجاءتْ هذه الآيةُ على المعروفِ الشَّائعِ في الكلامِ؛ كِنايةً به عن الدَّوامِ دونَ انتهاءٍ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَآءً وِفَاقًا﴾

- استِثناءُ ﴿حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ مِن ﴿بَرْدًا﴾ أو ﴿شَرَابًا﴾ على طريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المُرَتَّبِ[3]، وهو استثناءٌ مُنقطِعٌ؛ لأنَّ الحميمَ ليس مِن جنسِ البَرْدِ في شيءٍ؛ إذ هو شديدُ الحرِّ، ولأنَّ الغسَّاقَ ليس مِن جنسِ الشرابِ، والمعنى: يَذوقونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٦، ٣٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧).

(٣) اللَّفُّ والنَّشْرُ: هو ذِكرُ شيئَينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلَفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ تُذكَرُ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ من المتقدِّم، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يَتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ من السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لَفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهَينِ؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المُرَتَّبَ». الوجهُ الثَّاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ«اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

الحميمَ إذ يُراقُ على أجسادِهم، والغسَّاقَ إذ يَسيلُ على مَواضعِ الحَرقِ فيَزيدُ أَلَمَهم، وصُورةُ الاستثناءِ هنا مِن تَأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه في الصُّورةِ[1].

- وقولُه: ﴿جَزَآءً﴾ مَنْصوبٌ على الحالِ مِن ضَميرِ ﴿يَذُوقُونَ﴾، أي: حالةَ كَونِ ذلك جَزاءً، مُجازًى به، فالحالُ هنا مصدرٌ مُؤوَّلٌ بمعنى الوصفِ، وهو أبلَغُ مِن الوصفِ[2].

- قولُه: ﴿وِفَاقًا﴾ الوِفاقُ: مَصدرُ وافَقَ، وهو مُؤوَّلٌ بالوصفِ، أي: مُوافقًا للعملِ الَّذي جُوزوا عليه، وهو التَّكذيبُ بالبعثِ وتكذيبُ القُرآنِ، كما دلَّ عليه التَّعليلُ بعدَه بقولِه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ [النَّبأ: ٢٧، ٢٨]؛ فإنَّ ذلك أصلُ إصرارِهم على الكفرِ، وهما أصلانِ: أحدُهما عدَميٌّ، وهو إنكارُ البعثِ، والآخَرُ وُجوديٌّ، وهو نِسبتُهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والقرآنَ للكَذِبِ، فعُوقِبوا على الأصلِ العدَميِّ بعِقابٍ عدَميٍّ، وهو حِرمانُهم مِن البَرْدِ والشَّرابِ، وعلى الأصلِ الوُجوديِّ بجزاءٍ وُجوديٍّ، وهو الحميمُ يُراقُ على أجسادِهم، والغَسَّاقُ يمُرُّ على جِراحِهم[3]، أو قولُه: ﴿وِفَاقًا﴾ على حذْفِ مُضافٍ، أي: ذا وِفاقٍ لأعمالِهم، أو نفْسُ الوِفاقِ مُبالَغةً[4].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال في وَصْفِ عَذابِ أهلِ النارِ: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَآءً وِفَاقًا﴾، وقال في وَصْفِ نَعيمِ أهلِ الجنَّةِ: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا * لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا * جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣٤-٣٦]، فوَصَفَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩١).

الجَزاءَ الأوَّلَ منهما بالوِفاقِ، ووَصَفَ الثَّانيَ بأنَّه حِسابٌ؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالَى قال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٩]، وقال: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، فلمَّا كانت الحَسَنةُ بأضْعافِها، والسَّيِّئةُ بمِثلِها، استُعمِلَ في جَزاءِ السَّيِّئةِ أنَّه وِفاقٌ لها، غيرُ زائدٍ عليها، ولا قاصرٌ عنها، ولَمَّا كانت الحَسَنةُ بأضعافِها، استُعمِلَ في جَزائِها أنَّه عَطاءٌ يَكفي مُعطاه، ويَبلُغُ مِن مَطلوبِه مُنتهاهُ، فقال: عَطاءً بحَسبِه، أي: يَكْفيهِ ممَّا يُريدُ ويَشتهِيه، ويُغْنِيه عن طَلَبِ زِيادةٍ إليه، وإذا كان كذلك لم يَصلُحْ لكلِّ مكانٍ إلَّا ما استُعمِلَ فيه(١).

أو أنَّ وجهَ ذلك: أنَّ الأوَّلَ للكُفَّارِ، فناسَبَ ذِكرُ ﴿وِفَاقًا﴾، أي: جَزاءً مُوافقًا لأعمالِهم، والثَّانيَ للمؤمِنينَ، فناسَبَ ذِكرُ ﴿حِسَابًا﴾، أي: كافيًا وافيًا لأعمالِهم، مِن قولِك: حَسْبي، أي: كَفاني(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ بيانٌ لِما وافَقَه ذلك الجزاءُ؛ لَمَّا أنْكروا البعثَ، وجَحَدوا الآياتِ، وكذَّبوا الرُّسلَ، عُذِّبوا بأشدِّ العذابِ، ولم يُنفَّسْ عنهم الكرْبُ؛ لأنَّ كُفْرَهم أعظَمُ كُفْرٍ(٣).

- ومَوقعُ هذه الجُملةِ مَوقعُ التَّعليلِ لجملةِ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ إلى قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾[النَّبأ: ٢١- ٢٦]، فهي تعليلٌ لاستحقاقِهم

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٢٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٥)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٥٠٠)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٠)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٨/ ٣٠٧).

الجزاءَ المذكورَ، ولذلك فُصِلَتْ، وهي مُعترِضةٌ بيْن ما قبْلَها وبيْن جُملةِ ﴿فَذُوقُواْ﴾[1] [النبأ: ٣٠].

- وحرفُ (إنَّ) للاهتِمامِ بالخَبرِ، وليستْ لردِّ الإنكارِ؛ إذ لا يُنكِرُ أحدٌ أنَّهم لا يَرْجونَ حِسابًا، وأنَّهم مُكذِّبونَ بالقُرآنِ، وشأنُ (إنَّ) إذا قُصِد بها مجرَّدُ الاهتمامِ أنْ تكونَ قائمةً مَقامَ فاءِ التَّفريعِ، مفيدةً للتَّعليلِ[2].

- وفِعلُ ﴿كَانُواْ﴾ دالٌّ على أنَّ انتفاءَ رَجائِهم الحسابَ وصْفٌ متمكِّنٌ مِن نُفوسِهم، وهم كائِنونَ عليه، وليس المرادُ بفعلِ ﴿كَانُواْ﴾ أنَّهم كانوا كذلك فانْقضى؛ لأنَّ هذه الجملةَ إخبارٌ عنهم في حينِ نزولِ الآيةِ وهم في الدُّنيا، وليستْ ممَّا يُقالُ لهم أو عنهم يومَ القيامةِ[3].

- قولُه: ﴿لَا يَرۡجُونَ حِسَابًا﴾ الرَّجاءُ اشتهَرَ في ترقُّبِ الأمرِ المحبوبِ، والحِسابُ ليس خيرًا لهم حتَّى يُجعَلَ نفْيُ ترقُّبِه مِن قَبيلِ نفْيِ الرَّجاءِ، فكان الظَّاهرُ أنْ يُعبَّرَ عن تَرقُّبِه بمادَّةِ التَّوقُّعِ الَّذي هو تَرقُّبُ الأمرِ المكروهِ، فيَظهَرُ أنَّ وجْهَ العدولِ عن التَّعبيرِ بمادَّةِ التَّوقُّعِ إلى التَّعبيرِ بمادَّةِ الرَّجاءِ: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أَخبَرَ عن جَزاءِ الطَّاغينَ وعَذابِهم، تَلقَّى المُسلِمونَ ذلك بالمَسَرَّةِ، وعَلِموا أنَّهم ناجونَ ممَّا سيَلْقاهُ الطَّاغونَ، فكانوا مُترقِّبينَ يومَ الحِسابِ تَرقُّبَ رَجاءٍ، فنفْيُ رَجاءِ يومِ الحسابِ عن المُشرِكينَ جامعٌ بصَريحِه معْنى عدَمِ إيمانِهم بوُقوعِه، وبكِنايتِه رَجاءَ المؤمِنينَ وُقوعَه بطَريقةِ الكِنايةِ التَّعريضيَّةِ تَعريضًا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٩، ٤٠).

بالمُسلِمينَ، وهي أيضًا تلويحيَّةٌ؛ لِما في لازِمِ مَدلولِ الكلامِ مِن الخَفاءِ(١).

وقيل: الرَّجاءُ هاهنا بمعنى التَّوَقُّعِ؛ لأنَّ الرَّاجيَ للشَّيءِ مُتوقِّعٌ له، إلَّا أنَّ أشرَفَ أقسامِ التَّوَقُّعِ هو الرَّجاءُ؛ فسُمِّيَ الجِنسُ باسم أشرَفِ أنواعِه. وقيل: معنى قَولِه ﴿لَا يَرْجُونَ﴾: لا يَخافُونَ. وقيل: إنَّ المؤمِنَ لا بُدَّ أن يرجُوَ رحمةَ اللهِ؛ لأنَّه قاطِعٌ بأنَّ ثوابَ إيمانِه زائِدٌ على عِقابِ جميعِ المعاصي سِوى الكُفْرِ، فقَولُه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم ما كانوا مُؤمِنينَ(٢).

وقيل: عبَّر عن تكذيبِهم بنَفْيِ الرَّجاءِ؛ لأنَّه أبلَغُ؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ يَطمَعُ في الخَيرِ بأدْنى احتِمالٍ(٣).

- وجِيءَ بفِعلِ ﴿يَرْجُونَ﴾ مُضارِعًا؛ للدَّلالةِ على استِمرارِ انتفاءِ ما عُبِّر عنه بالرَّجاءِ؛ وذلك لأنَّهم كلَّما أُعيدَ لهم ذِكرُ يومِ الحساب جدَّدوا إنكارَه، وكرَّروا شُبُهاتِهم على نفْيِ إمكانِه؛ لأنَّهم قالوا: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾(٤) [الجاثية: ٣٢].

- قولُه: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ عطفٌ على ﴿لَا يَرْجُونَ ...﴾؛ وجِيءَ في جانبِ التَّكذيبِ بالفعلِ الماضي؛ لكونِ تكذيبِهم بآياتِ القُرآنِ وما اشتمَلتْ عليه مِن إثباتِ الوَحدانيَّةِ، ورسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد استقَرَّ في نُفوسِهم ولم يتردَّدوا فيه، حيثُ قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠).

وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[١] [فصلت: ٥].

- ومعنَى ﴿كِذَّابًا﴾، أي: تَكذيبًا هو في غايةِ المُبالَغة؛ وأُقيمَ ﴿كِذَّابًا﴾ مُقامَ التَّكذيبِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم كذَبوا في تَكذيبِهم، أو المُكاذَبةِ؛ فإنَّهم كانوا عِندَ المُسلِمينَ كاذِبينَ، وكان المُسلِمونَ كاذِبينَ عندَهم، فكان بيْنَهم مُكاذَبةٌ، أو كانوا مُبالِغينَ في الكذبِ مُبالَغةَ المغالبينَ فيه، وعلى المعنيَينِ يجوزُ أنْ يكونَ حالًا بمعنى كاذِبينَ أو مكاذِبينَ، ويجوزُ أنْ يكونَ للمُبالَغةِ، فيكونَ صفةً للمصدرِ، أي: تَكذيبًا مُفرِطًا كَذِبُه[٢]. أو يكونَ مفعولًا مطلَقًا مؤكِّدًا لعاملِه؛ لإفادةِ شِدَّةِ تَكذيبِهم بالآياتِ[٣].

- وأيضًا أُوثِرَ هذا المصدرُ ﴿كِذَّابًا﴾ هنا دونَ (تَكذيبٍ)؛ لمُراعاةِ التَّماثُلِ في فَواصلِ هذه السُّورةِ؛ فإنَّها على نحْوِ ألِفِ التَّأسيسِ في القَوافي[٤]، والفواصلُ كالأسجاعِ، ويَحسُنُ في الأسجاعِ ما يَحسُنُ في القَوافي[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٩، ٦٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٨، ٣٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١).

(٤) ألِفُ التَّأسيس: مِن مُصطَلَحاتِ عِلمِ العَروضِ والقافيةِ، وهو كلُّ ألِفٍ وقعَتْ في القافيةِ وبيْنَها وبيْن الرَّويِّ حرفٌ مُتحرِّكٌ يُسمَّى هذا الحَرْفُ المتحرِّكُ الدَّخيلَ، والتَّأسيسُ يَلزَمُ ذلك الموضِعَ في القَصيدةِ كُلِّها؛ ففي قولِ زيادِ بنِ مُعاويةَ الذُّبْيانيِّ -وهو في ((ديوانه)) (ص: ٤٧)-:

كِلِيني لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصِبِ ... ولَيْلٍ أُقاسِيهِ بَطيءِ الكواكِبِ

الألِفُ مِن «كواكِبِ» تأسِيسٌ، والكافُ دَخيلٌ، والباءُ رَويٌّ، والياءُ المتولِّدةُ مِن كَسْرةِ الباءِ وصْلٌ. يُنظر: ((القوافي)) للأخفش الأوسط (ص: ٢٨)، ((أمالي ابن الشجري)) (٢/ ٤٩١)، ((العقد)) لابن عبد ربه (٦/ ٣٤٣)، ((عِلم العَروض والقافية)) لعبد العزيز عتيق (ص: ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠).

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ اعتراضٌ بيْنَ الجُمَلِ الَّتي سِيقتْ مساقَ التَّعليلِ وبيْنَ جُملةِ ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النَّبأ: ٣٠]، وفائدةُ هذا الاعتراضِ المُبادَرةُ بإعلامِهم أنَّ اللهَ لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أعمالِهم، فلا يَدَعُ شيئًا مِن سيِّئاتِهم إلَّا يُحاسِبُهم عليه؛ ما ذُكِر هنا وما لم يُذكَرْ، كأنَّه قيل: إنَّهم كانوا لا يَرْجون حِسابًا وكذَّبوا بآياتِنا، وفعَلوا ممَّا عدا ذلك، وكلُّ ذلك مُحصًى عندَنا[1].

وقيل: فائدةُ الاعتراضِ بقولِه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ الإشعارُ بأنَّ تكذيبَهم البعثَ والرُّسلَ والكُتبَ، إنَّما نشَأَ مِن اعتقادِهم أنَّه تعالى لا يَعلَمُ جُزئيَّاتِ أعمالِهم وأعمالِ الرُّسلِ، فلا حِسابَ ولا بعثةَ ولا كتابَ[2]!

- والإحصاءُ: حِسابُ الأشياءِ لضَبطِ عددِها، فالإحصاءُ كِنايةٌ عن الضَّبطِ والتَّحصيلِ[3].

- علَى أنَّ ﴿كِتَٰبًا﴾ مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ المطلَقةِ لـ ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾، والتَّقديرُ: إحصاءَ كِتابةٍ، فهو مَصدرٌ بمعنى الكِتابةِ، وهو كِنايةٌ عن شدَّةِ ضَبطِ الأمورِ؛ لأنَّ الأمورَ المكتوبةَ مَصونةٌ عن النِّسيانِ والإغفالِ، فباعتبارِ كَونِه كنايةً عن الضَّبطِ جاء مَفعولًا مطلَقًا لـ (أَحْصَيْنا)[4].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ هذا مُسبَّبٌ عن كُفرِهم

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٦٠).

بالحِسابِ، وتَكذيبِهم بالآياتِ، وهي آيةٌ في غايةِ الشِّدَّةِ، وناهيكَ بقولِه: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ ﴾، وبدَلالتِه على أنَّ تركَ الزِّيادةِ كالمُحالِ الَّذي لا يدخُلُ تحتَ الصِّحَّةِ، وبمجيئِها على طَريقةِ الالْتِفاتِ شاهدًا على أنَّ الغضبَ قد تَبالَغَ؛ وذلك أنَّه تعالى لَمَّا حكَى مآبَ الطَّاغينَ واستمرارَ لَبْثِهم في جهنَّمَ، وأنْ لا ذَوْقَ لهم فيها سِوى الحَميمِ والغَسَّاقِ، وعلَّلَ ذلك على سبيلِ الشِّكايةِ إلى الغيرِ بقولِه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾، أي: لا يَخافونَ أنْ يُحاسَبوا، كنايةً عن أنَّهم كانوا يُنكِرونَ البعثَ إنكارًا بليغًا، ثمَّ عظَّم شأنَ تكذيبِهم رُسلَ اللهِ ووحْيَه بصيغةِ التَّعظيمِ وأكَّدَه بقولِه: ﴿كِذَّابًا﴾ -الْتفَتَ إليهم قائلًا: فذُوقوا أيُّها الجاحِدونَ المكذِّبونَ ذلكم الغَسَّاقَ والحميمَ، وليس لكم عندي سِوى المزيدِ مِن أنواعِ العذابِ، هذا كما تشكو إلى النَّاسِ جانبًا، ثمَّ تُقبِلُ عليهم إذا حَميتَ في الشِّكايةِ مواجهًا بالتَّوبيخِ والذَّمِّ وإلزامِ الحُجَّةِ[1].

وقيل: الفاءُ في قولِه: ﴿فَذُوقُوا۟ ...﴾ للتَّفريعِ والتَّسبُّبِ على جملةِ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [النَّبأ: ٢١] وما اتَّصَلَ بها، ولَمَّا غُيِّرَ أسلوبُ الخبرِ إلى الخِطابِ بعدَ أنْ كان جاريًا بطريقِ الغَيبةِ، ولم يكنْ مَضمونُ الخبرِ ممَّا يَجري في الدُّنيا فيُظَنَّ أنَّه خِطابُ تهديدٍ للمُشركينَ؛ تَعيَّنَ أنْ يكونَ المُفرَّعُ قولًا مَحذوفًا دلَّ عليه (ذُوقوا) الَّذي لا يُقالُ إلَّا يومَ الجزاءِ، فالتَّقديرُ: فيُقالُ لهم: ذُوقوا... إلى آخِرِه؛ ولهذا فليس في ضميرِ الخِطابِ الْتفاتٌ، فالمُفرَّعُ بالفاءِ هو فعلُ القولِ المحذوفِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١، ٤٢).

- والأمرُ في ﴿فَذُوقُواْ﴾ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ والتَّقريعِ، والإهانةِ والتَّحقيرِ[١].

- وقيل: فُرِّع قولُه: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ على ﴿فَذُوقُواْ﴾ ما يَزيدُ تَنكيدَهم وتحسيرَهم بإعلامِهم بأنَّ اللهَ سيَزيدُهم عذابًا فوقَ ما هم فيه[٢].

- والزِّيادةُ المنفيَّةُ في قولِه: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ يجوزُ أنْ تكونَ زيادةً مِن نوعِ ما هم فيه مِن العذابِ بتكريرِه في المستقبَلِ، فصِيغَ التَّعبيرُ عن هذا المعنى بهذا التَّركيبِ الدَّقيقِ؛ إذ ابتُدِئ بنفْيِ الزِّيادةِ بحرفِ تأبيدِ النَّفْيِ (لن)، وأُردِفَ الاستثناءُ المقتضِي ثبوتَ نقيضِ حُكمِ المُستثنَى منه للمُستثنَى، فصارتْ دَلالةُ الاستثناءِ على معنى: سنَزيدُكم عذابًا مؤبَّدًا، وهذا مِن تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه، وهو أسلوبٌ طريفٌ مِن التَّأكيدِ؛ إذ ليس فيه إعادةُ لفظٍ؛ فإنَّ زيادةَ العذابِ تأكيدٌ للعذابِ الحاصلِ. ولَمَّا كان المقصودُ الوعيدَ بزيادةِ العذابِ في المستقبلِ؛ جيءَ في أسلوبِ نفيِه بحرفِ نفيِ المستقبَلِ، وهو (لَنْ) المفيدُ تأكيدَ النِّسبةِ المنفيَّةِ، وهي ما دلَّ عليه مجموعُ النَّفيِ والاستثناءِ؛ فإنَّ قيدَ تأبيدِ نفيِ الزِّيادةِ الَّذي يُفيدُه حرفُ (لَنْ) في جانبِ المُستثنَى منه، يَسْري إلى إثباتِ زيادةِ العذابِ في جانبِ المُستثنَى، فيكونُ معنى جملةِ الاستثناءِ: سنَزيدُكم عذابًا أبدًا، وهو معنى الخلودِ في العذابِ، وفي هذا الأسلوبِ ابتِداءٌ مُطْمِعٌ بانتهاءٍ مُؤْيِسٍ، وذلك أشدُّ حُزنًا وغمًّا بما يُوهِمُهم أنَّ ما أُلقُوا فيه هو منتهى التَّعذيبِ، حتَّى إذا ولَجَ ذلك أسماعَهم فحَزِنوا له، أُتْبِعَ بأنَّهم يَنتَظِرُهم عذابٌ آخَرُ أشَدُّ، فكان ذلك حُزنًا فوقَ حُزنٍ، فهذا مِنوالُ هذا النَّظمِ، وهو مُؤذِنٌ بشدَّةِ الغضبِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٢، ٤٣).

الآيات (٢١-٢٦)

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَفَازًا﴾: مصدرٌ كالفَوزِ، أي: فَوزًا ونَجاةً مِنَ النَّارِ، أو مكانَ فَوزٍ ونَجاةٍ وخَلاصٍ، أو ظفرًا بما يُريدونَ، يُقالُ: فازَ بالأمرِ، إذا ظَفِرَ به. والفوزُ: الظَّفَرُ، وأصلُ (فوز): يدُلُّ على نجاةٍ[1].

﴿حَدَآئِقَ﴾: أي: بَساتينَ، جَمْعُ حَديقةٍ، وهي كلُّ بُسْتانٍ عليه حائطٌ يُحدِقُ به، وما لم يكُنْ عليه حائطٌ لم يُقَلْ له حديقةٌ، ويُقالُ للقِطعةِ مِنَ النَّخلِ: حَديقةٌ، وقيل: الحديقةُ قِطعةٌ مِن الأرضِ ذاتُ ماءٍ، سُمِّيَتْ تشبيهًا بحَدَقةِ العَينِ في الهَيئةِ وحُصولِ الماءِ فيها، يُقالُ: حَدَقُوا به وأَحْدَقُوا: أحاطوا به، تشبيهًا بإدارةِ الحَدَقةِ، وأصلُ (حدق): هو الشَّيءُ يُحيطُ بشيءٍ[2].

﴿وَكَوَاعِبَ﴾: أي: جَوارِيَ نَواهِدَ قد تَكَعَّبَتْ ثُدِيُّهنَّ، والكاعِبُ: الجاريةُ إذا نَهَد ثَدْيُها، أي: ارتَفَع عن الصَّدْرِ، وأصلُ (كعب): يدُلُّ على نُتُوٍّ وارتفاعٍ في

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٣٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٦، ٥١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨، ١١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٣)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٣٥٤).

الشَّيءِ[١].

﴿أَتْرَابًا﴾: أي: مُتساوِياتٍ في السِّنِّ، والتِّرْبُ: هو الَّذي مَسَّ التُّرابَ مع تِرْبِه في وَقتٍ واحِدٍ، وأصلُ (ترب): يدُلُّ على تَساوي شَيئَينِ[٢].

﴿دِهَاقًا﴾: أي: مُتْرَعةً مَملوءةً، وقيل: مُتتابِعةً، وأصلُ (دهق): يدُلُّ على امتلاءٍ[٣].

﴿لَغْوًا﴾: أي: باطِلًا مِن القَولِ، وأصلُه يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به[٤].

﴿حِسَابًا﴾: أي: كافِيًا، يقالُ: شيءٌ حِسابٌ، أيْ: كافٍ، وأحْسَبْتُ فُلانًا، إذا أعطَيْتَه ما يُرْضِيه، وأعطيتُه الكِفايةَ حتَّى قال: حَسْبي، وأصلُ (حسب) هنا: الكِفايَةُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٣)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٦)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٠).

قال ابن جرير: (أصْلُه مِن الدَّهْقِ: وهو مُتابَعَةُ الضَّغْطِ على الإنسانِ بشِدَّةٍ وعُنْفٍ، وكذلك الكأْسُ الدِّهاقُ: مُتابَعَتُها على شارِبِيها بكَثرةٍ وامْتِلاءٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٥، ٢٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤٣٤)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٢٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٥).

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾

﴿حَدَآئِقَ﴾: بدَلٌ منصوبٌ مِنْ ﴿مَفَازًا﴾ بَدَلَ اشتِمالٍ، أو بدَلَ بَعضٍ مِن كُلٍّ باعتِبارِ أنَّه بَعضٌ مِن مَكانِ الفَوْزِ، أو بدَلَ كُلٍّ مِنْ كُلٍّ مُبالَغةً، بأَنْ جُعِلَتْ نفْسُ هذه الأشياءِ مَفازًا[1].

٢- قوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾

﴿جَزَآءً﴾: مَفعولٌ مُطلَقٌ لِفعلٍ محذوفٍ، تقديرُه: جازى المتَّقينَ بمَفازٍ جزاءً. ﴿عَطَآءً﴾ بَدَلٌ مِن ﴿جَزَآءً﴾ مَنصوبٌ مِثلَه.

﴿حِسَابًا﴾ نَعتٌ لـ﴿عَطَآءً﴾، والمعنى: كافيًا، فهو مصدرٌ مُؤَوَّلٌ بالمُشتَقِّ، مِنْ قَولِهم: أحسَبَني الشَّيءُ، أي: كَفاني[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا جزاءَ المتَّقينَ يومَ القيامةِ، وما أعدَّ لهم مِن النَّعيم: إنَّ للمُتَّقينَ فَوزًا بالجنَّةِ الَّتي يَظفَرونَ فيها بما يُريدونَ، ونَجاةً مِنَ النَّارِ؛ بَساتينَ وأعنابًا، ونِساءً شابَّاتٍ قد استدارَتْ أثداؤُهنَّ، مُتساوِياتٍ في السِّنِّ، وكُؤُوسًا مَملوءةً مِن خَمرِ الجَنَّةِ، مُتتابِعةً على شارِبيها، لا يَسمَعونَ في الجنَّةِ كَلامًا باطِلًا لا فائدةَ فيه، ولا تَكذيبًا؛ جزاءً مِن رَبِّك -يا محمَّدُ- عَطاءً كثيرًا كافيًا.

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٦١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ٨٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٦٣-٦٦٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى شيئًا مِن حالِ أهلِ النَّارِ؛ ذَكَر ما لأهلِ الجنَّةِ[(١)].

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١﴾.

أي: إنَّ للَّذين اتَّقَوا سَخَطَ اللهِ وعَذابَه بامتِثالِ أمْرِه واجتنابِ نَهْيِه: فَوزًا بالجنَّةِ الَّتي يَظفَرونَ فيها بما يُريدونَ، ونجاةً مِنَ النَّارِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣، ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤).

قيل: ﴿مَفَازًا﴾ أي: نجاةً مِن النَّارِ ومِن العذابِ الَّذي أُعِدَّ للكافِرين. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والماتُريديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والبغويُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٦٤)، ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٨).

ومِن المفسِّرينَ مَن قال: نجاةً مِن النَّارِ إلى الجنَّةِ. ومنهم: السمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١١٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠٠٦).

وقيل: ﴿مَفَازًا﴾ أي: مكانَ فَوزٍ ومَوضِعَه. وممَّن اختاره: ابنُ قُتَيْبَةَ، والسمعانيُّ، وابن عطية، والقرطبي، وأبو حيان، وجلال الدين المحلي، والشربيني، وابن عاشور. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٨)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣).

وقيل: المرادُ: الفوزُ بالجنَّةِ والنَّعيم، والظَّفَرُ بالمطلوبِ، والنَّجاةُ مِن النَّارِ. وممَّن اختاره: الواحديُّ، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾.

أي: بساتينَ مُحاطةً بالجُدْرانِ أو غَيْرِها، جامعةً لأصنافِ الأشجارِ المثمرةِ، ومِنها الأعنابُ(١).

= ٤٤٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٩٢).

وقال ابن جرير: (إنَّ للمتَّقينَ مَنْجًى مِن النَّارِ إلى الجنَّةِ، ومَخلَصًا منها لهم إليها، وظَفَرًا بما طَلَبوا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧).

وقال الواحدي: (والمَفازُ: مصدرٌ كالفَوزِ، والمعنى: أنَّ لهم فَوزًا بالجنَّةِ، ونَجاةً مِن النَّارِ، وهو معنى قولِ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (٢٣/ ١٣٦).

وقال الرازي: (والفوزُ يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ منه فوزًا بالمطلوبِ، وأن يكونَ المرادُ منه فوزًا بالنَّجاةِ مِن العذابِ، وأن يكونَ المرادُ مجموعَ الأمْرَين، وعندي أنَّ تفسيرَه بالفوزِ بالمطلوبِ أَولى مِن تفسيرِه بالفوزِ بالنَّجاةِ مِن العذابِ، ومِن تفسيرِه بالفوزِ بمجموعِ الأمْرَينِ -أعني: النَّجاةَ مِن الهلاكِ، والوُصولَ إلى المطلوبِ-؛ وذلك لأنَّه تعالى فسَّر المَفازَ بما بعْدَه، وهو قولُه: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ [النبأ: ٣٢]، فوجَبَ أن يكونَ المرادُ من المَفازِ هذا القدرَ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢١).

وقال ابن كثير: (يقولُ تعالى مخبرًا عن السُّعداءِ وما أعَدَّ لهم تعالى مِن الكرامةِ والنَّعيمِ المقيمِ، فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ والضَّحَّاكُ: مُتنزَّهًا. وقال مجاهدٌ، وقَتادةُ: فازوا، فنَجَوْا مِن النَّارِ. الأظهرُ هاهنا قولُ ابنِ عبَّاسٍ؛ لأنَّه قال بعدَه: ﴿حَدَآئِقَ﴾ وهي البساتينُ مِن النَّخيلِ وغيرِه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٨).

وقال ابن عثيمين: (المَفازُ هو مكانُ الفَوزِ، وزمانُ الفوزِ أيضًا؛ فهم فائزون في أمْكِنَتِهم، وفائزون في أيَّامِهم). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥).

وقال البِقاعي: (﴿مَفَازًا﴾ أي: فوزًا، ومَوضِعَ فَوزٍ، وزَمانَ فَوزٍ بالرَّاحةِ الدَّائمةِ مِن جميعِ ما مضى ذِكرُه للطَّاغينَ الَّذين هم أضْدادُهم). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر المساكِنَ النَّزِهةَ المُؤْنِقةَ المُعْجِبةَ؛ ذكَرَ ما يُتمَتَّعُ به(١).

﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾.

أي: ونِساءً شابَّاتٍ قد استدارَت أثداؤُهنَّ وبَرَزَت دونَ أن تتدلَّى للأسفَلِ، وهنَّ مُتساوِياتٌ في السِّنِّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٣٥ - ٣٨].

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾.

أي: وكُؤُوسًا مَملوءةً مِن خَمرِ الجَنَّةِ، صافيةً، مُتتابِعةً على شارِبيها(٣).

= (٨/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (المقدمة/ ٣٤).

قال الشوكاني: (المرادُ بالكأْسِ: الإناءُ المعروفُ، ولا يُقالُ له الكأسُ إلَّا إذا كان فيه الشَّرابُ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٥).

قال ابن الجوزي: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ فيه ثلاثةُ أقوال:

أحدُها: أنَّها المَلْأَى. رواه أبو صالحٍ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال الحسَنُ، وقَتادةُ، وابنُ زَيدٍ. =

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ۝٣٥﴾.

أي: لا يَسمَعُ المتَّقونَ في الجنَّةِ لَغَطًا أو كَلامًا باطِلًا لا فائِدةَ فيه، ولا يَكذِبونَ ولا يُكَذِّبُ بَعْضُهم بعضًا في حَديثِهم[1].

﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾.

أي: وهذا الجَزاءُ المذكورُ للمُتَّقينَ هو عَطاءٌ كافٍ وافِرٌ كثيرٌ مِن رَبِّك- يا محمَّدُ[2].

= والثَّاني: أنَّها المُتَتابِعةُ. رواه مجاهِدٌ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال ابنُ جُبَيرٍ. وعن مجاهِدٍ كالقولَين. والثَّالثُ: أنَّها الصَّافيةُ. قاله عِكْرِمةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٠). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٨).

والقولُ الأوَّلُ -أنَّ المرادَ بالدِّهاقِ: المُتْرَعةُ المُمتَلِئةُ- نسَبَه ابنُ عطيَّةَ إلى الجمهورِ، ونسَبَه الرَّازيُّ إلى أكثرِ أهلِ اللُّغةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٨)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٢).

وقال ابن جرير: (قولُه: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ يقولُ: وكأسًا مَلأَى مُتَتابِعةً على شارِبيها بكَثرةٍ وامْتِلاءٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩).

قال ابنُ عثيمين بعدَ أن ذكر الأقوالَ الثَّلاثةَ -مملوءةً، مُتَتابِعةً، صافيةً-: (لا مُنافاةَ بيْنَ هذه الأقوالِ، والآيةُ تحتَمِلُها؛ فتُحمَلُ عليها جميعًا، ويكونُ كُلُّ قَولٍ لنَوعٍ مِن المعنى). ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (المقدمة/ ٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣، ٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥).

قال الماوَرْدي: (﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ:

أحَدُها: كافيًا. قاله الكَلْبيُّ.

الثَّاني: كثيرًا. قاله قَتادةُ.

الثَّالث: حِسابًا لِما عَمِلوا. فالحِسابُ بمعنى العَدِّ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٨٩). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ ذَكَر اللهُ عزَّ وجَلَّ ما للمُتَّقينَ مِن النَّعيمِ بعدَ قَولِه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِّلطَّاغِينَ مَآبًا﴾؛ لأنَّ القرآنَ مَثَانٍ؛ إذا ذُكِرَ فيه العِقابُ ذُكِرَ فيه الثَّوابُ، وإذا ذُكِرَ الثَّوابُ ذُكِرَ العِقابُ، وإذا ذُكِرَ أهلُ الخيرِ ذُكِرَ أهلُ الشَّرِّ، وإذا ذُكِرَ الحقُّ ذُكِرَ الباطِلُ. مَثَانٍ؛ حتَّى يكونَ سَيْرُ الإنسانِ إلى ربِّه بيْن الخَوفِ والرَّجاءِ؛ لأنَّه إنْ غَلَبَ عليه الرَّجاءُ وَقَعَ في الأمْنِ مِن مَكْرِ اللهِ تعالى، وإنْ غَلَبَ عليه الخَوفُ وَقَعَ في القُنوطِ مِن رحمةِ اللهِ تعالى، وكِلاهما مِن كبائرِ الذُّنوبِ، كِلاهما شَرٌّ؛ قال الإمامُ أحمدُ بنُ حَنبَلٍ رحمه اللهُ: (يَنبغي أنْ يكونَ الإنسانُ في عبادتِه لربِّه بيْن الخَوفِ والرَّجاءِ، فأيُّهما غَلَبَ هَلَكَ صاحِبُه)؛ لذلك تَجِدُ القرآنَ الكريمَ يأتي بهذا وبهذا، ولئلَّا تَمَلَّ النُّفوسُ مِن ذِكْرِ حالٍ واحدةٍ والإسهابِ فيها دونَ ما يُقابِلُها، وهكذا؛ مِن

= وممَّن ذهب إلى المعنى الأول: الزَّجَّاجُ، والبَغويُّ، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ إلى جمهورِ المفَسِّرينَ واللُّغويِّينَ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٨).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّاني: ابنُ قتيبة، والفيروزابادي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٤٦٠).

قال القرطبي: (﴿حِسَابًا﴾ أي: كثيرًا، قاله قَتادةُ، يُقالُ: أحسَبْتُ فُلانًا، أي: كَثَّرْتُ له العطاءَ حتَّى قال: حَسْبي). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٤).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَين: الواحديُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٩).

والمعنى الثَّالثُ هو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧).

أجْلِ أنْ يكونَ الإنسانُ حينَ يَقرأُ القُرآنَ راغبًا راهبًا، وهذا مِن بلاغةِ القُرآنِ الكَريمِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ فيه سُؤالٌ: الخَلاصُ مِنَ الهَلاكِ أهَمُّ مِن حُصولِ اللَّذَّةِ، فلِمَ أُهمِلَ الأهمُّ، وذُكِرَ غيرُ الأهَمِّ؟

الجوابُ: لأنَّ الخلاصَ منِ الهَلاكِ لا يَستَلزِمُ الفَوزَ باللَّذَّةِ والخَيرِ، أمَّا الفوزُ باللَّذَّةِ والخَيرِ فيَستلزِمُ الخلاصَ مِنَ الهَلاكِ؛ فكان ذِكرُ هذا أَوْلى(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ عَبَّرَ عن أشجارِ الأعنابِ بثَمَرتِها؛ إعلامًا بأنَّها لا تُوجَدُ إلَّا مُوقَرةً حِمْلًا، وأنَّ ثَمرتَها هي جُلُّ مَنفَعتِها(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ شُروعٌ في بيانِ مَحاسنِ أحوالِ المُؤمنينَ، إثرَ بيانِ سوءِ أحوالِ الكفَرةِ(٤).

وجَرَى هذا الانتقالُ على عادةِ القُرآنِ الكريمِ في تَعقيبِ الإنذارِ للمُنذَرينَ بتبشيرِ مَن هم أهلٌ للتَّبشيرِ، فانتقَلَ مِن ترهيبِ الكافِرينَ بما سيُلاقونَه إلى ترغيبِ المتَّقينَ فيما أُعِدَّ لهم في الآخِرةِ مِن كرامةٍ ومِن سلامةٍ ممَّا وقَعَ فيه أهلُ الشِّركِ؛ فالجُملةُ مُتَّصلةٌ بجُملةِ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٢١- ٢٢]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤). ويُنظر أيضًا: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٣٥٩)، ((الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف)) للمرداوي (٦/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٢).

وهي مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا بمُناسَبةِ مُقْتضي الانتقالِ(١).

- وافتِتاحُ الجُملةِ بحرْفِ (إنَّ)؛ للدَّلالةِ على الاهتمامِ بالخبرِ؛ لئلَّا يشُكَّ فيه أحدٌ(٢).

- وتَقديمُ خبرِ (إنَّ) ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ على اسمِها ﴿مَفَازًا﴾؛ للاهتِمامِ به تنويهًا بالمتَّقينَ(٣).

- وتَنوينُ ﴿مَفَازًا﴾ للتَّعظيمِ(٤).

- والمرادُ بالمَفازِ: الجنَّةُ ونعيمُها، وأُوثِرَتْ كلمةُ ﴿مَفَازًا﴾ على كلمةِ (الجنَّة)؛ لأنَّ في اشتقاقِه إثارةَ النَّدامةِ في نُفوسِ المخاطَبينَ بقولِه: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النَّبأ: ١٨]، وبقولِه: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾(٥) [النَّبأ: ٣٠].

٢- قولُه تعالَى: ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾

- قَولُه: ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ التَّنكيرُ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَعْنَابًا﴾ يدُلُّ على تعظيمِ حالِ تلك الأعنابِ(٦).

- قَولُه: ﴿وَأَعْنَابًا﴾ خَصَّ أشجارَ العِنَبِ؛ لِطيبِها وحُسْنِها وشَرَفِها، وما فيها مِن لذَّةِ الذَّوقِ(٧).

وفيه وَجهٌ آخَرُ: أنَّه خَصَّها؛ لكَثْرتِها في تلك الحَدائِقِ(٨).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢١).

(٧) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٩).

(٨) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧).

- قولُه: ﴿وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا﴾ أُريدَ بالكأسِ الجِنسُ؛ إذ المعنى: وأَكْؤُسًا، وعُدِلَ عن صِيغةِ الجمْعِ؛ لأنَّ (كأسًا) بالإفرادِ أخَفُّ مِن أَكْؤُسٍ وكُؤوسٍ، ولأنَّ هذا المركَّبَ جرى مَجرى المَثَلِ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا﴾

- قولُه: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا﴾ يجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ المجرورُ عائدًا إلى الكأسِ، فتكونَ (في) للظَّرفيَّةِ المُفيدةِ تَشبيهَ تَناوُلِ النَّدامى (أي: المُجالسينَ على الشَّرابِ) للشَّرابِ مِن الكأسِ بحُلولِهم في الكأسِ، أو تكون (في) للتَّعليلِ، كما في الحديثِ: ((دَخَلَتِ امرأةٌ النَّارَ في هِرَّةٍ))[2] الحديثَ، أي: مِن أجْلِ هِرَّةٍ، والمعنى: لا يَسمَعونَ لغوًا ولا كِذَّابًا منها أو عندَها، فتكون الجملةُ صفةً ثانيةً لـ (كأسًا). ويجوزُ أنْ يعودَ ضميرُ (فيها) إلى ﴿مَفَازًا﴾ باعتبارِ تأويلِه بالجنَّةِ؛ لوُقوعِه في مُقابَلةِ ﴿جَهَنَّمَ﴾ مِن قولِه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا﴾ [النَّبأ: ٢١]، أو لأنَّه أَبدَلَ ﴿حَدَآئِقَ﴾ مِن ﴿مَفَازًا﴾، وهذا المعنى نشَأَ عن أسلوبِ نَظمِ الكلامِ، حيثُ قُدِّمَ ﴿حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا﴾ إلخ، وأُخِّرَ ﴿وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا﴾، حتَّى إذا جاءَ ضميرُ (فيها) بعدَ ذلك جازَ إرجاعُه إلى الكأسِ وإلى المَفازِ، وهذا مِن بديعِ الإيجازِ مع وَفْرةِ المَعاني، أي: لا يَسمَعون في الجنَّةِ الكلامَ السَّافلَ ولا الكذبَ، فلمَّا أحاطَ بأهلِ جهنَّمَ أشَدُّ الأذَى بجميعِ حواسِّهم مِن جرَّاءِ حرقِ النَّارِ، وسَقْيِهم الحميمَ والغَسَّاقَ؛ لِيَنالَ العذابُ بواطنَهم، كما نالَ ظاهرَ أجسادِهم، كذلك نَفى عن أهلِ الجنَّةِ أقلَّ الأذى، وهو أذى سماعِ ما يَكرَهُه النَّاسُ؛ فإنَّ ذلك أقلُّ الأذى[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٣٣١٨)، ومسلمٌ (٢٦١٩) مطوَّلًا مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥، ٤٦).

- وكُنِّيَ عن انتفاءِ اللَّغوِ والكِذَّابِ عن شاربي خمْرِ الجنَّةِ بأنَّهم لا يَسمَعونَ اللَّغوَ والكِذَّابَ فيها؛ لأنَّه لو كان فيها لَغوٌ وكذبٌ لَسَمِعوه، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ أهلَ الجنَّةِ مُنزَّهةٌ أسماعُهم عن سَقَطِ القولِ وسُفْلِ الكلامِ[1].

٤- قولُه تعالَى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾

- قولُه: ﴿جَزَآءً﴾ مَفعولٌ مطلَقٌ لفعلٍ مَحذوفٍ، أي: جَزاهم اللهُ بذلك جزاءً، أو جَزَيْنا المتَّقينَ. وقولُه: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ نعتٌ لـ ﴿جَزَآءً﴾، و﴿عَطَآءً﴾ بدَلٌ مِن ﴿جَزَآءً﴾، وفي هذا البدلِ سِرٌّ لطيفٌ، وهو الإلْماعُ إلى أنَّ ذلك تَفضُّلٌ وعَطاءٌ وجَزاءٌ مَبنيٌّ على الاستحقاقِ[2].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ ابتدائيَّةٌ، أي: صادرًا مِن لَدُنِ اللهِ، وذلك تَنويهٌ بكَرَمِ هذا الجزاءِ، وعِظَمِ شَأنِه[3].

- والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ المُنْبئةِ عن التَّبليغِ إلى الكَمالِ شيئًا فشيئًا، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ مَزيدُ تشريفٍ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[4]. وأيضًا إضافةُ (ربّ) إلى ضميرِ المخاطَبِ مُرادًا به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ للإيماءِ إلى أنَّ جَزاءَ المتَّقينَ بذلك يَشتمِلُ على إكرامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ إسداءَ هذه النِّعمِ إلى المتَّقينَ كان مِن أجْلِ إيمانِهم به، وعمَلِهم بما هداهُم إليه[5].

- وُصِف الجزاءُ بـ﴿عَطَآءً﴾ وهو اسمٌ لِما يُعطى، أي: يُتفضَّلُ به بدونِ عِوَضٍ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦، ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧).

للإشارةِ إلى أنَّ ما جُوزوا به أَوفَرُ ممَّا عَمِلوه، فكان ما ذُكِر للمتَّقينَ مِن المَفازِ وما فيه جَزاءً شكرًا لهم، وعطاءً كرَمًا مِن اللهِ تعالى وكرامةً لهذه الأُمَّةِ؛ إذ جعَلَ ثوابَها أضعافًا[١].

- وقولُه: ﴿حِسَابًا﴾ نعْتٌ لـ﴿عَطَآءً﴾، والمعْنى: كافيًا، فهو مَصدَرٌ أُقِيمَ مُقامَ الوصْفِ، أو باقٍ على مَصدريَّته مُبالَغةً[٢].

- وتَنوينُ ﴿حِسَابًا﴾ للتَّكثيرِ[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧).

الآيات (٣٧-٤٠)

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿مَـَٔابًا﴾: أي: مَرْجِعًا يَرْجِعُ إليه بالطَّاعةِ والعملِ الصَّالحِ، وأصلُ (أوب): يدُلُّ على الرُّجوعِ(١).

مُشكِلُ الإعرابِ:

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾

﴿رَّبِّ﴾ بَدَلٌ أو نَعتٌ لـ﴿رَّبِّكَ﴾ في قولِه: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ [النبأ: ٣٦]، مجرورٌ مِثْلَه.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ نَعتٌ أو بَدَلٌ لـ﴿رَّبِّ﴾ الثَّاني.

- وقُرِئَ برَفعِ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مِن أوجُهٍ؛ أحدُها: أن يكونَ «رَبُّ» خبَرَ مُبتَدَأٍ محذوفٍ، أي: هو رَبُّ. و«الرَّحمنُ» كذلك، أو هو مبتدأٌ خَبَرُه «لا يَملِكونَ». الثَّاني: أن يكونَ «رَبُّ» مبتدأً، و«الرَّحمنُ» خبَرَه، و«لا يملِكونَ» خبرًا ثانيًا، أو مُستأنَفٌ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨).

الثَّالثُ: أن يكونَ «رَبُّ» مُبتدأً، و«الرَّحمنُ» نعتًا له، و«لا يملِكونَ» خبَرَ «رَبُّ».

- وقُرِئَ بجَرِّ الأوَّلِ ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على البَدَلِ أو النَّعْتِ لـ ﴿رَبِّكَ﴾ كما تقدَّمَ، ورَفعِ الثَّاني ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ على الابتداءِ[1]، والخَبَرُ ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾، أو على أنَّه خَبَرُ مبتدأٍ محذوفٍ، و﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ مُستأنفٌ أو خَبَرٌ ثانٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا عَظَمتَه وجلالَه: جزاءً مِن ربِّك ربِّ السَّمواتِ السَّبعِ والأرضِ وما بيْنَهما مِنَ الخَلْقِ؛ الرَّحْمَنِ، لا يَقْدِرُ أحَدٌ مِنَ الخَلْقِ على مُخاطَبتِه -سُبحانَه وتعالى- يومَ القيامةِ بلا إذْنٍ، يَومَ يقومُ جِبريلُ والملائِكةُ مُصْطَفِّينَ بخُضوعٍ للهِ تعالى، لا يَتكَلَّمونَ إلَّا مَن أَذِنَ اللهُ له، وقال قولًا حَقًّا مَرْضِيًّا للهِ تعالى، ذلك اليَومُ واقِعٌ لا مَحالةَ، فمَن شاء عَمِلَ عَمَلًا صالِحًا يَرجِعُ به إلى اللهِ تعالى.

ثُمَّ يختِمُ اللهُ سُبحانَه السُّورةَ الكريمةَ بإنذارٍ بليغٍ، فيقولُ: إنَّا حَذَّرْناكم -أيُّها النَّاسُ- عَذابًا قَريبًا يومَ يَنظُرُ كُلُّ إنسانٍ إلى ما عَمِلَه في حياتِه، ويَقولُ الكافِرُ: يا لَيْتَني كُنتُ تُرابًا؛ فلا أُعذَّبَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابًا ٣٧﴾.

---

(١) قرأ ابنُ عامرٍ، ويعقوبُ، والكوفيُّونَ: ﴿رَبِّ﴾ بكسرِ الباءِ، والباقونَ بضَمِّها. وقرأ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بالكسرِ: ابنُ عامرٍ وعاصِمٌ ويعقوبُ، والباقونَ بضَمِّها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ٨٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٦٣ - ٦٦٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ سُبحانَه سَعةَ فَضْلِه؛ وَصَف نَفْسَه الأقدَسَ بما يَدُلُّ على عَظَمتِه؛ زيادةً في شَرَفِ المُخاطَبِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ عَظَمةَ العبدِ على حسَبِ عَظَمةِ السَّيِّدِ، فقال[(١)]:

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

أي: خالِقِ ومالِكِ ومدَبِّرِ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما مِن المخلوقاتِ، الرَّحمنِ الَّذي وَسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ[(٢)].

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾.

أي: لا يَقْدِرُ أحَدٌ مِنَ الخَلْقِ على مُخاطَبةِ اللهِ -سُبحانَه وتعالى- يومَ القيامةِ بلا إذْنٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠).

ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ يعودُ على جميعِ الخَلقِ مِن أهلِ السَّمواتِ والأرضِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والزمخشري، والرازي، والبيضاوي، والعُلَيمي، والألوسي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩١)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٦٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨).

وقال ابن عثيمين: (وقولُه: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ يعني: أنَّ النَّاسَ لا يَملِكونَ الخِطابَ مِن اللهِ، ولا يَستطيعُ أحدٌ أن يَتكلَّمَ إلَّا بإذْنِ اللهِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٦).

وقال ابن عطيَّة: (وقولُه تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ الضَّميرُ للكفَّارِ، أي: لا يَملِكونَ مِن أفضالِه وأجمالِه أن يُخاطِبوه بمَعذِرةٍ ولا غيرِها، وهذا في موطنٍ خاصٍّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٨). =

كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر أنَّ أحَدًا مِنَ الخَلْقِ لا يُمكِنُه أن يُخاطِبَ اللهَ في شَيءٍ، أو

= وقال أبو حيَّان: (والضَّميرُ في ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ عائدٌ على المشرِكين، قاله عَطاءٌ عن ابنِ عبَّاسٍ، أي: لا يُخاطِبُ المشرِكون اللهَ. أمَّا المؤمنونَ فيشفَعون، ويَقبَلُ اللهُ ذلك منهم. وقيل: عائدٌ على المؤمنينَ، أي: لا يَملِكونَ أن يُخاطِبوه في أمرٍ مِن الأمورِ؛ لعِلْمِهم أنَّ ما يَفعَلُه عدلٌ منه. وقيل: عائدٌ على أهلِ السَّمواتِ والأرضِ. والضَّميرُ في ﴿مِنْهُ﴾ عائدٌ عليه تعالى). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٠).

وقال الشوكاني: (﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي: لا يَملِكونَ أن يَسألوا إلَّا فيما أذِن لهم فيه. وقال الكِسائيُّ: لا يَملِكونَ منه خِطابًا بالشَّفاعةِ إلَّا بإذْنِه. وقيل: الخِطابُ: الكلامُ، أي: لا يَملِكونَ أن يُخاطِبوا الرَّبَّ سُبحانَه إلَّا بإذنِه؛ دليلُه: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥]). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٦).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: لا يَتكلَّمونَ مع الله، ويُمنَعون مِن الكلامِ معه: الثعلبيُّ، والسمعاني، والخازن، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١١٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٤٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٦).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: لا يَملِكونَ الكلامَ بالشَّفاعةِ إلَّا بإذْنِه: السمرقنديُّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٦٦).

قال البيضاوي: (﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ ... أي: لا يَملِكونَ خِطابَه، والاعتِراضَ عليه في ثَوابٍ أو عِقابٍ؛ لأنَّهم مَمْلوكونَ له على الاطلاقِ، فلا يَستَحِقُّونَ عليه اعتِراضًا، وذلك لا يُنافي الشَّفاعةَ بإذْنِه). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١).

وقال الماتُريدي: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾؛ هَيْبةً من الله تعالى، وتعظيمًا لحقِّه؛ فلا يَملِكونَ مِن هَيْبَتِه الخِطابَ بالشَّفاعةِ أو بالخُصومةِ أو بأيِّ شيءٍ كان). ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٤٠٠).



يُطالِبَه بشَيءٍ؛ قرَّر هذا المعنى وأكَّدَه(١)، فقال:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ﴾.

أي: وذلك واقِعٌ يَومَ يقومُ جِبريلُ وجميعُ الملائِكةِ مُصْطَفِّينَ بخُضوعٍ للهِ تعالى(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٣)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨).

قال النَّسَفي: (﴿يَوْمَ يَقُومُ﴾ إنْ جعَلْتَه ظَرفًا لـ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ لا تَقِفُ على خِطابًا، وإنْ جعَلْتَه ظَرفًا لـ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ تَقِفُ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٣).

وممَّن ذَهَب إلى أنَّه ظَرفٌ لِقَولِه تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالرُّوحِ هنا جِبريلُ عليه السَّلامُ: القاسميُّ، والسعدي، وابن عثيمين، ونَسَبه النَّسَفيُّ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ، والشَّعبيُّ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٩).

وقيل: هم بنو آدَمَ. وقد مال إلى هذا القولِ: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٢).

وقيل غَيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٩).

قال ابن حجر: (وقد روى ابنُ إسحاقَ في تفسيرِه بإسنادٍ صحيحٍ عن ابنِ عبَّاسٍ، قال: الرُّوحُ مِن اللهِ، وخَلقٌ مِن خَلقِ اللهِ، وصوَرٌ كبني آدَمَ، لا ينزِلُ ملَكٌ إلَّا ومعه واحدٌ مِن الرُّوحِ. وثبت عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّه كان لا يُفسِّرُ الرُّوحَ، أي: لا يُعَيِّنُ المرادَ به في الآيةِ). ((فتح الباري)) (٨/ ٤٠٢).

وقد توقَّفَ ابنُ جَريرٍ في معنى الرُّوحِ في هذه الآيةِ، فذَهَب إلى أنَّه خَلقٌ مِن خَلْقِ اللهِ تعالى، =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾.

أي: لا يَتكَلَّمونَ يومَ القيامةِ إلَّا مَن أَذِنَ اللهُ له في الكلامِ، وقال قولًا حَقًّا صائِبًا مُوافِقًا لِمَرْضاةِ اللهِ تعالى[1].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قَرَّر أحوالَ المكَلَّفينَ في دَرَجاتِ الثَّوابِ والعِقابِ، وقَرَّر عَظَمةَ يومِ القيامةِ؛ قال بَعْدَه[2]:

= اللهُ أعلَمُ به؛ فجائِزٌ أن يكونَ الرُّوحُ جِبريلَ، أو أرواحَ بني آدَمَ، أو غيرَ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٧، ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٧).

قيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ عائدٌ على جميعِ الخَلْقِ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٧).

واستظهر الواحديُّ أنَّ المرادَ الملائكةُ، واختاره السَّمعانيُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٤٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٤٢).

وقيل: هو عائِدٌ على الرُّوحِ والملائكةِ. وقد جوَّز هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٥).

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾.

أي: ذلك اليَومُ العَظيمُ كائِنٌ لا مَحالةَ، ولا شَكَّ في وُقوعِه(١).

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾.

أي: فمَن شاء عَمِلَ عَمَلًا صالِحًا يَرجِعُ به إلى اللهِ تعالى(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٤).

قال الماوَرْدي: (﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ يعني: يومَ القيامةِ، وفي تسميتِه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ وجْهانِ؛ أحدُهما: لأنَّ مجيئَه حقٌّ، وقد كانوا على شَكٍّ. الثَّاني: أنَّ اللهَ تعالى يَحكُمُ فيه بالحقِّ بالثَّوابِ والعِقابِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩٠).

ممَّن اختار الوجهَ الأوَّلَ -أي: أنَّه الكائنُ لا مَحالةَ، المُتحَقِّقُ الواقعُ الثَّابتُ وُقوعُه-: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابن عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، وابن جُزَي، والخازن، وأبو حيَّان، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠١٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٩٤).

قال السعدي: (﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ﴾ هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الَّذي لا يَرُوجُ فيه الباطِلُ، ولا يَنفَعُ فيه الكَذِبُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨).

وقال ابن عثيمين: (الثَّابتُ الَّذي يقومُ فيه الحَقُّ، ويقومُ فيه العَدْلُ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٧). =

كما قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠].

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾.

أي: إنَّا حَذَّرْناكم -أيُّها النَّاسُ- عَذابًا قد دنا وقرُبَ منكم[1].

= قال البِقاعي: (﴿مَئَابًا﴾ أي: مَرجِعًا هو المرجِعُ مِمَّا يَحصُلُ له فيه الثَّوابُ بالإيمانِ والطَّاعةِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢١٤).

وقال السعدي: (﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَئَابًا﴾ أي: عَمَلًا وقَدَمَ صِدْقٍ يَرجِعُ إليه يومَ القيامةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٧).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ العذابُ في الآخرة، فكُلُّ ما هو آتٍ قريبٌ: السمرقنديُّ، والثعلبي، والبغوي، وابن عطية، وابن كثير، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٠)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٢٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٧).

قال القرطبي: (الأظهَرُ أنَّه عذابُ الآخرةِ، وهو الموتُ والقيامةُ؛ لأنَّ مَن مات فقد قامت قيامتُه، فإن كان مِن أهلِ الجنَّةِ رأى مَقعَدَه مِنَ الجَنَّةِ، وإن كان من أهلِ النَّارِ رأى الخِزْيَ والهَوانَ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٨).

وقال البيضاوي: (﴿أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني: عذابَ الآخِرةِ، وقُرْبُه لتحَقُّقِه؛ فإنَّ كُلَّ ما هو آتٍ قريبٌ، ولأنَّ مَبدَأَه الموتُ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١).

وقيل: المرادُ بقَولِه: ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾: العذابُ في الدُّنيا، يعني: القَتلَ ببَدرٍ، وهلاكَ الأُمَمِ الخاليةِ، وإنَّما قال: ﴿قَرِيبًا﴾؛ لأنَّها أقرَبُ مِن الآخرةِ. قاله مقاتِلٌ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٦٦).

وقال ابنُ عاشور: (العَذابُ يَصْدُقُ بعذابِ الآخِرةِ، وهو ما تقَدَّم الإنذارُ به، ويَصدُقُ بعذابِ الدُّنيا مِن القَتلِ والأسْرِ في غَزَواتِ المسلِمينَ لأهلِ الشِّرْكِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۞ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦، ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾.

أي: وذلك يومَ يَنظُرُ كُلُّ إنسانٍ إلى ما عَمِلَه مِن قَبْلُ في حياتِه[1].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦، ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين - جزء عم)) (ص: ٣٨).
ممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿ٱلْمَرْءُ﴾ عامٌّ للمؤمنِ والكافرِ: السمرقنديُّ، والواحدي، والرازي، والبيضاوي، والعُلَيمي، والشربيني، والألوسي، وابن عثيمين، ونسَبَه الرَّسْعَنيُّ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٧)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٧٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٦٠).
قال الواحدي: (والظَّاهِرُ أنَّ ﴿ٱلْمَرْءُ﴾ عامٌّ في كُلِّ أحدٍ؛ لأنَّ كُلَّ أحدٍ يرى في ذلك اليومِ ما كَسَب وقَدَّم وأخَّرَ مِن خيرٍ وشَرٍّ مُثبَتًا عليه في صحيفتِه). ((البسيط)) (٢٣/ ١٥٠).
وقال البقاعي: (﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾ أي: جِنْسُه، الصَّالحُ منه والطَّالِحُ، نظرًا لا مِرْيةَ فيه ﴿مَا﴾ أي: الَّذي ﴿قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: كَسَبَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢١٥).
وقيل: المرادُ به هنا: المؤمنُ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والشَّوكانيُّ، وهو قولُ الحسَنِ، وقَتادةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٦).
وقيل: المرادُ بالمرءِ هنا: الكافرُ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، وهو قولُ عَطاءٍ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩١)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٦).
قال الزمخشري: (﴿مَا﴾ يجوزُ أن تكونَ استفهاميَّةً منصوبةً بـ﴿قَدَّمَتْ﴾، أي: ينظُرُ أيَّ شَيءٍ قدَّمَتْ يَداه، ومَوصولةً منصوبةً بـ﴿يَنظُرُ﴾). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٢).

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[الزلزلة: ٦ - ٨].

﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾.

أي: ويَقولُ الكافِرُ مُتحَسِّرًا يومَئِذٍ: يا لَيْتَني كُنتُ تُرابًا(١)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠، ٣١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٨).

قال ابنُ عثيمين: (﴿كُنْتُ تُرَابًا﴾ تحتَمِلُ ثلاثةَ مَعانٍ:

المعنى الأوَّلُ: يا لَيْتَني كنتُ ترابًا فلم أُخلَقْ؛ لأنَّ الإنسانَ خُلِقَ مِن ترابٍ.

المعنى الثَّاني: يا ليتَني كنتُ ترابًا فلم أُبعَثْ، يعني: كُنتُ ترابًا في أجوافِ القُبورِ.

المعنى الثَّالثُ: أنَّه إذا رأى البهائِمَ الَّتي قضى اللهُ بيْنَها، وقال لها: كُوني تُرابًا، فكانت ترابًا؛ قال: لَيْتَني كنتُ تُرابًا، أي: كما كانت هذه البهائِمُ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٧).

وممَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ: الكرمانيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّالثِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والواحدي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠١٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٦٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عبدُ الله بنُ عَمرٍو، وأبو هُرَيرةَ، وأبو الزِّنادِ عبدُ الله بنُ ذَكْوانَ، وسُفْيانُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤-٥٦).

قال الواحدي: (قال جماعةُ المفسِّرينَ: وذلك أنَّ اللهَ تعالى يَحشُرُ الدَّوابَّ، والبهائمَ، والوحشَ، فيقتصُّ لبعضِها مِن بعضٍ، ثمَّ يُقالُ لها: كُوني تُرابًا، فيَتَمَنَّى الكافرُ عندَ ذلك أنَّه كان ترابًا). ((البسيط)) (٢٣/ ١٥٠).

وقال ابن كثير: (وقد ورد معنى هذا في حديثِ الصُّورِ المشهورِ، وورد فيه آثارٌ عن أبي هُرَيرةَ، =

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[1] [النساء: ٤٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ ذِكْرُ وَصْفِ الكافِرِ يُفهَمُ منه أنَّ المؤمِنَ ليس كذلك؛ لأنَّ المؤمِنَ وإن عَمِلَ بَعضَ السَّيِّئاتِ، وتوَقَّع العِقابَ على سَيِّئاتِه؛ فهو يَرْجو أن تكونَ عاقِبتُه إلى النَّعيمِ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ (ما) مَوصولةٌ، وهي مِن صِيَغِ العُمومِ، وقد استُفيدَ مِن ذلك تعميمُ رُبوبيَّتِه سُبحانَه على جميعِ المصنوعاتِ[3].

٢- قولُه تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ الغرضُ مِن ذِكرِ هذا إبطالُ اعتذارِ المُشركينَ حينَ استشعَروا شناعةَ عبادتِهم الأصنامَ الَّتي شهَّرَ القرآنُ بها، فقالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[4] [الزمر: ٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ

= وعبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو، وغيرِهما). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١١).

(١) قال مكِّي: (قولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [النساء: ٤٢] الآيةَ. يومَ يَجيءُ مِن كلِّ أُمَّةٍ شهيدٌ، يتمنَّى الكافِرون ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: يَصيرون ترابًا مِثلَها، كما قال: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (٢/ ١٣٣٣). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٠).

﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ لِمَن يقولُ بتفضيلِ الملَكِ على البَشَرِ أن يتمَسَّكَ بهذه الآيةِ؛ وذلك لأنَّ المقصودَ مِن الآيةِ أنَّ الملائِكةَ لَمَّا بَقُوا خائِفينَ خاضِعينَ وَجِلينَ مُتحَيِّرينَ في مَوقِفِ جَلالِ اللهِ، وظُهورِ عِزَّتِه وكِبْريائِه، فكيف يكونُ حالُ غَيْرِهم؟! ومعلومٌ أنَّ هذا الاستِدلالَ لا يَتِمُّ إلَّا إذا كانوا أشرَفَ المخلوقاتِ(١).

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ إطلاقُ صِفةِ الرَّحمنِ على مَقامِ الجلالةِ إيماءٌ إلى أنَّ إذْنَ اللهِ لِمَن يَتكلَّمُ في الكلامِ أثَرٌ مِن آثارِ رحْمَتِه؛ لأنَّه أَذِنَ فيما يحصُلُ به نفعٌ لأهلِ المَحشَرِ مِن شفاعةٍ أو استغفارٍ(٢).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ فيه سؤالٌ: لَمَّا أَذِنَ له الرَّحمنُ في ذلك القَولِ عُلِمَ أنَّ ذلك القولَ صوابٌ لا محالةَ، فما الفائِدةُ في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ الرَّحمنَ أذِنَ له في مُطلَقِ القَولِ، ثمَّ إنَّهم عندَ حُصولِ ذلك الإذْنِ لا يتكَلَّمونَ إلَّا بالصَّوابِ، فكأنَّه قيل: إنَّهم لا يَنطِقونَ إلَّا بعدَ وُرودِ الإذنِ في الكلامِ، ثمَّ بَعْدَ وُرودِ ذلك الإذْنِ يَجتَهِدونَ ولا يتكَلَّمونَ إلَّا بالكلامِ الَّذي يَعلَمونَ أنَّه صِدقٌ وصَوابٌ، وهذا مُبالَغةٌ في وَصْفِهم بالطَّاعةِ والعُبوديَّةِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٤).

والصَّوابُ في هذه المسألةِ التَّفصيلُ: وهو أنَّ صالِحي البَشَرِ أفضَلُ باعتبارِ كَمالِ النِّهايةِ، والملائكةَ أفضَلُ باعتبارِ البدايةِ؛ فإنَّ الملائكةَ الآنَ في الرَّفيقِ الأعلى مُنزَّهينَ عمَّا يُلابِسُه بنو آدَمَ، مُستَغرِقينَ في عبادةِ الرَّبِّ سُبحانَه، ولا ريبَ أنَّ هذه الأحوالَ الآنَ أكمَلُ مِن أحوالِ البَشَرِ، وأمَّا يومَ القيامةِ بعدَ دُخولِ الجنَّةِ، فيَصيرُ حالُ صالِحي البَشَرِ أكمَلَ مِن حالِ الملائكةِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٥٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣).

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ تقديرَه: لا يَتكَلَّمونَ إلَّا في حَقِّ مَن أَذِنَ له الرَّحمنُ، وقال صوابًا، والمعنى: لا يَشفَعونَ إلَّا في حَقِّ شَخصٍ أَذِنَ له الرَّحمنُ في شفاعتِه، وذلك الشَّخصُ كان ممَّن قال صَوابًا(١).

أو أنَّه لا يتكلَّمُ أحدٌ إلَّا بهذَينِ الشَّرطَينِ: أن يأذَنَ اللهُ له في الكلامِ، وأن يكونَ ما تكلَّمَ به صوابًا(٢).

٦- أنَّ الإيمانَ بالقَدَرِ لا يُنافي أنْ يكونَ للعَبْدِ مَشيئةٌ في أفعالِه الاختياريَّةِ وقُدْرتِه عليها؛ قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾(٣).

٧- قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ دلَّ على أنَّه مآبُ خَيرٍ؛ لأنَّ اللهَ لا يَرضى إلَّا بالخيرِ(٤).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَـٰكُمۡ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ سَمَّاه إنذارًا؛ لأنَّه تعالى بهذا الوَصْفِ قد خَوَّف منه نهايةَ التَّخويفِ، وهو معنى الإنذارِ(٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابًا﴾

- قولُه: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ قُرِئَ برفعِ ﴿رَبِّ﴾ ورفعِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، فـ (ربُّ) خبرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ هو ضميرٌ يعودُ على قولِه: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ [النَّبأ: ٣٦]، على طَريقةِ حذفِ المسنَدِ إليه لاتِّباعِ الاستِعمالِ الواردِ على تَرْكِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨).

(٣) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ١١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٦).

أي: في المقامِ الَّذي يَجْري استِعمالُ البُلغاءِ فيه على حذْفِ المسنَدِ إليه[١].

- وأُتْبِعَ وصفُ ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بذِكرِ اسمٍ مِن أسمائِه الحُسنى، وهو اسمُ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، وخُصَّ بالذِّكرِ دونَ غيرِه مِن الأسماءِ الحُسنى؛ لأنَّ في معناه إيماءً إلى أنَّ ما يُفيضُه مِن خيرٍ على المتَّقينَ في الجنَّةِ هو عطاءُ رحمنٍ بهم[٢].

- وفي ذِكرِ هذه الصِّفةِ الجليلةِ تعريضٌ بالمُشرِكينَ؛ إذ أنكَروا اسمَ الرَّحمنِ الواردَ في القرآنِ، كما حَكى اللهُ عنهم بقولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[٣] [الفرقان: ٦٠].

- قولُه: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ استِئنافٌ مقرِّرٌ لِما أفادَهُ الرُّبوبيَّةُ العامَّةُ مِن غايةِ العظَمةِ والكبرياءِ، واستقلالِه تعالى بما ذُكِر مِن الجزاءِ والعطاءِ مِن غيرِ أنْ يكونَ لأحدٍ قُدرةٌ عليه، والمرادُ نفيُ قُدرتِهم على أنْ يُخاطِبوه تعالى بشيءٍ مِن نقصِ العذابِ أو زيادةِ الثَّوابِ مِن غيرِ إذْنِه على أبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه[٤].

ويجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ حالًا مِن (مَا بَيْنَهُمَا)؛ لأنَّ ما بيْنَ السَّمواتِ والأرضِ يَشملُ ما في ذلك مِن المخلوقاتِ العاقلةِ، أو المزعومِ لها العقلُ مِثلِ الأصنامِ، فيُتوهَّمُ أنَّ مِن تلك المخلوقاتِ مَن يَستطيعُ خِطابَ اللهِ ومُراجَعتَه. ويجوزُ أنْ تكونَ استِئنافًا ابتدائيًّا لإبطالِ مَزاعمِ المُشرِكينَ، أو للاحتراسِ لدفْعِ توهُّمِ أنَّ ما تُشعِرُ به صلةُ (ربِّ) مِن الرِّفقِ بالمَربوبينَ في تدبيرِ شؤونِهم يُسيغُ إقدامَهم على خِطابِ الرَّبِّ تعالى[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩).

- وفعلُ ﴿يَمْلِكُونَ﴾ يعُمُّ؛ لوُقوعِه في سِياقِ النَّفيِ كما تعُمُّ النَّكِرةُ المنفيَّةُ، و﴿خِطَابًا﴾ عامٌّ أيضًا، وكِلاهُما مِن العامِّ المخصوصِ بمُخصِّصٍ منفصِلٍ؛ كقولِه عَقِبَ هذه الآيةِ: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النَّبأ: ٣٨]، وقولِه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥]، وقولِه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقولِه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[١] [الأنبياء: ٢٨].

- والتَّنكيرُ في ﴿خِطَابًا﴾ للتَّقليلِ، و(مِنْ) بيانٌ، والظَّرفُ حالٌ مِن ﴿خِطَابًا﴾، المعنى: ليس في أيديهم خِطابٌ كائنٌ مِن عِندِ اللهِ في أمرِ الشَّفاعةِ قَطُّ، أي: ليس لهم مَمْسَكٌ ونصٌّ يَتصرَّفونَ به في أمرِ الشَّفاعةِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ الجُملةُ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ قولِه تعالَى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ إلخ، ومُؤكِّدٌ له، على مَعْنى: أنَّ أهلَ السَّمواتِ والأرضِ إذا لم يَقدِروا يَومَئذٍ على أنْ يَتكلَّموا بشَيءٍ مِن جِنسِ الكلامِ إلَّا مَنْ أَذِنَ اللهُ تعالَى له منهم في التَّكلُّمِ، وقال ذلكَ المأذونُ له قَولًا صَوابًا؛ فكيفَ يَملِكون خِطابَ ربِّ العِزَّةِ مع كَونِه أخصَّ مِن مُطلَقِ الكلامِ، وأعزَّ منه مَرامًا[٣]؟!

- قولُه: ﴿ٱلرُّوحُ﴾ هو جِبريلُ، وتَخصيصُه بالذِّكرِ قبْلَ ذِكرِ الملائكةِ المعطوفِ عليه؛ لتشريفِ قَدْرِه بإبلاغِ الشَّريعةِ[٤].

وقيل: اللَّامُ في ﴿ٱلرُّوحُ﴾ لتعريفِ الجِنسِ؛ فالمفردُ معها والجمعُ سواءٌ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١).

والمعنى: يومَ تحضُرُ الأرواحُ مَصفوفةً لِتُودَعَ في أجسادِها، وتقومُ الملائكةُ صفًّا، وإنَّما يَصطفُّ النَّاسُ في المقاماتِ الَّتي يكونُ فيها أمرٌ عظيمٌ، فصَفُّ الملائكةِ تعظيمٌ للهِ، وخضوعٌ له(١).

- وجملةُ ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ مُؤكِّدةٌ لجُملةِ ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [النَّبأ: ٣٧]، أُعيدَتْ بمعناها لتقريرِ المعنَى؛ إذ كان المَقامُ حَقيقًا، فالتَّقريرُ لقَصدِ التَّوصُّلِ به إلى الدَّلالةِ على إبطالِ زعْمِ المُشركينَ شَفاعةَ أصنامِهم لهم عِندَ اللهِ، وهي دَلالةٌ بطريقِ الفَحْوى(٢)؛ فإنَّه إذا نُفِيَ تَكلُّمُهم بدونِ إذْنٍ نُفِيَتْ شفاعتُهم؛ إذ الشَّفاعةُ كلامُ مَن له وجاهةٌ وقَبولٌ عِندَ سامِعِه(٣).

- ومتعلَّقُ ﴿أَذِنَ﴾ محذوفٌ، دلَّ عليه ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾، أي: مَن أُذِنَ له في الكلامِ(٤).

- وإظهارُ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في موضعِ الإضْمارِ؛ للإيذانِ بأنَّ مناطَ الإذنِ هو الرَّحمةُ البالغةُ، لا أنَّ أحدًا يَستحِقُّه عليه سبحانَه وتعالى(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١، ٥٢).

(٢) فَحْوَى الخِطابِ -ويُسمَّى تنبيهَ الخطابِ، ومفهومَ الموافقةِ-: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأولَى، كقولِه تعالَى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فيه تنبيهٌ على النَّهيِ عن ضربِهما وسَبِّهما؛ لأنَّ الضَّربَ والسَّبَّ أعظَمُ مِن التَّأفيفِ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيه تنبيهٌ على أنَّه يُؤدِّي ما كان دونَ القِنطارِ، ففي هذه الآيةِ نَبَّه بالأعلَى على الأدنَى، وفي الآيةِ الأُولى نَبَّه بالأدنَى على الأعلَى. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٤).

- وفعلُ ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ مُستعمَلٌ في معنى المُضارِعِ، أي: ويقولُ صوابًا، فعُبِّر عنه بالماضي؛ لإفادةِ تحقُّقِ ذلك[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ كالفَذْلَكةِ[2] لِما تَقدَّمَ مِن وَعيدٍ ووعدٍ، وإنذارٍ وتبشيرٍ، سِيقَ مساقَ التَّنويهِ بيوم الفصلِ الَّذي ابتُدِئ الكلامُ عليه مِن قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ [النَّبأ: ١٧]، والمقصودُ التَّنويهُ بعظيمِ ما يقَعُ فيه مِن الجزاءِ بالثَّوابِ والعِقابِ، وهو نتيجةُ أعمالِ النَّاسِ مِن يومِ وُجودِ الإنسانِ في الأرضِ[3].

- والإشارةُ بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّ﴾ إلى اليوم المتقدِّمِ في قولِه: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾، ومُفادُ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في مِثلِ هذا المَقامِ التَّنبيهُ على أنَّ المُشارَ إليه حقيقٌ بما سيُوصَفُ به بسببِ ما سبَقَ مِن حِكايةِ شُؤونِه؛ فمِن أجْلِ جميعِ ما وُصِف به يومُ الفصلِ كان حقيقًا بأنْ يُوصَفَ بأنَّه اليومُ الحقُّ، وما تَفرَّع عن ذلك مِن قولِه: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾[4].

- وتَعريفُ ﴿ٱلۡيَوۡمُ﴾ باللَّامِ؛ للدَّلالةِ على معنى الكمالِ، أي: هو الأعظَمُ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣).

(٢) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. والفَذْلَكةُ كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و(الحَوقَلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٤).

بيْنِ ما يَعُدُّه النَّاسُ مِن أيَّامِ النَّصرِ للمُنتصِرين؛ لأنَّه يومٌ يُجمَعُ فيه النَّاسُ كلُّهم، ويُعطى كلُّ واحدٍ منهم ما هو أهلُه مِن خيرٍ أو شرٍّ، فكأنَّ ما عداهُ مِن الأيَّامِ المشهورةِ في تاريخِ البشرِ غيرُ ثابتِ الوُقوعِ[1].

- قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ﴾ هذا وعيدٌ وتهديدٌ[2].

- وفُرِّعَ قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ بالفاءِ الفصيحةِ على قولِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾؛ لإفصاحِها عن شَرْطٍ مُقدَّرٍ ناشئٍ عن الكلامِ السَّابقِ، والتَّقديرُ: فإذا عَلِمتُم ذلك كلَّه، فمَن شاءَ اتِّخاذَ مآبٍ عِندَ ربِّه فلْيَتَّخِذْه، فقدْ بانَ لكم ما في ذلك اليومِ مِن خيرٍ وشرٍّ، فلْيَختَرْ صاحبُ المشيئةِ ما يَليقُ به للمَصيرِ في ذلك اليومِ، والتَّقديرُ: مآبًا فيه، أي: في اليومِ. وهذا التَّفريعُ مِن أبدَعِ الموعظةِ بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ عِندَما تَسنَحُ الفُرصةُ للواعظِ مِن تهيُّؤِ النُّفوسِ لقَبولِ الموعظةِ[3].

- والاتِّخاذُ: مُبالَغةٌ في الأخْذِ، أي: أخَذَ أخْذًا يُشبِهُ المطاوعةَ في التَّمكُّنِ[4].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾

- قولُه: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ اعتِراضٌ بيْن ﴿مَـَٔابًا﴾ [النَّبأ: ٣٩] وبيْن ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النَّبأ: ٤٠]، والمقصودُ مِن هذه الجُملةِ الإعذارُ للمُخاطَبينَ بقَوارعِ هذه السُّورةِ؛ بحيثُ لم يَبقَ بيْنَهم وبيْنَ العِلمِ بأسبابِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥).

النَّجاةِ وضِدِّها شُبهةٌ ولا خَفاءٌ، فالخبرُ -وهو ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا﴾- مُستعمَلٌ في قطْعِ العُذرِ، وليس مُستعمَلًا في إفادةِ الحُكمِ؛ لأنَّ كونَ ما سبَقَ إنذارًا أمرٌ مَعلومٌ للمُخاطَبينَ(١).

- وافتُتِح الخبرُ بحَرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للمُبالَغةِ في الإعذارِ بتَنزيلِهم مَنزلةَ مَن يَتردَّدُ في ذلك(٢).

- وفي قولِه: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ جُعِلَ المسنَدُ ﴿أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾ فِعلًا مُسنَدًا إلى الضَّميرِ المنفصِلِ؛ لإفادةِ تَقوِّي الحُكمِ، مع تَمثيلِ المتكلِّمِ في مَثَلِ المتبرِّئِ مِن تَبِعةِ ما عَسى أنْ يَلحَقَ المخاطَبينَ مِن ضُرٍّ إنْ لم يَأخُذوا حِذرَهم ممَّا أنذَرَهم به(٣).

- والإنذارُ: الإخبارُ بحُصولِ ما يَسوءُ في مُستقبَلٍ قَريبٍ، وعُبِّر عنه بالمُضيِّ؛ لأنَّ أعظَمَ الإنذارِ قدْ حصَلَ بما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ۞ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا﴾ [النَّبأ: ٢١، ٢٢] إلى قولِه: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾(٤) [النَّبأ: ٣٠].

- قولُه: ﴿عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ هو عَذابُ الآخِرةِ؛ ووُصِفَ بالقَريبِ لتَحقيقِ إتيانِه حَتْمًا، ولأنَّ مَبدَأه الموتُ، ولأنَّه قريبٌ بالنِّسبةِ إليه تعالى وإنْ رَأَوْه بعيدًا، وسَيَرَونَه قريبًا(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٥، ٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦).

- والمَرءُ: اسمٌ للرَّجُلِ؛ إذ هو اسمٌ مُؤنَّثُه امرأةٌ. والاقتصارُ على المرْءِ جَرَى على غالِبِ استعمالِ العرَبِ في كَلامِهم؛ فالكلامُ خرَجَ مَخرَجَ الغالبِ في التَّخاطُبِ[1].

- قَولُه: ﴿مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾، أي: كَسَبَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ، وعَبَّرَ بهما -أي: اليدَينِ-؛ لأنَّهما مَحَلُّ القُدرةِ، فكَنَّى بهما عنها، مع أنَّ أكثَرَ ما يُعمَلُ كائنٌ بهما مُستقِلَّتَينِ به أو مُشارِكتَينِ فيه؛ خيرًا كان أو شَرًّا[2].

- قولُه: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ خُصَّ بالذِّكرِ مِن عُمومِ المرْءِ الإنسانُ الكافرُ الَّذي يقولُ: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾؛ وذلك تلهُّفٌ وتندُّمٌ على ما قدَّمتْ يداهُ مِن الكُفرِ، وقد كانوا يقولونَ: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا﴾ [الإسراء: ٤٩]، فجعَلَ اللهُ عِقابَهم بالتَّحسُّرِ وتمنِّي أنْ يكونوا مِن جِنسِ التُّرابِ[3].

وخصَّ قولَ الكافرينَ دونَ المؤمنينَ؛ لأنَّ قولَ الكافرينَ دلَّ على غايةِ الخَيبةِ، ونِهايةِ التَّحسُّرِ، ودلَّ حَذْفُ قولِ المؤمنينَ على غايةِ التَّبجُّحِ، ونِهايةِ الفرَحِ ممَّا لا يُحيطُ به الوصفُ[4].

وعلى القولِ بأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿ٱلۡمَرۡءُ﴾: الكافرُ؛ لقولِه: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾، فيكونُ ﴿ٱلۡكَافِرُ﴾ ظاهرًا وُضِعَ مَوضعَ الضَّميرِ؛ لزِيادةِ الذَّمِّ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٠، ٣٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٥).

- وهذه الآيةُ جامعةٌ لِما جاءَ في السُّورةِ مِن أحوالِ الفَريقينِ، وفي آخِرِها رَدُّ العَجُزِ على الصَّدْرِ(١) مِن ذِكرِ أحوالِ الكافِرينَ الَّذين عُرِفوا بالطَّاغينَ، وبذلك كان خِتامُ السُّورةِ بها بَراعةَ مَقطعٍ(٢).

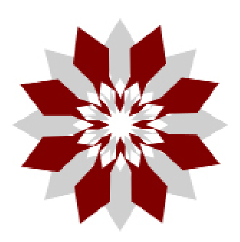


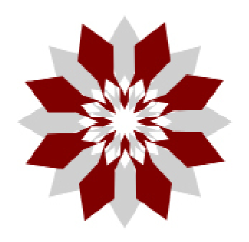
(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٦).

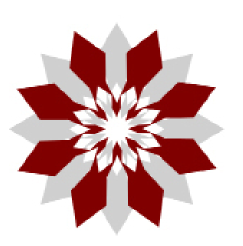
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨).

وبراعةُ المقطعِ: أن يكونَ آخِرُ الكلامِ مُستعَذبًا حسَنًا؛ لتبقى لَذَّتُه في الأسماع، مُؤذنًا بالانتهاءِ، بحيث لا يبقى للنَّفْسِ تشَوُّفٌ إلى ما وراءَه. يُنظر: ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٧/ ١٣٥)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٥٦٣).

تَفْسِيرُ
سُورَةِ النَّازِعاتِ







سُورةُ النَّازِعاتِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ: (النَّازِعاتِ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ النَّازِعاتِ مَكِّيَّةٌ، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

تقريرُ أنَّ البَعثَ حَقٌّ، وذِكرُ جانبٍ مِن أهوالِ القيامةِ، والرَّدُّ على المُنكِرينَ للبعثِ، وتهديدُهم وتَرهيبُهم[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- إثباتُ البَعثِ والجَزاءِ.

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لوُقوعِ القَسَمِ الإلهيِّ في أوَّلِها وافتتاحِها به، في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرۡقٗا﴾، ولأنَّه لم يُذكَرْ في غَيرِها. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩).
وقيل: تُسمَّى «سورةَ السَّاهرةِ»؛ لوُقوعِ لفظِ «السَّاهرةِ» في أثنائِها، ولم يقَعْ في غيرِها مِن السُّوَرِ. وتُسمَّى «سورةَ الطَّامَّةِ»؛ لوُقوعِ لفظِ «الطَّامَّةِ» فيها، ولم يقَعْ في غيرِها. يُنظر: ((جمال القراء وكمال الإقراء)) لعلم الدين السخاوي (ص: ٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩).

(٢) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابن الجوزي، والقرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٠)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٧)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٢٦١).

٢- الرَّدُّ على المُشرِكينَ المُنكِرينَ لوُقوعِ البَعثِ.

٣- ذِكرُ جانبٍ مِن قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ، وإرسالِه إلى فِرعَونَ.

٤- إقامةُ الأدِلَّةِ على إثباتِ البَعثِ وأنَّه حَقٌّ، وذِكرُ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ.

٥- ذِكرُ شَيءٍ مِن أحداثِ الآخِرةِ، وأهوالِ القيامةِ.

٦- بيانُ حُسنِ عاقِبةِ المتَّقينَ، وسوءِ عاقِبةِ الكافِرينَ.

٧- الإجابةُ على أسئلةِ المُشرِكينَ عن وُقوعِ يومِ القيامةِ، وبيانُ أنَّ مَوعِدَ مَجيءِ هذا اليومِ مَرَدُّه إلى اللهِ وَحْدَه، وأنَّ شأنَ الرَّسولِ أن يُذَكِّرَهم بها، وأنَّها إذا حَلَّت بهم ورَأَوْها كأنَّهم مع طُولِ الزَّمَنِ لم يَلبَثوا إلَّا جُزءًا مِنَ النَّهارِ.



الآيات (١-١٤)

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا
٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨
أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١ قَالُواْ
تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾: أي: الملائكةِ الَّذين يَنزِعونَ أرواحَ الكُفَّارِ عن أبدانِهم نَزْعًا شديدًا، و﴿غَرۡقٗا﴾ اسمُ مَصدرٍ مِن «أغرَقَ»، وأصلُه: إغراقًا، والإغراقُ في الشَّيءِ: المُبالَغةُ فيه والوُصولُ به إلى نهايتِه، يُقالُ: أغرَقَ فُلانٌ في هذا الأمرِ: إذا أوغَلَ فيه، وبَلَغ أقصى غايتِه، وأصلُ (نزع): يدُلُّ على قَلْعِ شَيءٍ، وأصلُ (غرق): يدُلُّ على انتِهاءٍ في شَيءٍ يُبلَغُ أقصاه[1].

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾: أي: الملائكةِ الَّذين يَقبِضُون أرواحَ المؤمنينَ بسُهولةٍ ورِفْقٍ وسُرْعةٍ؛ مِنَ النَّشْطِ: وهو السُّرعةُ في العَمَلِ، والخِفَّةُ في أخْذِ الشَّيءِ، وأصلُ (نشط): يدُلُّ على اهتِزازٍ وحَرَكةٍ[2].

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾: أي: الملائكةِ يَنزِلونَ مِنَ السَّماءِ مُسرِعينَ كالفَرَسِ الجَوَادِ يُقالُ له: سابِحٌ: إذا أسرَعَ في جَرْيِه. وقيل: هم الملائِكةُ يَقبِضونَ أرواحَ المؤمنينَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٦).

يَسُلُّونَها سَلًّا رفيقًا، ثمَّ يَدَعُونَها حتَّى تستريحَ، كالسَّابِحِ بالشَّيءِ في الماءِ يَرفُقُ به، وأصلُه مِن السَّبْحِ: وهو المَرُّ السَّريعُ(١).

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾: أي: الملائكةِ يَسبِقونَ ابنَ آدَمَ بالخَيرِ والعَمَلِ الصَّالحِ. وقيل: هم الملائكةُ يَسبِقونَ بأرواحِ المؤمِنينَ إلى الجنَّةِ، وأصلُ السَّبقِ: التَّقَدُّمُ في السَّيرِ(٢).

﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾: الملائِكةِ يَنزِلونَ بالتَّدبيرِ مِن عندِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، وأصلُ (دبر): يدُلُّ على آخِرِ الشَّيءِ، فتدبيرُ الإنسانِ أمْرَه أنَّه يَنظُرُ إلى ما تصيرُ عاقبتُه وآخِرُه(٣).

﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾: أي: الصَّيحةُ، وهي النَّفخةُ الأُولى، وأصلُ (رجف): يدُلُّ على الاضطرابِ الشَّديدِ(٤).

﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾: أي: الصَّيحةُ التَّابِعةُ لها، وهي النَّفخةُ الثَّانيةُ، وأصلُ (ردف): يدُلُّ على إتْباعِ الشَّيءِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٣).

﴿وَاجِفَةٌ﴾: أي: خائِفةٌ شَديدةُ الاضطرابِ، يُقالُ: وَجَف قلبُه يَجِفُ وَجِيفًا: إذا اضطَرَب[(١)].

﴿الْحَافِرَةِ﴾: أي: أوَّلِ خَلْقِنا، وابتداءِ أمْرِنا، فنَصيرُ أحياءً بَعْدَ الموتِ، يقالُ: رَجَع فُلانٌ في حافِرتِه، أي: رَجَع مِن حيثُ جاء، والحافِرةُ عندَ العَرَبِ: اسمُ أوَّلِ الشَّيءِ، وابتِداءِ الأمرِ، وأصلُ (حفر) هنا: أوَّلُ الأمرِ[(٢)].

﴿نَخِرَةً﴾: أي: باليةً مُتفَتِّتةً، وأصلُ (نخر): يدُلُّ على صَوتٍ؛ لأنَّ هذه العِظامَ الباليةَ خلا ما فيها، فصار الهواءُ يَنخِرُ فيها، أي: يَصُوتُ[(٣)].

﴿كَرَّةٌ﴾: أي: رَجْعَةٌ وإعادةٌ، والكَرُّ: الرُّجوعُ إلى الشَّيءِ[(٤)].

﴿زَجْرَةٌ﴾: أي: صَيحةٌ بشِدَّةٍ وانتِهارٍ، وهي النَّفخةُ في الصُّورِ للبعثِ، وأصلُ (زجر): يدُلُّ على طَردٍ بصَوتٍ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٤، ٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٣)، =

﴿بِالسَّاهِرَةِ﴾: أي: وَجهِ الأرضِ وظَهْرِها، وهي أرضٌ مُسْتَويةٌ بَيضاءُ لا نَباتَ فيها، يَجعَلُها اللهُ تعالى لجَمعِ النَّاسِ للحَشْرِ، وُصِفَتْ بما يقَعُ فيها، وهو السَّهَرُ، وأصلُ (سهر): يدُلُّ على ذَهابِ النَّومِ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾

قَولُه تعالى: ﴿غَرْقًا﴾: مَصدَرٌ مُؤَكِّدٌ بحَذفِ الزَّوائدِ، أي: إغراقًا في النَّزعِ مِن أقاصي الأجسادِ، والنَّاصِبُ له ما قَبْلَه؛ لِمُلاقاتِه له في المعنى، أو مَنصوبٌ على الحالِ، أي: ذواتِ إغْراقٍ.

وانتِصابُ ﴿نَشْطًا﴾ و﴿سَبْحًا﴾ و﴿سَبْقًا﴾ على المفعوليَّةِ المُطلَقةِ، وأمَّا انتِصابُ ﴿أَمْرًا﴾ فعلى المفعوليَّةِ لاسمِ الفاعِلِ «المُدَبِّراتِ».

قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾: ظَرفُ زَمانٍ مَنصوبٌ بفِعلٍ مُقدَّرٍ، هو جوابُ القَسَمِ تقديرُه: لَتُبعَثُنَّ؛ لدَلالةِ ما بعدَه عليه، أي: ﴿وَالنَّازِعَاتِ...﴾ إلخ: لَتُبعَثُنَّ يومَ...[2].

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٣).

قال الفراءُ: (كأنَّها سُمِّيت بهذا الاسمِ؛ لأنَّ فيها الحيوانَ: نومَهم، وسهرَهم). ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٣٢)..

وقال الواحدي: (وقال غيرُه [أي: غيرُ الفراءِ] مِن أهلِ المعاني: العربُ تسمِّي وجهَ الأرضِ مِن الفلاةِ: «ساهرةً»، أي: ذاتَ سَهَرٍ؛ لأنَّه يُسهَرُ فيها خوفًا منها). ((البسيط)) (٢٣/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٦٧، ٦٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٢٤).

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقْسِمًا على وُقوعِ البَعْثِ بلا شَكٍّ، فأقسَمَ بالملائِكةِ الَّتي تنزِعُ أرواحَ الكُفَّارِ مِن أبْدانِهم نَزْعًا شَديدًا، وبالملائكةِ الَّتي تَقبِضُ أرواحَ المؤمنينَ بسُهولةٍ ورِفْقٍ وسُرْعةٍ، وبالملائكةِ الَّتي تَسبَحُ في أجواءِ السَّمواتِ وآفاقِ الأرضِ بأمرِ اللهِ تعالى، وبالملائكةِ الَّتي تُسارِعُ إلى تنفيذِ أمرِ اللهِ تعالى، وبالملائكةِ الَّتي تُدَبِّرُ ما وكَّلَها اللهُ بتَدبيرِه؛ لَتُبعَثُنَّ أيُّها النَّاسُ.

ثمَّ ذكَرَ اللهُ تعالى أهوالَ يومِ القيامةِ، فقال: يومَ تَضطَرِبُ الأرضُ وتَتزلزَلُ، فتَتبَعُ تلك الرَّجفةَ رَجفةٌ أُخرى تأتي بَعْدَها، فَتضطرِبُ قُلوبُ الكُفَّارِ المكَذِّبينَ في ذلك اليَومِ؛ مِن شِدَّةِ أهوالِه، وتكونُ أبصارُهم ذَليلةً مُنكَسِرةً.

ثمَّ حكى ما كان يقولُه المكذِّبونَ في الدُّنيا إنكارًا للبعثِ، فقال: يقولُ المكَذِّبونَ بالبَعْثِ: أنَعودُ أحياءً بَعْدَ مَوتِنا، ونُبعَثُ مِن قُبورِنا؟ كيف نُبعَثُ أحياءً إذا صِرْنا عِظامًا باليةً مُتفَتِّتةً؟ قالوا: إنْ حصَلَت تلك الرَّجعةُ بَعْدَ الموتِ فنحن خاسِرونَ إذَنْ.

ثمَّ قال الله تعالى ردًّا عليهم: فإنَّما هي صَيحةٌ واحِدةٌ بلا تَكرارٍ، فإذا النَّاسُ قِيامٌ مِن قُبورِهم أحياءً على ظَهْرِ أرضِ المحشَرِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالملائِكةِ الَّتي تَنزِعُ أرواحَ الكُفَّارِ مِن أبْدانِهم بشِدَّةٍ[1].

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٣٣-١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٩). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وعن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((... وإنَّ العَبْدَ الكافِرَ إذا كان في انقِطاعٍ مِن الدُّنيا وإقبالٍ مِن الآخرةِ، نزل إليه مِنَ السَّماءِ مَلائِكةٌ سُودُ الوُجوهِ، معهم المُسُوحُ[(١)]، فيَجلِسونَ منه مَدَّ البَصَرِ،

= وممَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى المذكورِ: الواحديُّ، والقرطبي، وابن القيِّم، وابن كثير، والبِقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السَّابقة.

قال الواحدي: (أكثَرُ المفَسِّرينَ على أنَّ هذا قَسَمٌ بمَلَكِ الموتِ وأعوانِه مِن الملائكةِ الَّذين يَنزِعونَ أرواحَ الكُفَّارِ عن أبدانِهم، وهو قَولُ عَليٍّ رضي الله عنه، ومسروقٍ، ومُقاتِلٍ، وأبي صالحٍ، وعطيَّةَ). ((البسيط)) (٢٣/ ١٥٥).

وقال ابن كثير: (قال ابنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، ومسروقٌ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وأبو صالحٍ، وأبو الضُّحى، والسُّدِّيُّ: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ الملائكة، يَعْنُونَ: حينَ تَنزِعُ أرواحَ بني آدَمَ، فمِنهم مَن تأخُذُ رُوحَه بعُنفٍ فتغرقُ في نَزعِها، ومنهم مَن تأخُذُ رُوحَه بسهولةٍ وكأنَّما حَلَّتْهُ مِن نشاطٍ، وهو قولُه: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾، قاله ابنُ عبَّاسٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٢).

وذكر ابنُ جريرٍ الخِلافَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾، وأنَّ مِن المفسِّرين مَن قال: هم الملائكةُ الَّتي تَنْزِعُ نُفوسَ بني آدَمَ، والمَنْزوعُ نُفوسُ الآدَميِّينَ. ومنهم مَن قال: هو الموتُ يَنزِعُ النُّفوسَ. ومنهم مَن قال: هي النُّجومُ تنزِعُ مِن أُفُقٍ إلى أُفُقٍ. ومنهم مَن قال: هي القِسيُّ تَنزِعُ بالسَّهْمِ. ومنهم مَن قال: هي النَّفْسُ حِينَ تُنزَعُ. ثمَّ قال: (والصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك عندي أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكرُه أقسَمَ بالنَّازِعاتِ غَرْقًا، ولم يَخْصُصْ نازِعةً دونَ نازِعةٍ، فكُلُّ نازعةٍ غَرْقًا فداخِلةٌ في قَسَمِه؛ مَلَكًا كان، أو مَوتًا، أو نَجمًا، أو قَوسًا، أو غيرَ ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١-٦٣).

(١) المُسوحُ: جمعُ المِسْحِ: وهو اللِّباسُ الخَشِنُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٩).

ثمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ، حتَّى يَجلِسَ عندَ رأسِه، فيقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الخبيثةُ، اخرُجي إلى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وغَضَبٍ، فتفَرَّقُ في جَسَدِه، فيَنتزِعُها كما يُنتزَعُ السَّفُّودُ من الصُّوفِ المَبلولِ[1]! فيأخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتَّى يَجعَلوها في تِلك المُسوحِ، ويَخرُجُ منها كأنتَنِ رِيحِ جيفةٍ وُجِدَت على وَجهِ الأرضِ! فيَصعَدونَ بها))[2].

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى الشَّدَّ مُبتَدِئًا به لأنَّه أهوَلُ؛ أتْبَعَه الرِّفْقَ، فقال[3]:

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢﴾.

أي: وأُقسِمُ بالملائِكةِ الَّتي تَقبِضُ أرواحَ المؤمنينَ بسُهولةٍ ورِفْقٍ، وسُرْعةٍ وخِفَّةٍ[4].

---

(١) السَّفُّودُ: الحديدةُ الَّتي يُشوى عليها اللَّحمُ، فيَبقَى معها بقيَّةٌ مِن المحروقِ، فيَستصحِبُ عندَ الجذبِ شيئًا مِن ذلك الصُّوفِ مع قُوَّةٍ وشِدَّةٍ. يُنظر: ((شرح الطِّيبي على مشكاة المصابيح)) (٤/ ١٣٨١)، ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شَيْبَةَ في ((المصنَّف)) (١٢٠٥٩)، وأحمدُ (١٨٥٣٤)، والطَّيالسيُّ (٧٨٩)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ مُتقارِبةٍ.
صحَّح إسنادَه ابنُ جرير في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وقال ابنُ مَنْدَه في ((الإيمان)) (٣٩٨): (إسنادُه مُتَّصِلٌ مشهورٌ ثابتٌ على رَسمِ الجماعةِ). وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٨، ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٩).
وممَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ القيِّم، وابن كثير، والبِقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السَّابقة. =



عن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العبدَ المؤمنَ إذا كان في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنْيا، وإقْبالٍ مِنَ الآخِرةِ، نزَلَ إليه مَلائكةٌ مِنَ السَّماءِ بِيضُ الوُجوهِ، كأنَّ وُجوهَهمُ الشَّمسُ، معَهم كَفَنٌ مِن أكْفانِ الجَنَّةِ، وحَنُوطٌ[1] مِن حَنُوطِ الجنَّةِ، حتَّى يَجْلِسوا منه مَدَّ البَصَرِ، ثمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ عليه السَّلامُ، حتَّى يَجلِسَ عندَ رأسِه، فيَقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ، اخْرُجي إلى مَغفِرةٍ مِنَ اللهِ ورِضْوانٍ. فتَخرُجُ تَسِيلُ كما تَسيلُ القَطْرةُ مِن في السِّقاءِ، فيَأْخُذُها))[2].

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر نَوعَيِ السَّلِّ بالشِّدَّةِ والرِّفْقِ؛ ذكَرَ فِعْلَ الملائكةِ أيضًا في الجَوِّ بعدَ

= وذكَرَ ابنُ جريرٍ الخِلافَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾، وأنَّ مِن المفسِّرين مَن قال: هم الملائكةُ، تَنْشِطُ نفْسَ المُؤْمنِ فتَقْبِضُها، كما يُنشَطُ العِقالُ مِن البعيرِ إذا حُلَّ عنه، ومنهم مَن قال: هو الموتُ يَنْشِطُ نفْسَ الإنسانِ، ومنهم مَن قال: هي النُّجومُ تَنْشِطُ مِن أُفُقٍ إلى أُفُقٍ... إلى غيرِ ذلك، ثمَّ قال: (الصَّوابُ مِنَ القَولِ في ذلك عندي أن يُقالَ: إنَّ اللهَ جَلَّ ثناؤه أقسَمَ بالنَّاشِطاتِ نَشْطًا، وهي الَّتي تَنشِطُ مِن مَوضعٍ إلى مَوضِعٍ، فتذهَبُ إليه، ولم يَخْصُصِ اللهُ بذلك شيئًا دونَ شَيءٍ، بل عَمَّ القَسَمَ بجميعِ النَّاشِطاتِ، والملائكةُ تَنشِطُ مِن موضِعٍ إلى موضِعٍ، وكذلك الموتُ، وكذلك النُّجومُ والأوهاقُ [حبلٌ تُشَدُّ به الإبلُ والخيلُ لئلَّا تَنفِرَ وتشرُدَ] وبَقَرُ الوَحشِ أيضًا تَنشِطُ، فكُلُّ ناشطٍ فداخِلٌ فيما أقسَمَ به، إلَّا أن تقومَ حُجَّةٌ يَجِبُ التَّسليمُ لها بأنَّ المَعْنِيَّ بالقَسَمِ مِن ذلك بَعضٌ دونَ بَعضٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١، ٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣).

(١) الحَنوطُ: ما يُخلَطُ مِن الطِّيبِ لأكفانِ الموتى وأجسادِهم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٣/ ١١٧٦).

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ١٢٨).

التَّهَيُّؤِ للطَّيرانِ، في إقبالِها إليه ورُجوعِها عنه، فقال[١]:

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣﴾.

أي: وأُقسِمُ بالملائكةِ الَّتي تَسبَحُ في أجواءِ السَّمَواتِ وآفاقِ الأرضِ بأمرِ اللهِ تعالى[٢].

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤﴾.

أي: فالملائِكةِ الَّتي تُسارِعُ إلى تنفيذِ أمرِ اللهِ تعالى بلا تأخُّرٍ ولا إبطاءٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٣٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٣٥، ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٠).

وممَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى المذكورِ: الفَرَّاءُ، وابنُ القيِّم، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وذكَرَ ابنُ جريرٍ الخِلافَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾، وأنَّ مِن المفسِّرينَ مَن قال: هو الموتُ يَسْبَحُ في نَفْسِ ابنِ آدَمَ. ومنهم مَن قال: هي النُّجومُ تَسْبَحُ في فَلَكِها. ومنهم مَن قال: هي السُّفُنُ، ثمَّ قال: (الصَّوابُ مِنَ القَولِ في ذلك عندي أن يُقالَ: إنَّ اللهَ جَلَّ ثناؤه أقسَمَ بالسَّابحاتِ سَبْحًا مِن خَلْقِه، ولم يَخْصُصْ مِن ذلك بعضًا دونَ بَعضٍ، فذلك كلُّ سابحٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣-٦٤).

(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤١).

وممَّن ذهب إلى المعنى المذكورِ: ابنُ القيِّم، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وذكَرَ ابنُ جريرٍ الخِلافَ في قولِه تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾، وأنَّ من المفسِّرين مَن قال: هي الملائكةُ. ومِنهم مَن قال: هي للخيلِ السَّابقةِ. ومنهم من قال: بل هي النُّجومُ يَسْبِقُ بعضُها بعضًا في السَّيْرِ. وذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ القَسَمَ يَعُمُّ كُلَّ سابقٍ لِغَيرِه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٣، ٦٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٤).

﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥﴾.

أي: فالملائِكةِ الَّتي تُدَبِّرُ ما وكَّلَها اللهُ بتَدبيرِه[١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ٦٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤١).

وقد حكى ابنُ عطيَّةَ والرَّازيُّ وابنُ القَيِّمِ الإجماعَ على أنَّ (الْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا): الملائكةُ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣١)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٣٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٤٦).

ونسَبَ الماوَرْديُّ هذا القَولَ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩٤).

قال ابن كثير: (قوله: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ قال عليٌّ، ومجاهِدٌ، وعَطاءٌ، وأبو صالحٍ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ، والسُّدِّيُّ: هي الملائكةُ -زاد الحسَنُ: تُدَبِّرُ الأمرَ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ. يعني: بأمرِ ربِّها عزَّ وجلَّ. ولم يَختَلِفوا في هذا، ولم يَقطَعِ ابنُ جريرٍ بالمرادِ في شيءٍ مِن ذلك، إلَّا أنَّه حكى في ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ أنَّها الملائكةُ، ولا أثبتَ ولا نفَى). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤).

وقال ابنُ القيِّم: (هي الملائِكةُ عندَ أهلِ الإيمانِ وأتْباعِ الرُّسُلِ عليهم السَّلامُ، وأمَّا المكَذِّبونَ للرُّسُلِ المنكِرونَ للصَّانعِ فيقولون: هي النُّجومُ... وقد دلَّ الكِتابُ والسُّنَّةُ على أصنافِ الملائكةِ، وأنَّها موكَّلةٌ بأصنافِ المخلوقاتِ،... والمقصودُ: أنَّ اللهَ سُبحانَه وكَّل بالعالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ ملائكةً، فهي تدَبِّرُ أمرَ العالَمِ بإذْنِه ومشيئتِه وأمْرِه). ((إغاثة اللهفان)) (٢/ ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠). ويُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٩٣).

وقال البِقاعي: (يَصِحُّ أن يكونَ [يعني: الأقسامَ المذكورةَ] للشَّمسِ والقَمَرِ والكواكِبِ والرِّياحِ والخَيلِ؛ السَّابحةِ في الأرضِ والجَوِّ؛ لِمَنفعةِ العِبادِ وتدبيرِ أُمورِهم، وبعضُها سابِقٌ لبعضٍ، وبه قال بَعضُ المفَسِّرينَ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٢٠).

وجوابُ القَسَمِ قِيلَ: محذوفٌ للعِلْمِ به، وهو: لَتُبعَثُنَّ. وممَّن ذهب إلى هذا التَّقديرِ: الفَرَّاءُ، والواحديُّ، والقرطبي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٤).

وقال ابنُ القيِّم: (جوابُ القَسَمِ محذوفٌ يدُلُّ عليه السِّياقُ، وهو البَعْثُ المستلزِمُ لِصدقِ الرَّسولِ وثُبوتِ القُرآنِ، أو أنَّه مِنَ القَسَمِ الَّذي أُريدَ به التَّنبيهُ على الدَّلالةِ والعِبرةِ بالمُقسَمِ به دونَ أن =

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦﴾.

أي: يومَ تَضطَرِبُ الأرضُ وتَتزلزَلُ(١).

﴿تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧﴾.

أي: تَتبَعُ تلك الرَّجفةَ رَجفةٌ أُخرى تأتي بَعْدَها(٢).

عن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا

= يُرادَ به مُقْسَمٌ عليه بعَينِه). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٣٩).

وقيل: جوابُ القَسَمِ هو قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٦]. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٨)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩٤).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٥).

قال ابن عاشور: (وصريحُ الكلامِ موعظةٌ. والمقصودُ منه لازِمُه، وهو وُقوعُ البعثِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٦، ٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٧).

قال الماوَرْدي: (﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ * تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ وفيهما ثلاثةُ أقاويلَ:

أحَدُها: أنَّ الرَّاجِفةَ: القيامةُ، والرَّادِفةَ: البَعثُ. قاله ابنُ عبَّاسٍ.

الثَّاني: أنَّ الرَّاجِفةَ: النَّفْخةُ الأُولى تُميتُ الأحياءَ، والرَّادِفةَ: النَّفخةُ الثَّانيةُ تُحْيي الموتى. قاله الحسَنُ وقَتادةُ... وقال عِكْرِمةُ: الأُولى: مِنَ الدُّنيا، والثَّانيةُ: مِنَ الآخِرةِ.

الثَّالثُ: أنَّ الرَّاجِفةَ: الزَّلزلةُ الَّتي ترجفُ الأرضَ والجبالَ، والرَّادِفةَ: إذا دُكَّتا دكَّةً واحدةً. قاله مجاهِدٌ.

ويحتَمِلُ رابعًا: أنَّ الرَّاجِفةَ: أشراطُ السَّاعةِ، والرَّادِفةَ: قيامُها). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩٤، ١٩٥).

وكثيرٌ مِن المفَسِّرينَ على أنَّ المرادَ بالرَّاجِفةِ: النَّفخةُ الأُولى، وبالرَّادِفةِ: النَّفخةُ الثَّانيةُ. ومنهم: ابنُ جرير، والبِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٢).



ذَهَب ثُلُثَا اللَّيلِ قام فقال: يا أيُّها النَّاسُ، اذكُروا اللهَ، اذكُروا اللهَ، جاءت الرَّاجِفةُ، تَتْبَعُها الرَّادِفةُ، جاء الموتُ بما فيه، جاء الموتُ بما فيه))[١].

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾.

أي: قُلوبُ الكُفَّارِ المكَذِّبينَ في ذلك اليَومِ شَديدةُ الخَوفِ والاضطرابِ والقَلَقِ مِن شِدَّةِ أهوالِه[٢].

﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩﴾.

أي: تكونُ أبصارُ أولئك الكُفَّارِ ذَليلةً مُنكَسِرةً لا تكادُ تُحَدِّقُ بها وتَنظُرُ[٣].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٤].

﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠﴾.

أي: يقولُ المكَذِّبونَ بالبَعثِ: أنَعودُ أحياءً بعْدَ مَوتِنا، ونُبعَثُ مِن قُبورِنا[٤]؟

---

(١) أخرجه الترمذيُّ (٢٤٥٧) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٢١٢٤١) مختصرًا.

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وحَسَّنه ابنُ حجر في ((موافقة الخُبْر الخَبَر)) (٢/ ٣٤٠)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٢).

قال القرطبي: (أي: خائِفةٌ وَجِلةٌ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، وعليه عامَّةُ المفَسِّرينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠)، ((الوسيط)) =

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ١١﴾.

أي: كيف نُبعَثُ أحياءً بعْدَ مَوتِنا إذا صِرْنا عِظامًا باليةً مُتفَتِّتةً[١]؟!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

﴿قَالُواْ تِلۡكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ١٢﴾.

أي: قال أولئك المكَذِّبونَ: إنْ حصَلَت تلك الرَّجعةُ المزعومةُ إلى الحياةِ بعْدَ الموتِ فنحن خاسِرونَ إذَنْ[٢].

= للواحدي (٤/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٩، ٧٠).

قال ابن جُزَي: (اختلَفوا في معنى ﴿ٱلۡحَافِرَةِ﴾ على ثلاثةِ أقوالٍ:

أحَدُها: أنَّها الحالةُ الأُولى. يقال: رَجَع فلانٌ في حافرتِه: إذا رجَع إلى حالتِه الأولى، فالمعنى: أَإنَّا لَمَرْدودون إلى الحياةِ بعدَ الموتِ؟

والآخَرُ: أنَّ الحافِرةَ الأرضُ، بمعنى محفورةٍ، فالمعنى: أَإنَّا لَمَرْدودون إلى وَجهِ الأرضِ بعدَ الدَّفنِ في القبورِ؟

والثَّالثُ: أنَّ الحافِرةَ: النَّارُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٩، ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧١، ٧٢).

قيل: وَجهُ الخَسارةِ هنا أنَّهم صائِرونَ إلى النَّارِ. وممَّن قال بهذا المعنى: مكِّيٌّ، وابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٣). =

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣﴾.

أي: فإنَّما هي صَيحةٌ واحِدةٌ ونَفخةٌ تُنفَخُ في الصُّورِ بلا تَكرارٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات: ١٩].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

= ومِن المفسِّرينَ مَن عبَّر عن معنى الخسارةِ في الآيةِ بقولِه: لَنَخسَرَنَّ بما يُصيبُنا بعدَ الموتِ. ومنهم: الواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥٣).

وقيل: إنَّهم قالوا ذلك استِهزاءً منهم، والمعنى: أنَّها إنْ صحَّتْ فنحن إذَنْ خاسِرونَ؛ لتكذيبِنا بها. وممَّن اختار هذا المعنى: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٢).

قال البقاعي: (﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ أي: القيامةُ ﴿زَجْرَةٌ﴾ أي: صَيحةٌ بانتِهارٍ تتضَمَّنُ الأمرَ بالقيامِ، والسَّوقَ إلى المحشَرِ، والمنعَ مِنَ التخلُّفِ ﴿وَاحِدَةٌ﴾). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٢٦).

قال ابنُ كثيرٍ: (فإنَّما هو أمرٌ مِن الله لا مثنويةَ فيه، ولا تأكيد، فإذا النَّاسُ قيامٌ ينظرونَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٤).

وقال ابن عثيمين: (﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]. يعني أنَّ الله إذا أراد شيئًا إنَّما يقولُ له: «كنْ» مرةً واحدةً فقط فيكونُ، ولا يتأخَّرُ هذا عن قولِ الله لحظةً ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ والله عزَّ وجلَّ لا يعجزُه شيءٌ). ((تفسير ابن عثيمين: جزء عم)) (ص: ٤٢).

وقال ابن عاشور: (وهذه الزَّجْرةُ هي النَّفخةُ الثَّانيةُ الَّتي في قولِه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، فهي ثانيةٌ للَّتي قبْلَها، وهي الرَّادِفةُ الَّتي تَقدَّم ذِكْرُها آنِفًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٢). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٧).

وقد اختُلِف في عددِ النَّفخاتِ في الصُّور، يُنظر ما يأتي (ص: ٣٨).

وسلَّم: ((... يَصْعَقُ النَّاسُ، ثمَّ يُرسِلُ اللهُ -أو قال: يُنزِلُ اللهُ- مطَرًا كأنَّه الطَّلُّ أو الظِّلُّ، فتَنبُتُ منه أجسادُ النَّاسِ، ثمَّ يُنفَخُ فيه أُخرى، فإذا هم قِيامٌ يَنظُرونَ، ثمَّ يُقالُ: يا أيُّها النَّاسُ، هَلُمَّ إلى رَبِّكم))[١].

﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤﴾.

أي: فإذا النَّاسُ قِيامٌ مِن قُبورِهم أحياءً على ظَهْرِ أرضِ المحشَرِ[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ عَبَّرَ بالزَّجْرِ، وهو أشَدُّ مِنَ النَّهْيِ؛ لأنَّه يكونُ للعَرْضِ؛ لأنَّها صيحةٌ لا يتخَلَّفُ عنها القيامُ أصلًا، فكان كأنَّ لِسانَ الحالِ قال عن تلك الصَّيحةِ: أيُّها الأجسادُ الباليةُ، انتهي عن الرُّقادِ، وقُومي إلى الميعادِ، بما حَكَمْنا به مِنَ المَعادِ، فقد انتهى زمانُ الحَصادِ، وآنَ أوانُ الاجتناءِ لِما قُدِّم مِنَ الزَّادِ، فيا وَيْلَ مَن ليس له زادٌ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ المرادُ بالنَّازِعاتِ وما عُطِفَ عليه: الملائِكةُ، وذُكِروا بلَفظِ التَّأنيثِ مع أنَّهم ليسُوا إناثًا؛ لأنَّه تعالى أقسَمَ بطَوائِفِها، والطَّائِفةُ

---

(١) رواه مسلم (٢٩٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٢).

قال الواحدي: (﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ يعني: وَجْهَ الأرضِ وظَهْرَها في قَولِ الجَميعِ). ((الوسيط)) (٤/ ٤١٩).

وقال القرطبي: (العَرَبُ تُسَمِّي الفَلاةَ ووَجهَ الأرضِ ساهِرةً). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٢٧).

مُؤَنَّثةٌ[(١)].

٢- إنَّ كُلَّ حَرَكةٍ في السَّمَواتِ والأرضِ مِن حَرَكاتِ الأفلاكِ، والنُّجومِ، والشَّمسِ، والقَمَرِ، والرِّياحِ، والسَّحابِ، والنَّباتِ، والحَيوانِ: هي ناشئةٌ عن الملائكةِ الموكَّلينَ بالسَّمَواتِ والأرضِ، كما قال تعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾، وقال: ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾[(٢)] [الذاريات: ٤].

٣- قد وكَّل اللهُ عزَّ وجلَّ ملائكةً بالعالَمِ العُلْويِّ والسُّفْليِّ؛ فهي تقومُ بتدبيرِ أمرِ العالَمِ بإذْنِه تعالى ومَشيئتِه وأَمْرِه؛ فلهذا يُضيفُ التَّدبيرَ إلى الملائكةِ تارةً؛ لِكَونِهم هم المباشِرينَ للتَّدبيرِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾، ويضيفُ التَّدبيرَ إليه، كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ [يونس: ٣]، وقَولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]؛ فهو سُبحانَه المُدبِّرُ؛ أَمرًا وإذْنًا ومشيئةً، والملائكةُ المُدبِّراتُ؛ مُباشَرةً وامتِثالًا[(٣)].

٤- قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ * تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ احتجَّ به مَن يقولُ بأنَّ عددَ النَّفخِ نَفْختانِ[(٤)]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ١٤٠).

وقد اختلَفَ العُلَماءُ في عدَدِ النَّفَخاتِ في الصُّورِ على أقْوالٍ؛ فقيلَ: هُما نَفْختانِ: نَفْخةُ الفزَعِ والصَّعقِ، ونَفْخةُ البَعثِ. وممَّن ذهَبَ إلى هذا القَولِ: ابنُ جَريرٍ، والقُرطبيُّ، والسعديُّ، وابنُ باز، وابنُ عُثَيْمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٤)، ((التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة)) للقرطبي (ص: ٤٩٠، ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((فتاوى نور على =

٥- قال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾، فقلوبُ الكفَّارِ ﴿وَاجِفَةٌ﴾، أي: خائفةٌ خَوفًا شديدًا. وأمَّا القِسمُ الثَّاني فقلوبُهم على عكسِ قُلوبِ هؤلاء، ويدُلُّ لهذا التَّقسيمِ قَولُه تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ﴾ بصيغةِ النَّكِرةِ، فيكونُ المعنى: وقلوبٌ على عكسِ ذلك[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ أنَّه جلَّ وعَلَا مِن قُوَّتِه وقُدْرَتِه: يَبعَثُ النَّاسَ كنَفْسٍ واحِدةٍ، فهو جلَّ وعَلَا له القُوَّةُ البالِغةُ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ ابتُدِئ بالقَسَمِ بمَخلوقاتٍ ذاتِ صِفاتٍ عَظيمةٍ قَسَمًا مُرادًا منه تحقيقُ ما بعْدَه مِن الخَبرِ، وفي هذا القسَمِ تهويلُ المقسَمِ به[3].

- وفي هذه الصِّفاتِ إجمالٌ مَقصودٌ؛ لِتَذهَبَ أفهامُ السَّامِعينَ كلَّ مَذهَبٍ ممكِنٍ، فتكثُرَ خُطورُ المعاني في الأذهانِ، وتَتكرَّرَ الموعظةُ والعِبرةُ باعتبارِ

= الدرب)) لابن باز (٤/ ٣٢٨)، ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤٦٧).

وقيل: هي ثَلاثُ نَفَخاتٍ، وهي: نفخةُ الفزَعِ، ونفخةُ الصَّعقِ، ونفخةُ البعثِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ تَيميَّةَ، وابنُ كثير. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٦).

وقيل: هي أربعُ نَفَخاتٍ: اثنتانِ قبْلَ يومِ القيامةِ، واثنتانِ في يومِ القيامةِ؛ فأمَّا النَّفختانِ قبْلَ القيامةِ فهُما نفخةٌ للموتِ، ونفخةٌ للبعثِ. وأمَّا النَّفختانِ يومَ القيامةِ: فنَفخةُ الفزَعِ والصَّعقِ الَّتي يغشى فيها الخلائق -ولا يموتون- إلَّا مَن شاء اللهُ، ثمَّ نفخةٌ أخرى لقيامِهم وإفاقتِهم. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: البِقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٥٢-٥٥٣، ٥٥٨، ٥٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٢).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠).

وَقْعِ كلِّ معنًى في نفْسٍ له فيها أشدُّ وَقْعٍ، وذلك مِن وَفرةِ المَعاني مع إيجازِ الألفاظِ(١).

- قولُه: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ وصْفٌ مُشتَقٌّ مِن النَّزْعِ، ومعاني النَّزعِ كثيرةٌ، كلُّها تَرجِعُ إلى الإخراجِ والجَذبِ، وأقسَمَ اللهُ بالملائكةِ؛ لأنَّها مِن أشرَفِ المخلوقاتِ، وخَصَّها بهذا الوَصفِ الَّذي هو مِن تصَرُّفاتِها تَذكيرًا للمُشرِكينَ؛ إذْ هم في غفلةٍ عن الآخِرةِ وما بعْدَ الموتِ، ولأنَّهم شديدٌ تعلُّقُهم بالحياةِ؛ ففي القسَمِ بملائكةِ قبْضِ الأرواحِ عِظةٌ لهم وعِبرةٌ، والقسَمُ على هذا الوجهِ مناسِبٌ للغرَضِ الأهمِّ مِن السُّورةِ، وهو إثباتُ البعثِ؛ لأنَّ الموتَ أوَّلُ منازلِ الآخرةِ، فهذا مِن براعةِ الاستهلالِ(٢).

- قولُه: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ عَطفُها على النَّازعاتِ عطفُ نوعٍ على نوعٍ، أو عطفُ صِنفٍ على صِنفٍ(٣).

- و﴿سَبۡحٗا﴾ مَصدرٌ مؤكِّدٌ؛ لإفادةِ التَّحقيقِ، مع التَّوسُّلِ إلى تَنوينه للتَّعظيمِ(٤).

- وأُكِّد (السَّابِقَاتِ) بالمصدرِ المرادفِ لمعناهُ -وهو ﴿سَبۡقٗا﴾-؛ للتَّأكيدِ، ولدَلالةِ التَّنكيرِ على عِظَمِ ذلك السَّبْقِ(٥).

- قولُه: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ التَّدبيرُ: جَولانُ الفِكْرِ في عواقبِ الأشياءِ، وبإجراءِ الأعمالِ على ما يليقُ بما تُوجَدُ له، فإنْ كانتِ السَّابحاتُ جماعاتِ الملائكةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٦٢).
وبراعةُ الاستِهلالِ تقدم تعريفُه (ص: ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٦٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فمعنى تدبيرِها: تنفيذُ ما نِيطَ بعُهدتِها على أكمَلِ ما أُذِنَتْ به، فعُبِّر عن ذلك بالتَّدبيرِ للأمورِ؛ لأنَّه يُشبِهُ فِعلَ المُدبِّرِ المتثبِّتِ(١).

- والفاءُ في ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا * فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾؛ للدَّلالةِ على تَرتُّبِهما على ما قبْلَهما بغيرِ مُهلةٍ(٢).

- قولُه: ﴿أَمۡرٗا﴾ الأمرُ: الشَّأنُ والغرَضُ المهِمُّ، وتنوينُه وتنكيرُه للتَّهويلِ والتَّفخيمِ والتَّعظيمِ. وإفرادُ الأمْرِ لإرادةِ الجنسِ، أي: أمورًا(٣).

- والعطفُ مع اتِّحادِ الكلِّ؛ لتَنزيلِ التَّغايُرِ العُنوانيِّ مَنزِلةَ التَّغايُرِ الذَّاتيِّ؛ للإشعارِ بأنَّ كلَّ واحدٍ مِن الأوصافِ المعدودةِ مِن معظَّماتِ الأمورِ حقيقٌ بأنْ يكونَ على حِيالِه مناطًا لاستحقاقِ مَوصوفِه للإجلالِ والإعظامِ بالإقسامِ بهِ مِن غيرِ انضمامِ الأوصافِ الأُخَرِ إليه(٤).

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ * تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ * قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ * أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ﴾

- قولُه: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ إلى ﴿خَٰشِعَةٞ﴾ قيل: هو جوابُ القَسَمِ، والمرادُ بقولِه: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ هو يومُ القيامةِ؛ لأنَّه قد عُرِفَ بمِثلِ هذه الأحوالِ في آياتٍ كثيرةٍ ممَّا سبَقَ نُزولُه، مِثل قولِه: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [الواقعة: ٤]؛ فكان في هذا الجوابِ تهويلٌ ليومِ البعثِ، وفي طيِّه تَحقيقُ وُقوعِه، فحصَلَ إيجازٌ في الكلامِ جامِعٌ بيْنَ الإنذارِ بوُقوعِه، والتَّحذيرِ ممَّا يَجري فيه(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٥، ٩٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٥، ٩٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٥، ٦٦).

وقيلَ: المُقسَمُ عليه مَحذوفٌ؛ تَعْويلًا على إشارةِ ما قبْلَه مِن المقسَمِ به إليه، ودَلالةِ ما بعدَه مِن أحوالِ القيامةِ عليه، وهو (لَتُبعَثُنَّ)؛ فإنَّ الإقسامَ بمَنْ يَتولَّى نزْعَ الأرواحِ ويقومُ بتدبيرِ أُمورِها يُلَوِّحُ بكونِ المقسَمِ عليهِ مِن قَبيلِ تلكَ الأمورِ لا مَحالةَ، وفيه مِنَ الجزالةِ ما لا يَخْفى[1].

- وجُعِلَ ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ﴾ ظرفًا للمُقسَم عليه المضمَرِ الَّذي هو (لَتُبعَثُنَّ)، وهم لا يُبعَثونَ عندَ النَّفخةِ الأُولى؛ لأنَّ المعنى: لَتُبعَثُنَّ في الوقتِ الواسعِ الَّذي يقَعُ فيه النَّفختانِ، وهم يُبعَثونَ في بعضِ ذلك الوقتِ الواسعِ، وهو وقتُ النَّفخةِ الأُخرى، ودَلَّ على ذلك أنَّ قولَه: ﴿تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ جُعِل حالًا عن الرَّاجِفةِ، ويجوزُ أنْ يَنتصِبَ ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ﴾ بما دلَّ عليه ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾، أي: يومَ تَرجُفُ وجَفَتِ القلوبُ[2].

وقيلَ: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ﴾ منصوبٌ بـ(اذْكُرْ)، فتكونُ الجملةُ استِئنافًا مُقرِّرًا لمضمونِ الجوابِ المُضْمَرِ، كأنَّه قيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اذكُرْ لهم يومَ النَّفختَينِ؛ فإنَّه وقتُ بَعْثِهم[3].

وقيل: قولُه: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ ظرْفٌ متعلِّقٌ بـ﴿وَاجِفَةٌ﴾، فآلَ إلى أنَّ المُقسَمَ عليه المرادَ تحقيقُه هو وُقوعُ البَعثِ بأسلوبٍ أَوقَعَ في نُفوسِ السَّامِعينَ المُنكِرينَ مِن أسلوبِ التَّصريحِ بجوابِ القسَمِ؛ إذ دلَّ على المقسَمِ عليه بعضُ أحوالِه الَّتي هي

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٢، ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٦).

مِن أهوالِه؛ فكان في جوابِ القَسَم إنذارٌ. وقُدِّم الظَّرفُ على مُتعلَّقِه ﴿وَاجِفَةٌ﴾؛ لأنَّ ذلك الظَّرفَ هو الأهمُّ في جوابِ القسَمِ؛ لأنَّ المقصودَ إثباتُ وُقوعِه؛ فتقديمُ الظَّرفِ للاهتِمامِ به والعنايةِ به؛ فإنَّه لَمَّا أُكِّد الكلامُ بالقسَمِ شَمِل التَّأكيدُ مُتعلَّقاتِ الخبرِ الَّتي منها ذلك الظرفُ، والتَّأكيدُ اهتمامٌ، ثمَّ أُكِّد ذلك الظَّرفُ في الأثناءِ بقولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الَّذي هو يومَ تَرجُفُ الرَّاجفةُ؛ فحصَلتْ عِنايةٌ عظيمةٌ بهذا الخبرِ(١).

- والرَّجفُ: الاضطرابُ والاهتزازُ، والمرادُ بالرَّاجفةِ الصَّيحةُ والزَّلزلةُ الَّتي ترجُفُ الأرضُ بسببِها، جُعِلتْ هي الرَّاجفةَ مبالَغةً، وهذا هو المناسِبُ لقولِه: ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾، أي: تَتْبَعُ تلك الرَّاجفةَ -أي: مسبِّبةَ الرَّجفِ- رادفةٌ، أي: واقعةٌ بعدَها. ويجوزُ أنْ يكونَ الرَّجفُ مُعبَّرًا به عن شِدَّةِ الصَّوتِ، فشُبِّهَ الصَّوتُ الشَّديدُ بالرَّجفِ، وهو التَّزلزُلُ(٢).

- وقيلَ: ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ أي: الواقعةُ الَّتي تردُفُ الأُولى، وهي النَّفخةُ الثَّانيةُ، تابعةً لها لا قبْلَ ذلكَ، واعتبارُ امتِدادِه معَ أنَّ البعثَ لا يكونُ إلَّا عِندَ النفخةِ الثَّانيةِ؛ لتهويلِ اليومِ ببيانِ كَونِه مَوقعًا لداهيتَينِ عظيمتَينِ لا يَبْقى عندَ وُقوعِ الأُولى حيٌّ إلَّا ماتَ، ولا عندَ وُقوعِ الثَّانيةِ إلَّا بُعِثَ، ووجْهُ إضافتِه إلى الأُولى ظاهِرٌ(٣).

- وتنكيرُ ﴿قُلُوبٌ﴾ يقومُ مَقامَ الوصفِ المختصِّ، سواءٌ على حمْلِ التَّنويعِ وإنْ لم يُذكَرِ النَّوعُ المقابِلُ؛ فإنَّ المَعْنى منسحِبٌ عليه، أو على التَّكثيرِ؛ فإنَّ التَّفخيمَ كما يكونُ بالكيفيَّةِ يكونُ بالكَمِّيَّةِ أيضًا، كأنَّه قيلَ: قُلوبٌ كثيرةٌ يومَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٦، ٩٧).

إذْ يقعُ النَّفختانِ واجفةٌ[1].

- وأضافَ الأبصارَ إلى القُلوبِ، مع أنَّها لا تُضافُ إليها؛ لأنَّ فيه حذفَ مُضافٍ، أي: أبصارُ أربابِها؛ لأنَّ الأبصارَ لأصحابِ القلوبِ، وكِلاهُما مِن جوارحِ الأجسادِ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾

- قولُه: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ استِئنافٌ إمَّا ابتدائيٌّ بعْدَ جُملةِ القَسَمِ وجوابِه؛ لإفادةِ أنَّ هؤلاء هم الَّذين سيَكونونَ أصحابَ القُلوبِ الواجفةِ والأبصارِ الخاشعةِ يومَ ترجُفُ الرَّاجفةُ. وإمَّا استِئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ القسَمَ وما بعْدَه مِن الوعيدِ يُثيرُ سؤالًا في نفْسِ السَّامعِ عن الدَّاعي لهذا القسَمِ، فأُجيبَ بجملةِ ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾، أي: مُنكِرونَ البعثَ؛ ولذلك سُلِك في حِكايةِ هذا القولِ أسلوبُ الغَيبةِ شأنَ المتحدِّثِ عن غيرِ حاضرٍ[3].

فقولُه: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ حِكايةٌ لِما يقولُه المنكِرونَ للبعثِ المكذِّبونَ بالآياتِ النَّاطقةِ به، إثْرَ بيانِ وُقوعِه بطريقِ التَّوكيدِ القَسَميِّ، وذِكرِ مقدِّماتِه الهائلةِ، وما يَعرِضُ عندَ وُقوعِها للقُلوبِ والأبصارِ، أي: يقولونَ إذا قيلَ لهم: «إنكُم تُبعَثونَ» مُنكِرينَ له مُتعجِّبينَ منه: أإنَّا لَمَرْدودونَ بعْدَ موتِنا في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٨، ٦٩).

الحافرةِ؟! أي: في الحالةِ الأُولى؛ يَعْنونَ الحياةَ[(١)].

- وضَميرُ ﴿يَقُولُونَ﴾ عائدٌ إلى معلومٍ مِن السِّياقِ، وهم الَّذين شُهِروا بهذه المقالةِ، ولا يَخْفَوْنَ على المُطَّلِعِ على أحوالِهم ومخاطَباتِهم، وهم المُشرِكونَ في تكذيبِهم بالبعثِ، والمُساقُ إليه الكلامُ كلُّ مَن يَتأتَّى منه سماعُه مِن المُسلِمينَ وغيرِهم، ويجوزُ أنْ يكونَ الكلامُ مسوقًا إلى مُنكِري البعثِ على طَريقةِ الالتِفاتِ[(٢)].

- وحُكِيَ مَقالُهم بصِيغةِ المضارعِ ﴿يَقُولُونَ﴾؛ لإفادةِ أنَّهم مُستَمِرُّونَ عليه، وأنَّه متجدِّدٌ فيهم لا يَرْعَوُونَ عنه، وللإشعارِ بما في المضارعِ مِن استحضارِ حالتِهم بتكريرِ هذا القولِ؛ ليكونَ ذلك كنايةً عن التَّعجيبِ مِن قولِهم هذا، وقد عَلِم السَّامعُ أنَّهم ما كرَّروا هذا القولَ إلَّا وقد قالوهُ فيما مضى[(٣)].

- والهمزةُ في ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ؛ لأنَّهم أنكَروا الرَّدَّ ونَفَوْه[(٤)].

- وكانتْ عادتُهم أنْ يُلْقُوا الكلامَ الَّذي يُنكِرونَ فيه البعثَ بأسلوبِ الاستِفهامِ؛ إظهارًا لأنفُسِهم في مَظهَرِ المتردِّدِ السَّائلِ؛ لقَصدِ التَّهكُّمِ والتَّعجُّبِ مِن الأمرِ المستفهَمِ عنه، والمقصودُ التَّكذيبُ؛ لزعمِهم أنَّ حُجَّةَ استِحالةِ البعثِ ناهضةٌ. وجُعِل الاستِفهامُ التَّعجيبيُّ داخلًا على جُملةٍ اسميَّةٍ مؤكَّدةٍ بـ (إنَّ) وبلامِ الابتداءِ، وتلك ثلاثةُ مؤكِّداتٍ مقوِّيةٌ للخبرِ؛ لإفادة أنَّهم أَتَوْا بما يُفيدُ التَّعجُّبَ مِن الخبرِ، ومِن شدَّةِ يقينِ المُسلِمينَ به، فهم يَتعجَّبونَ مِن تصديقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٣، ٣٦٤).

هذا الخبرِ، فضلًا عن تحقيقِه والإيقانِ به[١].

- والعربُ تقولُ: رجَعَ إلى الحافرةِ، تمثيلًا لِمَن كان في حالةٍ ففارَقَها ثمَّ رجَعَ إليها، فصار: رجَعَ في الحافرةِ، ورُدَّ إلى الحافرةِ، جاريًا مَجرى المَثَلِ[٢].

- قولُهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ هذا الاستِفهامُ إنكاريٌّ مؤكِّدٌ للاستِفهامِ الأوَّلِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذه الحالةَ جديرةٌ بزيادةِ إنكارِ الإرجاعِ إلى الحياةِ بعدَ الموتِ، فهما إنكارانِ؛ لإظهارِ شدَّةِ إحالتِه[٣].

- والظَّرفُ (إذا) هو مَناطُ التَّعجُّبِ وادِّعاءِ الاستِحالةِ، أي: إذا صِرْنا عِظامًا باليةً فكيف نَرجِعُ أحياءً[٤]؟!

- قولُه: ﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ ﴿قَالُواْ﴾ بدَلُ اشتمالٍ مِن جُملةِ ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾، أُعيدَ فِعلُ القولِ؛ لِمَقاصِدَ، منها: الدَّلالةُ على أنَّ قولَهم هذا في غرَضٍ آخَرَ غيرِ القولِ الأوَّلِ؛ فالقولُ الأوَّلُ قَصْدُهم منه الإنكارُ والإبطالُ، والقولُ الثَّاني قصَدوا منه الاستهزاءَ؛ لأنَّهم لا يُؤمِنونَ بتلك الكَرَّةِ، فوصْفُهم إيَّاها بخاسرةٍ مِن بابِ الفرضِ والتَّقديرِ، أي: لو حصَلتْ كَرَّةٌ لَكانتْ خاسرةً، ونحن إذنْ خاسرونَ؛ لتكذيبِنا بها، ومنها دفْعُ توهُّمِ أنْ تكونَ جملةُ ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ استئنافًا مِن جانبِ اللهِ تعالى[٥].

وقيل: إنَّ قولَه: ﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مسوقٌ لِحكايةِ كُفرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٠، ٧١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧١).

آخَرَ متفرِّعٍ على كفرِهم السَّابقِ[١].

- قولُه: ﴿قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾ عُبِّر عن قولِهم هذا بصِيغةِ الماضي دونَ المضارعِ على عَكسِ ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠]؛ لأنَّ هذه المقالةَ قالوها استِهزاءً، فليستْ ممَّا يَتكرَّرُ منهم، بخِلافِ قولِهم: ﴿أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠]؛ فإنَّه حُجَّةٌ ناهِضةٌ في زعمِهم، فهذا ممَّا يَتكرَّرُ منهم في كلِّ مَقامٍ، وبذلك لم يكُنِ المقصودُ التَّعجيبَ مِن قولِهم هذا؛ لأنَّ التَّعجيبَ يَقتضي الإنكارَ، وكونُ كَرَّتِهم -أي: عَودتِهم إلى الحياةِ- عودةً خاسرةً أمرٌ محقَّقٌ لا يُنكَرُ؛ لأنَّهم يَعودونَ إلى الحياةِ خاسِرينَ لا مَحالةَ[٢]؛ فلَعلَّ توسيطَ ﴿قَالُواْ﴾ بيْنَهما؛ للإيذانِ بأنَّ صُدورَ هذا الكُفرِ عنهم ليس بطَريقِ الاطِّرادِ والاستِمرارِ مِثلَ كُفرِهم السَّابقِ المستمرِّ صُدورُه عنهم في أوقاتِهم كافَّةً حسبَما يُنبِئُ عنه حِكايتُه بصِيغةِ المضارعِ[٣].

- وقيل: عبِّر بالماضي؛ لأنَّهم ما سمَحوا بهذا القولِ إلَّا مرَّةً مِنَ الدَّهرِ، وأمَّا أغلبُ قولِهم فكان أنَّهم يكونون على تَقديرِ البعثِ أسعَدَ مِنَ المؤمنينَ على قِياسِ ما هُم عليه في الدُّنيا ونحوِ هذا مِنَ الكذبِ على اللهِ[٤].

- و﴿تِلۡكَ﴾ إشارةٌ إلى الرَّدَّةِ المستفادةِ مِن (مَرْدودونَ)، والإشارةُ إليه باسمِ الإشارةِ للمؤنَّثِ؛ للإخبارِ عنه بـ(كَرَّةٌ)، و(إذَنْ) حرفُ جوابٍ وجزاءٍ للكلامِ المتقدِّمِ، لا عمَلَ لها، جِيءَ بها لإفادةِ تأكيدِ الرَّجعةِ الخاسرةِ، والتَّقديرُ: إذَنْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٢٦).

تلك كَرَّةٌ خاسرةٌ، فقُدِّم (تلك) على حرفِ الجوابِ؛ للعنايةِ بالإشارةِ(١).

- ووصْفُ الكَرَّةِ بالخاسرةِ للمبالَغةِ؛ لأنَّ الخاسرَ أصحابُها، والمعنى: إنَّا إذنْ خاسرونَ؛ لتكذيبِنا، وتبيُّنِ صِدقِ الَّذي أنذَرَنا بتلك الرَّجعةِ(٢).

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ فصيحةٌ -تُفصِحُ عن جملةٍ قد حُذِفَتْ-؛ للتَّفريعِ على ما يُفيدُه قولُهم: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ [النازعات: ١٠، ١١] مِن إحالتِهم الحياةَ بعدَ البلى والفَناءِ، فتَقديرُ الكلامِ: لا عجَبَ في ذلك؛ فما هي إلَّا زجرةٌ واحدةٌ فإذا أنتم حاضِرونَ في الحشرِ(٣)؛ فهو تَعليلٌ لِمُقدَّرٍ يَقتضيهِ إنكارُهم لإحياءِ العِظامِ النَّخِرةِ الَّتي عبَّروا عنها بالكَرَّةِ؛ فإنَّ مَدارَه لَمَّا كان استِصعابَهم إيَّاها ردَّ عليهم ذلك، فقيلَ: لا تَستَصْعِبوها؛ فإنَّما هي صيحةٌ واحدةٌ(٤).

- قولُه: ﴿زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ هي النَّفخةُ الثَّانيةُ، عُبِّر عنها بها؛ تَنبيهًا على كمالِ اتِّصالِها بها، كأنَّها عَيْنُها(٥).

- في قولِه: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ قَصْرٌ حقيقيٌّ(٦) مرادٌ منه تأكيدُ الخبرِ بتنزيلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٨).

(٦) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ =

السَّامعِ مَنزِلةَ مَن يَعتقِدُ أنَّ زجرةً واحدةً غيرُ كافيةٍ في إحيائِهم[(١)].

- ووُصِفَتِ الزَّجرةُ بواحدةٍ تأكيدًا؛ لِما في صِيغةِ المَرَّةِ مِن معْنى الوَحدةِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ إفرادَه للنَّوعيَّةِ، وإنَّما أُريدَ بكَونِها واحدةً أنَّها لا تُتْبَعُ بثانيةٍ لها، وقد وُصِفَتْ بواحدةٍ في سورةِ الحاقَّةِ بهذا الاعتبارِ[(٢)].

- قولُه: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ بيانٌ لترتُّبِ الكَرَّةِ على الزَّجرةِ مُفاجأةً، أي: فإذا هُم أحياءٌ على وجهِ الأرضِ بعْدَما كانوا أمواتًا في جَوفِها، أو بيانٌ لحُضورِهم الموقفَ عَقِيبَ الكَرَّةِ الَّتي عُبِّرَ عنها بالزَّجرةِ[(٣)].

= والواقِعِ، بألَّا يَتعدَّاه إلى غيره أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزِلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقَصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زَيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٧٢، ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٨).

- والفاءُ في ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ فاءُ الفَصيحةِ؛ للتَّفريعِ على جُملةِ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾، و(إذا) للمُفاجأةِ؛ فالإتيانُ بها للدَّلالةِ على سُرعةِ حُضورِهم بهذا المكانِ عَقِبَ البعثِ، أي: الحُصولِ دونَ تأخيرٍ، فحصَلَ تأكيدُ معنى التَّفريعِ الَّذي أفادَتْه الفاءُ، وذلك يُفيدُ عدمَ التَّرتُّبِ بيْنَ الزَّجْرةِ والحُصولِ في السَّاهرةِ؛ فالجمعُ بيْنَ المفاجأةِ والتَّفريعِ أشدُّ ما يُعبَّرُ به عن السَّرعةِ مع إيجازِ اللَّفظِ(١).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٤، ٣٦٥).

الآيات (١٥-٢٦)

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾: أي: المُطَهَّرِ المُبارَكِ، وأصلُ (قدس): يدُلُّ على الطُّهرِ[١].

﴿طَغَىٰ﴾: أي: عَتا، وتَجاوَزَ حدَّه في العُدوانِ، والتَّكبُّرِ على ربِّه، وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوَزةُ الحَدِّ في العِصيانِ[٢].

﴿تَزَكَّىٰ﴾: أي: تتطهَّرَ مِن الشِّركِ، وأصلُ (زكى): يدُلُّ على نَماءٍ وطهارةٍ[٣].

﴿أَدْبَرَ﴾: أي: ولَّى مُعرِضًا، وأصلُ (دبر): آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُه[٤].

﴿فَحَشَرَ﴾: أي: فجمَعَ قَومَه وجُنودَه، وأصلُ (حشر): يدُلُّ على جَمعٍ مع سَوقٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١٢/ ٨٠٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٨٠٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٨٠٣٥، ٨٠٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٨٠٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((الهداية)) =

﴿نَكَالَ﴾: النَّكالُ: العُقوبةُ والتَّنكيلُ، يُقالُ: نَكَّلْتُ بفُلانٍ، إذا عاقَبْتَه في شَيءٍ أتاه عقوبةً تُنَكِّلُ غيرَه عن ارتكابِ مِثلِه، أي: تمنَعُ وترُدُّ، والنِّكْلُ: القَيدُ؛ لأنَّه يَمنعُ الجَريَ، وأصلُ (نكل): يدُلُّ على مَنعٍ[1].

﴿لَعِبْرَةً﴾: أي: لَعِظَةً ومُعتَبَرًا وفِكرةً، والعِبرةُ: الدَّلالةُ بالشَّيءِ على مِثلِه، وحقيقتُها: الحالةُ الَّتي يُتوصَّلُ بها مِن معرفةِ المُشاهَدِ إلى ما ليس بمُشاهَدٍ، وأصلُ (عبر): يدُلُّ على النُّفوذِ والمُضِيِّ في الشَّيءِ[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾

﴿لَّكَ﴾: شِبهُ جُملةٍ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ خَبَرُ مُبتدأٍ محذوفٍ. و﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ متعَلِّقٌ بذلك المبتدأِ المحذوفِ، والتَّقديرُ: هل لك سَبيلٌ أو رغبةٌ إلى التَّزكيةِ.

= لمكي (١٢/ ٨٠٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٦٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٠)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٨٠٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٣)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٣).

قال ابن فارس: (أمَّا الاعتبارُ والعِبْرةُ فعِندَنا مَقيسانِ من عبْرَيِ النَّهرِ [بفتح العين وكسرِها، أي: شطيه]؛ لأنَّ كُلَّ واحدٍ منهما عبْرٌ مُساوٍ لصاحبِه فذاكَ عبْرٌ لهذا، وهذا عبْرٌ لذاكَ. فإذا قُلْتَ: اعْتَبَرْتُ الشَّيءَ، فكأنَّكَ نَظَرْتَ إلى الشَّيءِ فجَعَلْتَ ما يَعْنِيكَ عبرًا لذاكَ: فتَساوَيا عِندَكَ. هذا عِندَنا اشْتِقاقُ الاعْتِبارِ). ((مقاييس اللغة)) (٤/ ٢٠٩، ٢١٠).

وقال ابن القيِّم: (الاتِّعاظُ يُسمَّى اعتبارًا وعِبرةً؛ لعُبورِ المتَّعِظِ مِن النَّظيرِ إلى نظيرِه). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٤٩).

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْأَخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾

قَولُه تعالى: ﴿نَكَالَ﴾: نائِبٌ عن المصدَرِ، مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ المُطلَقةِ؛ لِمُلاقاتِه «أَخَذَ» في المعنى؛ لأنَّ أَخَذَه ونَكَّلَ به هنا بمَعنًى، أي: نَكَّل بالأَخْذِ نَكالَ الآخرةِ والأُولى، أو: أخَذَه أخْذَ نَكالٍ. ويجوزُ أَنْ يكونَ مفعولًا لأجْله، أي: لأجْلِ نَكالِه[1].

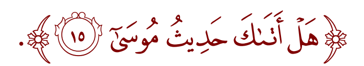
المعنى الإجماليُّ:

يَحكي اللهُ تعالى جانبًا مِن قصَّةِ موسى عليه السَّلامُ مع فِرعونَ؛ تسليةً لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيقولُ: هل بلَغَك -يا محمَّدُ- خَبَرُ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينَ ناداه ربُّه سُبحانَه بالوادي المُبارَكِ المسَمَّى طُوًى؟ فقال له: اذهَبْ إلى فِرعَونَ؛ لأنَّه تجاوَزَ حَدَّه في التَّكَبُّرِ والعِصْيانِ، فقُلْ له: هل لك إلى أن تُطَهِّرَ نَفْسَك مِن دَنَسِ الكُفْرِ والمعاصي، وأَدُلَّك على خالقِك ورازِقِك؛ فتَخشى سَخَطَه وعَذابَه؟

فأرى موسى فِرعَونَ المُعجِزةَ الكُبرى الدَّالَّةَ على صِدْقِه، فكَذَّب فِرعَونُ بالحَقِّ وعصى، ثمَّ تولَّى ساعيًا في صَدِّ النَّاسِ عن اتِّباعِ موسى عليه السَّلامُ، فجَمَع فِرعَونُ قومَه وأتْباعَه وخاطَبَهم، فقال لهم: أنا رَبُّكم الأعلى! فعاقَبَه اللهُ تعالى عُقوبةَ الآخرةِ بالنَّارِ، وعُقوبةَ الدُّنيا بالغَرَقِ.

إنَّ في ذلك العِقابِ لِفِرعَونَ لَعِظَةً لِمَن يَخافُ اللهَ تعالى وعِقابَه.

تَفسيرُ الآياتِ:


﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥﴾.

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٧٦، ٦٧٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٣١، ٢٣٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٢٣١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

وَجْهُ المناسَبةِ بيْن هذه القِصَّةِ وبيْن ما قَبْلَها مِن وَجهَين:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ اللهَ تعالى حكى عن الكُفَّارِ إصرارَهم على إنكارِ البَعْث، حتَّى انتَهَوْا في ذلك الإنكارِ إلى حَدِّ الاستهزاءِ في قَولِهم: ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات:١٢]، وكان ذلك يَشُقُّ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فذكَرَ قِصَّةَ موسى عليه السَّلامُ، وبيَّنَ أنَّه تَحمَّلَ المشَقَّةَ الكثيرةَ في دَعوةِ فِرعونَ؛ لِيَكونَ ذلك كالتَّسليةِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ فِرعَونَ كان أقوى من كُفَّارِ قُرَيشٍ، وأكثَرَ جَمعًا، وأشَدَّ شَوكةً، فلَمَّا تمَرَّد على موسى عليه السَّلامُ أخَذَه اللهُ نَكالَ الآخرةِ والأُولى، فكذلك هؤلاء المُشرِكونَ في تمَرُّدِهم عليك، إنْ أصَرُّوا أخَذَهم اللهُ، وجَعَلَهم نَكالًا[1].

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥﴾.

أي: هل بلَغَك -يا محمَّدُ- خَبَرُ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وما كان مِن أَمْرِه[2]؟

﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ١٦﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

قال القرطبي: (هذا تسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: إنَّ فِرعَونَ كان أقوى مِن كُفَّارِ عَصْرِك، ثمَّ أخَذْناه، وكذلك هؤلاء). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٠، ٢٠١).

وقال ابن عثيمين: (الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، أو لكُلِّ مَن يتأتَّى خِطابُه ويَصِحُّ توجيهُ الخِطابِ إليه، ويكونُ على المعنى الأوَّلِ: هل أتاك يا محمَّدُ؟ وعلى المعنى الثَّاني: هل أتاك أيُّها الإنسانُ؟). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٤).

أي: حينَ ناداه ربُّه سُبحانَه بالوادي المبارَكِ المطَهَّرِ المسَمَّى طُوًى[1].

كما قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ [طه: ١١، ١٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧﴾.

أي: قال اللهُ لِموسى: اذهَبْ إلى فِرعَونَ مَلِكِ مِصرَ؛ لأنَّه تَجاوَزَ حَدَّه في التَّكَبُّرِ والعُدوانِ والعِصْيانِ[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي * ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٢ - ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٥).

قال ابن جرير: (وقد اختلَفَ أهلُ التَّأويلِ في قَولِه: ﴿طُوًى﴾؛ فقال بعضُهم: هو اسمُ الوادي... وقال آخَرونَ: بلْ معنى ذلك: طَأِ الأرضَ حافِيًا... وقال آخَرونَ: بلْ معنى ذلك أنَّ الواديَ قُدِّسَ طُوًى، أيْ: مَرَّتَينِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧-٣١) و(٢٤/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٦).

أي: فقُلْ له: هل لك إلى أن تُطَهِّرَ نَفْسَك مِن دَنَسِ الكُفْرِ والمعاصي[(١)]؟

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ * جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٥، ٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥].

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

أي: قُلْ له: وهَلْ لك إلى أن أُرشِدَك وأَدُلَّك على خالقِك ورازِقِك؛ فتَخشَى سَخَطَه وعَذابَه، بامتِثالِ أوامِرِه واجتنابِ نَواهيه[(٢)]؟

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: فأرى موسى فِرعَونَ المُعجِزةَ الكُبرى الدَّالَّةَ على صِدْقِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠١)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٧).

قيل: المرادُ بالآيةِ الكُبرى: اليَدُ -إذ أخرَجها بَيْضاءَ للنَّاظِرينَ- والعصا إذ تحوَّلَتْ ثُعبانًا. وممَّن اختاره: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلَّامٍ، وابنُ جرير، والثعلبيُّ، والبغوي، والخازن، والعُلَيمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٢)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٧).

ونسَبَ ابنُ الجَوزيِّ هذا القولَ إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٦).=

كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٦ - ١٠٨].

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢١)﴾.

أي: فكَذَّب فِرعَونُ بالحَقِّ الَّذي جاء به موسى، وعصى ما أمَرَه به مِن طاعةِ رَبِّه[1].

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (٢٢)﴾.

أي: ثمَّ تولَّى فِرعَونُ مُجتَهِدًا في محارَبةِ موسى، وصَدِّ النَّاسِ عن اتِّباعِه[2].

= وقيل: المرادُ بالآيةِ الكبرى: اليَدُ. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٩٠).

وقيل: هي العصا. وممَّن اختاره: الرَّسْعَنيُّ، والشربيني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٧٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٨).

قال الزمخشري: (الآيةُ الكُبرى: قَلْبُ العَصا حَيَّةً؛ لأنَّها كانت المقدِّمةَ والأصلَ، والأُخرى كالتَّبَعِ لها... أو أرادهما جميعًا، إلَّا أنَّه جعَلَهما واحدةً؛ لأنَّ الثَّانيةَ كأنَّها مِن جملةِ الأُولى؛ لكَونِها تابعةً لها). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٥، ٦٩٦).

وقال السمرقندي: (﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ يعني: العصا، واليَدَ، وسائرَ الآياتِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٣).

وقال السعدي: (﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ أي: جِنسَ الآيةِ الكُبرى، فلا يُنافي تعَدُّدَها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عثيمين - جزء عم)) (ص: ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

قال ابن كثير: (قَولُه: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى﴾ أي: في مُقابَلةِ الحقِّ بالباطِلِ، وهو جَمْعُه السَّحَرةَ؛ ليُقابِلوا ما جاء به موسى عليه السَّلامُ مِن المعجزةِ الباهِرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥).

وقال ابن عاشور: (يجوزُ أن يكونَ ﴿أَدْبَرَ﴾ على حقيقتِه، أي: ترَك ذلك المَجمَعَ بأن قام =

كما قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٠].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٤ - ٣٧].

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: فجَمَع فِرعَونُ قومَه وأتْباعَه، وخاطَبَهم بصَوتٍ مُرتَفِعٍ[1].

= مُعرِضًا؛ إعلانًا بغَضَبِه على موسى، ويكونَ ﴿يَسْعَىٰ﴾ مُستعمَلًا في حقيقتِه أيضًا، أي: قام يشتَدُّ في مَشْيِه، وهي مِشيةُ الغاضِبِ المُعرِضِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٨).

قيل: المحشورونَ هم قَومُه وأتْباعُه وأهلُ مملكتِه. وممَّن ذهب إلى هذا في الجملةِ: ابنُ جرير، وابن عطية، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥).

وقيل: المحشورونَ هم الجنودُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٠).

وقيل: هم السَّحَرةُ والجُنودُ. وممَّن ذهب إليه: النَّسَفي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣٢).

قال القرطبي: (قيل: جمَع جُنودَه للقتالِ والمُحارَبةِ، والسَّحرةَ للمُعارَضةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢).

وقيل: حشَر قَومَه، وجُنودَه. وممَّن اختاره: البغويُّ، والرَّسْعَني، والخازن. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٧٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٢).

وقيل: المحشورون هم السَّحرةُ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والرازي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٦)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٣١).

وقيل: حشَر النَّاسَ للحُضورِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢).

قال ابن عثيمين: (حشَر النَّاسَ -أي: جمَعَهم- ونادى فيهم بصَوتٍ مُرتفعٍ؛ لِيَكونَ ذلك أبلَغَ في نَهْيِهم عمَّا يريدُ منهم موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٨).

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾.

أي: فقال فِرعَونُ: أنا رَبُّكم الأعلى، فلا أحَدَ فَوقي، وكُلُّ رَبٍّ فهو دُوني(١)!

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى عن فِرعَونَ أفعالَه وأقوالَه؛ أتْبَعَه بما عامَلَه به(٢).

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥﴾.

أي: فعاقَبَه اللهُ تعالى عُقوبةَ الآخرةِ بالنَّارِ، وعُقوبةَ الدُّنيا بالغَرَقِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٢).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالآخِرةِ: الدَّارُ الآخِرةُ، وبالأُولى: الدُّنيا، فنكل به في الدُّنيا بالإغراقِ، وفي الآخرةِ بالإحراقِ: الزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والكرماني، والزمخشري، وابنُ جُزَي، والخازن، وابن كثير، والبِقاعي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٣)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٢٧)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٩٠).

وقيل: المعنى: فعاقَبَ اللهُ فِرعَونَ عُقوبةَ كَلِمتِه الأخيرةِ، وهي قَولُه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وكَلِمتِه الأُولى الَّتي قالها مِن قَبْلُ، وهي: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: =

كما قال تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ * فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٣٩، ٤٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ * ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ٢٦﴾.

أي: إنَّ في ذلك العِقابِ لِفِرعَونَ لَعِظَةً لِمَن يَخافُ اللهَ تعالى وعِقابَه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ

= ٣٨]. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، وابنُ جرير، والسمعانيُّ، والقرطبي، وابن تيميَّةَ، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٧٧)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٣١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٩٠).

ونسَبَ الواحديُّ هذا القولَ إلى الأكثَرينَ، ونسَبَه الرَّسْعَنيُّ إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٧٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وعِكرِمةُ، ومُجاهِدٌ في روايةٍ عنه، والشَّعْبيُّ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٤)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٩٠).

قال الفرَّاءُ: (أي: أخَذَه اللهُ أخْذًا نَكالًا للآخرةِ والأُولى). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٣٣).

وقال القرطبيُّ: (والمعنَى: أمْهَلَه في الأُولَى، ثُمَّ أخَذه في الآخِرةِ، فعَذَّبَه بكَلِمَتَيْهِ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٢، ١٠٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- إنَّ مُخاطَبَةَ الرُّؤَساءِ بالقَولِ اللَّيِّنِ أمْرٌ مَطلوبٌ شرعًا وعقلًا وعُرفًا؛ ولذلك تَجِدُ النَّاسَ كالمَفطورينَ عليه، وهكذا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُخاطِبُ رؤساءَ العَشائرِ والقبائلِ، وتأمَّلِ امْتِثالَ موسى عليه السَّلامُ لِمَا أُمِرَ به[1]، فقد أمَرَه سُبحانَه أنْ يُخاطِبَ فِرعَونَ بألْيَنِ خِطابٍ، فقال لموسى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾، وفي هذا مِن لُطْفِ الخِطابِ ولِينِه وُجوهٌ:

أحدُها: إخراجُ الكَلامِ مُخْرَجَ العَرْضِ، ولم يُخرِجْه مُخرَجَ الأمرِ والإلزامِ، وهو ألطَفُ، ونظيرُه قولُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لضَيفِه المكرَمينَ: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧]، ولم يَقُلْ: كُلُوا.

الثَّاني: قولُه: ﴿إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾ والتَّزَكِّي: النَّماءُ والطَّهارةُ والبَرَكةُ والزِّيادةُ، فعَرَضَ عليه أمرًا يَقْبَلُه كلُّ عاقلٍ، ولا يَرُدُّه إلَّا كلُّ أحمَقَ جاهِلٍ.

الثَّالثُ: قولُه: ﴿تَزَكَّىٰ﴾، ولَم يَقُلْ: أُزَكِّيك، فأضاف التَّزكيةَ إلى نفْسِه، وعلى هذا يُخاطَبُ الملوكُ.

الرَّابعُ: قولُه: ﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ أي: أكونُ دليلًا لك وهاديًا بيْن يَدَيك؛ فنَسَبَ الهدايةَ إليه، والتَّزكِّي إلى المُخاطَبِ، أي: أكونُ دليلًا لك وهاديًا فتَزَكَّى أنت، كما تقولُ للرَّجُلِ: هل لك أنْ أَدُلَّك على كَنزٍ تأخُذُ منه ما شِئْتَ؟ وهذا أَحسَنُ مِن قَولِه: أُعطِيك.

الخامِسُ: قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ فإنَّ في هذا ما يُوجِبُ قَبولَ ما دلَّ عليه، وهو أنَّه

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٣٢).

يدعوه ويُوصِلُه إلى ربِّه فاطِرِه وخالِقِه، الَّذي أوجَدَه وربَّاه بنِعَمِه جَنينًا وصغيرًا وكبيرًا، وآتاه المُلْكَ، وهو نَوعٌ مِن خِطابِ الاستِعطافِ والإلزام، كما تقولُ لِمَن خرَجَ عن طاعةِ سيِّدِه: ألَا تُطيعُ سيِّدَك ومَوْلاك ومالِكَك؟! وتقولُ للولَدِ: ألَا تُطيعُ أباك الَّذي ربَّاك[١]؟!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ يدُلُّ على أنَّ مَعرِفةَ اللهِ تعالى مُقَدَّمةٌ على طاعتِه؛ لأنَّه ذَكَر الهدايةَ، وجَعَل الخَشْيةَ مُؤخَّرةً عنها، ومُفرَّعةً عليها[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ يدُلُّ على أنَّ الخَشيةَ لا تكونُ إلَّا بالمَعرِفةِ، قال تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، أي: العلماءُ به، ودَلَّت الآيةُ على أنَّ الخشيةَ مِلاكُ الخَيراتِ، لأنَّ مَن خَشِيَ اللهَ أتى منه كلُّ خيرٍ، ومَنْ أَمِنَ اجْتَرَأ على كلِّ شرٍّ، ومنه قولُه عليه السَّلامُ: ((مَنْ خَافَ أَدْلَجَ[٣]، ومَنْ أدلَجَ بلَغ المَنزِلَ))[٤].

٤- قال تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ فجَمَع بيْن التَّزكِّي والهُدى والخَشيةِ، كما جَمَع بيْن العِلمِ والخَشيةِ في قَولِه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وفي قَولِه: ﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٠).

(٣) أَدْلَجَ: أي: سارَ أوَّلَ اللَّيلِ. يُنظر: ((جامع الأصول)) لابن الأثير (٤/ ٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٠).

والحديث أخرجه الترمذيُّ (٢٤٥٠) واللَّفظُ له، والحاكمُ (٧٨٥١)، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (٨٨١).

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٥٠)، وحسَّنه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((رياض الصالحين)) (٤١٠)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ، وحسَّن إسنادَه ابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٧٩).

هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، وفي قَولِه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨]؛ وذلك لأنَّ كُلَّ واحدٍ مِن العِلمِ بالحَقِّ -الَّذي يتضَمَّنُه التَّذَكُّرُ، والذِّكْرُ الَّذي يُحدِثُه القُرآنُ-، ومِنَ الخَشيةِ المانعةِ مِن اتِّباعِ الهوى: سَبَبٌ لصلاحِ حالِ الإنسانِ، فإذا ضَعُفَ العِلمُ غلَبَ الهوى الإنسانَ، وإنْ وُجِد العِلمُ والهوى -وهما المُقتضي والدَّافعُ- فالحُكمُ للغالبِ. وإذا كان كذلك فصلاحُ بَني آدَمَ الإيمانُ والعملُ الصَّالحُ، ولا يُخرِجُهم عن ذلك إلَّا شَيئانِ؛ أحدُهما: الجهلُ المُضادُّ للعِلمِ، فيَكونونَ ضُلَّالًا، والثَّاني: اتِّباعُ الهوى والشَّهوةِ اللَّذَينِ في النَّفْسِ، فيَكونونَ غُواةً مغضوبًا عليهم[(١)].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ فيه أنَّ مَن يَخشى اللهَ هو الَّذي يَنتَفِعُ بالآياتِ والعِبَرِ[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إنَّ اللهَ تعالى تكلَّمَ بالقرآنِ بحُروفِه ومَعانيه، فجميعُه كلامُ اللهِ، وهو سُبحانَه نادى موسى عليه السَّلامُ بصَوتٍ سمِعه موسى؛ فإنَّه قد أخبَرَ أنَّه نادى موسى في غيرِ مَوضِعٍ مِن القرآنِ الكريمِ، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ * إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾، والنِّداءُ لا يكونُ إلَّا صَوتًا باتِّفاقِ أهلِ اللُّغةِ[(٣)]. ففي قَولِه تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ دليلٌ على أنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ غيرُ مخلوقٍ، تَكَلَّمَ به تكلُّمًا؛ لأنَّ النِّداءَ كَلامٌ مَسموعٌ لا مَحالةَ، والكَلامُ للمُتكَلِّمِ، والنِّداءُ منه، وصِفةٌ مِن صِفاتِه، وهو بجَميعِ صِفاتِه غيرُ مَخلوقٍ، ثُمَّ أخبَرَ عن فِرعَونَ،

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

(٣) يُنظر: ((مجموعة الرسائل والمسائل)) لابن تيمية (٣/ ١٥٥).

فقال: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾، فكان نِداءُ فِرعَونَ مخلوقًا؛ لأنَّ المنادِيَ مخلوقٌ، وكلُّ صِفةٍ تَبَعٌ للمَوصوفِ؛ فإنْ كان الموصوفُ مَخلوقًا كان كَلامُه مَخلوقًا، وإنْ كان الموصوفُ خالقًا كان كَلامُه غيرَ مَخلوقٍ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى لموسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ سؤالٌ: أنَّه في سورةِ (طه) قال سُبحانَه: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٤٣]!

والجوابُ: أنَّه لا مُنافاةَ بيْن الآيتَينِ؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى أَرْسَلَ موسى أوَّلًا، ثُمَّ طَلَبَ موسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن ربِّه أنْ يَشُدَّ أَزْرَه بأخيه هارونَ، فأَرْسَلَ هارونَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع موسى، فصار موسى وهارونُ كِلاهما مُرْسَلًا إلى فِرعَونَ[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ إخبارٌ عن قُبْحِ أعمالِ الكُفَّارِ قبْلَ أنْ يأتيَهم الرَّسولُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٧٨).

قال ابن تيميَّةَ: (قد تنازَعَ النَّاسُ في حُسنِ الأفعالِ وقُبحِها؛ كحُسنِ العدلِ والتَّوحيدِ والصِّدقِ، وقُبحِ الظُّلمِ والشِّركِ والكَذِبِ: هل يُعلَمُ بالعقلِ، أمْ لا يُعلَمُ إلَّا بالسَّمعِ؟ وإذا قيل: إنَّه يُعلَمُ بالعقلِ، فهل يُعاقَبُ مَن فعَلَ ذلك قبْلَ أن يأتيَه رسولٌ؟ على ثلاثةِ أقوالٍ معروفةٍ في أصحابِ الأئمَّةِ وغيرِهم، وهي ثلاثةُ أقوالٍ لأصحابِ الإمامِ أحمدَ وغيرِهم؛ فقالت طائفةٌ: لا يُعرَفُ ذلك إلَّا بالشَّرعِ لا بالعقلِ. وقيل: بل قد يُعلَمُ حُسنُ الأفعالِ وقُبحُها بالعقلِ. ثمَّ هؤلاء على قولَين: منهم مَن يقولُ: يَستَحِقُّونَ عذابَ الآخرةِ بمُجرَّدِ مُخالَفتِهم للعقلِ، كقولِ المعتزلةِ والحنَفيَّةِ وأبي الخطَّابِ، وقولُ هؤلاء مخالِفٌ للكتابِ والسُّنَّةِ. ومنهم مَن يقولُ: بل لا يُعَذَّبونَ حتَّى يُبعَثَ إليهم رسولٌ كما دلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّةُ، لكنْ أفعالُهم تكونُ مذمومةً مَمقوتةً، يَذُمُّها اللهُ ويُبغِضُها، ويُوصَفونَ بالكفرِ الَّذي يَذُمُّه اللهُ ويُبغِضُه، وإن كان لا يُعَذِّبُهم حتَّى يَبعَثَ إليهم رسولًا؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا =

٤- في قولِه: ﴿هَل لَّكَ﴾ فائدةٌ لطيفةٌ، وهي أنَّ المعنى: هل لك في ذلك حاجةٌ أو أَرَبٌ؟ ومعلومٌ أنَّ كلَّ عاقِلٍ يُبادِرُ إلى قَبولِ ذلك؛ لأنَّ الدَّاعيَ إنَّما يَدعو إلى حاجتِه ومصلحتِه، لا إلى حاجةِ الدَّاعي، فكأنَّه يقولُ: الحاجَةُ لك، وأنت المُتزَكِّي، وأنا الدَّليلُ لك والمُرشِدُ لك إلى أعظَمِ مَصالِحِك(١).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف قال ذلك مع أنَّه أراه الآياتِ كُلَّها؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ [طه: ٥٦]، وكُلُّ آياتِه كُبْرى؟

الجوابُ: الإخبارُ هنا عمَّا أَراه له أوَّلَ مُلاقاتِه إيَّاه، وهو العَصا واليَدُ، وأطلَقَ عليهما: ﴿ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾؛ لاتِّحادِ مَعناهما، أو أراد بالكُبْرى: العَصا وَحْدَها؛ لأنَّها كانت مُقَدَّمةً على الأُخرى(٢).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّ كُلَّ أحَدٍ يَعلَمُ أنَّ كُلَّ مَن كَذَّبَ اللهَ فقد عصى، فما الفائدةُ في قَولِه: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾؟

= مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]، فهذا يُبيِّنُ أنَّه لم يكُنْ لِيُعَذِّبَ الكفَّارَ حتَّى يَبعَثَ إليهم رسولًا، وبَيِّنٌ أنَّهم قبْلَ الرَّسولِ كانوا قد اكتَسَبوا الأعمالَ الَّتي تُوجِبُ المَقْتَ والذَّمَّ، وهي سببٌ للعذابِ، لكنْ شَرْطُ العذابِ قيامُ الحُجَّةِ عليهم بالرِّسالةِ. ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) بتصرف (٢/ ٣٠٧-٣١٤).

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤١).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٥، ٦٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٩، ١٠٠).

الجوابُ: أنَّ المعنى: كَذَّب بالقَلْبِ واللِّسانِ، وعصى بأنْ أظهَرَ التَّمَرُّدَ والتَّجَبُّرَ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾

- قولُه: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ هذه الآيةُ اعتِراضٌ بيْن جُملةِ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [النازعات: ١٣] وبيْنَ جُملةِ ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧]، الَّذي هو الحُجَّةُ على إثباتِ البعثِ، ثمَّ الإنذارُ بما بَعْدَه، دعَتْ إلى استِطرادِه مُناسَبةُ التَّهديدِ لِمُنكِري ما أخبَرَهم به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن البعثِ؛ لِتَماثُلِ حالِ المُشرِكينَ في طُغيانِهم على اللهِ ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحالِ فِرعونَ وقَومِه، وتماثُلِ حالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع قَومِه بحالِ موسى عليه السَّلامُ مع فِرعونَ؛ لِيَحصُلَ مِن ذِكرِ قِصَّةِ موسى تَسليةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على تَكذيبِ قَومِه له، ومَوعظةٌ للمُشرِكينَ وأئِمَّتِهم مِثلِ أبي جَهلٍ وأُمَيَّةَ بنِ خلَفٍ وأضرابِهما؛ لقولِه في آخِرِها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾[2] [النازعات: ٢٦].

- ومَعْنى ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ إنِ اعتُبِرَ هذا أوَّلَ ما أتاهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن حَديثِه عليه السَّلامُ: ترغيبٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في استِماعِ حَديثِه، كأنَّه قيلَ: هل أتاكَ حَديثُه؟ أنا أُخبِرُك به، وإنِ اعتُبِرَ إتيانُه قبْلَ هذا -وهو المُتبادِرُ مِن الإيجازِ في الاقتِصاصِ- حمَلَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على أنْ يُقِرَّ بأمْرٍ يَعرِفُه قبْلَ ذلك، كأنَّه قيلَ: أليس قد أتاكَ حديثُه؟ فالاستِفهامُ تَقريريٌّ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٨، ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٩)، ((إعراب القرآن)) =

- وقيل: الاستفهامُ في قولِه: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ صُوريٌّ يُقصَدُ منه تشويقُ السَّامعِ إلى الخبرِ مِن غيرِ قَصدٍ إلى استِعلامِ المخاطَبِ عن سابقِ عِلمِه بذلك الخبرِ، فسواءٌ في ذلك عَلِمَه مِن قبْلُ أو لم يَعلَمْه؛ ولذلك لا يَنتظِرُ المتكلِّمُ بهذا الاستفهامِ جوابًا عنه مِن المسؤولِ، بل يُعقِّبُ الاستِفهامَ بتفصيلِ ما أَوْهَمَ الاستِفهامَ عنه بهذا الاستفهامِ؛ كِنايةً عن أهمِّيَّةِ الخبرِ بحيثُ إنَّه ممَّا يَتساءَلُ النَّاسُ عن عِلمِه، والخِطابُ لغيرِ معيَّنٍ، فالكلامُ موعظةٌ، ويَتْبعُه تسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(١)].

- وجملةُ ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ قيلَ: الجُملةُ مَقولُ قولٍ محذوفٍ، تقديرُه: «فقال: اذهَبْ». أو «قائلًا له: اذْهَبْ». ويجوزُ أنْ تكونَ جملةً مُفسِّرةً للنِّداءِ، أي: ناداه اذهَبْ، وقيل: هو على حذفِ «أن» المفسرةِ؛ لأنَّ في النِّداءِ معنَى القولِ، ويجوزُ أن تكونَ بتقديرِ (أن) المصدريةِ قبلَها حرفُ جرٍّ مقدرٍ، أي: بأنْ ناداه[(٢)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ تَعليلٌ للأمرِ في قولِه: ﴿اذْهَبْ﴾، أو لوُجوبِ الامتِثالِ بهِ؛ ولذلك افتُتِحَتْ بحَرفِ (إنَّ) الَّذي هو للاهتِمامِ، ويُفيدُ مُفادَ التَّعليلِ[(٣)].

- قولُه: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ بدَأَ مُخاطَبتَه بالاستِفهامِ الَّذي معناه العَرْضُ والتَّرغيبُ، كما يقولُ الرَّجُلُ لضَيفِه: هل لك أنْ تَنزِلَ

= لدرويش (١٠/ ٣٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٣، ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٩)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٨/ ٣١٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٦).

بنا؟ وأَردَفَه الكلامَ الرَّقيقَ؛ لِيَستدعيَه بالتَّلطُّفِ في القولِ، ويَستنزِلَه بالمُداراةِ مِن عُتُوِّه، وهذا ضربُ تفصيلٍ لقولِه تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾[1] [طه: ٤٤].

- وقولُه: ﴿هَل لَّكَ﴾ تركيبٌ جرَى مَجرى المَثَلِ، فلا يُغيَّرُ عن هذا التَّركيبِ؛ لأنَّه قُصِد به الإيجازُ، وهو كلامٌ يُقصَدُ منه العَرْضُ[2].

- و﴿لَّكَ﴾ خبرُ مُبتدأٍ محذوفٍ، تقديرُه: هل لك رغبةٌ في كذا؟ فحُذِف (رغبةٌ) واكتُفِيَ بدَلالةِ حرفِ (في) عليه، وقالوا: هل لَك إلى كذا[3].

- وذَكَر مُوسى عليه السَّلامُ لِفِرعونَ الإلهَ الحَقَّ بوصْفِ ﴿رَبِّكَ﴾ دونَ أنْ يذكُرَ له اسمَ اللهِ العَلَمَ أو غيرَه مِن طُرُقِ التَّعريفِ؛ إلطافًا في الدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ، وتجنُّبًا لاستِطارةِ نفْسِه نُفورًا؛ لأنَّه لا يُعرَفُ في لُغةِ فِرعونَ اسمٌ للهِ تعالى، ولو عرَّفَه له باسمِه في لغةِ إسرائيلَ لَنَفَرَ؛ لأنَّ فِرعونَ كان يَعبُدُ آلهةً باطلةً، فكان في قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وفِرعونُ يَعلَمُ أنَّ له ربًّا: إطماعٌ له أنْ يُرشِدَه موسى إلى ما لا يُنافي عقائدَه، فيُصْغي إليه سمْعَه، حتَّى إذا سَمِع قولَه وحُجَّتَه داخَلَه الإيمانُ الحقُّ مدرَّجًا؛ ففي هذا الأسلوبِ استنزالٌ لطائرِه[4].

- قولُه: ﴿فَتَخۡشَىٰ﴾ الخَشيةُ: الخَوفُ، فإذا أُطلِقَت في لِسانِ الشَّرعِ يُرادُ بها خَشيةُ اللهِ تعالَى، ولهذا نُزِّلَ فِعلُها هنا مَنزِلةَ اللَّازمِ، فلمْ يُذكَرْ له مَفعولٌ؛ لأنَّ المَخْشيَّ مَعلومٌ، مِثل فِعلِ الإيمانِ في لِسانِ الشَّرعِ؛ يُقال: آمَنَ فُلانٌ، وفُلانٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٧٨).

مؤمنٌ، أي: مُؤمنٌ باللهِ ووَحدانيَّته[١].

- وتَفريعُ ﴿فَتَخۡشَىٰ﴾ على (أَهْدِيَكَ) إشارةٌ إلى أنَّ خشيةَ اللهِ لا تكونُ إلَّا بالمعرفةِ. وفي الاقتِصارِ على ذِكرِ الخشيةِ إيجازٌ بليغٌ؛ لأنَّ الخشيةَ مِلاكُ كلِّ خيرٍ[٢].

- وجاء تَرتيبُ الجُمَلِ أحسنَ تَرتيبٍ، حيثُ جاء تَرتيبُها في الذِّكرِ مُراعًى فيه ترتُّبُها في الحُصولِ؛ فلذلك لم يُحتَجْ إلى عطفِ ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ بفاءِ التَّفريعِ؛ إذْ كثيرًا ما يُسْتغنَى بالعَطْفِ بالواوِ مع إرادةِ التَّرتيبِ عن العَطْفِ بحرْفِ التَّرتيبِ؛ لأنَّ الواوَ تُفيدُ التَّرتيبَ بالقَرينةِ، ويُسْتغنَى بالعطْفِ عن ذِكرِ حرْفِ التَّفسيرِ في العطْفِ التَّفسيريِّ الَّذي يكونُ الواوُ فيه بمعْنى (أيْ) التَّفسيريَّةِ؛ فإنَّ ﴿أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهۡدِيَكَ﴾ في قوَّةِ المفرَدِ، والتَّقديرُ: هلْ لك في التَّزكيةِ وهِدايتي إيَّاك فخَشْيتك اللهَ تعالَى[٣]؟

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ * فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ * ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ﴾

- قولُه: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ الفاءُ فَصيحةٌ تُفصِحُ عن جُمَلٍ قد طُوِيَتْ؛ تعويلًا على تفصيلِها في السُّوَرِ الأُخرى، وتفريعٌ على مَحذوفٍ يَقتضيهِ قولُه: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ [النازعات: ١٧]، والتَّقديرُ: فذهَبَ فدَعاهُ فكَذَّبَه فأَراهُ الآيةَ الكُبرى[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٧).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائد (ص: ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي =

- وأُعقِبَ فعلُ ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ بفعلِ ﴿فَكَذَّبَ﴾؛ للدَّلالةِ على شِدَّةِ عِنادِه ومُكابَرتِه، حتَّى إنَّه رأى الآيةَ فلم يَتردَّدْ ولم يَتمهَّلْ حتَّى يَنظُرَ في الدَّلالةِ، بل بادَرَ إلى التَّكذيبِ والعِصيانِ(١).

- و(ثمَّ) حرْفُ عطْفٍ للتَّرتيبِ مع التَّراخي، وأتى بها؛ لأنَّ إبطالَ الإيمانِ ونقْضَه يَقتضي زمانًا طويلًا(٢).

- وقيل: عُطِف قولُه: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ بحرفِ (ثُمَّ)؛ للدَّلالةِ على التَّراخي الرُّتبيِّ كما هو شأنُها في عَطفِ الجُمَلِ، فأفادَتْ (ثُمَّ) أنَّ مضمونَ الجُملةِ المعطوفةِ بها أَعلى رُتبةً في الغرَضِ الَّذي تَضمَّنَتْه الجملةُ قبْلَها، أي: إنَّه ارتقى مِن التَّكذيبِ والعِصيانِ إلى ما هو أشدُّ، وهو الإدبارُ، والسَّعيُ، وادِّعاءُ الإلهيَّةِ لنفْسِه، أي: بعدَ أنْ فكَّرَ مَلِيًّا لم يَقتنِعْ بالتَّكذيبِ والعِصيانِ، فخَشِيَ أنَّه إنْ سكَتَ رُبَّما تَرُوجُ دعوةُ موسى بيْنَ النَّاسِ، فأرادَ الحَيطةَ لدَفْعِها وتحذيرَ النَّاسِ منها(٣).

- قولُه: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ الإدبارُ كِنايةٌ عن إعْراضِه عن الإيمانِ(٤). وعلى القولِ بأنَّ المرادَ: (ثمَّ أقبَلَ)، أي: أنشَأَ يَسْعى؛ فوُضِعَ مَوضعَهُ (أدبَرَ)؛ تَحاشيًا عن وصْفِه بالإقبالِ(٥).

- والسَّعيُ: شِدَّةُ المشيِ، وهو هنا مُعبَّرٌ به عن الحرْصِ والاجتهادِ في أمْرِه النَّاسَ

= السعود)) (٩/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٠).

بعدمِ الإصغاءِ لكلامِ موسى، فهو يَجتهِدُ في مُكايَدةِ مُوسى عليه السَّلامُ، وجمْعَ السَّحَرةَ لمُعارَضةِ مُعجِزتِه؛ إذ حَسِبَها سِحرًا[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾

- حُذِف مفعولُ (حشَرَ) و(نادَى) لظُهورِه؛ لأنَّ الَّذين يُحشَرون ويُنادَونَ هم أهلُ مَدينتِه مِن كلِّ صِنفٍ[٢].

- وعُطِف ﴿فَنَادَىٰ﴾ بالفاءِ؛ لإفادةِ أنَّه أعلَنَ هذا القولَ لهم بفَورِ حُضورِهم؛ لفَرْطِ حِرصِه على إبلاغ ذلك إليهم[٣].

- وإسنادُ الحشرِ والنِّداءِ إلى فِرعونَ وإن لم يُباشِرْ بنفْسِه حَشْرَ النَّاسِ ولا نِداءَهم، ولكنَّه أمَرَ أتْباعَه وجُندَه، فأُسنِدَ إليه؛ لأنَّه الَّذي أمَرَ به[٤].

- وصِيغةُ الحَصرِ في ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ﴾ لرَدِّ دَعوةِ موسَى عليه السَّلامُ[٥].

- وقولُه: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ بدَلًا مِن جُملةِ ﴿فَنَادَىٰ﴾ بدَلًا مُطابِقًا بإعادةِ حرْفِ العطْفِ، وهو الفاءُ؛ لأنَّ البدَلَ قدْ يَقترِنُ بمِثلِ العاملِ في المُبدَلِ منه لقَصْدِ التَّأكيدِ[٦].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾

- جملةُ ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ مُفرَّعةٌ عن الجُمَلِ الَّتي قبْلَها، أي: كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ما ذُكِر مِن تكذيبِه وعِصيانِه وكَيدِه سببًا لأنْ أخَذَه اللهُ، وهذا هو المقصودُ مِن سَوقِ القِصَّةِ، وهو مناطُ مَوعظةِ المُشرِكينَ وإنذارِهم، مع تسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتثبيتِه[1].

- ووُرودُ فِعلِ (أخَذَه) بصِيغةِ المُضِيِّ مع أنَّ عذابَ الآخِرةِ مُستقبَلٌ ليومِ الجزاءِ، مُراعًى فيه أنَّه لَمَّا مات ابتدَأَ يذوقُ العذابَ حينَ يَرى مَنزلتَه الَّتي سيَؤولُ إليها يومَ الجزاءِ[2].

- وتَقديمُ الآخِرةِ على الأُولى في الذِّكرِ؛ لأنَّ أمْرَ الآخِرةِ أعظَمُ[3].

- وجاء في آخِرِ القِصَّةِ بحَوصلةٍ وفَذْلَكةٍ[4] لِما تَقدَّمَ فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾؛ فهو في معْنى البَيانِ لمَضمونِ جُملةِ ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٥] الآياتِ[5].

- وتَنوينُ (عِبرةً) للتَّعظيمِ؛ لأنَّ في هذه القِصَّةِ مَواعظَ كثيرةً مِن جهاتٍ هي مَثُلاتٌ للأعمالِ وعواقِبِها، ومراقبةِ اللهِ وخشْيتِه، وما يَترتَّبُ على ذلك وعلى ضدِّه مِن خيرٍ وشرٍّ في الدُّنيا والآخرةِ، وجُعِل ذلك عِبرةً لِمَن يَخْشى، أي: مَن تُخالِطُ نفْسَه خشيةُ اللهِ؛ لأنَّ الَّذين يَخشَونَ اللهَ هم أهلُ المعرفةِ الَّذين يَفهَمونَ دَلالةَ الأشياءِ على لَوازِمِها وخَفاياها[6].

- وفي هذا تعريضٌ بالمُشرِكينَ بأنَّهم ليسوا بأهلٍ للانتفاعِ بمِثلِ هذا كما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدَّم تعريفُها (ص: ١١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لم يَنتفِعْ بمِثلِه فِرعونُ وقَومُه. وفي القصَّةِ كلِّها تعريضٌ بسادةِ قُريشٍ مِن أهلِ الكُفرِ مِثلِ أبي جَهلٍ بتنظيرِهم بفِرعونَ، وتنظيرِ الدَّهْماءِ بالقَومِ الَّذين حشَرَهم فِرعونُ ونادى فيهم بالكفرِ، وقد عَلِم المُسلِمونَ مَضرِبَ هذا المَثَلِ؛ فكان أبو جهلٍ يُوصَفُ عِندَ المُسلِمينَ بفِرعونِ هذه الأُمَّةِ(١).

- وتأكيدُ الخبرِ بـ (إنَّ) ولامِ الابتِداءِ؛ لتنزيلِ السَّامِعينَ الَّذين سِيقَتْ لهم القِصَّةُ مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ ما فيها مِن المَواعِظِ؛ لعدَمِ جَرْيِهم على الاعتبارِ والاتِّعاظِ بما فيها مِن المواعظِ(٢).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٨٣).

الآيات (٢٧-٣٣)

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَمْكَهَا﴾: أي: بِناءَها وسَقْفَها، وأصلُ (سمك): يدُلُّ على عُلُوٍّ[(١)].

﴿فَسَوَّاهَا﴾: أي: جَعَلَها مُسْتَوِيَةَ الخَلْقِ مُعَدَّلَةَ الشَّكْلِ، والتَّسويةُ: جَعْلُ الشَّيءِ سَواءً، أي: مُعَدَّلًا مُقَوَّمًا، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعْتِدالٍ بيْنَ شيئَيْنِ[(٢)].

﴿وَأَغْطَشَ﴾: أي: أظلَمَ، وأصلُ (غطش): يدُلُّ على ظُلْمةٍ[(٣)].

﴿دَحَاهَا﴾: أي: بَسَطَها ومَدَّها مُسْتَوِيةً، وأصلُ (دحو): يدُلُّ على بَسطٍ وتمهيدٍ[(٤)].

﴿أَرْسَاهَا﴾: أي: أثبَتَها، يُقالُ: رَسَا الشَّيءُ يَرْسُو: ثبَت، وأَرْساهُ غيرُه، وأصل

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٨).

(رسو): يدُلُّ على ثَباتٍ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا كمالَ قُدرتِه: أأَنْتُم -أيُّها المكَذِّبونَ بالبَعْثِ- أقوى خَلْقًا أمِ السَّماءُ؟ بناها اللهُ تعالى، ورفَعَ بِناءَها، وجَعَل لَيْلَها مُظْلِمًا، وأضاء نهارَها بطُلوعِ شَمْسِها، وبَسَط اللهُ تعالى الأرضَ بعْدَ خَلْقِ السَّماءِ، وأخرَجَ مِنَ الأرضِ البِحارَ والأنهارَ، والنَّباتَ، وثبَّتَ الجِبالَ، فلا تَضطَرِبُ الأرضُ؛ لِمَنفعَتِكم -أيُّها النَّاسُ- ولأنعامِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها انتِقالٌ مِن الاعتبارِ بأمثالِ الكُفَّارِ مِن الأُمَمِ الَّذي هو تخويفٌ وتهديدٌ على تكذيبِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، إلى إبطالِ شُبهتِهم على نفْيِ البعثِ -وهي قولُهم: ﴿أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠]- وما أَعقَبوهُ من التَّهكُّمِ المبنيِّ على توهُّمِ إحالةِ البعثِ[(٢)].

وأيضًا لَمَّا خَتَم اللهَ تعالى تلك القِصَّةَ؛ رَجَع إلى مخاطبةِ مُنكِري البَعْثِ، فقال[(٣)]:

﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٢).

أي: أأنتم -أيُّها المكَذِّبونَ بالبَعْثِ- أقوى خَلْقًا أمِ السَّماءُ أقوى منكم؟ فالقادِرُ على خَلْقِ السَّماءِ وهي أعظَمُ منكم: قادِرٌ على إحيائِكم بعْدَ مَوتِكم[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨١، ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ [الصافات: ١١].

وقال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

﴿بَنَىٰهَا﴾.

أي: بنى اللهُ السَّماءَ، وجعَلَها سَقْفًا للأرضِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

قال الشَّوكاني: (أي: أخَلْقُكم بعدَ الموتِ وبَعْثُكم أشَدُّ عِندَكم وفي تقديركم أمْ خَلْقُ السَّماءِ؟ والخِطابُ لكُفَّارِ مكَّةَ، والمقصودُ به التَّوبيخُ لهم والتَّبكيتُ؛ لأنَّ مَن قَدَر على خَلقِ السَّماءِ الَّتي لها هذا الجِرْمُ العظيمُ، وفيها مِن عجائِبِ الصُّنعِ وبدائِعِ القُدْرةِ ما هو بَيِّنٌ للنَّاظِرينَ، كيف يَعجِزُ عن إعادةِ الأجسامِ الَّتي أماتها بعدَ أنْ خلقَها أوَّلَ مَرَّةٍ؟!). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥٧). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٠).

قال ابنُ عثيمين: (﴿بَنَىٰهَا﴾ هذه الجُملةُ لا تتعَلَّقُ بالَّتي قَبْلَها؛ ولهذا يَنبغي للقارئِ إذا قرَأَ أن يَقِفَ على قَولِه: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾، ثمَّ يَستأنِفَ فيقولَ: ﴿بَنَىٰهَا﴾، فالجُملةُ استئنافيَّةٌ لبيانِ عَظَمةِ السَّماءِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٠).

وقال أبو بكرٍ الأنباريُّ: (﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ وقفٌ حسَنٌ، ثمَّ فسَّر أمرَها فقال: ﴿بَنَىٰهَا * رَفَعَ =

﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ٢٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّن في السَّماءِ أنَّه بناها؛ بَيَّن بعدَ ذلك أنَّه كيف بناها، وشَرَح تلك الكيفيَّةَ مِن وُجوهٍ(١).

﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ٢٨﴾.

أي: جَعَل اللهُ بناءَ السَّماءِ عاليًا عن الأرضِ، فأتقَنَ بناءَها، فهي مُستَوِيةٌ لا ارتِفاعَ أو انخفاضَ في أرجائِها، ولا فُطورَ فيها ولا شُقوقَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ

= سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨]. وقال بعضُ المفسِّرينَ: الوقفُ على ﴿بَنَىٰهَا﴾. ((إيضاح الوقف والابتداء)) (٢/ ٩٦٥). ويُنظر: ((المكتفى في الوقف والابتدا)) لأبي عمرو الداني (ص: ٢٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٣، ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥١).
قال ابن الجوزي: (ومعنى ﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا﴾ رَفَع ارتِفاعَها وعلوَّها في الهواءِ، ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ بلا شُقوقٍ ولا فُطورٍ ولا تفاوُتٍ يرتَفِعُ فيه بعضُها على بعضٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٧).
وقال ابن جرير: (فسَوَّى السَّماءَ، فلا شيءَ أرفَعُ مِن شيءٍ، ولا شيءَ أخْفَضُ مِن شيءٍ، ولَكِنْ جميعُها مُسْتَوِي الارْتِفاعِ والامْتِدادِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٨، ٨٩).
وقال الشوكاني: (ومعنَى ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾: فجَعَلَها مُسْتَوِيةَ الخَلقِ، مُعَدَّلَةَ الشَّكلِ، لا تَفاوُتَ فيها ولا اعْوِجاجَ، ولا فُطورَ ولا شُقوقَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥٧).

﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ [الملك: ٣].

﴿وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ٢٩﴾.

﴿وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا﴾.

أي: وجعَل اللهُ ليلَ السَّماءِ مُظْلِمًا[1].

قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ [الشمس: ٤].

﴿وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا﴾.

أي: وأضاء اللهُ نهارَ السَّماءِ بطُلوعِ شَمْسِها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٣].

﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَف كيفيَّةَ خَلْقِ السَّماءِ؛ أتْبَعَه بكيفيَّةِ خَلْقِ الأرضِ[3]، فقال:

﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾.

أي: بَسَط اللهُ تعالى الأرضَ بعْدَ خَلْقِ السَّماءِ، ومَدَّها للسُّكنى فيها[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الدَّحْوَ، أتْبَعَه ما استلزَمَه مِنَ المنافِعِ؛ لتوَقُّفِ السُّكنى المقصودةِ بالدَّحْوِ عليه[1].

= (٨/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥١).

قال الأزهري: (لم يختلِفِ المفَسِّرون أنَّ خَلْقَ الأرضِ سَبَق خَلْقَ السَّماءِ... فاللهُ جلَّ وعَزَّ خلق الأرضَ أوَّلًا غيرَ مَدْحُوَّةٍ، ثمَّ خَلَق السَّماءَ، ثمَّ دحا الأرضَ، أي: بَسَطَها). ((تهذيب اللغة)) (٢/ ١٤٤). ويُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٢٣).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ قولَه: ﴿دَحَاهَا﴾ أي: بَسَطَها ومَدَّها ومَهَّدَها للسُّكْنَى: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والواحدي، وابن عطية، والبيضاوي، والنسفي، وابن جُزَي، والخازن، وأبو حيان، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٩١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٩٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٧٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٨١).

قال الرَّسْعَني: (قال ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه مِن المفسِّرينَ واللُّغَويِّينَ: ﴿دَحَاهَا﴾ بمعنى: بَسَطَها. والدَّحْوُ: البَسْطُ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٧٧).

وقال السعدي: (﴿دَحَاهَا﴾ أي: أودَعَ فيها مَنافِعَها. وفسَّر ذلك بقولِه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ أي: ثبَّتَها في الأرضِ. فدَحْيُ الأرضِ بعدَ خلقِ السَّماءِ، كما هو نصُّ هذه الآيات [الكريمةِ]. وأمَّا خلقُ نفْسِ الأرضِ فمُتقَدِّمٌ على خَلقِ السَّماءِ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] إلى أن قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

وقال ابنُ كثير: (قولُه: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ فسَّره بقولِه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (المقدمة/ ٣٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٠).

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝٣١﴾.

أي: أخرَجَ اللهُ مِنَ الأرضِ البِحارَ والأنهارَ وعُيونَ الماءِ، وأخرج نَباتَها[١].

﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۝٣٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الأرضَ ومَنافِعَها؛ ذكَرَ المراسيَ الَّتي تمَّ بها نَفْعُها[٢].

﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۝٣٢﴾.

أي: وثبَّتَ اللهُ الجِبالَ، فلا تَضطَرِبُ الأرضُ وتَميدُ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ۝٣٣﴾.

أي: خَلَقَ اللهُ تعالى ذلك لِمَنفعَتِكم -أيُّها النَّاسُ- ولأنعامِكم مِن الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ، فتتمَتَّعونَ بذلك إلى حينٍ مِنَ الزَّمانِ[٤].

قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ أنَّ السَّماءَ مَبنيَّةٌ[١].

٢- قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾، وإخراجُ الضُّحى: إبرازُ نورِ الضُّحى، وإنَّما جُعِلَ إظهارُ النُّورِ إخراجًا؛ لأنَّ النُّورَ طارئٌ بعدَ الظُّلمةِ؛ إذ الظُّلمةُ عدَمٌ، وهو أسبَقُ، والنُّورُ محتاجٌ إلى السَّببِ الَّذي يُنيرُه[٢].

٣- قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾، ثمَّ قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾، وهذا يدُلُّ على أنَّ دَحْوَ الأرضِ بعْدَ خَلقِ السَّماءِ، مع أنَّ قولَه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩] الآيةَ: يدُلُّ على أنَّ خَلْقَ الأرضِ قبْلَ خَلقِ السَّماءِ، بدليلِ لَفظةِ: (ثُمَّ) الَّتي هي للتَّرتيبِ والانفصالِ، وكذلك آيةُ (فُصِّلَتْ) تدُلُّ أيضًا على خَلقِ الأرضِ قبْلَ خَلقِ السَّماءِ؛ لأنَّه قال فيها: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]، إلى أن قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ الآيةَ [فصلت: ١١].

والجواب: أنَّ ابنَ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما سُئل عن الجَمعِ بيْنَ آيةِ (فُصِّلَتْ) وآيةِ (النَّازعات)، فأجاب بأنَّ اللهَ تعالى خلَقَ الأرضَ أوَّلًا قبْلَ السَّماءِ غيرَ مَدْحُوَّةٍ، ثمَّ استوى إلى السَّماءِ فسَوَّاهُنَّ سَبْعًا في يومَينِ، ثمَّ دحا الأرضَ بعدَ ذلك، وجعَلَ فيها الرَّواسيَ والأنهارَ وغيرَ ذلك، فأصْلُ خَلقِ الأرضِ قبْلَ خَلقِ السَّماءِ، ودَحْوُها بجبالِها وأشجارِها ونحوِ ذلك بعْدَ خَلقِ السَّماءِ، ويدُلُّ لهذا أنَّه قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾، ولم يَقُلْ: (خلَقَها)، ثمَّ فسَّر دَحْوَه إيَّاها بقولِه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ الآيةَ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٥، ٨٦).

وهذا الجَمْعُ الَّذي جمَع به ابنُ عبَّاسٍ بيْن هاتَينِ الآيتَينِ واضحٌ لا إشكالَ فيه، مفهومٌ مِن ظاهرِ القرآنِ العظيمِ، إلَّا أنَّه يَرِدُ عليه إشكالٌ مِن آيةِ (البقرة) هذه، وإيضاحُه أنَّ ابنَ عبَّاسٍ جمَع بأنَّ خَلْقَ الأرضِ قبْلَ خَلقِ السَّماءِ، ودَحْوَها بما فيها بعدَ خَلقِ السَّماءِ.

وفي هذه الآيةِ التَّصريحُ بأنَّ جميعَ ما في الأرضِ مخلوقٌ قبْلَ خَلقِ السَّماءِ؛ لأنَّه قال فيها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآيةَ [البقرة: ٢٩].

وهذا الإشكالُ مرفوعٌ مِن وجهَينِ، كلٌّ منهما تدُلُّ عليه آيةٌ مِن القرآنِ:

الأوَّلُ: أنَّ المرادَ بخَلقِ ما في الأرضِ جميعًا قبْلَ خَلقِ السَّماءِ: الخَلقُ اللُّغَويُّ الَّذي هو التَّقديرُ، لا الخَلقُ بالفِعلِ الَّذي هو الإبرازُ مِن العدَمِ إلى الوُجودِ، والعربُ تُسمِّي التَّقديرَ خَلْقًا، ومنه قولُ زُهَيرٍ(١):

ولَأَنتَ تَفْري ما خَلَقْتَ وبَعـ ... ـضُ القومِ يَخلُقُ ثمَّ لا يَفْري(٢)

والدَّليلُ على أنَّ المرادَ بهذا الخَلقِ التَّقديرُ: أنَّه تعالى نَصَّ على ذلك في سورةِ (فُصِّلَتْ)، حيث قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠]، ثمَّ قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ الآيةَ [فصلت: ١١].

الوجهُ الثَّاني: أنَّه لَمَّا خلَقَ الأرضَ غيرَ مَدْحُوَّةٍ، وهي أصلٌ لكلِّ ما فيها، كان

---

(١) يُنظر: ((ديوان زهير بن أبي سُلْمى)) (ص: ٥٦).

(٢) يَخلُقُ: أي: يُقَدِّرُ الأديمَ ويُهَيِّئُه للقَطع. ويَفْري: أي: يَشُقُّه كما قَدَّر. ومعنى البَيتِ: أنت إذا قدَّرْتَ أمرًا وتهَيَّأْتَ له أمضَيْتَه وأنفَذْتَه بعَزمِك وقدرتك ولم تَعجزْ عنه، بخِلافِ غيرِك؛ فإنَّ بعضَ القَومِ يُقَدِّرُ ثمَّ لا قوَّةَ له ولا عزيمةَ على إنفاذِ ما قدَّره وإمضائِه، فالخَلْقُ: التَّقديرُ، والفَرْيُ: التَّنفيذُ. يُنظر: ((شرح ديوان زهير)) لثعلب (ص: ٩٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٧/ ٣٨١)، ((شفاء العليل)) لابن القيِّم (ص: ٥٣)، ((معارج القبول)) لحافظ حكمي (١/ ١٣٢).

كلُّ ما فيها كأنَّه خُلِق بالفعلِ؛ لِوُجودِ أصْلِه فِعلًا، والدَّليلُ مِن القرآنِ على أنَّ وُجودَ الأصلِ يُمكِنُ به إطلاقُ الخَلقِ على الفرعِ وإن لم يكُنْ مَوجودًا بالفِعلِ: قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [الأعراف: ١١]. قولُه: ﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ بخَلْقِنا وتصويرِنا لأبيكم آدَمَ الَّذي هو أصْلُكم.

وجمَعَ بعضُ العُلماءِ بأنَّ معنى قولِه: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾، أي: معَ ذلك، فلَفْظةُ (بَعْدَ) بمعنَى معَ، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣]. وعليه فلا إشكالَ في الآيةِ(١).

٤- قال الله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ دَلَّ بذِكْرِ الماءِ والمَرْعى على جميعِ ما تُخرِجُه الأرضُ قُوتًا للنَّاسِ وللحَيوانِ، حتَّى ما تُعالَجُ به الأطعِمةُ مِن حَطَبٍ للطَّبخِ؛ فإنَّه ممَّا تُنبتُ الأرضُ، وحتَّى المِلْحُ؛ فإنَّه مِن الماءِ الَّذي على الأرضِ(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١١-١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٣-١٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٦٠).

قال الرَّسْعَني: (قال عبدُ الله بنُ عمر وعِكْرِمةُ وعَطاءٌ وجمهورُ المفسِّرينَ: خلَقَ الأرضَ قبْلَ السَّماءِ، ثمَّ خلَقَ السَّماءَ، ثمَّ دحى الأرضَ بعدَ خَلقِ السَّماءِ.

وحمَلَ القائلونَ بتكامُلِ خَلقِ الأرضِ قبْلَ السَّماءِ «بَعْدَ» على معنى: قبْلَ، كقولِه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. ومنهم مَن قال: «بَعْدَ» بمعنى: معَ، قالوا: ومنه قولُه: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣]، أي: معَ ذلك). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٧٧).

وقال الشنقيطي: (وجَمَع بعضُهم بأوجهٍ ضعيفةٍ؛ لأنَّها مَبنيَّةٌ على أنَّ خلْقَ السَّماءِ قبْلَ الأرضِ، وهو خلافُ التَّحقيقِ؛ منها: أنَّ «ثُمَّ» بمعنَى الواوِ، ومنها: أنَّها للتَّرتيبِ الذِّكْريِّ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٧).

﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ دليلٌ على أنَّ الماءَ والكَلَأَ وحِجارةَ الجِبالِ وحَطَبَه: النَّاسُ فيه شُرَكاءُ، ما لَم يَقَعْ فيها الحيازاتُ بالأملاكِ الظَّاهِرةِ الَّتي تُستفادُ بوُجوهِ الفوائدِ، فإذا وَقَعتِ الحيازاتُ فكُلُّ مَن مَلَكَ أرضًا مَلَكَ كلَّ ما تُخرِجُه مِن عَينٍ وكَلَإٍ، إلَّا ماءَ الشَّفَهِ[1] ما لَم تُجعَلْ في الظُّروفِ، والكَلَأَ مِن المارَّةِ[2].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ معنى ﴿أَرْسَىٰهَا﴾ أي: أَثْبَتَها وأثبَتَ بها الأرضَ أنْ تَميدَ بأهلِها، وهذا تَحقيقٌ للحقِّ، وتنبيهٌ على أنَّ الرُّسوَّ المنسوبَ إليها في مواضعَ كثيرةٍ مِن التَّنزيلِ بالتَّعبيرِ عنها بالرَّواسي ليس مِن مُقتضَياتِ ذَواتِها، بل هو بإرسائِه عزَّ وجلَّ، ولَوْلاهُ لَما ثبَتَتْ في أنفُسِها، فضلًا عن إثباتِها للأرضِ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ إبطالٌ لشُبهةِ المشركينَ على نفْيِ البعثِ، وجاءَ إبطالُ شُبهتِهم بقياسِ خلْقِ أجسادِهم على خلقِ السَّمواتِ والأرضِ، فقيلَ لهم: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾؛ فلذلك قيلَ لهم هنا: ﴿ءَأَنتُمْ﴾ بضميرِهم، ولم يقُلْ: آلإنسانُ أشدُّ خَلْقًا، وما هم إلَّا مِن الإنسانِ، فالخِطابُ موجَّهٌ إلى المُشركينَ الَّذين عُبِّر عنهم آنِفًا بضمائرِ الغَيبةِ مِن قولِه: ﴿يَقُولُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠- ١٤]، وهو الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ، فالجُملةُ مُستأنَفةٌ لقَصْدِ الجوابِ عن شُبهتِهم؛ لأنَّ حِكايةَ شُبهتِهم بـ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا﴾ إلى آخِرِه، تَقتضي ترَقُّبَ جوابٍ

---

(١) أي الماء الذي يشربُه النَّاسُ والدوابُّ. يُنظر: ((الأصل)) للشيباني (٨/ ١٥٠)، ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٦/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٢).

عن ذلك القولِ(١).

- وأيضًا قولُه: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ خِطابٌ لأهلِ مكَّةَ، أو عامٌّ للمُنكِرينَ للبعثِ بِناءً على صُعوبتِه في زَعْمِهم بطريقِ التَّوبيخِ والتَّبكيتِ بعدَما بُيِّنَ كمالُ سُهولتِه بالنِّسبةِ إلى قُدرةِ اللهِ تعالى بقولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾(٢).

- والاستفهامُ في ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ تقريريٌّ، والمقصودُ مِن التَّقريرِ إلجاؤُهم إلى الإقرارِ بأنَّ خلْقَ السَّماءِ أعظَمُ مِن خلْقِهم، أي: مِن خلْقِ نَوعِهم، وهو نوعُ الإنسانِ، وهم يَعلَمونَ أنَّ اللهَ هو خالقُ السَّماءِ، فلا جَرَمَ أنَّ الَّذي قَدَرَ على خلْقِ السَّماءِ قادرٌ على خَلْقِ الإنسانِ مرَّةً ثانيةً، فيُنتِجُ ذلك أنَّ إعادةَ خلْقِ الأجسادِ بعدَ فَنائِها مَقدورةٌ للهِ تعالى؛ لأنَّه قَدَرَ على ما هو أعظَمُ مِن ذلك؛ ذلك أنَّ نظَرَهم العقليَّ غيَّمتْ عليه العادةُ، فجَعَلوا ما لم يَألَفوهُ مُحالًا، ولم يَلتَفِتوا إلى إمكانِ ما هو أعظَمُ ممَّا أحالوهُ بالضَّرورةِ(٣). وقيلَ: الهمزةُ للاستفهامِ التَّقريعيِّ والتَّوبيخيِّ(٤).

- والسَّماءُ في قولِه: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ يَجوزُ أنْ يُرادَ به الجِنسُ، وتعريفُه تعريفُ الجِنسِ، أي: السَّمواتُ، وهي مَحجوبةٌ عن مُشاهَدةِ النَّاسِ؛ فيكونَ الاستفهامُ التَّقريريُّ مبنيًّا على ما هو مشتهرٌ بيْنَ النَّاسِ مِن عظَمةِ السَّمواتِ؛ تنزيلًا للمعقولِ مَنزلةَ المحسوسِ. ويجوزُ أنْ يُرادَ به سماءٌ معيَّنةٌ، وهي المُسمَّاةُ بالسَّماءِ الدُّنيا الَّتي تَلوحُ فيها أضواءُ النُّجومِ، فتعريفُه تعريفُ العهدِ، وهي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٣).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٩).

الكُرةُ الفَضائيَّةُ المحيطةُ بالأرضِ ويَبدو فيها ضوءُ النَّهارِ وظُلْمةُ اللَّيلِ، فيكونَ الاستِفهامُ التَّقريريُّ مبنيًّا على ما هو مُشاهَدٌ لهم، وهذا أنسَبُ بقولِه: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾؛ لعدَمِ احتياجِه إلى التَّأويلِ[1].

- في عدَمِ ذِكرِ الفاعلِ في قولِه: ﴿بَنَاهَا﴾ وفيما عُطِف عليه مِن الأفعالِ: مِن التَّنبيهِ على تعيُّنِه وتَفخيمِ شأنِه عزَّ وجلَّ؛ ما لا يَخْفى[2].

- وجُملةُ ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿بَنَاهَا﴾، أو بدَلُ اشتِمالٍ منها، وسُلِك طَريقُ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ؛ لزِيادةِ التَّصويرِ[3].

- والرَّفعُ: جعْلُ جِسمٍ مُعْتلِيًا، وهو مرادفٌ للسَّمْكِ، فتعديةُ فعلِ (رَفَعَ) إلى السَّمْكِ للمبالَغةِ في الرَّفعِ، أي: رَفَع رَفْعَها، أي: جَعلَه رَفيعًا[4].

- والفاءُ في ﴿فَسَوَّاهَا﴾ للتَّعقيبِ، وتسويةُ السَّماءِ حصَلتْ مع حصولِ سَمْكِها؛ فالتَّعقيبُ لإفادةِ السَّرعةِ في التَّسويةِ[5].

- قوله: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ بدَأ باللَّيلِ؛ لأنَّه كان أوَّلًا، والعدمُ قبْلَ الوُجودِ[6].

- قولُه: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾، أي: أبْرَزَ نَهارَها، وعُبِّرَ عنه بالضُّحى؛ لأنَّه أشرَفُ أوقاتِه وأطيَبُها، وأكمَلُ أجزاءِ النَّهارِ في النُّورِ والضَّوءِ، فكان أحَقَّ بالذِّكرِ في مَقامِ الامتنانِ، وهو السِّرُّ في تأخيرِ ذِكرِه عن ذِكرِ اللَّيلِ، وفي التَّعبيرِ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣٩).

إحداثِهِ بالإخراجِ؛ فإنَّ إضافةَ النُّورِ بعدَ الظُّلْمةِ أتَمُّ في الإنعامِ، وأكمَلُ في الإحسانِ[1].

- وأضاف اللَّيلَ إلى السَّماءِ في قولِه: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾؛ لأنَّ اللَّيلَ غُروبُ الشَّمسِ، وغُروبُها وطُلوعُها فيها، فأُضيفَ إليها لَمَّا كان فيها، كما قيل: نُجومُ اللَّيلِ؛ إذ كان فيه الطُّلوعُ والغُروبُ[2]. ولأنَّه هو أوَّلُ ما يَظهَرُ عندَ الغُروبِ مِن أُفُقِ السَّماءِ[3]. وقيل غيرُ ذلك[4].

- وأضاف الضُّحى إلى السَّماءِ كما أضاف إليها اللَّيلَ في قولِه: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾؛ لأنَّ فيها سَبَبَ الظَّلامِ والضِّياءِ، وهو غروبُ الشَّمسِ وطُلوعُها[5].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ انتقَلَ الكلامُ مِن الاستِدلالِ بخَلْقِ السَّماءِ إلى الاستِدلالِ بخَلقِ الأرضِ؛ لأنَّ الأرضَ أقرَبُ إلى مُشاهَدتِهم، وما يُوجَدُ على الأرضِ أقرَبُ إلى عِلمِهم بالتَّفصيلِ، أو الإجمالِ القريبِ مِن التَّفصيلِ[6].

- قولُه: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ مِن أجْلِ الاهتِمامِ بدَلالةِ خَلقِ الأرضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠١، ١٠٢). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٦).

وما تحتوي عليه؛ قُدِّم اسمُ الأرضِ على فِعلِه وفاعِلِه، فانتصَبَ على طريقةِ الاشتغالِ(١)، والاشتغالُ يَتضمَّنُ تأكيدًا باعتبارِ الفعلِ المُقدَّرِ العامِلِ في المشتغَلِ عنه الدَّالِّ عليه الفعلُ الظَّاهرُ المشتغِلُ بضَميرِ الاسمِ المقدَّمِ(٢).

وقيل: انتصَبَ قولُه: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ بمُضمَرٍ مُقدَّمٍ قد حُذِفَ على شَريطةِ التَّفسيرِ لا بما ذُكِرَ بعدَهُ؛ ليُفيدَ القصرَ، وتَتعيَّنَ البَعديَّةُ في الوُجودِ، وفائدةُ تأخيرِه في الذِّكرِ إمَّا التَّنبيهُ على أنَّه قاصرٌ في الدَّلالةِ على القُدرةِ القاهرةِ بالنِّسبةِ إلى أحوالِ السَّماءِ، وإمَّا الإشعارُ بأنَّه أدْخَلُ في الإلزامِ؛ لِما أنَّ المنافعَ المَنوطةَ بما في الأرضِ أكثرُ، وتعلُّقَ مَصالِحِ النَّاسِ بذلك أظهَرُ، وإحاطتَهم بتفاصيلِ أحوالِه أكمَلُ(٣).

- وجُملةُ ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ لم يَدخُلْ حرفُ العطفِ على ﴿أَخْرَجَ﴾ لوجهينِ؛ أحدُهما: أنْ يكونَ معنى (دَحاها): بسَطَها ومهَدَها للسُّكنى، ثمَّ فُسِّر

---

(١) الاشتِغالُ: هو أن يتقدَّمَ اسمٌ واحِدٌ، ويتأخَّرَ عنه عامِلٌ مُشتَغِلٌ عن العَمَلِ في ذلك الاسمِ بالعَمَلِ في ضَميرِه مُباشَرةً، أو في سَبَبِه -أي: كلِّ شَيءٍ له صِلةٌ وعَلاقةٌ به؛ من قَرابةٍ، أو صداقةٍ، أو عَمَلٍ-، بحيثُ لو فُرِّغ من ذلك المعمولِ وسُلِّطَ على الاسمِ المتقَدِّمِ، لعَمِلَ فيه النَّصبُ لَفظًا أو محَلًّا. وأركانُ الاشتِغالِ ثلاثةٌ؛ هي:

أ- مَشغولٌ عنه: وهو الاسمُ المتقَدِّمُ.

ب- مشغولٌ: وهو الفِعلُ المتأخِّرُ.

ج- ومَشغولٌ به: وهو الضَّميرُ الَّذي تعدَّى إليه الفِعلُ بنَفْسِه أو بالوَساطةِ. يُنظر: ((أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك)) لابن هشام (٢/ ١٣٩)، ((شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك)) (٢/ ١٢٨)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٣).

التَّمهيدُ بما لا بُدَّ منه في تَأَتِّي سُكْناها؛ مِن تسويةِ أمرِ المأكَلِ والمَشرَبِ، وإمكانِ القرارِ عليها، والسُّكونِ بإخراجِ الماءِ والمَرْعى، وإرساءِ الجبالِ وإثباتِها أوتادًا لها حتَّى تَستَقِرَّ ويُستقَرَّ عليها.

والثَّاني: أنْ يكونَ ﴿أَخْرَجَ﴾ حالًا بإضمارِ (قد)؛ كقولِه: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ [النساء: ٩٠]، وأرادَ بمَرْعاها: ما يأكُلُ النَّاسُ والأنعامُ[١].

- وقُدِّم الماءُ على المَرْعى؛ لأنَّه سببٌ في وُجودِ المَرْعى[٢].

- والرَّعيُ: تَناوُلُ الماشيةِ الكَلَأَ والحَشيشَ والقَصِيلَ[٣]؛ فالاقتصارُ على المَرْعى اكتِفاءٌ عن ذِكرِ ما تُخرِجُه الأرضُ مِن الثِّمارِ والحُبوبِ؛ لأنَّ ذِكرَ المَرْعى يدُلُّ على لُطفِ اللهِ بالعَجْماواتِ، فيُعرَفُ منه أنَّ اللُّطفَ بالإنسانِ أَحْرى؛ بدَلالةِ فَحْوى الخِطابِ[٤]، والقَرينةُ على الاكتِفاءِ[٥] قولُه بعْدَه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧٠).

وقال ابن عاشور: (وجملةُ ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ بدَلُ اشتِمالٍ مِن جملةِ ﴿دَحَىٰهَآ﴾؛ لأنَّ المقصدَ مِن دَحوِها بمقتضى ما يكملُ تيسيرَ الانتفاعِ بها. ولا يصحُّ جعلُ جملةِ ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ إلى آخِرِها بيانًا لجملةِ ﴿دَحَىٰهَآ﴾؛ لاختِلافِ معنَى الفِعلَين). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٠).

(٣) القَصِيل: ما اقتُصِل مِنَ الزَّرعِ أخضَرَ لعلْفِ الدَّوابِّ. والقصلُ: القطعُ. وقصَلَ الدابَّةَ: علَفَها القَصِيلَ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/ ٥٥٨)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٥٠٦).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١١٣).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٢).

﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾[1] [النازعات: ٣٣].

- قولُه: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا﴾ لعلَّ تَقديمَ إخراجِ الماءِ والمَرْعى ذِكرًا، مع تقدُّمِ الإرساءِ عليهِ وُجودًا، وشدَّةِ تعلُّقِه بالدَّحْوِ؛ لإبرازِ كَمالِ الاعتِناءِ بأمرِ المأكَلِ والمشرَبِ، مع ما فيه مِن دفعِ توهُّمِ رُجوعِ ضَميرَيِ الماءِ والمَرْعَى إلى الجبالِ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾

- (المتاع) يُطلَقُ على ما يُنتفَعُ به مُدَّةً؛ ففيه معنَى التَّأجيلِ. وقولُه: ﴿مَتَٰعًا﴾ إمَّا مَفعولٌ له، أي: فعَلَ ذلكَ تَمتيعًا لكُم ولأنْعامِكم؛ لأنَّ فائدةَ ما ذُكِرَ مِن البَسطِ والتَّميهدِ وإخراجِ الماءِ والمَرْعى واصلةٌ إليهم وإلى أنعامِهم؛ فإن المرادَ بالمَرْعَى ما يَعُمُّ ما يأكلُه الإنسانُ وغيرُه. وقيلَ: مَصدرٌ مُؤكِّدٌ لفعلِه المُضمَرِ، أي: متَّعكُم بذلكَ متاعًا، أو مَصدرٌ من غيرِ لَفْظِه؛ فإنَّ قولَه تعالَى: ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا﴾ في معْنى: متَّع بذلكَ[3].

- قولُه: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ لامُ ﴿لَّكُمۡ﴾ و(لِأَنْعَامِكُمْ) لامُ التَّقويةِ، وهو راجِعٌ إلى خَلقِ الأرضِ والجِبالِ، وذلك في الأرضِ ظاهرٌ، وأمَّا الجِبالُ؛ فلأنَّها مُعتصَمُهم مِن عدُوِّهم، وفيها مَراعي أنعامِهم تكونُ في الجبالِ مأمونةً مِن الغارةِ عليها على غِرَّةٍ، وهذا إدماجُ الامتنانِ في الاستِدلالِ؛ لإثارةِ شُكرِهم حَقَّ النِّعمةِ بأنْ يَعبُدوا المنعِمَ وحْدَه، ولا يُشرِكوا بعبادتِه غيرَه[4].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٨).

- وفي قولِه: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] إلى ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ مُحسِّنُ الجَمْعِ ثمَّ التَّقسيمِ(١).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٨).

والجمعُ والتَّقسيمُ: هو جمْعُ مُتعدِّدٍ تحتَ حُكمٍ، ثمَّ تقسيمُه، كقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ﴾ [فاطر: ٣٢]. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣١٥)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٢٤).

الآيات (٣٤-٤١)

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿الطَّامَّةُ﴾: أي: القيامةُ والدَّاهِيةُ الَّتي لا تُستطاعُ، والحادِثةُ الَّتي تَطُمُّ على ما سِواها، أي: تَعلو وتَغلِبُ، مأخوذٌ مِن: طَمَّ الماءُ: إذا غَمَر الأشياءَ، وأصلُ (طمم): يدُلُّ على تَغطيةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[١].

﴿وَبُرِّزَتِ﴾: أي: أُظْهِرتْ، وأصلُ (برز): ظُهورُ الشَّيْءِ وبُدُوُّه[٢].

﴿وَآثَرَ﴾: أي: اختارَ وقَدَّم، وأصلُ (أثر) هنا: يدُلُّ على تقديمِ الشَّيءِ[٣].

﴿الْمَأْوَى﴾: أي: المَثوى والمَسكَنُ والمقَرُّ، والمَأْوى: مَكَانُ كلِّ شَيْءٍ ومَرجِعُه الَّذي يَعودُ إليه ليلًا أو نهارًا؛ يُقالُ: أَوَى إلى كذا، أي: انضمَّ إليه، وأصلُ (أوى) هنا: يدُلُّ على التَّجمُّعِ[٤].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٨)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ١١٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٣).

﴿ٱلْهَوَىٰ﴾: أي: المَيْلِ إلى الشَّهوةِ، قيل: سُمِّيَ بذلك لأنَّه يَهْوي بصاحِبِه في الدُّنيا إلى كلِّ داهيةٍ، وفي الآخرةِ إلى الهاوِيةِ، وقيل: الهوى أصلُه مُطلَقُ المَيلِ، وأصلُ (هوي): الخُلوُّ والسُّقوطُ؛ ولذلك يُقالُ للآراءِ الزَّائفةِ: أهواءٌ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا أحوالَ النَّاسِ يومَ القيامةِ: فإذا جاءت الدَّاهِيةُ الكُبْرى الَّتي تَفوقُ شِدَّتُها كُلَّ شِدَّةٍ، يومَ يَتذكَّرُ الإنسانُ ما عَمِلَه في الدُّنيا مِن خيرٍ أو شَرٍّ، وأُظهِرَت النَّارُ للنَّاسِ، فيَرَوْنَها عِيانًا؛ فأمَّا مَن جاوَزَ حَدَّه فتمَرَّدَ واستكبَرَ، وفَضَّل مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا وقدَّمَها على الآخِرةِ؛ فإنَّ النَّارَ هي مَسكَنُه، وأمَّا مَن خافَ مَقامَه بيْن يَدَيِ اللهِ تعالى للحِسابِ يومَ القيامةِ، ونهى نَفْسَه وزَجَرَها عَمَّا يُسخِطُ اللهَ تعالى؛ فإنَّ الجَنَّةَ تكونُ مَسكَنَه ومُستَقَرَّه في الآخِرةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٣٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى إنَّما ذَكَر كيفيَّةَ خَلْقِه السَّماءَ والأرضَ؛ لِيستَدِلَّ بها على كَونِه قادِرًا على الحَشْرِ والنَّشرِ، فلمَّا قَرَّر ذلك وبيَّن إمكانَ الحَشْرِ عَقلًا؛ أخبَرَ بعدَ ذلك عن وُقوعِه[٢].

وأيضًا لَمَّا كان الَّذي خَلَقَ السَّمَواتِ العِظامَ وما فيها مِن الأنوارِ والأجرامِ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٤، ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٣).

والأرضَ الكَثيفةَ الغَبراءَ وما فيها مِن ضَروريَّاتِ الخَلْقِ ومَنافِعِهم- لا بُدَّ أن يَبعَثَ الخَلْقَ المكَلَّفينَ، فيُجازيَهم على أعمالِهم، فمَن أحسَنَ فله الحُسنى، ومَن أساء فلا يَلومَنَّ إلَّا نَفْسَه- ذَكَر بعدَ هذا قيامَ السَّاعةِ، ثمَّ الجزاءَ[1].

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ٣٤﴾.

أي: فإذا جاءت المُصيبةُ العُظْمى والدَّاهِيةُ الكُبْرى الَّتي شِدَّتُها وهَولُها فوقَ كُلِّ خَطْبٍ ومُصيبةٍ[2].

قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦].

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ٣٥﴾.

أي: يومَ يتذكَّرُ الإنسانُ ما عَمِلَه في الدُّنيا مِن خيرٍ أو شَرٍّ[3].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ٣٦﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٢).

قال الرَّسْعَني: (قَولُه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ يريدُ: القيامةَ. وقيل: السَّاعةُ الَّتي يَتصَدَّعون فيها؛ فريقٌ إلى الجنَّةِ، وفريقٌ إلى السَّعيرِ. وقيل: النَّفخةُ الثَّانيةُ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٢).

قال السمين الحلبي: (قولُه: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ﴾: بدَلٌ مِنْ «إذا»، أو منصوبٌ بإضمارِ فعلٍ، أي: أعني يومَ، أو: يومَ يتذكَّرُ يجري كَيْتَ وكيتَ). ((الدر المصون)) (١٠/ ٦٨١).

أي: وأُظهِرَت النَّارُ الَّتي اشتَدَّ توَقُّدُها وأُبرِزَت للنَّاسِ، فيَرَوْنَها عِيانًا[1].

كما قال تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦، ٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعود رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يُؤتَى بجَهَنَّمَ يَومَئِذٍ لها سَبعونَ ألْفَ زِمامٍ، مع كُلِّ زِمامٍ سَبعونَ ألْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَها))[2].

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧﴾.

أي: فأمَّا مَن جاوَزَ حَدَّه فتمَرَّدَ واستكبَرَ عن طاعةِ اللهِ تعالى وعبادتِه[3].

﴿وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٣٨﴾.

أي: وفَضَّل مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا، وقدَّمَها على الآخِرةِ؛ إرضاءً لِهَواه، فعَمِل لدُنْياه، ولم يَعمَلْ لأُخْراه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٠).

(٢) رواه مسلم (٢٨٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩١، ٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٣).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩)﴾.

أي: فإنَّ مَسْكَنَه ومُستَقَرَّه في الآخِرةِ: النَّارُ الشَّديدةُ التَّوقُّدِ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧، ٨].

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى الطَّاغيَ؛ أتْبَعه المتَّقِيَ(٢)، فقال:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾.

أي: وأمَّا مَن خافَ مَقامَه بيْن يَدَيِ اللهِ تعالى للحِسابِ يومَ القيامةِ، فاتَّقاه بفِعْلِ أوامِرِه، واجتنابِ نَواهيه(٣).

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((سَبعةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٣).

يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه))، وذكَرَ منهم: ((ورَجُلٌ دَعَتْه امرأةٌ ذاتُ مَنصِبٍ وجَمالٍ، فقال: إنِّي أخافُ اللهَ، ورجُلٌ ذَكَر اللهَ خاليًا ففاضَتْ عَيْناه))[١].

﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾.

أي: ونهى نَفْسَه وزَجَرَها عن كُلِّ ما لا يُرضي اللهَ تعالى[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

﴿فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١﴾.

أي: فإنَّ الجَنَّةَ تكونُ مَسْكَنَه ومُستَقَرَّه في الآخِرةِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- من طريقةِ القُرآنِ الكريمِ: التَّصريحُ بذِكْرِ ثَوابِ الأبرارِ والمتَّقينَ والمخلِصينَ والمحسِنينَ، ومَن رَجَحَتْ حَسَناتُهم، وبذِكْرِ عِقابِ الكُفَّارِ والفُجَّارِ والظَّالِمينَ

---

(١) رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٣).

لأنفُسِهم، ومَن خَفَّتْ موازينُهم، ويَسْكُتُ عنِ القِسْمِ الَّذي فيه شائبتانِ وله مادَّتانِ، هذه طريقةُ القُرآنِ، كقولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، وهذا كثيرٌ في القرآنِ. قالوا: وفي السُّكوتِ عن شأنِ صاحبِ الشَّائبتَينِ تحذيرٌ عظيمٌ وتخويفٌ له؛ فإنَّ أمْرَه مُرْجَأٌ إلى اللهِ تعالى، وليس له عليه ضَمانٌ، ولا له عِندَه وَعْدٌ، فلْيَحْذَرْ كلَّ الحذرِ، ولْيُبادِرْ بالتَّوبةِ النَّصوحِ الَّتي تُلْحِقُه بالمضمونِ لهم النَّجاةُ والفَلاحُ(١).

٢- الطُّغيانُ وإيثارُ الحياةِ الدُّنيا وشَهَواتِها: مِن مُوجِباتِ النَّارِ، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾(٢).

٣- النَّاسُ على قِسمَينِ: قِسمٌ ظَفِرَتْ به نفْسُه فمَلَكَتْه وأهلكَتْه، وصار طَوعًا لها تحتَ أوامِرِها؛ وقِسمٌ ظَفِروا بنُفوسِهم فقَهَرُوها، فصارتْ طَوعًا لهم مُنقادةً لأوامِرِهم. قال بعضُ العارفينَ: انتهى سفرُ الطَّالبينَ إلى الظَّفَرِ بأنفُسِهم، فمَن ظَفِرَ بنَفْسِه أفلَحَ وأَنجحَ، ومَن ظَفِرَتْ به نفْسُه خَسِرَ وهَلَكَ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، فالنَّفْسُ تدعو إلى الطُّغيانِ وإيثارِ الحياةِ الدُّنيا، والرَّبُّ يدعو عَبْدَه إلى خوْفِه ونَهْيِ النَّفْسِ عنِ الهوى(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أنَّ الخَشْيةَ

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٧٥).

تَمنَعُ اتِّباعَ الهوى[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّه تعالى قال في سُورةِ (الشُّعَراءِ): ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠، ٩١]، فخَصَّ الغاوينَ بتبريزِها لهم؟

الجوابُ: أنَّها بُرِّزَت للغاوينَ، والمؤمِنونَ يَرَونَها أيضًا في الممَرِّ، ولا مُنافاةَ بيْنَ الأمْرَينِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أنَّ اللهَ تعالى لَم يَجعَلْ للجَنَّةِ طريقًا غيرَ مُخالَفةِ الهوى، ولَم يَجعَلْ للنَّارِ طريقًا غيرَ مُتابَعتِه[٣]!

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ متى كان الإنسانُ موصوفًا بهذَينِ الأمْرَينِ كان بالِغًا في الفَسادِ إلى أقصى الغاياتِ، وهو الكافِرُ الَّذي يكونُ عِقابُه مُخَلَّدًا[٤].

٤- قال تعالى: ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ والإيثارُ: تَفضيلُ شَيءٍ على شَيءٍ في حالٍ لا يَتيسَّرُ فيها الجمْعُ بيْنَ أحوالِ كلٍّ منهما، ويُفهَمُ مِن فعلِ الإيثارِ أنَّ معه نَبْذًا لنعيمِ الآخِرةِ[٥].

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ١٨١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٨).
(٣) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٠١).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩١، ٩٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ التَّفريعُ على الاستِدلالِ الَّذي تَضمَّنَه قولُه: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧] الآيات؛ فإنَّ إثباتَ البعثِ يَقتضي الجزاءَ؛ إذ هو حِكمتُه، وفُرِّع على دَليلِ إثباتِ البعثِ تَذكيرٌ بالجزاءين، وإرشادٌ إلى النَّجْدَينِ. وإذْ قد قُدِّم قبْلَ الاستِدلالِ تحذيرٌ إجماليٌّ بقولِه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ الآيةَ [النازعات: ٦] جِيءَ عَقِبَ الاستِدلالِ بتَفصيلِ ذلك التَّحذيرِ مع قَرْنِه بالتَّبشيرِ لِمَن تَحلَّى بضِدِّه؛ فلذلك عُبِّر عن البعثِ ابتِداءً بالرَّاجفةِ؛ لأنَّها مَبدؤُه، ثمَّ بالزَّجْرةِ، وأخيرًا بالطامَّةِ الكُبرى؛ لِما في هذينِ الوَصفينِ مِن معنًى يَشملُ الرَّاجفةَ وما بعْدَها مِن الأهوالِ إلى أنْ يَستقِرَّ كلُّ فريقٍ في مَقَرِّه. ومِن تَمامِ المُناسَبةِ للتَّذكيرِ بيومِ الجزاءِ وُقوعُه عَقِبَ التَّذكيرِ بخلْقِ الأرضِ، والامتنانِ بما هَيَّأ منها للإنسانِ متاعًا به؛ للإشارةِ إلى أنَّ ذلك يَنتهي عِندَما يَحينُ يومُ البعثِ والجزاءِ. ويجوزُ أنْ يُجعَلَ قولُه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ مُفرَّعًا على قولِه: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]؛ فإنَّ الطامَّةَ هي الزَّجرةُ، ومَناطُ التَّفريعِ هو ما عَقَّبه مِن التَّفصيلِ بقولِه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ إلخ؛ إذ لا يَلتئِمُ تفريعُ الشَّيءِ على نفْسِه[١].

- و(إذا) ظرْفٌ للمُستقبَلِ؛ فلذلك إذا وقَعَ بعدَه الفعلُ الماضي صُرِف إلى الاستقبالِ، وإنَّما يُؤتى بعدَ (إذا) بفعلِ الماضي؛ لزيادةِ تحقيقِ ما يُفيدُه (إذا) مِن تحقُّقِ الوُقوعِ[٢].

- والطَّامَّةُ: الحادثةُ، أو الوَقعةُ الَّتي تطُمُّ، أي: تَعْلو وتَغلِبُ، بمعنى تَفوقُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٨٩، ٩٠).

أمثالَها مِن نَوعِها بحيثُ يَقِلُّ مِثلُها في نوعِها، وهذا الوصفُ يُؤذِنُ بالشِّدَّةِ والهَولِ؛ إذ لا يُقالُ مِثلُه إلَّا في الأمورِ المَهولةِ، ثمَّ بُولِغَ في تشخيصِ هَولِها بأنْ وُصِفَتْ بالكُبرى، فكان هذا أصرَحَ الكلماتِ لتصويرِ ما يُقارِنُ هذه الحادثةَ مِن الأهوالِ[١].

- وجوابُ (إذا) قولُه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧] إلخ. وقيلَ: محذوفٌ، تقديرُه: فإنَّ الجحيمَ مأواهُ[٢]. وقيلَ: جوابُ (إذا) محذوفٌ يدُلُّ عليه التَّفصيلُ المذكورُ، والتَّقديرُ: كان مِن عظائمِ الأمورِ ما لا يخطُرُ في بالٍ، ولا تَراهُ عينٌ، ولا تَسمَعُ به أُذُنٌ[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾، وقال في سُورةِ (عَبَسَ): ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣]؛ فسمَّاها الطَّامَّةَ الكُبرى في الأُولى، وسمَّاها الصَّاخَّةَ في الثَّانيةِ؛ وَجْهُ ذلك: أنَّ الطَّامَّةَ والصَّاخَّةَ وإنْ أُرِيدَ بهما في السُّورتَينِ شَيءٌ واحدٌ، فإنَّ اسمَ الطَّامَّةِ أرهَبُ وأنبَأُ بأهوالِ القِيامةِ؛ لأنَّها مِن قَولِهم: طمَّ السَّيلُ؛ إذا عَلا وغَلَبَ. وأمَّا الصَّاخَّةُ فالصَّيحةُ الشَّديدةُ، مِن قَولِهم: صخَّ بأُذنَيه، مِثل أصاخَ، فعُبِّرَ بها عن القِيامةِ؛ لأنَّ النَّاسَ يُصِيخون لها، فلمَّا كانت الطَّامَّةُ أبلَغَ في الإشارةِ إلى أهْوالِها، خُصَّ بها أبلَغُ السُّورتَينِ في التَّخويفِ والإنذارِ، وعلى ذلك بُنِيَت سُورةِ (النازعاتِ)، ألَا تَرى قولَه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧]، ووَصْفَ الطَّامَّةِ بالكُبْرى، وما أُتبِعَ به بَعْدُ، وابتِداءَ السُّورةِ وخِتامَها، فكلُّها تَخويفٌ وتَرهيبٌ، فناسَبَها أشدُّ العبارتينِ مَوقعًا وأرهَبُها. وأمَّا سُورةُ (عَبَسَ) فلم تُبْنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٧، ٥٩٨).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧٠).

على ذلك الغرَضِ، وإنَّما بُنِيَت على قصَّةِ عبدِ اللهِ بنِ أمِّ مَكتومٍ الأعْمى، وذلك مَشهورٌ، ثمَّ ورَدَ قولُه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ عَقِبَ التَّذكيرِ بقولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ [عبس: ١١]، والتَّحريكِ للاعتبارِ بقولِه: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس: ٢٤] إلى قولِه: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ [عبس: ٣٢]، ثمَّ أتبعَ بعْدَ ذِكرِ الصَّاخَّةِ بقولِه: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ * ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩].

فسُورةُ النَّازعاتِ -على الجُملةِ- أشدُّ في التَّخويفِ والتَّرهيبِ، فناسَبَها أبلَغُ العبارتينِ مِن أسماءِ القيامةِ في التَّخويفِ والإنذارِ بحالِها، وليست سُورةُ (عَبَسَ) كسُورةِ النَّازعاتِ في التَّخويفِ والتَّرهيبِ، فناسَبَها إيرادُ اسمِ القيامةِ بالصَّاخَّةِ؛ إذ ليس في الإرهابِ كالطَّامَّةِ، فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ التَّذكُّرُ يَقتضي سَبْقَ النِّسيانِ، وهو انْمِحاءُ المعلومِ مِن الحافظةِ، والمعنى: يومَ يُذكَّرُ الإنسانُ فيَتذكَّرُ، أي: يُعرَضُ عليه عمَلُه فيَعترِفُ به؛ إذ ليس المقصودُ مِن التَّذكُّرِ إلَّا أثرَه، وهو الجزاءُ، فكُنِّيَ بالتَّذكُّرِ عن الجزاءِ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ مَعطوفٌ على ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، وصِيغةُ الماضي ﴿وَبُرِّزَتِ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ[٤]. وبناه للمَفعولِ؛ لعدَمِ الغرضِ ببيانِ مُبْرِزِها؛ إذ الموعظةُ في الإعلامِ بوُقوعِ إبرازِها يومَئذٍ؛ لأنَّ الهائلَ مُطلَقُ تَبريزِها،

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٣١-١٣٣٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٥، ٢٤٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩٩، ٥٠٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٧، ٥٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٥).

لا كونُه مِن مُعَيَّنٍ، مع الدَّلالةِ على الخِفَّةِ والسُّهولةِ؛ لكَونِه على طريقةِ كلامِ القادِرينَ(١).

- وتَبريزُ الجحيمِ: إظهارُها لأهلِها، وجيءَ بالفِعلِ المضاعَفِ ﴿وَبُرِّزَتِ﴾؛ لإفادةِ إظهارِ الجحيمِ؛ لأنَّه إظهارٌ مِن أجْلِ الإرهابِ(٢).

- قولُه: ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾، أي: لكلِّ راءٍ، ففِعلُ ﴿يَرَى﴾ مُنزَّلٌ مَنزلةَ اللَّازمِ؛ لأنَّ المقصودَ: لِمَن له بصَرٌ(٣).

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ تَفصيلٌ للجوابِ المحذوفِ، تقديرُه: انقسَمَ الرَّاؤونَ قِسمَينِ: فأمَّا مَن... إلخ. أي: تفصيلٌ لحالَيِ الإنسانِ الَّذي يَتذكَّرُ ما سَعى، وتقسيمٌ له بحسَبِ أعمالِه إلى القِسمَينِ المذكورينِ. والَّذي تَستدعيهِ فخامةُ التَّنزيلِ، ويَقتضيهِ مَقامُ التَّهويلِ، أنَّ الجوابَ المحذوفَ: كان مِن عظائمِ الشُّؤونِ، ما لم تُشاهِدْهُ العيونُ(٤).

أو يَكونُ الجوابُ: ﴿فَأَمَّا ...﴾ وما بعدَه، كما تَقولُ: إذا جاءَكَ بَنو تَميمٍ، فأمَّا العاصي فأهِنْه، وأمَّا الطَّائِعُ فأكْرِمْه(٥).

وقيل: الفاءُ في قولِه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ استِئنافيَّةٌ، والكلامُ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبيانِ حالِ النَّاسِ في الدُّنيا(٦).

- وقُدِّم ذِكرُ الطُّغيانِ على إيثارِ الحياةِ الدُّنيا؛ لأنَّ الطُّغيانَ مِن أكبرِ أسبابِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٩١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٤، ١٠٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠١).
(٦) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧١).

إيثارِ الحياةِ الدُّنيا، فلمَّا كان مسبَّبًا عنه ذُكِر عَقِبَه؛ مراعاةً للتَّرتُّبِ الطبيعيِّ[(١)].

- والمرادُ بالحَياةِ الدُّنيا: حُظوظُها ومنافِعُها الخاصَّةُ بها، أي: الَّتي لا تُشارِكُها فيها حظوظُ الآخرةِ؛ فالكلامُ على حذفِ مُضافٍ، تقديرُه: نعيمُ الحياةِ[(٢)].

- قولُه: ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ تَقديرُ الآيةِ: فإنَّ الجَحيمَ هي مأواه، كما تقولُ للرَّجُلِ: غُضَّ الطَّرْفَ، تُريد: طرْفَك، وليس الألِفُ واللَّامُ بدَلًا مِن الإضافةِ، ولكن لَمَّا عُلِمَ أنَّ الطَّاغيَ هو صاحِبُ المأوَى، وأنَّه لا يَغُضُّ الرَّجُلُ طرْفَ غيرِه: تُركتِ الإضافةُ، ودخولُ حرْفِ التَّعريفِ في المأوى والطَّرْفِ للتَّعريفِ، لأنَّهما مَعروفانِ. أو التَّقديرُ: المأوَى له، ثمَّ حُذِفتِ الصِّلةُ لوُضوحِ المعنَى. أو التَّقديرُ: فإنَّ الجَحيمَ هي المأوَى اللَّائِقُ بمَن كان مَوصوفًا بهذه الصِّفاتِ والأخلاقِ[(٣)].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾

- قولُه: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ في إضافةِ المَقامِ إلى الرَّبِّ سُبحانَه تَفخيمٌ للمَقامِ، وتهويلٌ عظيمٌ، واقعٌ مِن النُّفوسِ موقعًا عظيمًا[(٤)].

- ونهيُ الخائفِ نفْسَه مُعبَّرٌ به عن الانكفافِ عن تَناوُلِ ما تُحِبُّه النَّفْسُ مِن المعاصي والهوى، فجُعِلتْ نفْسُ الإنسانِ بمنزلةِ شخصٍ آخَرَ يدْعوهُ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٨)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠١).

السَّيِّئاتِ وهو يَنهاهُ عن هذه الدَّعوةِ، وهذا يُشبِهُ ما يُسمَّى بالتَّجريدِ[١]، يقولونَ: قالتْ له نفْسُه كذا فعصاها، ويُقالُ: نَهى قلْبَه[٢].

- وتَعريفُ الهوَى تعريفُ الجِنسِ، والتَّعريفُ في المَأْوى تعريفُ العهدِ، أي: مَأوى مَن خافَ مَقامَ ربِّه، وهو تعريفٌ مُغْنٍ عن ذِكرِ ما يُضافُ إليه (مَأْوى)، ومِثلُه شائعٌ في الكلامِ، كما في قولِه: غُضَّ الطَّرْفَ، أي: الطَّرْفَ المعهودَ مِن الأمرِ، أي: غُضَّ طَرْفَك، وقولِه: واملَأِ السَّمعَ، أي: سَمْعَك، أو يكونُ تقديرُ الكلامِ: المأْوَى له[٣].

- و﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أصلُ المَقامِ مكانُ القيامِ؛ فكانُ أصلُه مكانَ ما يُضافُ هو إليه، ثمَّ شاعَ إطلاقُه على نفْسِ ما يُضافُ إليه على طريقةِ الكنايةِ بتعظيمِ المكانِ عن تعظيمِ صاحِبِه، مِثلَ ألفاظِ: جَنابٍ، وكَنَفٍ، وذَرًى، وذلك مِن قبيلِ الكنايةِ المطلوبِ بها نِسبةٌ إلى المُكَنَّى عنه؛ فإنَّ خَوفَ مَقامِ اللهِ مُرادٌ به خَوفُ اللهِ، والمرادُ بالنِّسبةِ ما يَشملُ التَّعلُّقَ بالمفعولِ[٤].

- وتعريفُ النَّفْسِ هو للعهدِ، مِثلُ التَّعريفِ في ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾[٥].

- وفي تَعريفِ أصحابِ الجحيمِ وأصحابِ الجنَّةِ بطريقِ المَوصولِ ﴿فَأَمَّا

---

(١) التَّجريد: أن يُنتزَعَ مِن أمرٍ ذي صِفةٍ أمرٌ آخَرُ مِثلُه في تلك الصِّفةِ، حتَّى تَصيرَ الذَّاتُ الواحدةُ ذاتَين؛ مُبالَغةً لكمالِ الوصفِ في تلك الذَّاتِ. كقَولِهم: لي مِنكَ صديقٌ حميمٌ، و: لَئِنْ سألْتَ فُلانًا، لَتَسْألَنَّ به بحرًا. يُنظر: ((حاشية الطِّيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٢٩)، ((التِّبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ١٦٠ - ١٦٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٩٤).

مَن طَغَىٰ ...﴾ ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ ...﴾: إيماءٌ إلى أنَّ الصِّلتَين عِلَّتانِ في استِحقاقِ ذلك المَأْوى[١].

- وفي قولِه: ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ مُحسِّنُ الجَمعِ مع التَّقسيمِ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٩٣).

والجمعُ والتَّقسيمُ تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩١).

الآيات (٤٢-٤٦)

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾: أي: في أيِّ وَقتٍ وُقوعُها وقيامُها وثَباتُها واستِقرارُها؟ وأَيَّانَ: يُسأَلُ به عن الزَّمانِ المُستَقبَلِ، وأصلُ (رسو): يدُلُّ على ثُبوتٍ[(١)].

﴿عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾: العَشِيُّ: مِن زَوالِ الشَّمسِ إلى الصَّباحِ، أو: آخِرُ النَّهارِ، وأصلُ (عشو): يدُلُّ على ظلامٍ، وقِلَّةِ وُضوحِ الشَّيءِ، والضُّحَى: أوَّلُ اليومِ، أو انبِساطُ الشَّمسِ وامتِدادُ النَّهارِ، وسُمِّيَ الوقْتُ به، وأَصْلُه يدُلُّ على بُروزِ الشَّيءِ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: يَسأَلُك المكَذِّبونَ بالبَعْثِ -يا محمَّدُ- عن مَوعِدِ القيامةِ، فيقولونَ: متى وَقتُ قيامِها؟

ثُمَّ يقولُ تعالى مجيبًا: ليس مِن شأنِك مَعرِفةُ وَقتِ قيامِ السَّاعةِ، وليس ذلك إليك، إلى رَبِّك وَحْدَه مُنتهى عِلمِها، إنَّما أنت مُكَلَّفٌ بإنذارِ مَن يَخشى قيامَ السَّاعةِ.

ثُمَّ يختِمُ اللهُ تعالى السُّورةَ الكريمةَ ببيانِ حالِهم عندَ قيامِ السَّاعةِ، فيقولُ:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥، ٥١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٢، ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩١) و(٤/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٢، ٥٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢).

كأنَّهم يومَ يَرَوْنَ السَّاعةَ لم يَمكُثوا في الدُّنيا إلَّا وَقتًا قليلًا كمِقدارِ آخِرِ النَّهارِ أو أوَّلِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّن بالبُرهانِ العَقليِّ إمكانَ القيامةِ، ثمَّ أخبَرَ عن وُقوعِها، ثمَّ ذَكَر أحوالَها العامَّةَ، ثمَّ ذَكَر أحوالَ الأشقياءِ والسُّعَداءِ فيها؛ قال تعالى[(١)]:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢﴾.

أي: يَسأَلُك المكَذِّبونَ بالبَعْثِ -يا محمَّدُ- عن مَوعِدِ القيامةِ، فيقولونَ: متى وَقتُ قيامِها[(٢)]؟

كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقال سُبحانَه: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الذاريات: ١٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٤).

وممَّن قال بأنَّ السَّائِلينَ هم المكَذِّبونَ بالبَعْثِ: ابنُ جرير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور.

يُنظر: المصادر السَّابقة.

قال ابن عاشور: (كان سؤالُهم استهزاءً واستِخفافًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٤).

وقال ابن عثيمين: (سؤالُ النَّاسِ عن السَّاعةِ يَنقَسِمُ إلى قِسمَينِ: سؤالُ استبعادٍ وإنكارٍ، وهذا كُفرٌ... وسؤالٌ عن السَّاعةِ يَسألُ متى السَّاعةُ؛ لِيَستعِدَّ لها، وهذا لا بأسَ به... فالنَّاسُ يَسألون النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولكِنْ تختَلِفُ نيَّاتُهم في هذا السُّؤالِ، ومهما كانت نيَّاتُهم ومهما كانت أسئلتُهم، فعِلمُ السَّاعةِ عندَ اللهِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٦).

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ٥، ٦].

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣)﴾.

أي: ليس مِن شأنِك مَعرِفةُ وَقتِ قيامِ السَّاعةِ، وليس ذلك إليك[1].

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤)﴾.

أي: إلى رَبِّك -يا محمَّدُ- وَحْدَه مُنتهى عِلمِ السَّاعةِ، فلا يَعلَمُ مَوعِدَ إتيانِها سِواه[2].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧].

﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (٤٥)﴾.

أي: إنَّما أنت -يا محمَّدُ- مُكَلَّفٌ بتحذيرِ مَن يَخشى قيامَ السَّاعةِ؛ فهو الَّذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٦).
قال القاسمي: (﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾ أي: في أيِّ شَيءٍ أنت مِن ذِكرِ ساعتِها لهم، أي: ليس إليك ذِكرُها؛ لأنَّها مِن الغُيوبِ، فلا معنى لسؤالِهم إيَّاك عنها). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٠٣).
وقيل: ﴿فِيمَ﴾ إنكارٌ لسُؤالِهم، أي: فيمَ هذا السُّؤالُ؟ ثمَّ قيل: أنتَ مِن ذِكْراها، أي: أرسلَك وأنت خاتَمُ الأنبياءِ وآخِرُ الرُّسُلِ ذكرًا مِن أنواعِ علاماتِها، وواحِدًا مِن أقسامِ أشراطِها، فكفاهم بذلك دليلًا على دُنُوِّها ووُجوبِ الاستعدادِ لها، ولا فائِدةَ في سُؤالِهم عنها. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٦).

ينتَفِعُ بذلك، فيَعمَلُ لها، ويَستَعِدُّ مِن أجْلِها، ولم تُكَلَّفْ معرِفةَ وَقْتِها، أو إعلامَ النَّاسِ بمَوعِدِها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٍ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ٤٦﴾.

أي: كأنَّهم يومَ يَرَونَ القيامةَ لم يَعِيشوا في الدُّنيا إلَّا وَقتًا قليلًا لا يَتجاوَزُ مِقدارَ آخِرِ النَّهارِ أو أوَّلِه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٨).

الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ﴾ قيل: عائِدٌ على الكُفَّارِ المكَذِّبينَ بالبَعثِ. وممَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا: ابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٦).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: كأنَّهم يومَ يَرَوْنَ القيامةَ، لم يَلْبَثوا في الدُّنيا إلَّا عَشيَّةً أو ضُحاها: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، ومكي، والبغوي، والزمخشري، وابن الجوزي، والرازي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والنسفي، والخازن، وأبو حيَّان، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٢٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٨٢)، =

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ * قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ آياتِه الإيمانيَّةَ القرآنيَّةَ إنَّما يَنتَفِعُ بها أهلُ التَّقوى والخَشيةِ والإنابةِ، ومَن كان قصْدُه اتِّباعَ رِضوانِه، وأنَّها يَتذكَّرُ بها مَن يَخْشاه سُبحانَه، كما قال سُبحانَه: ﴿طه * مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: ١ - ٣]، وقال هنا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾، وأمَّا مَن لا يُؤْمِنُ بها ولا يَرجوها ولا يَخْشاها، فلا تَنفَعُه الآياتُ العِيانيَّةُ ولا القُرآنيَّةُ[1].

= ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٠٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٨). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٠).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أي: إذا قاموا مِن قُبورِهم إلى المَحشَرِ يَستقصِرونَ مدَّةَ الحياةِ الدُّنيا، حتَّى كأنَّها عِندَهم كانت عَشيَّةً مِن يَومٍ، أو ضُحًى مِن يَومٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٨).

وقيل: المعنى ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ في قُبورِهم ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾. وممَّن اختاره: السمرقنديُّ، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٩١).

قال ابنُ عثيمين: (﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ أي: يَرَونَ القيامةَ ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ العَشيَّةُ مِن الزَّوالِ إلى غروبِ الشَّمسِ، والضُّحى مِن طُلوعِ الشَّمسِ إلى زَوالِها، يعني: كأنَّهم لم يَلْبَثوا إلَّا نِصفَ يومٍ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٨).

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣١).

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ أي: فيه أهليَّةٌ أن يَخافَها خوفًا عظيمًا، فيَعمَلَ لها؛ لعِلْمِه بإتيانِها لا محالةَ، وعِلْمِه بمَوتِه لا محالةَ، وعِلْمِه بأنَّ كُلَّ ما تحقَّقَ وُقوعُه فهو قريبٌ، وذلك لا يناسِبُ تَعيينَ وَقْتِها؛ فإنَّ مَن فيه أهليَّةُ الخَشيةِ لا يَزيدُه إبهامُها إلَّا خَشيةً، وغَيرُه لا يَزيدُه ذلك إلَّا اجتِراءً وإجرامًا[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾ لَمَّا كان عِلمُ العِبادِ للسَّاعةِ ليس لهم فيه مَصلَحةٌ دِينيَّةٌ ولا دُنيويَّةٌ، بل المصلحةُ في خَفائِه عليهم؛ طوَى سُبحانَه عِلْمَ ذلك عن جميعِ الخَلْقِ، واستأثَرَ بعِلْمِه[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾ يقولُ القائِلُ: إنَّما الإرساءُ للسَّفينةِ والجِبالِ، وما أشبَهَهنَّ، فكيف وُصِفَت السَّاعةُ بالإرساءِ؟

الجوابُ: هي بمنزلةِ السَّفينةِ إذا كانت جاريةً فرَسَتْ، ورُسُوُّها قيامُها، وليس قيامُها كقيامِ القائِمِ على رِجْلِه ونحوِه، إنَّما هو كقَولِك: قد قام العَدلُ، وقام الحَقُّ، أي: ظَهَر وثَبَت[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ قُدِّمَ الخَبَرُ في قَولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾؛ ليفيدَ اختصاصَ ذلك به تبارك وتعالى، وهذا صريحٌ في أنَّ عِلْمَ السَّاعةِ خاصٌّ باللهِ تعالى، لا يَطَّلِعُ عليه مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولا نبيٌّ مُرْسَلٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٥، ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢/ ٧٠).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ فيه سؤالٌ: قولُه: ﴿أَوْ ضُحَىٰهَا﴾، معناه: ضُحى العَشِيَّةِ، وهذا غيرُ مَعقولٍ؛ لأنَّه ليس للعَشِيَّةِ ضُحًى؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ الهاءَ والألِفَ صِلةٌ للكلامِ -أي: زائدةٌ-، يريدُ: لم يَلْبَثوا إلَّا عَشِيَّةً أو ضُحًى.

الوَجهُ الثَّاني: المرادُ بإضافةِ الضُّحى إلى العَشِيَّةِ إضافتُها إلى يومِ العَشِيَّةِ، كأنَّه قيل: إلَّا عَشِيَّةً أو ضُحى يَومِها، والعَرَبُ تقولُ: (آتيك العَشِيَّةَ أو غَدَاتَها).

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ النَّحْويِّينَ قالوا: يَكفي في حُسْنِ الإضافةِ أدنى سَبَبٍ، فالضُّحى المتقَدِّمُ على عَشِيَّةٍ يَصِحُّ أن يُقالَ: إنَّه ضُحَى تلك العَشِيَّةِ، وزَمانُ المحنةِ قد يُعَبَّرُ عنه بالعَشِيَّةِ، وزَمانُ الرَّاحةِ قد يُعَبَّرُ عنه بالضُّحى؛ فالَّذين يَحضُرونَ في مَوقِفِ القيامةِ يُعَبِّرونَ عن زَمانِ مِحنتِهم بالعَشِيَّةِ، وعن زمانِ راحتِهم بضُحى تلك العَشِيَّةِ، فيقولونَ: كأنَّ عُمُرَنا في الدُّنيا ما كان إلَّا هاتَينِ السَّاعتَينِ(١).

٥- قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ المرادُ: ساعةٌ من نهارٍ؛ أوَّلِه أو آخِرِه، لم يَستَكْمِلوا نهارًا تامًّا، ولم يَجمعوا بيْن طَرَفيه، على أنَّ الكُفَّارَ أيضًا يَستَقصِرونَ مدَّةَ لُبثِهم، فكأنَّهم أصنافٌ؛ بعضُهم يقولُ: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه: ١٠٣]، وبعضُهم يقولُ: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٤]، وبعضُهم يتحَيَّرُ فيقولُ: (اسْأَلِ العادِّينَ). أو أنَّ تلك أقوالُهم، والحَقُّ مِن ذلك هو ما أخبَرَ اللهُ به غيرَ مُضافٍ إلى أقوالِهم مِن أنَّ ما مضى لهم في جَنْبِ ما يأتي كأنَّه ساعةٌ مِن نهارٍ بالنِّسبةِ إلى النَّهارِ الكامِلِ! كما قال تعالى في سُورةِ يُونُسَ عليه الصَّلاةُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥١).

والسَّلامُ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥]، على أنَّ مِنهم مَن يقولُ ذلك أيضًا، كما قال تعالى في سورةِ المؤمنينَ حينَ قال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾[1] [المؤمنون: ١١٢، ١١٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ مَنشؤُه أنَّ المُشرِكينَ كانوا يَسألونَ عن وقتِ حُلولِ السَّاعةِ الَّتي يَتوعَّدُهم بها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كما حَكاهُ اللهُ عنهم غيرَ مرَّةٍ في القُرآنِ؛ كقولِه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، وكان سؤالُهم استِهزاءً واستخفافًا؛ لأنَّهم عقَدوا قلوبَهم على استِحالةِ وُقوعِ السَّاعةِ، ورُبَّما طلَبوا التَّعجيلَ بوُقوعِها، وأَوهَموا أنفُسَهم وأشْياعَهم أنَّ تأخُّرَ وُقوعِها دليلٌ على اليأسِ منها؛ لأنَّهم يَتوهَّمونَ أنَّهم إذا فعَلوا ذلك مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لو كان صادقًا لَحَمِيَ غضَبُ اللهِ مُرسِلِه سُبحانَه فبادَرَ بإراءَتِهم العذابَ، وهم يَتوهَّمونَ شؤونَ الخالقِ كشُؤونِ النَّاسِ إذا غَضِبَ أحدُهم عَجِل بالانتقامِ طيشًا وحَنَقًا! فلا جَرَمَ لَمَّا قُضِيَ حقُّ الاستِدلالِ على إمكانِ البعثِ بإقامةِ الدَّليلِ وضربِ الأمثالِ، وعُرِّض بعِقابِ الَّذين استَخَفُّوا بها في قولِه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٤]؛ كان ذلك مَثارًا لسؤالِهم أنْ يَقولوا: هلْ لِمَجيءِ هذه الطَّامَّةِ الكُبرى وقتٌ معلومٌ؟ فكان الحالُ مقتضيًا هذا الاستئنافَ البيانيَّ؛ قضاءً لحقِّ المَقامِ، وجوابًا عن سابقِ الكلامِ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٤).

- وحُكِي فِعلُ السُّؤالِ بصِيغةِ المضارعِ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ هذا السُّؤالِ وتكرُّرِه(١).

- والسَّاعةُ: هي الطَّامَّةُ، فذِكرُ السَّاعةِ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لقصدِ استقلالِ الجملةِ بمَدلولِها، مع تَفنُّنٍ في التَّعبيرِ عنها بهذَينِ الاسمينِ: ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ و﴿ٱلسَّاعَةِ﴾(٢).

- وجُملةُ ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ جُملةٌ مبيِّنةٌ للسُّؤالِ. و﴿أَيَّانَ﴾: اسمٌ يُستفهَمُ به عن تَعيينِ الوقتِ، والاستفهامُ مُستعمَلٌ في الاستبعادِ، وهو أيضًا كِنايةٌ عن الاستحالةِ(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾

- قولُه: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ واقعٌ موقعَ الجوابِ عن سؤالِهم عن السَّاعةِ باعتبارِ ما يَظهَرُ مِن حالِ سؤالِهم عن السَّاعةِ مِن إرادةِ تعيينِ وقتِها، وصرْفِ النَّظرِ عن إرادتِهم به الاستهزاءَ، فهذا الجوابُ مِن تخريجِ الكلامِ على خلافِ مُقتضى الظَّاهرِ، وهو مِن تَلَقِّي السَّائلِ بغيرِ ما يَتطلَّبُ؛ تَنبيهًا له على أنَّ الأَولى به أنْ يَهتمَّ بغيرِ ذلك، وهو مضمونُ قولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ﴾ [النازعات: ٤٥]، وهذا ما يُسمَّى بالأسلوبِ الحَكيمِ. والخِطابُ وإنْ كان موجَّهًا إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فالمقصودُ بُلوغُه إلى مَسامِعِ المُشرِكينَ؛ فلذلك اعتُبِر اعتبارَ جوابٍ عن كلامِهم، وذلك مُقتضى فصْلِ الجملةِ عن الَّتي قبْلَها شأنَ الجوابِ والسُّؤالِ(٤).

- و(ما) في قولِه: ﴿فِيمَ﴾ اسمُ استفهامٍ بمعنى: أيُّ شيءٍ؟ مُستعمَلةٌ في التَّعجيبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن سُؤالِ السَّائلينَ عنها، ثمَّ توبيخِهم[١]؛ فقولُه: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ تعجُّبٌ مِن كَثرةِ ذِكرِه لها، كأنَّه قيل: في أيِّ شُغلٍ واهتمامٍ أنت مِن ذِكرِها والسُّؤالِ عنها؟ والمعنى: أنَّهم يَسألونَك عنها، فلِحرصِك على جوابِهم لا تَزالُ تذكُرُها وتَسألُ عنها[٢].

وقيلَ: ﴿فِيمَ﴾ إنكارٌ لسُؤالِهم، وما بَعْدَه مِن الاستِئنافِ تعليلٌ للإنكارِ، وبيانٌ لبُطلانِ السُّؤالِ، أيْ: فيمَ هذا السؤالُ؟ ثمَّ ابتُدِئَ فقيلَ: ﴿أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي: إرسالُك وأنتَ خاتمُ الأنبياءِ المبعوثُ في نَسَمِ السَّاعةِ[٣] علامةً مِن علاماتِها: دليلٌ يَدُلُّهم على العِلمِ بوُقوعِها عن قريبٍ، فحَسْبُهم هذه المرتبةُ مِن العِلمِ، فـ﴿فِيمَ﴾ ليس خبرًا مقدَّمًا لِما بعدَه، بل هو خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: فِيمَ هذا السُّؤالُ الواقعُ مِن الكفَرةِ؟ فتَمَّ الكلامُ عندَه، ثمَّ استأنَفَ بجملةِ ﴿أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ بيانًا لسببِ الإنكارِ عن سؤالِهم، كأنَّه قيل: إنَّها قريبةٌ غيرُ بعيدةٍ؛ لأنَّك علامةٌ من علاماتِها، فإرسالُك يَكْفيهم دليلًا على دُنُوِّها، والاهتمامِ بتحصيلِ الاعتدادِ لها، فلا معنَى لسؤالِهم عنها، فمعنى ﴿أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾: أنت مِن علاماتِها ومُذَكِّراتِها[٤].

- و(في) للظَّرفيَّةِ بجعْلِ المُشركينَ في إحْفائِهم بالسُّؤالِ عن وقتِ السَّاعةِ كأنَّهم جعَلوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ محوطًا بذِكرِ وقتِ السَّاعةِ، أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٩).

(٣) نَسَم السَّاعةِ: مِن النَّسيم، وهو أوَّلُ هُبوبِ الرِّيحِ الضَّعيفةِ. والمعنى أنَّه مبعوثٌ في أوَّلِ أشراطِ السَّاعَةِ وضَعْفِ مَجيئِها. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧٢).

مُتلبِّسًا به تلبُّسَ العالِمِ بالمعلومِ[1].

- وتَقديمُ ﴿فِيمَ﴾ على المبتدأِ ﴿أَنتَ﴾ للاهتِمامِ به؛ ليُفيدَ أنَّ مضمونَ الخبرِ هو مَناطُ الإنكارِ، بخلافِ ما لو قيل: أأنت في شيءٍ مِن ذِكْراها[2]؟

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ﴾ جُملةٌ في موقعِ العِلَّةِ للإنكارِ الَّذي اقتضاهُ قولُه: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾؛ ولذلك فُصِلَتْ -أي: لم تُعطَفْ على الَّتي قبْلَها[3].

- وفي الكلامِ إيجازٌ بالحذْفِ، تَقديرُه: إلى ربِّك عِلمُ مُنتهاها[4].

- وتَقديمُ المجرورِ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على المبتدأ ﴿مُنتَهَاهَآ﴾؛ لإفادةِ القَصْرِ[5]، أي: لا إليك، وهذا قصرُ صِفةٍ على مَوصوفٍ[6].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن جملةِ ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ﴾ [النازعات: ٤٣، ٤٤]؛ وهو أنْ يَسأَلَ السَّامعُ عن وجْهِ إكثارِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذِكرَها وأنَّها قريبةٌ، فأُجيبَ بأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حظُّه التَّحذيرُ مِن بَغْتَتِها، وليس حظُّه الإعلامَ بتعيينِ وقتِها[7].

وقيلَ: قولُه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ إمَّا تقريرٌ لِما قبْلَه مِن قولِه تعالَى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٣]، وتحقيقٌ لِما هو المرادُ منه، وبيانٌ لوظيفتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في ذلك الشأنِ؛ فإنَّ إنكارَ كَونِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٥، ٩٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٩٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٦).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٩٧).

شيءٍ مِن ذِكْراها ممَّا يُوهِمُ بظاهِرِه أنْ ليس له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يَذكُرَها بوجهٍ مِن الوُجوهِ، فأُزيحَ ذلك ببيانِ أنَّ المَنفيَّ عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ذِكرُها لهم بتعيينِ وقتِها حسبَما كانوا يَسألونَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عنها، فالمَعْنى: إنَّما أنت مُنذِرُ مَن يَخْشاها، وظيفتُكَ الامتثالُ بما أُمِرتَ به مِن بيانِ اقترابِها، وتفصيلِ ما فيها مِن فُنونِ الأهوالِ كما تُحيطُ به خُبْرًا، لا تعيينُ وقتِها الَّذي لم يُفوَّضْ إليك، فما لَهم يَسألونَكَ عمَّا ليس مِن وظائفِكَ بيانُه؟! أو هو تَقريرٌ لقولِه تعالى: ﴿أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ ببَيانِ أنَّ إرسالَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -وهو خاتَمُ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ- مُنذِرٌ بمجيءِ السَّاعةِ[(١)].

- وأفادَتْ ﴿إِنَّمَآ﴾ قصْرَ المخاطَبِ على صِفةِ الإنذارِ، أي: تخصيصَه بحالِ الإنذارِ، وهو قصْرُ موصوفٍ على صفةٍ، فهو قصرٌ إضافيٌّ[(٢)]، أي: بالنِّسبةِ إلى ما اعتقَدوه فيه بما دلَّ عليه إلحافُهم في السُّؤالِ مِن كَونِه مُطَّلِعًا على الغَيبِ[(٣)].

- وفي إضافةِ ﴿مُنذِرُ﴾ إلى ﴿مَن يَخْشَىٰهَا﴾ أو نصْبِه به -على قِراءة أبي جعْفر: ﴿مُنذِرٌ﴾ بالتَّنوينِ[(٤)]- إيجازُ حذْفٍ تَقديرُه: مُنذِرُها فيَنتذِرُ مَن يَخْشاها، وقرينةُ ذلك حاليَّةٌ؛ للعِلمِ المتواترِ مِنَ القُرآنِ بأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ كان يُنذِرُ جميعَ النَّاسِ، لا يخُصُّ قَومًا دُونَ آخَرينَ؛ فإنَّ آياتِ الدَّعوةِ مِن القرآنِ ومَقاماتِ دَعوةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ لم تكُنْ إلَّا عامَّةً، ولا يُعْرَفُ مَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٥، ١٠٦).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٧).

(٤) قرأها أبو جعفرٍ بالتَّنوينِ، والباقونَ بدونِ تنوينٍ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٨).

يَخْشى السَّاعةَ إلَّا بعْدَ أنْ يُؤمِنَ المؤمنُ، ولو عُرِف أحدٌ بعَينِه أنَّه لا يُؤمِنُ أبدًا لَما وُجِّهَتْ إليه الدَّعوةُ؛ فتَعيَّنَ أنَّ المرادَ: أنَّه لا يَنتفِعُ بالإنذارِ إلَّا مَن يَخْشى السَّاعةَ، ومَن عَداهُ تمُرُّ الدَّعوةُ بسَمْعِه فلا يَأبَهُ بها؛ فكان ذِكرُ ﴿مَن يَخْشَىٰهَا﴾ تنويهًا بشأنِ المؤمنينَ، وإعلانًا لمَزيَّتِهم، وتحقيرًا للَّذين بَقُوا على الكفرِ[1].

- وتَخصيصُ الإنذارِ بمَن يَخْشَى مع عُمومِ الدَّعوةِ؛ لأنَّه المنتفِعُ به[2].

٥- قولُه تعالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ إمَّا تقريرٌ وتأكيدٌ لِما يُنبِئُ عنه الإنذارُ مِن سرعةِ مجيءِ المُنذَرِ به، أيْ: كأنَّهم يومَ يرَوْنَها لم يَلبَثوا بعدَ الإنذارِ بها إلَّا عَشيَّةَ يومٍ واحدٍ أو ضُحاهُ. وإمَّا ردٌّ لِما أَدْمَجوهُ في سؤالِهم؛ فإنَّهم كانوا يَسألونَ عنها بطريقِ الاستبطاءِ مُستعجِلينَ بها، وإنْ كانَ على نهجِ الاستِهزاءِ بها ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، فالمَعْنى: كأنَّهم يومَ يَرَوْنَها لم يَلبَثوا بعدَ الوعيدِ؛ تحقيقًا للإنذارِ، ورَدًّا لاستبطائِهم؛ فهو على هذا جوابٌ عمَّا تَضمَّنَه قولُه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢] باعتبارِ ظاهِرِ حالِ السُّؤالِ مِن طلبِ المعرفةِ بوقتِ حلولِ السَّاعةِ، واستبطاءِ وُقوعِها الَّذي يَرْمونَ به إلى تكذيبِ وُقوعِها، فأُجيبوا على طريقةِ الأسلوبِ الحكيمِ، أي: إنْ طالَ تأخُّرُ حصولِها فإنَّها واقعةٌ، وأنَّهم يومَ وقوعِها كأنَّه ما لَبِثوا في انتظارٍ إلَّا بعضَ يومٍ[3].

- والعَشيَّةُ: مُعبَّرٌ بها عن مُدَّةٍ يسيرةٍ مِن زَمانٍ طويلٍ على طَريقةِ التَّشبيهِ، وهو مُستفادٌ مِن ﴿كَأَنَّهُمْ﴾، فهو تَشبيهُ حالِهم بحالةِ مَن لم يَلبَثْ إلَّا عشيَّةً، وهذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٨).

التَّشبيهُ مقصودٌ منه تقريبُ معنى المُشبَّهِ مِن المُتعارَفِ[1].

- وقولُه: ﴿أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ تخييرٌ في التَّشبيهِ، وفي هذا العطفِ زِيادةٌ في تقليلِ المُدَّةِ؛ لأنَّ حِصَّةَ الضُّحى أقصَرُ مِن حصَّةِ العَشيَّةِ[2].

- وصحَّتْ إضافةُ الضُّحى إلى العَشيَّةِ؛ لِما بيْنَهما مِن الملابَسةِ؛ لاجتماعِهما في نهارٍ واحدٍ، ولم يقل: (إلا عشية أو ضحى)، بل أضافَ الضُّحى إلى العَشيِّ؛ للدَّلالةِ على أنَّ مدَّةَ لَبْثِهم كأنَّها لم تَبلُغْ يومًا كاملًا، ولكنْ ساعةً منه عَشِيَّتَه أو ضُحاهُ، فلمَّا تُرِك اليومُ أضافَهُ إلى عشيَّتِه، فهو كقولِه: ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فأصْلُ الكلامِ: لم يَلْبَثوا إلَّا ساعةً مِن نَهارٍ عَشيَّتَه أو ضُحاهُ، فوُضِعَ هذا المختصَرُ مكانَه، وقيل: الظَّاهِرُ أنَّ إضافةَ (ضُحى) إلى (عَشِية) للبيانِ، ولكنَّ المرادَ التَّوكيدُ وَتحقيقُهما، نحْو: أخذْتُ بيَدِي ورأيتُ بعَيْني؛ لأنَّه مِن الإمكانِ أنْ يُرادَ بضُحى وساعةٍ النَّهارُ كلُّه[3].

وقيلَ: مُسوِّغُ الإضافةِ أنَّ الضُّحى أسبَقُ مِن العَشيَّةِ؛ إذ لا تقَعُ عشيَّةٌ إلَّا بعدَ مرورِ ضُحًى، فصارَ ضُحَى ذلك اليومِ يُعرَّفُ بالإضافةِ إلى عشيَّةِ اليومِ؛ لأنَّ العشيَّةَ أقرَبُ إلى عِلمِ النَّاسِ؛ لأنَّهم يكونونَ في العشيَّةِ بعدَ أنْ كانوا في الضُّحى، فالعشيَّةُ أقرَبُ، والضُّحى أسبَقُ. وفي هذه الإضافةِ أيضًا رعايةٌ على الفواصلِ الَّتي هي على حرفِ الهاءِ المفتوحةِ مِن ﴿أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

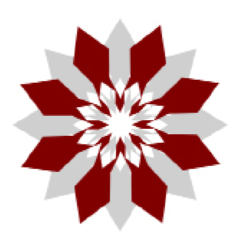
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٨٧، ٢٨٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧٢).

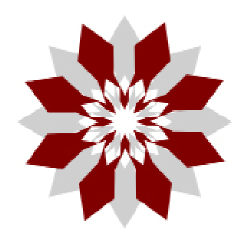
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٨، ٩٩).

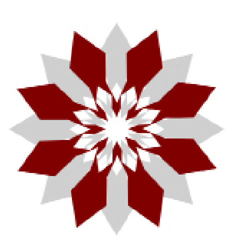
ويُنظر ما تقدَّم في الفوائد (ص: ٢١٣).

تَفْسِيرُ

سُورَةِ عَبَسَ







سُورةُ عَبَسَ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ سُورةَ (عَبَسَ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ (عَبَسَ) مَكِّيَّةٌ، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

حقيقةُ دَعوةِ القُرآنِ، وكرامةُ مَن ينتَفِعُ بها، وحَقارةُ مَن يُعرِضُ عنها[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- عِتابُ اللهِ تعالى لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عتابًا رقيقًا، على ما حَدَث منه مع ابنِ أمِّ مَكتومٍ الأعمى.

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لافتِتاحِها بلَفظِ «عَبَسَ» في قَولِه تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٠١).

قال الألوسي: (وتُسمَّى سورةَ الصَّاخَّةِ، وسورةَ السَّفَرةِ، وسُمِّيَتْ في غيرِ كتابٍ سورةَ الأعمى). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٤١). ويُنظر: ((جمال القراء وكمال الإقراء)) للسخاوي (ص: ٩٢).

وقال ابن عاشور: (وكلُّ ذلك تسميةٌ بألفاظٍ وقعتْ فيها لم تقَعْ في غيرِها مِن السُّوَرِ، أو بصاحبِ القصَّةِ الَّتي كانت سببَ نُزولِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠١).

(٢) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطيَّة، وابن الجوزي، والقرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١١)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((المختصر في تفسير القرآن الكريم)) (ص: ٥٨٥).

٢- الثَّناءُ على القُرآنِ، وأنَّه ذِكْرى ومَوعِظةٌ لِمَن عَقَل وتدبَّرَ.

٣- إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، بذِكرِ أصلِ نَشأةِ الإنسانِ، ونِعَمِ اللهِ عليه، وتَيسيرِ أسبابِ حَياتِه.

٤- التَّذكيرُ بأهوالِ يومِ القيامةِ، وأحوالِ النَّاسِ فيه.



الآيات (١-١٦)

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ
٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ
يَخۡشَىٰ ٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ
مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿عَبَسَ﴾: أي: قَطَّبَ وَجْهَه، وقَبَضَ ما بيْنَ عينَيه، والعُبُوسُ: تَقطُّبُ الوَجهِ عندَ كراهيةِ أمرٍ، وأصلُ (عبس): يدُلُّ على تكَرُّهٍ[1].

﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾: أي: أعرَضَ، والتَّولِّي إذا وُصِلَ بـ(عن) لفظًا، أو تقديرًا -كما هنا- اقتضَى معنَى الإعراضِ، وتَركِ القُربِ[2].

﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾: أي: يَتطَهَّرُ مِنَ الذُّنوبِ، وأصلُ (زكو): يدُلُّ على نَماءٍ، وزِيادةٍ، وطَهارةٍ[3].

﴿ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾: أي: التَّذكيرُ والعِظَةُ، وأصلُ (ذكر): يدُلُّ على خِلافِ النِّسْيانِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٧).

﴿تَصَدَّىٰ﴾: أي: تَتعَرَّضُ، وتُقبِلُ عليه[١].

﴿تَلَهَّىٰ﴾: أي: تُعْرِضُ، وتتشاغلُ عنه بغَيْرِه، يُقالُ: لهيتُ عن الشَّيءِ، وتلهَّيْتُ عنه، إذا شُغِلْتَ عنه، وتركْتَه، وأصلُ (لهو) هنا: يَدُلُّ على شُغْلٍ عن شيءٍ بشيءٍ[٢].

﴿سَفَرَةٍ﴾: السَّفَرةُ: هم الملائِكةُ الكِرامُ الكاتِبونَ، واحِدُهم سافِرٌ، يُقالُ: سَفَرْتُ: أي: كَتَبْتُ. ومنه قيل للكِتابِ: سِفْرٌ؛ لأنَّه يُبَيِّنُ الشَّيءَ ويُوضِّحُه. وقيل: هم الرُّسُلُ مِن الملائكةِ الَّذين يَسْفِرونَ بالوَحْيِ بيْن اللهِ ورُسُلِه، ومنه: سفيرُ القَومِ: الَّذي يَسعى بيْنَهم للصُّلحِ، وأصلُ (سفر): يدُلُّ على الانكِشافِ والجَلاءِ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بمُعاتَبةِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عِتابًا رقيقًا، فقال: قَطَّبَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وَجْهَه، وأعرَضَ؛ بسَبَبِ مَجيءِ الرَّجُلِ الأعمى إليه، وهو مَشغولٌ بدَعوةِ رَجُلٍ مِن أشرافِ قُرَيشٍ، وما يُدْرِيك -يا مُحمَّدُ- لعَلَّ هذا الأعمى يتطَهَّرُ مِن ذُنوبِه بما يتعَلَّمُه مِنَ القُرآنِ منك، أو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص:١٥٩، ١٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٧١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٣).

وأصلُه تتلَهَّى، فأُسْقِطتْ إحدَى التَّاءيْنِ استثقالًا لها في صدرِ الكلمةِ. يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٢)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٩).

يتذَكَّرُ؛ فيَتَّعِظ ويَعتَبِرَ بما يَسمَعُ مِنَ القُرآنِ؟!

ثمَّ فصَّل اللهُ تعالى ما كان مِن نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: أمَّا الَّذي استَغْنى بمالِه وجاهِه عن الإيمانِ، وأعرَضَ عن هَدْيك، فأنت تتعَرَّضُ له، وتُقبِلُ عليه، وتجتَهِدُ في وَعْظِه؛ رجاءَ هِدايتِه للحَقِّ، وأيُّ ضَرَرٍ عليك إذا لم يُسْلِمْ ويتطَهَّرْ مِن كُفْرِه وذُنوبِه؟! وأمَّا هذا الرَّجُلُ الأعمى الَّذي جاءك يَسْعى مُجتَهِدًا في الوُصولِ إليك؛ طَلَبًا للعِلْمِ وسَماعِ الحَقِّ، وهو يَخافُ اللهَ تعالى، فأنت تُعْرِضُ عنه!

ثمَّ قال تعالى: كَلَّا، لا تَفعَلْ ما فعَلْتَ -يا محمَّدُ- إنَّ آياتِ القُرآنِ تذكيرٌ للنَّاسِ جَميعًا، فمَن شاء مِن النَّاسِ ذَكَر هذا القُرآنَ، فاتَّعَظَ وعَمِلَ بما فيه، وهذا القُرآنُ الكريمُ مَكتوبٌ في صُحُفٍ مُكَرَّمةٍ عِندَ اللهِ تعالى، عاليةٍ رفيعةِ القَدْرِ، مُطَهَّرةٍ مِن كُلِّ دَنَسٍ وعَيبٍ، بأيدي طائِفةٍ مِنَ الملائِكةِ ذَوي خَلْقٍ حَسَنٍ وأخلاقٍ جَميلةٍ، كثيري الخَيرِ والطَّاعةِ والإحسانِ.

تَفسيرُ الآياتِ:


﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن مَعمَرٍ، عن قَتادةَ، عن أنسٍ -رَضِيَ اللهُ عنه- في قَولِه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، قال: ((جاء ابنُ أُمِّ مَكتومٍ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو يُكَلِّمُ أُبَيَّ بنَ خَلَفٍ، فأعرَضَ عنه؛ فأنزل اللهُ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، فكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعْدَ ذلك يُكْرِمُه))، قال قَتادةُ: وأخبَرَني أنَسُ بنُ مالكٍ قال: رأَيْتُه يومَ القادسِيَّةِ وعليه دِرعٌ، ومعه رايةٌ سَوداءُ، يعني: ابنَ أُمِّ مَكتومٍ[١].

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٣١٢٣).

=

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١﴾.

أي: قَطَّبَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وَجْهَه، وأعرَضَ غَضَبًا[1].

﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢﴾.

أي: بسَبَبِ مَجيءِ الرَّجُلِ الأعمى إليه، وهو مَشغولٌ بدَعوةِ رَجُلٍ مِن أشرافِ قُرَيشٍ[2].

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣﴾.

= قال الوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (٢٦٧): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ).

وأخرج الموقوفَ منه مِن طرُقٍ أخرى: الحارثُ في ((المسند)) (٦٦١)، وابنُ جرير في ((التفسير)) (٢٤/ ٢١٨).

وثَّق رجالَ إسنادِه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٥/ ١٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٩).

قال السمعاني: (قَولُه تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ هو الرَّسولُ في قولِ الجَميعِ... وقَولُه: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾... هو عبدُالله بنُ أُمِّ مكتومٍ في قَولِ الجَميعِ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٥٥). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٩٢).

وقال ابنُ العربي: (لا خِلافَ أنَّها نَزَلَت في ابنِ أُمِّ مَكتومٍ الأَعمى). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٣٦٢).

قيل: معنى: ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾: أعرَضَ بوَجْهِه. وممَّن اختاره: السمرقنديُّ، والثعلبي، والبغوي، والقرطبي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٦)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٣٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٨٢).

وقيل: المعنى: أعرَضَ ببدَنِه. وممَّن ذهب إليه: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٣، ١٠٤).

أي: وما يُدْرِيك -يا مُحمَّدُ- لعَلَّ هذا الأعمى -الَّذي عَبَسْتَ وأعرَضْتَ عنه- يتزكَّى بما يتعلَّمُه مِنَ القُرآنِ منك؛ فيتطَهَّرَ مِن ذُنوبِه[1].

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ٤﴾.

أي: أو لعَلَّه يَتذكَّرُ ما غَفَل عنه؛ فيَتَّعِظَ ويَعتَبِرَ بما يَسمَعُ مِنَ القُرآنِ[2].

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ٥﴾.

أي: أمَّا الَّذي استَغْنى عن الإيمانِ والقُرآنِ بما لَه مِنَ المالِ والجاهِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠).

قال البِقاعي: (﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي: وأيُّ شَيءٍ يَجعلُك داريًا بحالِه وإن اجتَهَدْتَ في ذلك؟ فإنَّ ذواتِ الصُّدورِ لا يَعلَمُها إلَّا اللهُ تعالى). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٠).

قال الواحدي: (﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: عن الله تعالى، وعن الإيمانِ، بما لَه مِن المالِ). ((الوسيط)) (٤/ ٤٢٢).

قيل: معنى ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي: بمالِه. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، وابن عطية، وجلال الدين المحلي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٩٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٨٤).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ وابنُ أبي زَمَنِين: استغنى عن الله. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٩٤).

وقال السمرقندي: (﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ يعني: استغنى بنَفْسِه عن ثوابِ الله). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٦).
=

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ٨ - ١١].

﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ⑥﴾.

أي: فأنت -يا مُحمَّدُ- تتعَرَّضُ له، وتُقبِلُ عليه، وتجتَهِدُ في وَعْظِه؛ رجاءَ هِدايتِه للحَقِّ[1]!

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ⑦﴾.

= وقيل: ﴿اسْتَغْنَى﴾ أي: أثرَى وكان ذا ثروةٍ وغِنًى. وممَّن اختاره: الثعلبيُّ، والقرطبي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٧).

وقال البِقاعي: (﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى﴾ أي: طلَبَ الغِنى -وهو المالُ والثَّروةُ- فوجَدَه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٥٢).

قال الرازي: (قال عَطاءٌ: يريدُ: عن الإيمانِ. وقال الكلبيُّ: استغنى عن اللهِ. وقال بعضُهم: استغنى: أَثْرَى. وهو فاسِدٌ هاهنا؛ لأنَّ إقبالَ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يكُنْ لثَروتِهم ومالِهم حتَّى يُقالَ له: أمَّا مَن أَثْرَى فأنت تُقبِلُ عليه! ولأنَّه قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى﴾ [عبس: ٨، ٩]، ولم يقُلْ: وهو فقيرٌ عَديمٌ. ومَن قال: أمَّا مَنِ استغنَى بمالِه، فهو صحيحٌ؛ لأنَّ المعنى: أنَّه استغنَى عن الإيمانِ والقُرآنِ بما لَه مِنَ المالِ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٤). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢١٣).

وقال ابنُ عاشور: (الاستِغناءُ: عَدُّ الشَّخصِ نَفْسَه غَنِيًّا في أمرٍ يدُلُّ عليه السِّياقُ: قَولٌ، أو فِعلٌ، أو عِلمٌ، فالسِّينُ والتَّاءُ للحِسْبانِ، أي: حَسِبَ نَفْسَه غَنِيًّا، وأكثَرُ ما يُستعمَلُ الاستغناءُ في التَّكَبُّرِ والاعتزازِ بالقُوَّة. فالمرادُ بـ﴿مَنِ اسْتَغْنَى﴾ هنا: مَن عَدَّ نَفْسَه غَنِيًّا عن هَدْيِك، بأن أعرَضَ عن قَبُولِه... وليس المرادُ بـ﴿مَنِ اسْتَغْنَى﴾ مَن استَغنى بالمالِ؛ إذ ليس المَقامُ في إيثارِ صاحِبِ مالٍ على فقيرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٠).

أي: وأيُّ ضَرَرٍ عليك -يا مُحمَّدُ- إذا لم يُسْلِمْ هذا الرَّجُلُ الَّذي استغنى، ويتطَهَّرْ من كُفْرِه وذُنوبِه؟ فلا تُبالِ به، ولا تَكترِثْ بشأنِه؛ فإنَّه لا يَضُرُّك إثمُه، وليس عليك إلَّا البَلاغُ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ [لقمان: ٢٣].

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾.

أي: وأمَّا هذا الرَّجُلُ الأعمى الَّذي جاءك -يا مُحمَّدُ- يَمْشي مُسْرِعًا مُجتَهِدًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٠).

قوله: (ما) في الآية: ﴿وَمَا عَلَيْكَ﴾: استفهاميَّةٌ، والمعنى: وأيُّ شَيءٍ عليك يا محمَّدُ؟ وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، ومكي، والواحدي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٨٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٣).

وقيل: هي نافيةٌ، والمعنى: ليس عليك بأسٌ، ولا حرَجَ عليك. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: البيضاويُّ، وابن جُزَي، والنسفي، والبِقاعي، والقاسمي، والألوسي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٠٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٠).

في الوُصولِ إليك؛ طَلَبًا للعِلْمِ، وسَماعِ الحَقِّ[١].

﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾.

أي: والحالُ أنَّه يَخافُ اللهَ تعالى؛ لعِلْمِه بعَظَمتِه وشِدَّةِ عَذابِه[٢].

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾.

أي: فأنت -يا مُحمَّدُ- تُعْرِضُ عن هذا الرَّجُلِ الحَريصِ على الحَقِّ، وتتشاغَلُ بدَعْوةِ ذلك الكافِرِ[٣]!

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

كأنَّه قيل: هذا القُرآنُ قد بلَغ في العَظَمةِ إلى هذا الحَدِّ العظيمِ، فأيُّ حاجةٍ به إلى أن يَقبَلَه هؤلاء الكُفَّارُ، فسَواءٌ قَبِلوه أو لم يَقبَلوه، فلا تلتَفِتْ إليهم، ولا تَشغَلْ قَلْبَك بهم، وإيَّاك وأن تُعرِضَ عمَّن آمَنَ به تطييبًا لقَلبِ أربابِ الدُّنيا[٤].

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٨، ١٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦١).
قال ابن عطية: (قال كثيرٌ مِن العلماءِ وابنُ زيدٍ وعائشةُ وغيرُها مِن الصحابةِ: لو كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم كاتمًا شيئًا مِن الوحيِ، لكتَم هذه الآياتِ، وآياتِ قصةِ زيدٍ وزينبَ بنتِ جحشٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٥).

أي: لا تَفعَلْ ما فعَلْتَ -يا مُحمَّدُ-؛ فليس الخَيرُ في الإعراضِ عن المؤمِنِ الحَريصِ على الحَقِّ، والتَّشاغُلِ عنه بدعوةِ غَيرِه مِن الكُفَّارِ المكابِرينَ؛ إنَّ آياتِ القُرآنِ تذكيرٌ للنَّاسِ جميعًا[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦١).

قال القرطبي: (﴿كَلَّآ﴾ كَلِمةُ رَدعٍ وزَجرٍ، أي: ما الأمرُ كما تفعَلُ مع الفريقينِ، أي: لا تَفعَلْ بَعْدَها مِثْلَها). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالضَّميرِ في قولِه: ﴿إِنَّهَا﴾: القرآنُ: البِقاعي، والألوسي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٤٤).

قال البقاعي: (﴿إِنَّهَا﴾ أي: القرآنَ، ولعَلَّه أنَّث الضَّميرَ باعتبارِ ما تُلِيَ عليهم في ذلك المجلِسِ مِن الآياتِ أو السُّوَرِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٥٦).

وقال الرازي: (لَمَّا جَعَل القرآنَ تَذْكِرةً أخرَجه على لَفظِ التَّذكِرةِ، ولو ذَكَّره لَجازَ، كما قال في موضِعٍ آخَرَ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ [المدثر: ٥٤]، والدَّليلُ على أنَّ قولَه: ﴿إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ المُرادُ به القرآنُ قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٥).

وبمعنى هذا القولِ مَن قال: المرادُ: آياتُ القرآنِ. ومنهم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والعُلَيمي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦١).

وقيل: المرادُ: السُّورةُ. وممَّن قال به: الفرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبةَ، ونسَبَه الرازيُّ إلي الأخفَشِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٣٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٤)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٥).

وقيل: المرادُ: الموعظةُ. وممَّن قال به: الزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والبغوي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١٠).

وجمَعَ ابنُ جريرٍ بيْن القولَينِ الأخيرَينِ، أي أنَّ المرادَ: هذه العِظةُ، وهذه السُّورةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧).

قال ابنُ كثيرٍ: (قَولُه: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ أي: هذه السُّورةَ، أو الوَصِيَّةَ بالمساواةِ بيْن النَّاسِ في إبلاغِ العِلْمِ مِن شريفِهم ووضيعِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢١).

وقال أيضًا: (مِنْ هاهنا أَمَر اللهُ عزَّ وجَلَّ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ألَّا يَخُصَّ بالإنذارِ =

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾.

أي: فمَن شاء مِن النَّاسِ ذَكَر هذا القُرآنَ، فاتَّعَظَ واعتبَرَ وعَمِلَ بما فيه[1].

كما قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨، ٤٩].

وقال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩].

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾﴾.

أي: وهذا القُرآنُ الكريمُ مَكتوبٌ في صُحُفٍ مُكَرَّمةٍ عِندَ اللهِ تعالى[2].

= أحدًا، بل يُساوي فيه بيْن الشَّريفِ والضَّعيفِ، والفَقيرِ والغَنيِّ، والسَّادةِ والعَبيدِ، والرِّجالِ والنِّساءِ، والصِّغارِ والكِبارِ، ثمَّ اللهُ يَهْدِي مَن يشاءُ إلى صراطٍ مُستقيمٍ، وله الحِكمةُ البالِغةُ، والحُجَّةُ الدَّامِغةُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٩).

وقال القاسمي: (قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي: إنَّ المعاتبةَ المذكورةَ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦١).

قال ابن كثير: (﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: فمَن شاء ذكَرَ اللهَ في جميعِ أمورِه. ويحتملُ عَوْدُ الضَّميرِ على الوحيِ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢١).

وقال ابن عاشور: (ويجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ عائِدًا إلى اللهِ تعالى؛ فإنَّ إعادةَ ضمير الغَيبةِ على اللهِ تعالَى دونَ ذِكْرِ معادِه في الكلامِ كثيرٌ في القرآنِ؛ لأنَّ شُؤونَه تعالَى وأحكامَه نَزَل القرآنُ لأجْلِها، فهو مَلْحوظٌ لكُلِّ سامعٍ للقرآنِ، أيْ: فمَنْ شاءَ ذَكَر اللهَ وتَوَخَّى مَرْضاتَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٥، ٢١٦)، ((تفسير =

﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ١٤﴾.

أي: وهي صُحُفٌ عاليةٌ، رفيعةُ المكانةِ والقَدْرِ، مُطَهَّرةٌ مِن كُلِّ دَنَسٍ وعَيبٍ(١).

قال سُبحانَه: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].


﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ١٥﴾.

أي: وهذه الصُّحُفُ المكتوبُ فيها القُرآنُ هي بأيدي طائفةٍ مِنَ الملائِكةِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٧٩].

﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ ١٦﴾.

= ابن كثير)) (٨/ ٣٢١)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦١).

قال الواحدي: (قال المفسِّرون: يعني: اللَّوحَ المحفوظَ). ((الوسيط)) (٤/ ٤٢٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٦، ١١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١).

قال ابنُ جرير: (﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ يعني: في اللَّوحِ المحفوظِ، وهو المرفوعُ المطَهَّرُ عندَ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٨، ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٢).

قال ابن جُزَي: (﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ هي الملائِكةُ، والسَّفَرةُ: جَمعُ سافِرٍ، وهو الكاتِبُ؛ لأنَّهم يكتُبونَ القُرآنَ. وقيل: لأنَّهم سُفَراءُ بيْن اللهِ وبيْن عَبيدِه. وقيل: يعني: القرَّاءَ مِنَ النَّاسِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٣).

وقال ابنُ عثيمين: (هذا لأنَّهم سُفَراءُ بيْنَ اللهِ وبيْنَ الخَلقِ؛ فجِبريلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ واسِطةٌ بيْنَ اللهِ وبيْنَ الخَلقِ في النُّزولِ بالوَحْيِ، والكَتَبةُ الَّذين يكتُبونَ ما يَعمَلُ الإنسانُ أيضًا يكتُبونَه ويُبَلِّغونَه إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ، واللهُ تعالى عالِمٌ به حينَ كتابتِه وقبْلَ كِتابتِه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٢).

أي: وأولئك الملائِكةُ ذَوُو خَلْقٍ حَسَنٍ شَريفٍ، وأخلاقٍ حَسَنةٍ جَميلةٍ، كثيرو الخَيرِ والطَّاعةِ والإحسانِ[(١)].

عن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَثَلُ الَّذي يَقرَأُ القُرآنَ وهو حافِظٌ له: مع السَّفَرةِ الكِرامِ البَرَرةِ، ومَثَلُ الَّذي يقرَأُ وهو يَتعاهَدُه، وهو عليه شَديدٌ؛ فلَهُ أجْرانِ))[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ فيه الحَثُّ على التَّرحيبِ بمَن يَطلبُ الهدى، والإقبالِ عليهم في مجالِسِ العِلْمِ، وقَضاءِ حوائِجِهم، وعدمِ إيثارِ الأغنياءِ عليهم[(٣)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ إلى آخرِ السِّياقِ تأديبٌ مِن اللهِ عزَّ وجَلَّ للخَلْقِ؛ أَلَّا يكونَ همُّهم همًّا شَخصيًّا، بل يكونُ همُّهم همًّا معنويًّا، وأَلَّا يُفَضِّلُوا في الدَّعوةِ إلى اللهِ شريفًا لِشَرَفِه، ولا عظيمًا لعَظَمتِه، ولا قريبًا لقُرْبِه، بل يكونُ النَّاسُ عندَهم سواءً في الدَّعوةِ إلى اللهِ؛ الفقيرُ والغنيُّ، الكبيرُ والصَّغيرُ، القَريبُ والبعيدُ[(٤)].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ * وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ * أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ * فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ هذه فائِدةٌ كبيرةٌ هي المقصودةُ مِن بَعْثةِ الرُّسُلِ، ووَعْظِ الوُعَّاظِ، وتَذكيرِ المذَكِّرينَ؛ فإقبالُك على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٢).

(٢) رواه البخاري (٤٩٣٧) واللفظ له، ومسلم (٧٩٨).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٢).

مَن جاء بنَفْسِه مُفتَقِرًا لذلك منك هو الأليقُ الواجِبُ، وأمَّا تصَدِّيك وتعَرُّضُك للغَنِيِّ المُسْتغني الَّذي لا يَسألُ ولا يَستفتي؛ لعَدَمِ رَغبته في الخَيرِ، مع ترْكِك مَن هو أهَمُّ منه- فإنَّه لا يَنبغي لك؛ فإنَّه ليس عليك ألَّا يَزَّكَّى، فلو لم يتزَكَّ فلَسْتَ بمُحاسَبٍ على ما عَمِلَه مِن الشَّرِّ؛ فدَلَّ هذا على القاعِدةِ المشهورةِ، أنَّه: «لا يُترَكُ أمرٌ مَعلومٌ لأمرٍ مَوهومٍ، ولا مصلحةٌ مُتحَقِّقةٍ لمَصلحةٍ مُتوَهَّمةٍ»، وأنَّه يَنبغي الإقبالُ على طالِبِ العِلْمِ المفتَقِرِ إليه الحَريصِ عليه؛ أَزْيَدَ مِن غَيرِه[١].

- قولُه تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ فيه مَزيدُ تَنفيرٍ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن مُصاحَبتِهم[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه يَجِبُ الاجتهادُ في تزكيةِ التَّابعِ الَّذي عُرِفَ منه القَبولُ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ تَلَطُّفُ اللهِ عزَّ وجَلَّ بمُخاطَبةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم؛ فقال سُبحانَه ثلاثَ جُمَلٍ لَمْ يُخاطِبْ فيها النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم؛ لأنَّها عِتابٌ، فلو وُجِّهَتْ إلى الرَّسولِ بالخِطابِ لَكان شَديدًا عليه، لكنْ جاءتْ بالغَيبةِ ﴿عَبَسَ﴾ وإلَّا كان مقتضى الحالِ أنْ يقولَ: «عَبَسْتَ وتَوَلَّيتَ؛ أنْ جاءك الأعمى»، ولكنَّه قال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ فجَعَلَ الحُكْمَ للغائِبِ؛ كراهيةَ أنْ يُخاطِبَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم بهذه الكَلِماتِ الغَليظةِ الشَّديدةِ، ومِن أجْلِ ألَّا يَقَعَ بمِثْلِ ذلك مَن يَقَعُ مِن هذه الأُمَّةِ، واللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥٥).

سُبحانَه وتعالى وَصَفَ كتابَه العزيزَ بأنَّه بلِسانٍ عَربيٍّ مُبينٍ، وهذا مِن بَيانِه[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ عَبَّرَ عن هذا الصَّحابيِّ الجَليلِ -الَّذي هو عبدُ اللهِ بنُ أُمِّ مَكتومٍ- بلَقَبٍ يَكرَهُه النَّاسُ، مع أنَّه قال: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾ [الحجرات: ١١]؟

الجوابُ مِن وجهينِ:

الأوَّلُ: أنَّ السِّرَّ في التَّعبيرِ عنه بلَفظِ: (الأعمَى) للإشعارِ بعُذرِه في الإقدامِ على قَطْعِ كلامِ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه لو كان يَرَى ما هو مُشْتَغِلٌ به معَ صناديدِ الكفَّارِ، لَمَا قطَع كلامَه[2].

الثَّاني: جاء لَفظُ (الأعمى)؛ إشعارًا بما يُناسِبُ مِنَ الرِّفقِ به، والصَّغْوِ لِما يَقصِدُه[3]؛ وتَرقيقًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ ليكونَ العِتابُ ملحوظًا فيه أنَّه لَمَّا كان صاحبَ ضَرارةٍ، فهو أجدَرُ بالعنايةِ به؛ لأنَّ مِثلَه يكونُ سريعًا إلى انكسارِ خاطِرِه[4].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ دَليلٌ على جوازِ أنْ يُلَقَّبَ الإنسانُ بوصْفِه؛ مِثلُ: الأعمى، والأعرَجِ، والأعمَشِ، وقد كان العلماءُ يَفعلون هذا، فيقولون: رواه الأعرجُ عن أبي هُرَيرةَ، رواه الأعمشُ... وهكذا، قال أهلُ العلمِ: واللَّقَبُ بالعَيبِ إذا كان المقصودُ به تعيينَ الشَّخصِ -حيث لا يُعرَف إلَّا به- فلا بأسَ به،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٢).
ويُنظر ما يأتي في بلاغةِ الآياتِ (ص: ٢٤٠، ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٥٢). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٤).

وأمَّا إذا كان المقصودُ به تعييرَ الشَّخصِ فإنَّه حرامٌ؛ لأنَّ الأوَّلَ: إذا كان المقصودُ به تبيينَ الشَّخصِ فإنَّه تدعو الحاجةُ إليه، والثَّاني: إذا كان المقصودُ به التَّعييرَ فإنَّه لا يُقصَدُ به التَّبيينُ، وإنَّما يُقصدُ به الشَّماتةُ(١)!

٤- قولُه تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ تَحقيرٌ لأمرِ الكافرِ، وحضٌّ على الإعراضِ عنه، وتركِ الاهتمامِ به(٢)، والمعنى: عدَمُ تَزكِّيه ليس محمولًا عليك، أي: لستَ مؤاخَذًا بعَدمِ اهتدائه حتَّى تَزيدَ مِن الحِرصِ على تَرغيبه في الإيمانِ ما لم يُكلِّفْك اللهُ به، وهذا رِفقٌ مِن اللهِ برسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٣).

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ * أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ فيه دَليلٌ لِما تقَرَّر في أُصولِ الفِقْهِ مِن جوازِ الاجتهادِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ووُقوعِه، وأنَّه جرَى على قاعدةِ: إعمالِ أرجَحِ المصلحتَينِ بحسَبِ الظَّاهِرِ(٤).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ * أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ غرَضُه تَعليمُ اللهِ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المُوازَنةَ بيْنَ مراتِبِ المصالِحِ، ووُجوبَ الاستقراءِ لخفيَّاتِها؛ كَيْلا يُفيتَ الاهتمامُ بالمهمِّ منها في بادئِ الرَّأيِ مُهِمًّا آخَرَ مُساوِيًا في الأهمِّيَّةِ أو أرجَحَ. ولذلك يقولُ علماءُ أصولِ الفقهِ: إنَّ على المجتهِدِ أنْ يَبحَثَ عن مُعارِضِ الدَّليلِ الَّذي لاحَ له(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١١١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٠٢).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أنَّ العَبدَ فاعِلٌ على الحقيقةِ، وله مَشيئةٌ ثابتةٌ، وله إرادةٌ جازمةٌ، وقوَّةٌ صالِحةٌ(١).

٨- قولُه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ فيه تَعريضٌ بأنَّ موعظةَ القُرآنِ نافعةٌ لكلِّ أحدٍ تَجرَّدَ عن العِنادِ والمُكابَرةِ، فمَن لم يَتَّعِظْ بها فلأنَّه لم يَشَأْ أنْ يَتَّعِظَ(٢)، وفيه ترغيبٌ في التَّذكرةِ، وحَثٌّ على حِفظِها(٣).

٩- قال تعالى ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾ في وصْفِهم بالسَّفَرةِ ثناءٌ عليهم؛ لأنَّهم يُبلِّغونَ القُرآنَ للنَّاسِ وهم حُفَّاظُه ووُعاتُه، فهذا معنى السَّفَرةِ، وفيه بِشارةٌ بأنَّهم سيَنشُرونَ الإسلامَ في الأُممِ(٤). وذلك على أنَّ المرادَ كُتَّابُ الوَحْيِ مِن الصحابةِ.

١٠- الغالبُ في اصطلاحِ القُرآنِ أنَّ البَرَرةَ الملائكةُ، والأبرارَ الآدَميُّونَ؛ لأنَّ (بَرَرةً) أبلَغُ مِن (أبرارٍ)؛ إذ هو جمعُ بَرٍّ، وأبرارٌ جمعُ بارٍّ -على قولٍ-، وبَرٌّ أبلَغُ مِن بارٍّ، كما أنَّ عَدْلًا أبلَغُ مِن عادلٍ(٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾

- قولُه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ افتِتاحُ هذه السُّورةِ بفِعلينِ مُتحمِّلينِ لضميرٍ لا مَعادَ له في الكلامِ تَشويقٌ لِما سيُورَدُ بعدَهما، والفِعلانِ يُشعِرانِ بأنَّ المحكيَّ حادثٌ عظيمٌ، فأمَّا الضَّمائرُ فيُبيِّنُ إبهامَها قولُه: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [عبس: ٦]،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٨، ١١٩).

(٥) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٩).

وأمَّا الحادثُ فيَتبيَّنُ مِن ذِكرِ الأعمى ومَن استَغنى[(١)].

- وحُذِف مُتعلَّقُ (تَوَلَّى)؛ لظُهورِ أنَّه تَوَلٍّ عن الَّذي مَجيئُه كان سَببَ التَّولِّي[(٢)].

- وصِيغةُ الخبرِ في قولِه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ مُستعمَلةٌ في العِتابِ على الغَفلةِ عن المقصودِ الَّذي تَضمَّنَه الخبرُ، وهو اقتِصارُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الاعتناءِ بالحِرصِ على تَبليغِ الدَّعوةِ إلى مَن يَرْجو منه قَبولَها مع الذُّهولِ عن التَّأمُّلِ فيما يُقارِنُ ذلك مِن تَعليمِ مَن يَرغَبُ في عِلمِ الدِّينِ ممَّنْ آمَنَ. ولَمَّا كان صُدورُ ذلك مِن اللهِ لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لم يَشَأِ اللهُ أنْ يُفاتِحَه بما يَتبادَرُ منه أنَّه المقصودُ بالكلامِ، فوَجَّهَه إليه على أسلوبِ الغَيبةِ؛ ليكونَ أوَّلُ ما يَقرَعُ سمْعَه باعثًا على أنْ يَترقَّبَ المَعنيَّ مِن ضميرِ الغائبِ فلا يُفاجِئَه العِتابُ، وهذا تلطُّفٌ مِن اللهِ برسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِيقَعَ العِتابُ في نفْسِه مُدَرَّجًا، وذلك أهوَنُ وقعًا[(٣)]. وقيل: التَّعرُّضُ لعُنوانِ عَماهُ؛ لزيادةِ الإنكارِ؛ كأنَّه قيلَ: توَلَّى لكَونِه أعْمى، كما أنَّ الالتفاتَ في قولِه تعالَى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ لذلكَ؛ فإنَّ المُشافَهةَ أدْخَلُ في تشديدِ العتابِ[(٤)].

وكذلِك في إسنادِ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ إلى ضَميرِ الرَّسولِ في حالِ الغَيبةِ إشعارٌ بأنَّ ذلك ممَّا لا يَليقُ بمنزلةِ مَن في صَدَدِ الرِّسالةِ، لا سيَّما أنَّه ما أُرسِلَ إلَّا رحمةً للعالَمينَ، وأنَّه لَعلى خُلُقٍ عظيمٍ؛ فكأنَّ العابسَ والمتولِّيَ غيرُه، ثمَّ الْتفَتَ يُخاطِبُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٤، ١٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٧).

قائلًا: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ تأنيبًا، أي: مِثْلُك بتلك المنزلةِ لا يَنبغي له ذلك، وكذلك في صِفةِ الأعمى؛ مِن حيثُ اعتبارُ الجِبلَّةِ النَّفْسانيَّة: مَنقصةٌ تُوجِبُ الإعراضَ والتَّولِّيَ عمَّن هو مُتَّصِفٌ بها، ومِن حيثُ مَرتبتُك مِن الخُلُقِ العظيمِ: قمْعُ النَّفْسِ، والعملُ بمُقتضى الخُلُقِ العظيمِ لا بمُقتضى شَهوةِ النَّفْسِ، أو في تلك الصِّفةِ إشعارٌ باستعمالِ التَّعطُّفِ والتَّرؤُّفِ، والتَّقريبِ والتَّرحيبِ، لا سيَّما مِن مِثلِك، وقد وصَفَك اللهُ بالخُلُقِ العظيمِ، أو في تلك الصِّفةِ مِن تمهيدِ العُذرِ، وأنَّه أَعْمى لم يَهتدِ إلى عدمِ الإقدامِ بيْنَ يدَيْك، وقطْعِ كلامِك عن كلامِ القومِ: اعتذارٌ عِندَ الكِرامِ، خُصوصًا عِندَ مِثلِك، وكنتَ للعالَمينَ بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى اللهِ بإذْنِه وسِراجًا منيرًا(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ الاستِفهامُ في هذا التَّركيبِ ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ مُرادٌ منه التَّنبيهُ على مَغفولٍ عنه، والمعنى: أيُّ شيءٍ يَجعَلُك داريًا بحالِه؟ وإنَّما يُستعمَلُ مِثلُ هذا الأسلوبِ لقَصدِ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ(٢).

- وفي قولِه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ إيماءٌ إلى عُذرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في تأخيرِه إرشادَ ابنِ أمِّ مَكْتومٍ؛ لأنَّ تركيبَ ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ يُستعمَلُ في التَّنبيهِ على أمْرٍ مَغفولٍ عنه -كما سبَقَ-، والمعنى: لعلَّه يَزَّكَّى تزكيةً عظيمةً كانتْ نفْسُه متهيِّئةً لها ساعتَئذٍ؛ إذ جاءَ مُسترشِدًا حريصًا، وهذه حالةٌ خفيَّةٌ، وكذلك عُذرُه في الحرصِ على إرشادِ المُشرِكِ بقولِه: ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٧]؛

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٥، ١٠٦).

إذ كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَخْشى تَبِعةً مِن فَواتِ إيمانِ المُشرِكِ بسببِ قطعِ المُحاوَرةِ معه، والإقبالِ على استجابةِ المؤمنِ المُسترشِدِ(١).

- وأيضًا في معْنى التَّرجِّي الَّذي يُعطيهِ ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ تَمهيدُ عُذرٍ له صلواتُ اللهِ عليه؛ جَبرًا لذلك الخِطابِ المشتمِلِ على التَّوبيخِ، يعني: أَعْذَرْناك لأنَّك حريصٌ على إسلامِ القَومِ، فأدَّى اجتهادُك إلى أنْ تُقبِلَ عليهم وتُعرِضَ عن الأعمَى، ولو دَرَيْتَ ذلك لَما فَرَطَ ذلك منك، أي: وإنْ كان خفيًّا عليك يا رسولَ اللهِ(٢).

- وقولُه: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ قيل: هو استِئنافٌ واردٌ لبَيانِ ما يُلوِّحُ به ما قبْلَه؛ فإنَّه معَ إشعارِه بأنَّ له شأنًا مُنافيًا للإعراضِ عنه خارجًا عن دِرايةِ الغيرِ وإدْرائِه مُؤْذِنٌ بأنَّه تعالى يُدْريهِ ذلكَ، أي: لعلَّه يَتطهَّرُ بما يَقتبِسُ منكَ مِن أَوضارِ الأوزارِ بالكُلِّيَّةِ، وكلمةُ (لعلَّ) مع تحقُّقِ التَّزكِّي واردةٌ على سَنَنِ الكِبْرياءِ، أو على اعتبارِ مَعْنى التَّرجِّي بالنِّسبةِ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الإعراضَ عنه عِندَ كَونِه مَرْجُوَّ التَّزكِّي ممَّا لا يجوزُ، فكيفَ إذا كان مقطوعًا بالتَّزكِّي كما في قولِك: لعلَّك ستَندَمُ على ما فعَلتَ؟ وفيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن تَصدَّى لتزكيتِهم مِن الكفَرةِ لا يُرجَى منهم التَّزكِّي والتَّذكُّرُ أصلًا(٣).

- وفي قولِه: ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ اكتِفاءٌ(٤) عن أنْ يقولَ: (فيَنفَعَه التَّزكِّي وتَنفَعَه الذِّكرى)؛ لظهورِ أنَّ كِلَيْهما نفعٌ له(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٧).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٧).

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۞ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۞ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾

- قولُه: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۞ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾، أي: مهْما يكُنِ الَّذي استَغنى فأنتَ له تَصدَّى، أو مهْما يكنْ شيءٌ فالَّذي استَغنى تَتصدَّى له، والمقصودُ: أنت تَحرِصُ على التَّصدِّي له، فجُعِل مضمونُ الجوابِ -وهو التَّصدِّي له- معلَّقًا على وجودِ مَن استَغنى، وملازِمًا له ملازَمةَ التَّعليقِ الشَّرْطيِّ على طريقةِ المبالغةِ(١).

- قولُه: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ الإتيانُ بضَميرِ المخاطَبِ مُظهَرًا قبْلَ المسنَدِ الفِعليِّ دونَ استتارِه في الفِعلِ يجوزُ أنْ يكونَ للتَّقَوِّي، كأنَّه قيل: تَتصدَّى له تصدِّيًا، فمَناطُ العِتابِ هو التَّصدِّي القويُّ. ويجوزُ أنْ يكونَ مفيدًا للاختِصاصِ، أي: فأنت لا غيرُك تَتصدَّى له، أي: ذلك التَّصدِّي لا يَليقُ بك، أي: لو تَصدَّى له غيرُك لَكان هَونًا، فأمَّا أنت فلا يَتصدَّى مِثلُك لمِثلِه، فمَناطُ العتابِ هو أنَّه وقَعَ مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في جليلِ قَدْرِه(٢).

- قولُه: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ جملةٌ معترِضةٌ بينَ جملةِ ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ [عبس: ٥] وجملةِ ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ [عبس: ٨]، والواوُ اعتراضيَّةٌ(٣).

- قولُه: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾، قيل: (ما) نافيةٌ، أي: وليسَ عليكَ بأسٌ في ألَّا يَتزكَّى بالإسلامِ حتَّى تَهتمَّ بأمرِه وتُعرِضَ عمَّن أسلَمَ. وقيلَ: (ما) استفهاميَّةٌ للإنكارِ، أيْ: أيُّ شيءٍ عليك في ألَّا يَتزكَّى؟! ومآلُه النَّفيُ أيضًا(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٨).

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ عطفٌ على جملةِ ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ [عبس: ٥]، اقتضى ذِكرَه قصْدُ المقابلةِ مع المعطوفِ عليها مقابلةَ الضِّدَّينِ؛ إتمامًا للتَّقسيم(١).

- والمرادُ بمَن جاءَ يَسْعى: هو ابنُ أمِّ مَكْتومٍ، فحصَلَ بمضمونِ هذه الجُملةِ تأكيدٌ لمضمونِ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾(٢) [عبس: ١، ٢].

- والسَّعيُ: شِدَّةُ المشيِ، كُنِّيَ به عن الحِرصِ على اللِّقاءِ، فهو مُقابِلٌ لحالِ مَن استَغنى؛ لأنَّ استغناءَه استغناءُ المُمتعِضِ مِن التَّصدِّي له(٣).

- وحُذِف مفعولُ ﴿يَخْشَىٰ﴾؛ لظهورِه؛ لأنَّ الخشيةَ في لسانِ الشَّرعِ تَنصرِفُ إلى خشيةِ اللهِ تعالى(٤).

- واختيرَ الفعلُ ﴿يَخْشَىٰ﴾ المضارِعُ؛ لإفادتِه التَّجدُّدَ(٥).

- قولُه: ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ الإتيانُ بضميرِ المخاطَبِ مُظهَرًا قبْلَ المسنَدِ الفِعليِّ دونَ استتارِه في الفِعلِ يجوزُ أنْ يكونَ للتَّقوِّي، كأنَّه قيل: تتَلهَّى عنه تلَهِّيًا، فمناطُ العِتابِ هو التَّلهِّي القَويُّ. ويجوزُ أنْ يكونَ مفيدًا للاختصاصِ، أي: فأنت لا غيرُك تَتلهَّى عنه، أي: ذلك التَّلهِّي لا يَليقُ بك، أي: لو تَلهَّى غيرُك لَكان هَونًا، فأمَّا أنت فلا يَتلهَّى مِثلُك عن مِثلِه، فمناطُ العتابِ هو أنَّه وقَعَ من النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في جليلِ قَدْرِه(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٠٨، ١٠٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٠٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٦)، ((تفسير أبي =

- وتقديمُ ﴿لَهُۥ﴾ في قولِه: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾، و﴿عَنۡهُ﴾ في قولِه: ﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾؛ للتَّعريضِ باهتمامِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بمَضمونِهما[1].

- وما وقَعَ في خِلالِ هذا العِتابِ مِن ذِكرِ حالِ المؤمنِ والكافرِ إنَّما هو إدْماجٌ[2]؛ لأنَّ في الحادثةِ فُرصةً مِن التَّنويهِ بسُمُوِّ منزلةِ المؤمنِ؛ لانطواءِ قلبِه على أشعَّةٍ تُؤهِّلُه لأنْ يَستنيرَ بها ويُفيضَها على غيرِه، جمعًا بيْنَ المعاتَبةِ والتَّعليمِ، على سَنَنِ هَدْيِ القرآنِ الكريمِ في المناسَباتِ[3].

٥- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾

- قولُه: ﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ عن المعاتَبِ عليه، أو عن مُعاوَدةِ مِثلِه؛ مِن التَّصدِّي لِمَنِ استغنى عمَّا دعاهُ إليه مِن الإيمانِ والطَّاعةِ وما يُوجِبُهما مِن القرآنِ الكريمِ،

= السعود)) (٩/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٨، ١٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٨).

(٢) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غرَضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرَضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه تعالى بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواهُ- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٤٩)، ((خِزانة الأدب)) لابن حِجَّةَ الحَمَوي (٢/ ٤٨٤)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبدالرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٤).

مُبالِغًا في الاهتمامِ بأمرِه، مُتهالِكًا على إسلامِه، مُعرِضًا بسببِ ذلكَ عن إرشادِ مَن يَسترشِدُه. وهي إبطالٌ لِما جَرَى في الكلامِ السَّابقِ ولو بالمفهومِ، كما في قولِه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٣]، ولو بالتَّعريضِ أيضًا، كما في قولِه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [عبس: ١]. ويجوزُ أنْ يَنصرِفَ الإبطالُ إلى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ خاصَّةً. ويجوزُ أنْ يكونَ تأكيدًا لقولِه: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٧]، أي: لا تظُنَّ أنَّك مسؤولٌ عن مُكابَرتِه وعِنادِه؛ فقد بلَّغتَ ما أُمِرتَ بتبليغِه[1].

- ويجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ استِئنافًا ابتدائيًّا موجَّهًا إلى مَن كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَدْعوهُ قُبيلَ نزولِ السُّورةِ ومَن معه، وكانوا لا يَستجيبونَ إلى ما دعاهُم، ولا يُصدِّقونَ بالبعثِ، فتكونَ (كَلَّا) إبطالًا لِما نعَتوا به القرآنَ مِن أنَّه أساطيرُ الأوَّلينَ أو نحو ذلك، فيكونَ ضميرُ ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ عائدًا إلى الآياتِ الَّتي قرَأَها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عليهم في ذلك المَجلِسِ، ثمَّ أُعيدَ عليها الضَّميرُ بالتَّذكيرِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المرادَ آياتُ القرآنِ الكريمِ. ويُؤيِّدُ هذا الوجهَ قولُه تعالى عَقِبَه: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧] الآياتِ، حيثُ ساقَ لهم أدِلَّةَ إثباتِ البعثِ، فكان تأنيثُ الضَّميرِ نُكتةً خصوصيَّةً؛ لتحميلِ الكلامِ هذه المَعانيَ[2].

- قولُه: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ تَعليلٌ للرَّدعِ عمَّا ذُكِرَ ببيانِ عُلُوِّ رُتبةِ القرآنِ العظيمِ الَّذي استَغنى عنه مَن تَصدَّى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لهُ، وتحقيقُ أنَّ شأنَه أنْ يكونَ موعظةً حقيقةً بالاتِّعاظِ بها، فمَن رَغِبَ فيها اتَّعَظَ بها، ومَن رَغِبَ عنها

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٥).

-كما فعَلَ المُستغني- فلا حاجةَ إلى الاهتمامِ بأمرِه[١].

- وقولُه: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ استِئنافٌ بعدَ حرفِ الإبطالِ (كلَّا)، وهو استِئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ ما تَقدَّمَ مِن العتابِ ثمَّ ما عَقِبَه مِن الإبطالِ يُثيرُ في خاطِرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الحَيرةَ في كيف يكونُ العَملُ في دَعوةِ صَناديدِ قُريشٍ إذا لم يَتفرَّغْ لهم؛ لئلَّا يَنفِروا عن التَّدبُّرِ في القرآنِ، أو يُثيرُ في نفْسِه مخافةَ أنْ يكونَ قصَّرَ في شيءٍ مِن واجبِ التَّبليغِ[٢].

- قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ الضَّميرُ الظَّاهرُ في قولِه: ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ يَجوزُ أنْ يعودَ إلى ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس: ١١]؛ لأنَّ (ماصَدَقَها)[٣] القرآنُ الَّذي كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَعرِضُه على صَناديدِ قُريشٍ قُبيلَ نزولِ هذه السُّورةِ، أي: فمَن شاءَ ذكَرَ القرآنَ وعَمِل به. ويجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ عائدًا إلى اللهِ تعالى، والذِّكرُ على كِلا الوَجهينِ: الذِّكرُ بالقلبِ، وهو تَوَخِّي الوُقوفِ عِندَ الأمرِ والنَّهيِ. والَّذي اقتَضى الإتيانَ بالضَّميرِ وكَوْنَه ضميرَ مُذكَّرٍ مُراعاةُ الفواصلِ، وهي: ﴿تَذْكِرَةٌ﴾، ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾، ﴿سَفَرَةٍ﴾، ﴿بَرَرَةٍ﴾[٤].

- وجُملةُ ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ قولِه: ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس: ١١] وقولِه:

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٤، ١١٥).

(٣) الماصَدَق: اسمٌ صِناعيٌّ مأخوذٌ في الأصلِ مِن كَلِمةِ (ما) الاستِفهاميَّةِ أو المَوصوليَّةِ، وكَلِمةِ (صَدَق) الَّتي هي فِعلٌ ماضٍ مِنَ الصِّدقِ، كأنْ يُقالَ مَثَلًا: على ماذا صَدَق هذا اللَّفظُ؟ فيُقالُ في الجوابِ: صدَقَ على كذا أو كذا؛ فاشتَقُّوا مِن ذلك أو نَحَتوا كَلِمةَ (ماصَدَق)، والمرادُ: الفَردُ أو الأفرادُ الَّتي يَنطَبِقُ عليها اللَّفظُ، أو: الأفرادُ الَّتي يَتحَقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ. يُنظر: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٥، ١١٦).

﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ [عبس: ١٣]، تَتضمَّنُ الوَعدَ والوعيدَ(١)، والفاءُ لتفريعِ مضمونِ الجملةِ على جملةِ ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس: ١١]، والفاءُ مِن جملةِ الاعتراضِ(٢).

- وأيضًا قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ استطرادٌ، وبيانُه: أنَّه لَمَّا خاطَبَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بذلك الخِطابِ الهائلِ، قيل: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾، أي: إنَّ تلك المُعاتَبةَ -على قولٍ- موعظةٌ للسَّامعينَ؛ فإنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بجلالتِه إذا عُوتِبَ بذلك الخِطابِ الفظيعِ لذلك التَّصدِّي والتَّلهِّي، فما بالُ غيرِه؟! وإذا كان كذلك، فتَذكَّرْها أيُّها السَّامعُ. وكان مِن الظَّاهِرِ أنْ يُؤخَّرَ قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ عن وصفِ التَّذكرةِ، فقُدِّمَ؛ لشِدَّةِ العنايةِ بها، ولِعِظَمِ الحادثةِ عظَّمَ الكُتُبَ، ووصَفَها بتلك الأوصافِ العظيمةِ، ثمَّ قيل: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، فجمَعَ في ألفاظٍ قليلةٍ معانيَ كثيرةً، ثمَّ فصَّلَ بقولِه: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [عبس: ١٨] إلى آخِرِه(٣).

٦- قولُه تعالَى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ﴾

- قولُه: ﴿فِي صُحُفٍ﴾ متعلِّقٌ بمُضمَرٍ هو صِفةٌ لـ(تذكرةٌ)، أي: كائنةٌ في صُحُفٍ مُنتسَخةٍ مِن اللَّوحِ، أو خبرٌ ثانٍ لـ(إنَّ)(٤).

٧- قولُه تعالَى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾

- لكلمةِ ﴿سَفَرَةٍ﴾ الوَقعُ العَظيمُ المُعجِزُ في هذا المَقامِ؛ فيجوزُ أنْ تكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٩٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٩).

جمعَ سافِرٍ، مِثلَ كاتِبٍ وكَتَبةٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ اسمَ جمْعِ سَفيرٍ، وهو المرسَلُ في أمرٍ مهمٍّ، فهو فعيلٌ بمعنى فاعِلٍ[١].

- قولُه: ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ البَرَرةُ: جمعُ بَرٍّ، وهو الموصوفُ بكَثرةِ البِرِّ؛ فهذا مِن بابِ الوَصْفِ بالمصدرِ، وقد اختُصَّ البَرَرةُ بجمْعِ بَرٍّ، ولا يكونُ جمْعَ بارٍّ[٢].

- وفي الآياتِ السَّابقةِ تَنويهٌ بشأنِ القُرآنِ؛ لأنَّ التَّنويهَ بالآياتِ الواردةِ في أوَّلِ هذه السُّورةِ مِن حيثُ إنَّها بعضُ القُرآنِ، فأُثنِيَ على القُرآنِ بفضيلةِ أثرِه في التَّذكيرِ والإرشادِ، وبرِفعةِ مَكانتِه، وقُدسِ مَصدرِه، وكَرَمِ قَرارِه وطَهارتِه، وفَضائلِ حمَلَتِه ومُبلِّغيه؛ فإنَّ تلك المدائحَ عائدةٌ إلى القُرآنِ بطريقِ الكِنايةِ[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٧ - ١١٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١١٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٧-٣٢)

﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نُطْفَةٍ﴾: النُّطفةُ: الماءُ الصَّافي، ويُعَبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُلِ والمرأةِ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[1].

﴿أَنْشَرَهُ﴾: أي: أحياه وبعَثَه، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتشَعُّبِه[2].

﴿وَقَضْبًا﴾: القَضْبُ: هو العَلَفُ الرَّطْبُ الَّذي تأكُلُه الدَّوابُّ، وسُمِّيَ قَضْبًا؛ لأنَّه يُقضَبُ -أي: يُقطَعُ- بعدَ ظُهورِه مرَّةً بعدَ أُخرى، وقيل: هو كُلُّ ما يُؤكَلُ مِنَ النَّباتِ رَطْبًا، كالقِثَّاءِ والخِيارِ ونَحوِهما، وأصلُ (قضب): يدُلُّ على قَطعِ شَيءٍ[3].

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٨).

﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾: أي: بساتينَ عظيمةً غِلاظَ الأَشْجارِ، مُتكاثِفًا مُلْتَفًّا شَجَرُها بَعضُه في بَعضٍ، والغُلْبُ جمعُ غَلْباءَ. يُقالُ: حَديقةٌ غَلْباءُ: إذا كانت عَظيمةَ الشَّجَرِ مُلتَفَّةً، وأصلُها مِنَ الغَلَبِ بمعنى الغِلَظِ، يقال: غَلِبَ فُلانٌ، أي: غَلُظَ عُنُقُه، ويُقالُ: اغْلَوْلَبَت الأرضُ: إذا التفَّ عُشْبُها وتكاثَفَ[١].

﴿وَأَبًّا﴾: الأَبُّ: اسمٌ للكَلَأِ والعُشْبِ الَّذي تَرْعاه الأنعامُ، مأخوذٌ مِن أبَّ فُلانٌ الشَّيءَ: إذا قَصَده واتَّجه نَحْوَه، والكَلأُ والعُشْبُ يتَّجِهُ إليه الإنسانُ بدَوابِّه للرَّعْيِ. وقيل: الأَبُّ: المَرْعى المتهَيِّئُ للرَّعْيِ، مِن قَولِهم: أَبَّ لكذا، أي: تهيَّأَ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾

المَصدَرُ المؤَوَّلُ ﴿أَنَّا صَبَبْنَا﴾ في محلِّ جَرٍّ بدَلُ اشتمالٍ مِن ﴿طَعَامِهِۦٓ﴾؛ فإنَّ صَبَّ الماءِ لكَونِه مِن أسبابِ تكَوُّنِ الطَّعامِ كالمُشتَمِلِ عليه، والعائِدُ محذوفٌ، أي: صَبَبْنا له[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن نِعَمِه على خَلقِه، وموقفهم منها، فيقولُ: أُهلِكَ الإنسانُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٧٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٩٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٤٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٢٤٨).

فما أشَدَّ كُفْرَه باللهِ الَّذي خَلَقَه!

مِنْ أيِّ شَيءٍ خَلَقَ اللهُ الإنسانَ؟ خَلَقَه اللهُ مِن ماءٍ قَليلٍ -وهو المَنيُّ- فقدَّره في بَطْنِ أُمِّه أحوالًا وأطوارًا في الخَلْقِ، وهَيَّأه لِما يَصلُحُ له مِنَ الأعضاءِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ والأشكالِ، ثمَّ سهَّل اللهُ له طَريقَ الخُروجِ مِن بَطْنِ أُمِّه، وطريقَ الخيرِ والشَّرِّ، ثمَّ قَبَض اللهُ رُوحَه عِندَ انقِضاءِ أجَلِه، وجَعَل له قَبْرًا يُوارَى فيه بَدَنُه؛ إكرامًا له، ثُمَّ إذا شاء اللهُ بَعَثَ الإنسانَ بعْدَ مَوتِه، وأحياه يومَ القيامةِ؛ لِيُجازِيَه على أعمالِه.

ثمَّ يَزجُرُ اللهُ سُبحانَه الإنسانَ لتقصيرِه، فيقولُ: كَلَّا، لم يَقُمِ الإنسانُ بكُلِّ ما فَرَض اللهُ عليه!

ثمَّ يذكُرُ سُبحانَه جانبًا مِن نِعَمِه، وكيف هيَّأ للإنسانِ طَعامَه، فيقولُ: فلْيَنظُرِ الإنسانُ إلى طَعامِه مُتفكِّرًا في أسبابِ حُصولِه؛ أنَّا أنزَلْنا ماءَ المطَرِ مِنَ السَّحابِ، ثمَّ شَقَقْنا الأرضَ بخُروجِ النَّباتِ، فأنبَتْنا فيها أنواعَ الحُبوبِ، والعِنَبَ، وأنبَتْنا قتًّا رطبًا تُعْلَفُ به البهائمُ، وأنبَتْنا الزَّيتونَ، وأشجارَ النَّخيلِ، وبَساتينَ ذاتَ أشجارٍ غَليظةٍ عَظيمةٍ، وأنواعَ الفَواكِهِ، والعُشْبَ الَّذي تأكُلُه الأنعامُ؛ مَنفَعةً لكم -أيُّها النَّاسُ- ولأنعامِكم، تتمَتَّعونَ بها في الحياةِ الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَبَّه اللهُ تعالى على عُلُوِّ القُرآنِ المكتوبِ، وجَلالةِ مِقدارِه، وعَظَمةِ آثارِه، وظُهورِ ذلك لِمَن تدَبَّرَه وتأمَّلَه حَقَّ تأمُّلِه؛ عَقَّبَه بقَولِه ناعيًا على مَن لم يُقبِلْ

بكُلِّيَّتِه عليه، داعيًا بأعظَمِ شدائدِ الدُّنيا -الَّتي هي القَتلُ- في صيغةِ الخَبَرِ؛ لأنَّه أبلَغُ[(١)]:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

أي: أُهلِكَ الإنسانُ، فما أشَدَّ كُفْرَه باللهِ الَّذي خَلَقَه[(٢)]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٧، ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢١).

قال ابن جُزَي: (﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ دعاءٌ عليه، على ما جَرَت به عادةُ العَرَبِ مِنَ الدُّعاءِ بهذا اللَّفظِ، ومعناه تقبيحُ حالِه، وأنَّه ممَّن يَستَحِقُّ أن يُقالَ له ذلك. وقيل: معناه: لُعِنَ. وهذا بعيدٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٣).

قال الرازي: (وليس المرادُ مِن الإنسانِ هاهنا جميعَ النَّاسِ، بل الإنسانُ الكافرُ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٨).

وقال ابنُ جرير: (في قَولِه: ﴿أَكْفَرَهُۥ﴾ وجهانِ؛ أحدُهما: التَّعَجُّبُ مِن كُفْرِه مع إحسانِ اللهِ إليه، وأياديه عِندَه. والآخَرُ: ما الَّذي أكفَرَه؟ أيْ: أيُّ شَيءٍ أكفَرَه؟). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٠).

وممَّن ذهب إلى أنَّه تعَجُّبٌ: الواحديُّ، والقرطبي، والبيضاوي، والخازن، وأبو حيان، والبِقاعي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢١).

ممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤١٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّه استفهامٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ومكِّيُّ بنُ أبي طالبٍ، والكرمانيُّ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٩١)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٨٠٥٩)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣٠٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٩٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦].

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨)﴾.

أي: ما الشَّيءُ الَّذي خَلَق اللهُ الإنسانَ منه[(١)]؟

كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٥ - ٨].

﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩)﴾.

أي: خَلَق اللهُ الإنسانَ مِن ماءٍ قَليلٍ -وهو المَنيُّ- فقدَّره في بَطْنِ أُمِّه أحوالًا وأطوارًا في الخَلْقِ؛ نُطفةً، ثمَّ عَلَقةً، ثمَّ مُضْغةً، إلى أنْ تَمَّ خَلْقُه، وهَيَّأه لِما يَصلُحُ له، ويَليقُ به مِنَ الأعضاءِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ والأشكالِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: مِن أيِّ شَيءٍ خَلَقَ الإنسانَ الكافِرَ رَبُّه، حتَّى يتكَبَّرَ ويتعَظَّمَ عن طاعةِ رَبِّه، والإقرارِ بتوحيدِه؟). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١١).

وقال السمعاني: (معناه: أفلَا يتفكَّرُ هذا الكافِرُ مِن أيِّ شَيءٍ خَلَقَه اللهُ تعالى؟!). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٥٩).

وقال السعدي: (قال تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ لِنعمةِ اللهِ! وما أشَدَّ مُعاندَتَه للحَقِّ بعدَ ما تبَيَّنَ! وهو ما هو؟! هو مِن أضعَفِ الأشياءِ، خَلَقَه اللهُ مِن ماءٍ مَهينٍ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٠، ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٥).

قال البيضاوي: (﴿فَقَدَّرَهُ﴾: فهيَّأه لِما يَصلُحُ له مِنَ الأعضاءِ والأشكالِ، أو: فَقَدَّرَه أطوارًا =

كما قال سبحانَه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

وعن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: حَدَّثَنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو الصَّادِقُ المصدوقُ، قال: ((إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطْنِ أُمِّه أربعينَ يومًا، ثمَّ يكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يكونُ مُضغةً مِثْلَ ذلك، ثمَّ يَبعَثُ اللهُ مَلَكًا، فيُؤمَرُ بأَربَعِ كَلِماتٍ، ويُقالُ له: اكتُبْ عَمَلَه، ورِزْقَه، وأجَلَه، وشَقِيٌّ أو سَعيدٌ، ثمَّ يُنفَخُ فيه الرُّوحُ))[1].

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾.

أي: ثمَّ سهَّل اللهُ للإنسانِ طَريقَ الخُروجِ مِن بَطْنِ أُمِّه، وطريقَ الخيرِ والشَّرِّ[2].

= إلى أنْ أتَمَّ خلقتَه). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧).

وقال البقاعي: (﴿فَقَدَّرَهُ﴾ أي: هَيَّأه لِما يَصلُحُ له مِنَ الأعضاءِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ والأشكالِ والأطوارِ، إلى أن صَلَح لذلك، ثمَّ جَعَله في ظُلُماتٍ ثلاثٍ: ظُلمةِ البَطنِ، ثمَّ الرَّحِمِ، ثمَّ المَشيمةِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٦٠، ٢٦١).

وقال المهدوي: (﴿فَقَدَّرَهُ﴾: يعني: قدَّره شقيًّا أو سعيدًا، وقيل: حسنًا أو قبيحًا، ونحوه. وقيل: نقله من حال إلى حال؛ نطفة ثم علقة، إلى أن تمَّ خلقُه). ((التحصيل لفوائد كتاب التفصيل)) (٧/ ٣٢).

وقال ابن كثير: (﴿فَقَدَّرَهُ﴾ أيْ: قَدَّر أجَلَه ورِزْقَه وعملَه، وشَقِيٌّ أوْ سَعيدٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٢).

(١) رواه البخاري (٣٢٠٨) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١١، ١١٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦١). =

= قال السمعاني: (قَولُه: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ أكثَرُ أهلِ التَّفسيرِ على أنَّ المُرادَ منه هو الخُروجُ مِن الرَّحِمِ. وقيل مَعْناه: يسَّرَ له سبيلَ الخَيرِ. وقيل: بَيَّنَ له سَبيلَ الشَّقاوةِ والسَّعادةِ. قاله مُجاهِدٌ. والَّذي تقدَّمَه قَولُ الحسَنِ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٥٩).

وممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، وابن جُزَي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٣٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٧٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٣).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ، وأبو صالِحٍ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٢).

وذكر ابنُ جَريرٍ أنَّ هذا القَولَ أشبَهُ بظاهِرِ الآيةِ؛ وذلك أنَّ الخبَرَ مِن الله قَبْلَها وبَعْدَها عن صِفةِ خَلْقِه، وتدبيرِه جِسْمَه، وتصريفِه إيَّاه في الأحوالِ، فالأَولى أن يكونَ أوسَطُ ذلك نظيرَ ما قَبْلَه وبَعْدَه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: يسَّر له طريقَ الخَيرِ والشَّرِّ: ابنُ كثير، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ من السَّلفِ: مجاهدٌ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١١).

وممَّن جمَع بيْن القولَين: البقاعي، وابنُ عثيمين:

قال ابن عثيمين: (﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ السَّبيلُ هنا بمعنَى الطَّريقِ، يعني: يسَّر له الطَّريقَ ليخرجَ مِن بَطنِ أُمِّه إلى عالَمِ المُشاهَدةِ، ويسَّر له أيضًا بعدَ ذلك ما ذكره تعالى في قولِه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

يسَّر له ثَدْيَيْ أمِّه يتغذَّى بهما، ويسَّر له بعدَ ذلك ما فتَح له مِن خزائنِ الرِّزقِ، ويسَّر له فوقَ هذا كلِّه وما هو أهَمُّ، وهو طريقُ الهُدى والفَلاحِ، وذلك بما أرسل إليه مِن الرِّسالاتِ، وأنزَل عليه مِن الكُتبِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٥).

وقال البقاعي: (﴿يَسَّرَهُۥ﴾ أي: سهَّل له أمْرَه في خروجِه، بأن فتَح فَمَ الرَّحِمِ، وألهَمَه أن يَنتكِسَ، وذلَّل له سبيلَ الخَيرِ والشَّرِّ، وجعَل له عقلًا يَقودُه إلى ما يسَّر له منهما). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٦١).

وقال السعدي: (﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ أي: يسَّر له الأسبابَ الدِّينيَّةَ والدُّنيويَّةَ، وهداه السَّبيلَ [وبيَّنه] وامتَحَنه بالأمرِ والنَّهيِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١).

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ۝٢١﴾.

أي: ثمَّ قَبَض اللهُ رُوحَ الإنسانِ عِندَ انقِضاءِ أجَلِه، وجَعَل له قَبْرًا يُوارَى فيه بَدَنُه؛ إكرامًا له[1].

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢﴾.

أي: ثُمَّ إذا شاء اللهُ بَعَثَ الإنسانَ بعْدَ مَوتِه، وأحياه يومَ القيامةِ؛ لِيُجازِيَه على أعمالِه[2].

﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ الإنسانُ مِن أنَّه قد أدَّى جميعَ ما أوجَبَ اللهُ عليه؛ فلم يَقُمِ الإنسانُ بكُلِّ ما فَرَض اللهُ عليه؛ من العَمَلِ بطاعتِه، واجتِنابِ مَعصِيَتِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١).

قال ابنُ الجوزي: (هل هذا عامٌّ أم خاصٌّ؟ فيه قولان:

أحَدُهما: أنَّه عامٌّ. قال مجاهِدٌ: لا يَقْضي أحدٌ أبدًا كُلَّ ما افتَرَض اللهُ عليه.

والثَّاني: أنَّه خاصٌّ للكافِرِ، لم يَقْضِ ما أُمِرَ به مِن الإيمانِ والطَّاعةِ. وقاله يحيى بنُ سَلَّامٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠٢).

وممَّن ذهب إلى القَولِ الأوَّلِ -أنَّه عامٌّ، وأنَّ المعنى أنَّه لا يَخلو إنسانٌ مِن تقصيرٍ-: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٣).

قال ابن كثير: (عن مجاهدٍ قوله: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ قال: لا يقضي أحدٌ أبدًا كلَّ ما افترُض =

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ عادةَ اللهِ تعالى جاريةٌ في القُرآنِ بأنَّه كُلَّما ذَكَر الدَّلائِلَ الموجودةَ في الأنفُسِ فإنَّه يَذكُرُ عَقِبَها الدَّلائِلَ الموجودةَ في الآفاقِ، فجَرى هاهنا على تلك العادةِ، وذَكَر دلائِلَ الآفاقِ، وبدأ بما يحتاجُ الإنسانُ إليه[1].

وأيضًا لَمَّا عَدَّد تعالى نِعَمَه في نفْسِ الإنسانِ، ذَكَر النِّعَمَ فيما به قِوامُ حياتِه، وأمَرَه بالنَّظَرِ إلى طعامِه، وكيفيَّاتِ الأحوالِ الَّتي اعتوَرَت على طعامِه، حتَّى صار بصدَدِ أن يَطعَمَ[2].

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾.

= عليه. وحكاه البَغَويُّ عن الحسَنِ البصريِّ بنحوٍ من هذا. ولم أجِدْ للمتقدِّمينَ فيه كلامًا سِوى هذا). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٣). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١١).

وممَّن ذهب إلى القَولِ الثَّاني: ابنُ جرير، والواحديُّ، والنسفي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٧٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٠٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٥).

وقيل: المرادُ: أنَّ اللهَ تعالى لم يَقْضِ ما أمَرَ به كَونًا وقَدَرًا، فهو سُبحانَه لا يَبعَثُ العِبادَ الآنَ حتَّى تَنقَضِيَ المدَّةُ الَّتي قدَّرَها، ويَفرُغَ القَدَرُ مِن بني آدَمَ مِمَّن كَتَب تعالى وُجودَهم وخُروجَهم إلى الدُّنيا، فإذا اكتَمَل ذلك بَعَث اللهُ الخلائِقَ وأعادهم كما بدَأَهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٦).

قال ابنُ عثيمين: (وفي هذا رَدٌّ على المكَذِّبينَ بالبَعْثِ الَّذين يقولونَ: لو كان البَعثُ حَقًّا لوَجَدْنا آباءَنا الآنَ، وهذا القَولُ منهم تحَدٍّ مَكذوبٌ؛ لأنَّ الرُّسُلَ لم تَقُلْ لهم: إنَّكم تُبعَثونَ الآنَ، ولكِنَّهم قالوا لهم: إنَّكم تُبعَثونَ جَميعًا بعْدَ أن تَموتوا جميعًا). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٩).

أي: فلْيَنظُرِ الإنسانُ إلى طَعامِه مُتَفَكِّرًا في كيفيَّةِ خَلْقِه، وتيسيرِ أسبابِ حُصولِه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٦٧].

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المقصودُ النَّظَرَ إلى صنائِعِ اللهِ تعالى في الطَّعامِ، وكانت أفعالُ الإنسانِ وأقوالُه في تكذيبِه بالبَعثِ أفعالَ مَن يُنكِرُ ذلك الصُّنعَ؛ قال سُبحانَه مُفَصِّلًا لِمَا يَشتَرِكُ في عِلْمِه الخاصُّ والعامُّ مِن صنائِعِه في الطَّعامِ، مؤكِّدًا؛ تنبيهًا على أنَّ التَّكذيبَ بالبَعثِ يَستلزِمُ التَّكذيبَ بإبداعِ النَّباتِ وإعادتِه، وذلك في أسلوبٍ مُبينٍ أنَّ الإنسانَ مُحتاجٌ إلى جميعِ ما في الوُجودِ، ولو نَقَص منه شيءٌ اختَلَّ أمْرُه، وبدأ أوَّلًا بالسَّماويِّ؛ لأنَّه أشرَفُ، وبالماءِ الَّذي هو حياةُ كُلِّ شَيءٍ؛ تنبيهًا له على ابتداءِ خَلْقِه[(٢)]:

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥)﴾.

أي: أنَّا أنزَلْنا ماءَ المطَرِ مِنَ السَّحابِ إنزالًا كَثيرًا[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: ١٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٩، ١٣٠).
قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: فلْيَنظُرْ هذا الإنسانُ الكافِرُ المنكِرُ توحيدَ اللهِ إلى طعامِه كيفَ دبَّرَه؟). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٧).

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦﴾.

أي: ثمَّ شَقَقْنا الأرضَ بخُروجِ النَّباتِ(١).

﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧﴾.

أي: فأنبَتْنا في الأرضِ أنواعَ الحُبوبِ؛ كالقَمحِ، والشَّعيرِ، والذُّرَةِ، والأَرُزِّ، وغَيرِ ذلك(٢).

﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨﴾.

أي: وأنبَتْنا فيها العِنَبَ، وأنبَتْنا فيها قتًّا رطبًا تُعْلَفُ به البهائمُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٧).
قيل: المرادُ: شَقَقْناها بالنَّباتِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والبِقاعي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٥).
وقال ابنُ عاشور: (المرادُ هنا: شَقُّ سَطحِ الأرضِ بخَرْقِ الماءِ فيه، أو بآلةٍ كالمِحْراثِ والمِسْحاةِ، أو بقُوَّةِ حَرِّ الشَّمسِ في زمَنِ الصَّيفِ؛ لتتهَيَّأَ لقَبولِ الأمطارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣١).
ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٣، ٣٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٤).
ممن اختار المعنى المذكور للقضب: ابن قتيبة، والفراء، وابن جرير، والزجاج، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والرسعني، وابن كثير، والعليمي، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور.
يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٤)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٨٩)، ((تفسير =

﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ ﴾.

أي: وأنبَتْنا في الأرضِ الزَّيتونَ، وأشجارَ النَّخيلِ[1].

﴿ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

أي: وأنبَتْنا في الأرضِ بَساتينَ ذاتَ أشجارٍ غَليظةٍ عَظيمةٍ[2].

﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ﴾.

أي: وأنبَتْنا في الأرضِ أنواعَ الفَواكِهِ الَّتي يأكُلُها النَّاسُ؛ مِن ثِمارِ الأشجارِ، وأنبَتْنا

= الشوكاني)) (٥/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣١).

قال الشوكاني: (والقَضْبُ: هو القَتُّ الرَّطْبُ الَّذي يقضبُ مَرَّةً بعدَ أُخرَى تُعْلَفُ به الدَّوابُّ، ولهذا سُمِّي قَضْبًا على مصدَرِ قَضَبَه، أيْ: قَطَعه كأنَّه لِتَكَرُّرِ قَطْعِها نفسَ القطْعِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٦). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٤).

قال ابن كثير: (والقضبُ هو: الفصفصةُ التي تأكلُها الدوابُّ رطبةً. ويقالُ لها: القتُّ أيضًا قال ذلك ابنُ عباسٍ، وقتادةُ، والضحَّاكُ. والسُّدي. وقال الحسنُ البصري: القضبُ: العلفُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٤).

وقيل: هو كُلُّ ما يُقطَعُ مِنَ النَّباتِ؛ لِيَأكُلَه ابنُ آدَمَ غَضًّا طَرِيًّا؛ كالبُقولِ وغَيرِها. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ عطيَّة، والبِقاعيُّ، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤١٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٤).

قال الثعلبي: (﴿ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴾ غِلاظَ الأشجارِ، واحدُها أغلَبُ، ومنه قيل لغَليظِ الرَّقبةِ: أغلَبُ. وقال مجاهدٌ: مُلتَفَّةً. ابنُ عبَّاسٍ: طِوالًا. قَتادةُ: الغُلْبُ: النَّخلُ الكِرامُ. عِكْرِمةُ: عِظامَ الأوساطِ. ابنُ زَيدٍ: عِظامَ الجُذوعِ والرِّقابِ). ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٣٣). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٨).

فيها العُشْبَ والكَلَأَ مِمَّا تأكُلُه الأنعامُ[(١)].

﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾.

أي: أنبَتَ اللهُ ذلك كُلَّه؛ مَنفَعةً لكم -أيُّها النَّاسُ- ولأنعامِكم مِنَ الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ، تتمَتَّعونَ بها في الحياةِ الدُّنيا[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [البقرة: ٣٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٢، ١٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٧).

قال ابن جُزَي: (﴿وَأَبّٗا﴾ الأبُّ: المَرْعَى عندَ ابنِ عبَّاسٍ والجمهورِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٤).

وقال الرَّسْعَني: (﴿وَأَبّٗا﴾ ما تأكُلُه الأنعامُ. وهذا قولُ عامَّةِ المفسِّرينَ واللُّغَويِّينَ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٩٥).

وقال ابن الجوزي: (﴿وَأَبّٗا﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه ما تَرْعاه البهائمُ. قاله ابنُ عبَّاس، وعِكْرِمةُ، واللُّغَويُّونَ. قال الزَّجَّاجُ: هو جميعُ الكَلَأِ الَّذي تَعتَلِفُه الماشيةُ. والثَّاني: أنَّه الثِّمارُ الرَّطبةُ، رواه الوالِبيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠٣). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٨٦).

وقيل: هو كلُّ نباتٍ سِوى الفاكهةِ. وقيل: هو التِّبنُ خاصَّةً. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٣٢).

وقد توقَّف في تفسيرِه عُمَرُ رضي الله عنه؛ فعن أنَسٍ قال: (قرأ عُمرُ بنُ الخطَّابِ رضىَ الله عنه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، فلمَّا أتى على هذه الآية: ﴿وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا﴾ قال: قد عرَفْنا الفاكهةَ، فما الأبُّ؟ قال: لَعَمْرُكَ يا ابنَ الخطَّابِ، إنَّ هذا لَهُو التَّكلُّفُ). أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (٢٤/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٥).

أنَّه لو فَكَّرَ الإنسانُ في نفْسِه لَزَجَرَه ما يَعلَمُ مِن عجائبِ خَلْقِها عن كُفْرِه[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ الَّتي خلقَها اللهُ وسَخَّرَها لكم، فمَن نظَرَ في هذه النِّعَمِ أوجَبَ له ذلك شُكْرَ رَبِّه، وبَذْلَ الجُهدِ في الإنابةِ إليه، والإقبالِ على طاعتِه، والتَّصديقِ بأخبارِه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾، ولم يَقُلْ: (فقَبَرَه)؛ لأنَّ القابرَ هو الدَّافِنُ بيَدِه، والمُقْبِرُ هو اللهُ تعالى؛ يقالُ: قَبَرَ الميِّتَ: إذا دَفَنَه، وأقبَرَ الميِّتَ: إذا أمَرَ غَيْرَه بأن يَجعَلَه في القَبْرِ، والعَرَبُ تقولُ: بَتَرْتُ ذَنَبَ البَعيرِ، واللهُ أبتَرَه، وعَضَبْتُ قَرْنَ الثَّورِ، واللهُ أعضَبَه، وطَرَدْتُ فُلانًا عنِّي، واللهُ أَطْرَدَه، أي: صَيَّرَه طَرِيدًا[٣]، فأُسنِدَ الإقبارُ إلى اللهِ؛ لأنَّه ألهَمَ النَّاسَ إيَّاه، وأكَّدَ ذلك بما أمَرَ في شرائعِه مِن وُجوبِ دفنِ الميِّتِ[٤].

٢- قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ في الآيةِ دَليلٌ على أنَّ وُجوبَ دَفْنِ أمواتِ النَّاسِ بالإقبارِ دونَ الحَرْقِ بالنَّارِ، كما يَفعَلُ مَجوسُ الهِندِ، ودونَ الإلقاءِ لِسباعِ الطَّيرِ في ساحاتٍ في الجِبالِ مَحُوطةٍ بجُدْرانٍ دُونَ سَقفٍ، كما كان يَفعَلُه مَجوسُ الفُرْسِ، وكما كان يَفعَلُه أهلُ الجاهِليَّةِ بموتى الحُروبِ والغاراتِ في الفيافي؛ إذْ لا يُوارونَهم بالتُّرابِ، وكانوا يَفتَخِرونَ بذلك ويتمَنَّونَه[٥].

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٨٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٨). ويُنظر أيضًا: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٨٦)، ((إصلاح المنطق)) لابن السِّكِّيت (ص: ١٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٥). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٨١).

٣- قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ مِن نِعمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى أنْ شَرَعَ لعبادِه هذا الدَّفنَ؛ فإنَّ معنى: ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾ أي: جَعَلَه في قَبْرٍ، أي: مَدفونًا؛ سَترًا عليه، وإكرامًا؛ لأنَّ البشرَ لو كانوا إذا ماتوا كسائرِ الميتاتِ: جُثَثًا تُرمَى، لَكان في ذلك إهانةٌ عَظيمةٌ للمَيِّتِ ولأهلِ الميِّتِ[١]، وأيضًا فإكرامُهم أمواتًا بالدَّفنِ؛ لئلَّا يكونَ الإنسانُ كالشَّيءِ اللَّقَى -أي: المُلْقى لِهَوانِه- يَجتنِبُ بنو جنسِه القُربَ منه، ويُهينُه الْتِقامُ السِّباعِ وتمزيقُ مَخالِبِ الطَّيرِ والكلابِ، فمَحَلُّ المِنَّةِ في قولِه: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾ هو فيما فُرِّع عليه بالفاءِ بقولِه: ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾، وليستِ الإماتةُ وحْدَها مِنَّةً[٢].

٤- قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ في تَعليقِ الإنشارِ بمشيئتِه تعالَى إيذانٌ بأنَّ وقتَه غيرُ متعيِّنٍ، بل هو تابعٌ لها[٣].

٥- في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ رَدٌّ لشُبهةِ الكافِرينَ؛ إذ كانوا يطلُبونَ تعجيلَ البعثِ تحدِّيًا وتهكُّمًا؛ لِيَجعَلوا عدمَ الاستجابةِ بتعجيلِه دليلًا على أنَّه لا يكونُ، فأعلَمَهم اللهُ أنَّه يقَعُ عندَما يَشاءُ اللهُ وُقوعَه، لا في الوقتِ الَّذي يَسألونَه؛ لأنَّه مَوكولٌ إلى حِكمةِ اللهِ تعالى، واستفادةُ إبطالِ قولِهم مِن طريقِ الكِنايةِ[٤].

٦- قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾، تعديةُ فِعلِ النَّظرِ هنا بحرفِ (إلى) تدُلُّ على أنَّه مِن نظَرِ العَينِ؛ إشارةً إلى أنَّ العِبرةَ تحصُلُ بمجرَّدِ النَّظرِ في أطوارِه، والمقصودُ التَّدبُّرُ فيما يُشاهِدُه الإنسانُ مِن أحوالِ طعامِه بالاستدلالِ بها على إيجادِ الموجوداتِ مِن الأرضِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٢٩).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۞ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ جَعَل سُبحانَه نَظَرَ الإنسانِ في إخراجِ طعامِه مِن الأرضِ دليلًا على إخراجِه هو منها بعدَ مَوتِه؛ استِدلالًا بالنَّظيرِ على النَّظيرِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ إثباتُ الحِكَمِ والغاياتِ الَّتي جَعَلَها سُبحانَه في خَلْقِه وأمْرِه[٢].

٩- قَولُه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ...﴾ فيه امتِنانٌ، وفيه استِدلالٌ بإحياءِ النَّباتِ مِنَ الأرضِ الهامِدةِ على إحياءِ الأجسامِ بَعْدَما كانت عِظامًا باليةً، وتُرابًا مُتمَزِّقًا[٣].

١٠- قال تعالَى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ...﴾ بَعْدَما بَيَّنَ مِمَّ خُلِقَ الإنسانُ بيَّنَ هنا كيف يُطعِمُه، وفي كِلَيْهما آيةٌ على القُدرةِ، وقد اتَّفَقت الآيتانِ على خُطُواتٍ ثلاثٍ مُتطابِقةٍ فيهما؛ فصَبُّ الماءِ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ يُقابِلُ دَفْقَ الماءِ في الرَّحِمِ، وشَقُّ الأرضِ للنَّباتِ يُقابِلُ خُروجَه إلى الدُّنيا، وإنباتُ أنواعِ النَّباتاتِ يُقابِلُ تقاديرَ الخَلْقِ المختَلِفةَ، وفي التَّنصيصِ على أنواعِ النَّباتِ مِن: حَبٍّ، وقَضْبٍ، وعِنَبٍ، ورُمَّانٍ، وزَيتونٍ، ونخيلٍ، وفواكِهَ مُتعَدِّدةٍ، وحدائِقَ مُلْتفَّةٍ؛ لظُهورِ معنى المغايَرةِ فيها، مع أنَّها مِن أصلَينِ مُشتَركينِ: الماءِ مِنَ السَّماءِ، والتُّربةِ في الأرضِ، يُسقى بماءٍ واحدٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٣٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ نشَأَ عن ذِكرِ مَن استَغنى؛ فإنَّه أُريدَ به معيَّنٌ واحدٌ أو أكثرُ، وذلك يُبيِّنُه ما وقَعَ مِن الكلامِ الَّذي دارَ بيْنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وبيْنَ صناديدِ المُشرِكينَ في المجلِسِ الَّذي دخَلَ فيه ابنُ أمِّ مَكْتومٍ[(١)].

- وأيضًا قولُه: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ لا تَرى أسلوبًا أغلَظَ منه، ولا أخشَنَ مَسًّا، ولا أدَلَّ على سَخَطٍ، ولا أبْعَدَ شوطًا في المَذَمَّةِ، مع تَقارُبِ طرَفَيْه، ولا أجمَعَ لِلَّائمةِ على قِصَرِ مَتنِه؛ فهذه الجُملةُ بلَغتْ نهايةَ الإيجازِ، وأرفَعَ الجَزالةِ، بأسلوبٍ غليظٍ دالٍّ على السَّخَطِ، بالِغٍ حدَّ المَذَمَّةِ، جامِعٍ للمَلامةِ، ولم يُسمَعْ مِثلُها قبْلَها، فهي مِن جَوامِعِ الكَلِمِ القرآنيَّةِ[(٢)].

- وفِعلُ (قُتِلَ فلانٌ) أصلُه دُعاءٌ عليه بالقَتلِ، وهي مِن أشنَعِ دعَواتِهم؛ لأنَّ القتلَ قُصارَى شدائدِ الدُّنيا وفَظائعِها، والدُّعاءُ بالسُّوءِ مِن اللهِ تعالى مُستعمَلٌ في التَّحقيرِ والتَّهديدِ؛ لظُهورِ أنَّ حقيقةَ الدُّعاءِ لا تُناسِبُ الإلهيَّةَ؛ لأنَّ اللهَ هو الَّذي يَتوجَّهُ إليه النَّاسُ بالدُّعاءِ[(٣)].

- وبناءُ ﴿قُتِلَ﴾ للمجهولِ متفرِّعٌ على استِعمالِه في الدُّعاءِ؛ إذ لا غرَضَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٢، ٧٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٩).

قاتلٍ يقتُلُه[1].

- وتعريفُ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ التَّعريفَ المسمَّى تعريفَ الجِنسِ، فيُفيدَ استغراقَ جميعِ أفرادِ الجنسِ، وهو استغراقٌ حقيقيٌّ، وقد يُرادُ به استغراقُ مُعظَمِ الأفرادِ بحسَبِ القَرائنِ، فتَولَّدَ بصِيغةِ الاستغراقِ ادِّعاءٌ لعدمِ الاعتدادِ بالقَليلِ مِن الأفرادِ، ويُسمَّى الاستغراقَ العُرفيَّ في اصطلاحِ عُلماءِ المعاني، ويُسمَّى العامَّ المرادَ به الخصوصُ في اصطلاحِ عُلماءِ الأصولِ، والقرينةُ هنا ما بُيِّن به كفرُ الإنسانِ مِن قولِه: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [عبس: ١٨] إلى قولِه: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٢]، فيكونُ المرادُ مِن قولِه: ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ المُشرِكينَ المُنكِرينَ البعثَ. ويجوزُ أنْ يكونَ تعريفُ الإنسانِ تعريفَ العَهدِ لشخصٍ معيَّنٍ مِن الإنسانِ يُعيِّنُه خبرُ سببِ النُّزولِ[2].

- قولُه: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ تنبيهٌ على أنَّهم استحَقُّوا أعظَمَ أنواعِ العِقابِ عُرفًا، وقولُه: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ تنبيهٌ على أنَّهم اتَّصفوا بأعظَمِ أنواعِ القبائحِ والمنكَراتِ شرعًا[3].

- وجملةُ ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ تعليلٌ لإنشاءِ الدُّعاءِ عليه دعاءَ التَّحقيرِ والتَّهديدِ، وهذا تعجُّبٌ مِن شِدَّةِ كُفرِ هذا الإنسانِ[4].

- وحُذِفَ المتعلَّقُ بلَفظِ ﴿أَكۡفَرَهُۥ﴾؛ لظُهورِه مِن لفظِ ﴿أَكۡفَرَهُۥ﴾، وتقديرُه: ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٢٠، ١٢١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧٧).

أكفَرَه باللهِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾

- جُملةُ ﴿أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ جُملةٌ مستأنَفةٌ مَسوقةٌ للشُّروعِ في بيانِ ما أنعَمَ عليه بعدَ المبالَغةِ في وصْفِه بكُفرانِ نِعَمِ خالِقِه[٢]. وهي أيضًا بيانٌ لجُملةِ ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧]؛ لأنَّ مُفادَ هذه الجُملةِ الاستِدلالُ على إبطالِ إحالتِهم البعثَ، وذلك الإنكارُ مِن أكبرِ أُصولِ كُفرِهم[٣].

- والاستِفهامُ على معنى التَّقريرِ على حَقارةِ ما خُلِق منه[٤]؛ ولذلك أجابَ عنه بقولِه: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾[٥]. وهذا الاستفهامُ صُوريٌّ، وجُعِل المُستفهَمُ عنه تَعيينَ الأمرِ الَّذي به خُلِق الإنسانُ؛ لأنَّ المَقامَ هنا ليس لإثباتِ أنَّ اللهَ خلَقَ الإنسانَ، بل المَقامُ لإثباتِ إمكانِ إعادةِ الخلْقِ بتنظيرِه بالخلْقِ الأوَّلِ، أي: كما كان خلْقُ الإنسانِ أوَّلَ مرَّةٍ مِن نُطفةٍ، يكونُ خلْقُه ثانيَ مرَّةٍ مِن كائنٍ ما[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٢).

(٤) قال ابن عطية: (قولُه تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ استفهامٌ على معنى التَّقريرِ على تفاهةِ الشَّيءِ الَّذي خُلِق الإنسانُ منه، وهي عبارةٌ تَصلُحُ للتَّحقيرِ والتَّعظيمِ، والقرينةُ تبيِّنُ الغرضَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٨).

وقال ابن عاشور: (وليس في ذِكرِ النُّطفةِ هنا إيماءٌ إلى تَحقيرِ أصلِ نشأةِ الإنسانِ؛ لأنَّ قصْدَ ذلك محلُّ نظرٍ، على أنَّ المَقامَ هنا للدَّلالةِ على خَلْقٍ عظيمٍ، وليس مَقامَ زَجْرِ المُتكبِّرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٢).

- وجيءَ في هذا الاستدلالِ بصُورةِ سؤالٍ وجوابٍ؛ للتَّشويقِ إلى مَضمونِه؛ ولذلك قُرِن الاستفهامُ بالجوابِ عنه(١).

- قولُه: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾؛ مُحاكاةً لتقديمِ المُبيَّنِ في السُّؤالِ الَّذي اقتَضى تقديمَه كَونُه استِفهامًا يَستحِقُّ صدْرَ الكلامِ، مع الاهتِمامِ بتقديمِ ما منه الخلْقُ؛ لِما في تقديمِه مِن التَّنبيهِ للاستدلالِ على عظيمِ حِكمةِ اللهِ تعالَى؛ إذ كوَّنَ أبدَعَ مخلوقٍ معروفٍ مِن أهوَنِ شيءٍ، وهو النُّطفةُ(٢).

- وإنَّما لم يُستغنَ عن إعادةِ فِعلِ ﴿خَلَقَهُۥ﴾ في جُملةِ الجوابِ مع العِلمِ به بتقدُّمِ ذِكرِ حاصِلِه في السُّؤالِ؛ لزيادةِ التَّنبيهِ على دِقَّةِ ذلك الخلْقِ البديعِ، فذِكرُ فعلِ ﴿خَلَقَهُۥ﴾ الثَّاني مِن أسلوبِ المساواةِ(٣)؛ ليس بإيجازٍ، وليس بإطنابٍ(٤).

- قولُه: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ غلَبَ إطلاقُ النُّطفةِ على الماءِ الَّذي منه التَّناسُلُ، فذُكِرَتِ النُّطفةُ لتعيُّنِ ذِكرِها؛ لأنَّها مادَّةُ خلْقِ الحيوانِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ صُنعَ اللهِ بديعٌ، فإمكانُ البعثِ حاصلٌ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) الأصلُ في الكلامِ أن يكونَ تأديةً للمعاني بألفاظٍ على مِقْدارِها، أي: بأن يكونَ لِكُلِّ معنًى قصَدَه المتكلِّمُ لفظٌ يدُلُّ عليه؛ ظاهرٌ أو مُقدَّرٌ، وتُسمَّى دَلالةُ الكلامِ بهاتِه الكَيفيَّةِ: (مُساواةً)؛ لأنَّ الألفاظَ كانت مساويةً للمَدْلولاتِ. فإذا نقَصَتِ الألفاظُ عن عددِ المعاني مع إيفائِها بجميعِ تلك المعاني، فذلك (الإيجازُ). وإذا زادَتِ الألفاظُ على عددِ المعاني مع عدَمِ زيارةِ المعاني، فذلك (الإطنابُ). يُنظر: ((نقد الشعر)) لقدامة بن جعفر (ص: ٥٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٧٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١١٨-١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٢، ١٢٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٢٣).

- وفُرِّع على فعلِ ﴿خَلَقَهُۥ﴾ فِعلُ ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ بفاءِ التَّفريع؛ لأنَّ التَّقديرَ هنا إيجادُ الشَّيءِ على مِقدارٍ مضبوطٍ مُنظَّمٍ، أي: جعَلَ التَّقديرَ مِن آثارِ الخلْقِ؛ لأنَّه خلَقَه متهيِّئًا للنَّماءِ وما يُلابِسُه مِن العقلِ والتَّصرُّفِ وتمكينِه مِن النَّظرِ بعقلِه، والأعمالِ الَّتي يُريدُ إتيانَها، وذلك حاصِلٌ مع خلْقِه مدرَّجًا مفرَّعًا. وهذا التَّفريعُ وما عُطِف عليه إدماجٌ[١] للامتنانِ في خلالِ الاستدلالِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ * ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾

- حرفُ (ثُمَّ) مِن قولِه: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ تيسيرَ سبيلِ العَملِ الإنسانيِّ أعجَبُ في الدَّلالةِ على بديعِ صنعِ اللهِ؛ لأنَّه أثرُ العقلِ، وهو أعظَمُ ما في خلْقِ الإنسانِ، وهو أقوى في المِنَّةِ[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- ونُصِب ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ بفعلٍ يُفسِّرُه الظَّاهرُ؛ للمُبالَغةِ في التَّيسيرِ[٤].

- وتعريفُ السَّبيلِ باللَّامِ دونَ الإضافةِ؛ للإشعارِ بعُمومِه وأنَّه سبيلٌ عامٌّ[٥].

- وتقديمُ لفظِ ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ على فِعلِه؛ للاهتِمامِ بالعِبرةِ بتيسيرِ السَّبيلِ، وفيه رعايةٌ للفواصلِ[٦].

- قولُه: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ عطفُ ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾ على ﴿يَسَّرَهُۥ﴾ بحرفِ التَّراخي هو لِتَراخي الرُّتبةِ؛ فإنَّ انقراضَ تلك القُوى العقليَّةِ والحِسِّيَّةِ بالموتِ -بعدَ

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٤).

أنْ كانتْ راسخةً زمنًا ما- انقراضٌ عَجيبٌ دونَ تدريجٍ ولا انتظارِ زمانٍ يُساوي مُدَّةَ بقائِها، وهذا إدماجٌ للدَّلالةِ على عظيمِ القُدرةِ[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ عَدَّ الإماتةَ والإقبارَ في النِّعَمِ؛ لأنَّ الإماتةَ وُصْلةٌ في الجُملةِ إلى الحياةِ الأبَديَّةِ واللَّذَّاتِ الخالصةِ، والأمرَ بالقَبْرِ تَكرِمةٌ وصيانةٌ عن السِّباعِ[٢].

- وصِيغةُ المُضيِّ في قولِه: ﴿أَمَاتَهُۥ﴾ مُستعمَلةٌ في الماضي -وهو موتُ مَن ماتَ-، والمُستقبَلِ، وهو موتُ مَن سيَموتونَ؛ لأنَّ موتَهم في المستقبَلِ مُحقَّقٌ؛ فمِن المعلوم بالضَّرورةِ أنَّ الكثيرَ الَّذي لا يُحصى مِن أفرادِ النَّوعِ الإنسانيِّ قد صار أمرُه إلى الموتِ، وأنَّ مَن هو حيٌّ آيِلٌ إلى الموتِ لا محالةَ[٣].

- وذِكرُ جُملةِ ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾ تَوطئةٌ وتَمهيدٌ لجُملةِ ﴿فَأَقۡبَرَهُۥ﴾، وهذا إدماجٌ للامتنانِ في خِلالِ الاستِدلالِ[٤].

- وقولُه: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ رُجوعٌ إلى إثباتِ البعثِ، وهي كالنَّتيجةِ عَقِبَ الاستدلالِ. ووقَعَ قولُه: ﴿إِذَا شَآءَ﴾ مُعترِضًا بيْنَ جملةِ ﴿أَمَاتَهُۥ﴾ وجملةِ ﴿أَنشَرَهُۥ﴾؛ لِرَدِّ تَوهُّمِ المُشرِكينَ أنَّ عدمَ التَّعجيلِ بالبعثِ دَليلٌ على انتفاءِ وُقوعِه في المستقبَلِ، و(إذا) ظرفٌ للمُستقبَلِ، ففِعلُ المُضيِّ بعدَها مُؤوَّلٌ بالمستقبَلِ، والمعنى: ثمَّ حينَ يَشاءُ يُنشِرُه، أي: يُنشِرُه حينَ تَتعلَّقُ مشيئتُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠).

وقيل: مَحَلُّ المِنَّةِ في الإماتة هو فيما فُرِّع عليها بالفاءِ بقولِه: ﴿فَأَقۡبَرَهُۥ﴾، وليستِ الإماتةُ وحْدَها مِنَّةً. ويُنظر ما تقدَّم في الفوائد (ص: ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بإنشارِه[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾

- (كَلَّا) تُفيدُ الرَّدعَ والزَّجرَ، وهو مُتوجِّهٌ إلى ما قبْلَها ممَّا يُومِئُ إليه قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٢]، أي: إذا شاء اللهُ؛ إذ يُومِئُ إلى أنَّ الكافرَ يُنكِرُ أنْ يُنشِرَه اللهُ، ويَعتَلُّ بأنَّه لم يُنشِرْ أحدًا منذُ القِدَمِ إلى الآنَ، ومَوقعُ (كَلَّا) مَوقعُ الجوابِ بالإبطالِ، ومَوقعُ جُملةِ ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ مَوقعُ العِلَّةِ للإبطالِ، أي: لو قَضى ما أمَرَه اللهُ به لَعَلِمَ بُطلانَ زَعمِه أنَّه لا يُنشَرُ. أو هو ردْعٌ للإنسانِ عمَّا هو عليه، أي: ممَّا ذُكِر قبْلَه مِن شدَّةِ كفرِه واسترسالِه عليه دونَ إقلاعٍ، فهو زجْرٌ عن مَضمونِ: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]. وقيل غير ذلك[٢].

- و﴿لَمَّا﴾ حرفُ نفْيٍ يدُلُّ على نفيِ الفعلِ في الماضي مِثلَ (لَمْ)، ويَزيدُ بالدَّلالةِ على استمرارِ النَّفيِ إلى وقتِ التَّكلُّمِ، وجُزِم هنا بـ(لَمَّا)؛ للدَّلالةِ على أنَّ العُجبَ والكِبْرَ ما زالا يُلازِمانِ الإنسانَ حتَّى السَّاعةِ الَّتي هو فيها، والمقصودُ أنَّه مستمِرٌّ على عدمِ قضاءِ ما أمَرَه اللهُ ممَّا دعاهُ إليه[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا * ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا * فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا * وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا * وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا * وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا * وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا * مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾

- قولُه: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في تَعدادِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠، ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٦- ١٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨٥).

النِّعمِ المتعلِّقةِ ببقائِه بعدَ تفصيلِ النِّعمِ المتعلِّقةِ بحدوثِه[(١)]. أو هو إمَّا مُفرَّعٌ على قولِه: ﴿لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٣]، فيكونَ ممَّا أمَرَه اللهُ به مِن النَّظرِ، وإمَّا على قولِه: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، فيكونَ هذا النَّظرُ ممَّا يُبطِلُ ويُزيلُ شِدَّةَ كفرِ الإنسانِ، والفاءُ مع كَونِها للتَّفريعِ تُفيدُ معنى الفَصيحةِ -الَّتي تُفصِحُ عن جملةٍ قد حُذِفَتْ-؛ إذ التَّقديرُ: إنْ أراد أنْ يَقضيَ ما أمَرَه فلْيَنظُرْ إلى طعامِه، أو إنْ أرادَ نقْضَ كُفرِه فلْيَنظُرْ إلى طعامِه[(٢)].

- وقولُه: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ إلى قولِه: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ استِدلالٌ على تقريبِ كَيفيَّةِ البعثِ، انتُقِلَ إليه في مَعرِضِ الإرشادِ إلى تَدارُكِ الإنسانِ ما أهمَلَه، وكان الانتقالُ مِن الاستدلالِ بما في خلْقِ الإنسانِ مِن بديعِ الصُّنعِ مِن دَلائلَ قائمةٍ بنفْسِه في آيةِ ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [عبس: ١٨] إلى الاستدلالِ بأحوالٍ موجودةٍ في بعضِ الكائناتِ شديدةِ الملازَمةِ لحياةِ الإنسانِ -ترسيخًا للاستدلالِ، وتفَنُّنًا فيه، وتَعريضًا بالمِنَّةِ على الإنسانِ في هذه الدَّلائلِ، مِن نعمةِ النَّباتِ الَّذي به بقاءُ حياةِ الإنسانِ، وحياةِ ما يَنفَعُه مِن الأنعامِ[(٣)].

- وجُعِلَ المنظورُ إليه ذاتَ الطَّعامِ مع أنَّ المرادَ النَّظرُ إلى أسبابِ تكَوُّنِه وأحوالِ تطوُّرِه إلى حالةِ انتفاعِ الإنسانِ به، وانتفاعِ أنعامِ النَّاسِ به، وذلك مِن أسلوبِ إناطةِ الأحكامِ بأسماءِ الذَّواتِ والمرادُ أحوالُها؛ مِثلَ قولِه تعالَى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، أي: أكْلُها، فأمَرَ اللهُ الإنسانَ بالتَّفكيرِ في أطوارِ تكَوُّنِ الحُبوبِ والثِّمارِ الَّتي بها طعامُه، وقد وُصِفَ له تطوُّرُ ذلك لِيَتأمَّلَ ما أُودِعَ إليه في ذلك مِن بديعِ التَّكوينِ، سواءٌ رأى ذلك ببصَرِه أو لم يَرَه،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ولا يَخلو أحدٌ عن عِلمٍ إجماليٍّ بذلك، فيَزيدُه هذا الوصفُ عِلمًا تفصيليًّا، وفي جميعِ تلك الأطوارِ تمثيلٌ لإحياءِ الأجسادِ المستقرَّةِ في الأرضِ، فقد يكونُ هذا التَّمثيلُ في مجرَّدِ الهيئةِ الحاصلةِ بإحياءِ الأجسادِ، وقد يكونُ تمثيلًا في جميعِ تلك الأطوارِ بأنْ تُخرَجَ الأجسادُ مِن الأرضِ كخروجِ النَّباتِ بأنْ يكونَ بَذرُها في الأرضِ، ويُرسِلَ اللهُ لها قُوًى لا نَعلَمُها تُشابِهُ قوَّةَ الماءِ الَّذي به تَحْيا بُذورُ النَّباتِ؛ قال تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا * ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾[1] [نوح: ١٧، ١٨].

- والإنسانُ المذكورُ في قولِه: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ هو الإنسانُ المذكورُ في قولِه: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، وإنَّما جيءَ باسمِه الظَّاهرِ هنا دونَ الضَّميرِ كما في قولِه: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [عبس: ١٨]؛ لأنَّ ذلك قَريبٌ مِن مَعادِه، وما هنا ابتداءُ كلامٍ؛ فعُبِّر فيه بالاسمِ الظَّاهرِ للإيضاحِ[2].

- وأُدمِجَ في أمرِ الإنسانِ بالنَّظرِ إلى الطَّعامِ مِنَّةٌ عليه بالإمدادِ بالغذاءِ الَّذي به إخلافُ ما يَضمحِلُّ مِن قُوَّتِه بسببِ جهودِ العقلِ والتَّفكيرِ الطَّبيعيَّةِ الَّتي لا يُشعَرُ بحُصولِها في داخِلِ المِزاجِ، وبسببِ كَدِّ الأعمالِ البدَنيَّةِ والإفرازاتِ، وتلك أسبابٌ لتبَخُّرِ القُوى البدَنيَّةِ، فيَحتاجُ المِزاجُ إلى تعويضِها وإخلافِها، وذلك بالطَّعامِ والشَّرابِ[3].

- وإنَّما تَعلَّقَ النَّظرُ بالطَّعامِ مع أنَّ الاستدلالَ هو بأحوالِ تكوينِ الطعامِ؛ إجراءً للكلامِ على الإيجازِ، ويُبيِّنُه ما في الجُمَلِ بعْدَه مِن قولِه: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٩، ١٣٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٣٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ إلى آخِرِها، فالتَّقديرُ: فلْيَنظُرِ الإنسانُ إلى خلْقِ طعامِه، وتهيئةِ الماءِ لإنمائِه، وشقِّ الأرضِ وإنباتِه، وإلى انتفاعِه به وانتفاعِ مَواشيهِ في بقاءِ حياتِهم[1].

- قولُه: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ قُرِئَ بفتحِ الهمزةِ على أنَّه بدَلُ اشتمالٍ[2] مِن ﴿طَعَامِهِۦ﴾؛ لأنَّ الماءَ سببٌ لحدوثِ الطعامِ، فهو مُشتمِلٌ عليه. وقُرِئَ: ﴿إِنَّا﴾ على الاستئنافِ[3]؛ على أنَّ الجملةَ بيانٌ لجملةِ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦ﴾؛ لتفصيلِ ما أُجمِلَ هنالك على وجهِ الإيجازِ[4].

- وانتصَبَ ﴿صَبًّا﴾ و﴿شَقًّا﴾ على المفعولِ المطلَقِ للفِعلينِ ﴿صَبَبْنَا﴾ و﴿شَقَقْنَا﴾ مؤكِّدًا لعامِلِه؛ لِيَتأتَّى تَنوينُه؛ لِما في التَّنكيرِ مِن الدَّلالةِ على التَّعظيمِ، وتعظيمُ كلِّ شيءٍ بما يُناسِبُه[5].

- وإسنادُ الصَّبِّ والشَّقِّ والإنباتِ إلى ضميرِ الجلالةِ في قولِه: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾؛ لأنَّ اللهَ مُقدِّرُ نظامِ الأسبابِ المؤثِّرةِ في ذلك، ومُحْكِمُ نواميسِها، ومُلهِمُ النَّاسِ استعمالَها[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٠).

(٢) بَدلُ الاشتمالِ: هو الَّذي يدُلُّ على مَعنًى في مَتْبوعِه أو صِفةٍ فيه، مِثلُ: أعْجَبَني مُحمَّدٌ خُلُقُه؛ فـ (خُلُقُه) بَدَلٌ مِن (مُحمَّدٌ)؛ بَدَلُ اشْتِمالٍ. يُنظر: ((أوضح المسالك)) لابن هشام (٣/ ٣٦٥)، ((توضيح المقاصد)) للمرادي (٢/ ١٠٣٧)، ((شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك)) لابن مالك (٣/ ٢٤٩).

(٣) قرأ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ ﴿أَنَّا﴾ بفتحِ الهمزةِ، والباقونَ بكسرِها، ووافقهم رويس في الابتداءِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٨)، ((إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر)) لابن البناء (ص: ٥٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وجاء مَساقُ النَّظمِ الكريمِ لبيانِ النِّعمِ الفائضةِ مِن جَنابِه تعالى على وجهٍ بديعٍ خارجٍ عن العاداتِ المعهودةِ، كما يُنبِئُ عنه تأكيدُ الفِعلينِ بالمَصدرَينِ ﴿صَبًّا﴾ ﴿شَقًّا﴾[(١)].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾ للتَّفريعِ والتَّعقيبِ، وهو في كلِّ شيءٍ بحسَبِه[(٢)].

- وقَدَّم العِنبَ؛ لأنَّه أنفَعُ الفواكِهِ، يُؤكَلُ رَطْبًا ويابِسًا، ويُعصَرُ فيُتَّخَذُ منه أنواعٌ، وهو أعَمُّ وُجودًا مِنَ النَّخلِ، يُوجَدُ في عامَّةِ البلادِ، والنَّخلُ لا يكونُ إلَّا في البلادِ الحارَّةِ[(٣)].

- والقَضْبُ: أي: رَطْبةٌ، سُمِّيَتْ بمصدرِ قضَبَهُ، أي: قطَعَهُ؛ مبالَغةً، كأنَّها لتكرُّرِ قطعِها وتكثُّرِه نفْسُ القَطعِ[(٤)].

- قولُه: ﴿وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا﴾ إنَّما ذُكِر النَّخلُ دونَ ثمرتِه، وهو التَّمرُ، خِلافًا لِما قُرِن به مِن الثِّمارِ والفواكِهِ والكَلَأِ؛ لأنَّ منافعَ شجرِ النَّخيلِ كثيرةٌ لا تَقتصِرُ على ثَمرِه، فهم يَقتاتونَ ثمرتَه مِن تمرٍ ورُطَبٍ وبُسْرٍ، ويأكُلونَ جُمَّارَه، ويَشرَبونَ ماءَ عُودِ النَّخلةِ إذا شُقَّ عنه، ويَتَّخِذونَ من نَوى التمرِ علَفًا لإبِلِهم، وكلُّ ذلك مِن الطَّعامِ، فضلًا عن اتِّخاذِهم البيوتَ والأَوانيَ مِن خَشَبِه، والحُصُرَ مِن سَعَفِه، والحِبالَ مِن لِيفِه، فذِكرُ اسمِ الشَّجرةِ الجامعةِ لهذه المنافعِ أجمَعُ في الاستِدلالِ بمختلِفِ الأحوالِ، وهو إدْماجٌ للامتنانِ بوَفرةِ النِّعَمِ[(٥)].

- قولُه: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا﴾ الحدائقُ: جمعُ حديقةٍ، وهي الجَنَّةُ مِن نخلٍ وكَرْمٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٢).

وشجرِ فَواكِهَ، وعطفُها على النَّخلِ مِن عطفِ الأعمِّ على الأخصِّ، ولأنَّ في ذِكرِ الحدائقِ إدماجًا للامتِنانِ بها. وخُصَّتِ بالذِّكرِ؛ لأنَّها مواضعُ التَّنزُّهِ والاختراف، ولأنَّها تَجمَعُ أصنافًا مِن الأشجارِ[١].

- قولُه: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ إمَّا مفعولٌ له، أي: فعَلَ ذلكَ تمتيعًا لكُم ولِمَواشيكُم؛ فإنَّ بعضَ النِّعَمِ المعدودةِ طعامٌ لهم، وبعضَها علَفٌ لدَوابِّهم، والالتفاتُ لتكميلِ الامتنانِ. وإمَّا مصدرٌ مؤكِّدٌ لِفعلِه المضمَرِ بحذفِ الزَّوائدِ، أي: متَّعَكم بذلك متاعًا، أو لفعلٍ مترتِّبٍ عليهِ، أي: متَّعَكم بذلك فتَمتَّعتُم متاعًا، أي: تمتُّعًا، أو مصدرٌ مِن غيرِ لفْظِه؛ فإنَّ ما ذُكِر مِن الأفعالِ الثَّلاثةِ في مَعْنى التَّمتيعِ[٢].

وقيل: قولُه: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ﴾ حالٌ مِن المذكوراتِ، وقولُه: ﴿وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ عُطِف على قولِه: ﴿لَّكُمۡ﴾، والمتاعُ: ما يُنتفَعُ به زمنًا ثمَّ يَنقطِعُ، وفيه لَفٌّ ونَشْرٌ مُشَوَّشٌ[٣]، والسَّامعُ يَرجِعُ كلَّ شيءٍ مِن المذكوراتِ إلى ما يَصلُحُ له؛ لظُهورِه، وهذه الحالُ واقعةٌ موقعَ الإدماجِ؛ أُدمِجَتِ الموعظةُ والمِنَّةُ في خلالِ الاستدلالِ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٢).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٤).

الآيات (٣٣-٤٢)

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾: الصَّيحةُ الشَّديدةُ الَّتي تَصُخُّ الآذانَ، أي: تُصِمُّها مِن شِدَّتِها، وأصلُ الصخِّ: الطعنُ والصكُّ، فالصاخَّةُ: الصاكَّةُ لشِدَّةِ صوتِها للآذانِ، والمرادُ بها هنا: النَّفخةُ الثَّانيةُ، وهي اسمٌ مِن أسماءِ القيامةِ، وأصلُ (صخخ): يدُلُّ على صوتٍ[1].

﴿مُّسْفِرَةٌ﴾: أي: مُشْرِقةٌ مُضِيئةٌ مُتهَلِّلةٌ؛ مِن أسفَرَ الصُّبحُ: إذا أضاءَ وأشرَقَ، وأصلُ (سفر): يدُلُّ على انكِشافٍ وجَلاءٍ[2].

﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾: أي: فرحةٌ بما نالت مِن كرامةِ اللهِ، واستبشَرَ: إذا وجَد ما يُبشِّرُه مِن الفَرَحِ، وأصلُ (بشر): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ مع حُسنٍ وجَمالٍ[3].

﴿غَبَرَةٌ﴾: أي: غُبارٌ وكُدُورةٌ، وأصلُ (غبر) هنا: يدُلُّ على لَونٍ مِنَ الألوانِ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٩، ٤٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٦).

﴿تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾: أي: تَغْشاها وتَعْلوها ظُلْمةٌ وسَوادٌ، وأصلُ (رهق): يدُلُّ على غِشيانِ الشَّيءِ الشَّيءَ، وأصلُ (قتر): يدُلُّ على تجميعٍ وتضييقٍ[1].

﴿ٱلۡفَجَرَةُ﴾: جمعُ فاجِرٍ، وهو المُنْبَعِثُ في المعاصي والمحارِمِ، يُقالُ: فَجَرَ يَفْجُرُ فُجُورًا، فهو فاجِرٌ، والفُجورُ: الانبعاثُ والتَّفَتُّحُ في المَعاصي، وأصلُ (فجر): التَّفَتُّحُ في الشَّيءِ. وقيل: الفَجْرُ: شقُّ الشيء شقًّا واسعًا، والفُجورُ: شقُّ ستر الدِّيانة[2].

المعنى الإجماليُّ:

يختِمُ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالحديثِ عن أحوالِ النَّاسِ يومَ القيامةِ، فيقولُ: فإذا جاءت القيامةُ بصَيْحَتِها العَظيمةِ الَّتي تُصِمُّ الآذانَ؛ مِن شِدَّةِ صَوتِها، وذلك واقِعٌ يومَ يَهرُبُ كُلُّ إنسانٍ مِن أخيه، وأُمِّه وأبيه، وزَوجتِه وأبنائِه؛ لكُلِّ واحدٍ مِن أولئك الأقرباءِ يومَ القيامةِ أَمْرٌ عظيمٌ يُهِمُّه ويَشغَلُه عن غَيرِه!

وُجوهُ المُؤمِنينَ في ذلك اليَومِ مُضِيئةٌ مُشرِقةٌ، ضاحِكةٌ مُستَبشِرةٌ، ووُجوهُ الكافِرينَ يومَ القيامةِ يَعْلوها غُبارٌ وتَغْشاها ظُلْمةٌ وسَوادٌ، أولئك هم الكَفَرةُ الفَجَرةُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥١) و(٥/ ٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٥)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٦٢٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٤١٣).
وقيل: أصلُه الميلُ، والفاجِرُ: المائلُ عن الحقِّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر ما كان المقصودُ منه أمورًا ثلاثةً؛ أوَّلُها: الدَّلائِلُ الدَّالَّةُ على التَّوحيدِ. وثانيها: الدَّلائلُ الدَّالَّةُ على القُدرةِ على المعادِ. وثالِثُها: أنَّ هذا الإلهَ الَّذي أحسَنَ إلى عَبيدِه بهذه الأنواعِ العَظيمةِ مِنَ الإحسانِ لا يَليقُ بالعاقِلِ أن يتمَرَّدَ عن طاعتِه، وأن يتكبَّرَ على عبيدِه- أَتْبَعَ هذه الجُملةَ بما يكونُ مُؤَكِّدًا لهذه الأغراضِ، وهو شَرحُ أهوالِ القيامةِ؛ فإنَّ الإنسانَ إذا سَمِعَها خاف، فيَدْعوه ذلك الخَوفُ إلى التَّأمُّلِ في الدَّلائِلِ، والإيمانِ بها، والإعراضِ عن الكُفرِ، ويدعوه ذلك أيضًا إلى تَرْكِ التَّكبُّرِ على النَّاسِ، وإلى إظهارِ التَّواضُعِ إلى كُلِّ أحدٍ، فلا جَرَمَ ذَكَرَ القيامةَ[١].

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ ﴾.

أي: فإذا جاءت القيامةُ بصَيحَتِها العَظيمةِ الَّتي تُصِمُّ الآذانَ؛ مِن شِدَّةِ صَوتِها[٢].

﴿ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

أي: يومَ يَهرُبُ كُلُّ إنسانٍ من أخيه؛ مِن شِدَّةِ الهَولِ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٤).
قال ابنُ عطية: (الصَّاخَّةُ: اسمٌ مِن أسماءِ القيامةِ، واللَّفظةُ في حقيقتِها إنَّما هي لنفخةِ الصُّورِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٧).
قال الشوكاني: (والظَّرفُ في قولِه: ﴿ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾ إمَّا بدَلٌ من «إذا جاءَتْ»، أو منصوبٌ بمقدَّرٍ، أي: أعني، ويكونُ تفسيرًا للصَّاخَّةِ، أو بَدَلًا منها مبنيٌّ على =

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ [المعارج: ١٠ - ١٤].

﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥)﴾.

أي: ويَهرُبُ كُلُّ إنسانٍ كذلك مِن أُمِّه وأبيه، فلا يَنفَعُهما بشَيءٍ(١)!

﴿وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦)﴾.

أي: ومِن زَوجتِه الَّتي كانت مُلازِمةً له في الدُّنيا، ومِن أبنائِه الَّذين هم أحَبُّ النَّاسِ إليه(٢)!

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر فِرارَ المرءِ؛ أتْبَعَه بذِكْرِ سَبَبِه(٣).

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾.

أي: لكُلِّ واحدٍ مِن أولئك الأقرِباءِ يومَ القيامةِ أَمْرٌ عظيمٌ يُهِمُّه ويَكفيه، فيَشغَلُه

= الفتح). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦١).

عن النَّظَرِ في أمْرِ غَيْرِه[١].

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((تُحشَرونَ حُفاةً عُراةً غُرْلًا[٢]، فقالت امرأةٌ: أيُبصِرُ أو يَرى بَعْضُنا عَورةَ بَعْضٍ؟! قال: يا فُلانةُ ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾!))[٣].

﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا ذَكَر حالَ يومِ القيامةِ في الهَولِ، بَيَّن أنَّ المكَلَّفينَ فيه على قِسمَينِ: منهم السُّعَداءُ، ومنهم الأشقياءُ؛ فوَصَف السُّعَداءَ بقَولِه تعالى[٤]:

﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨﴾.

أي: وُجوهُ المُؤمِنينَ في ذلك اليَومِ مُضيئةٌ مُشرِقةٌ[٥].

﴿ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ٣٩﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٨).

(٢) الغُرْلُ: معناه: غيرُ مختونينَ، جمعُ أَغْرَلَ، وهو: الَّذي لم يُختَنْ وبَقِيَت معه غُرْلَتُه، وهي قُلْفتُه، وهي الجِلدةُ الَّتي تُقطَعُ في الختانِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٩٣).

(٣) أخرجه مِن طُرُقٍ: الترمذيُّ (٣٣٣٢) واللَّفظُ له، والنَّسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١١٦٤٧).
قال الترمذي: (حَسَنٌ صحيحٌ)، وكذا قال الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٣٢).
وصَحَّح إسنادَه على شرطِ الشَّيخَينِ الحاكِمُ في ((المستدرك)) (٢٩٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٨).

أي: تَضحَكُ سُرورًا، وتَفرَحُ مُستَبشِرةً[1].

كما قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ [الانشقاق: ٩].

﴿وَوُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٌ ٤٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الله سبحانه وتعالى أهلَ السَّعادةِ من المؤمنين؛ ذكَرَ أضْدادَهم[2].

فقال تعالى:

﴿وَوُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٌ ٤٠﴾.

أي: ووُجوهُ الكافِرينَ يومَ القيامةِ يَعْلوها غُبارٌ[3].

﴿تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ٤١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٩)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٥، ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٨).

قال الواحدي: (﴿مُّسۡتَبۡشِرَةٌ﴾ فَرِحةٌ بما نال مِن كرامةِ الله ورِضاه). ((البسيط)) (٢٣/ ٢٤٠).

وقال ابن كثير: (﴿ضَاحِكَةٌ مُّسۡتَبۡشِرَةٌ﴾ أي: مسرورةٌ فَرِحةٌ مِن سُرورِ قُلوبِهم، قد ظهَرَ البِشْرُ على وُجوهِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٧).

وقال البِقاعي: (﴿مُّسۡتَبۡشِرَةٌ﴾ أي: طالِبةٌ للبِشْرِ، وهو تغَيُّرُ البَشَرةِ مِن السُّرورِ، ومُوجِدةٌ لذلك، وهي بَيْضاءُ نَيِّرةٌ بما يُرى مِن تبشيرِ الملائكةِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٦)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٢٨٠، ٢٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٨).

أي: تَغْشاها ظُلْمةٌ وسَوادٌ(١).

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وقال سُبحانَه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦، ٢٧].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ (٤٢)﴾.

أي: أولئك هم الكَفَرةُ الَّذين لم تُؤمِنْ قُلوبُهم بالحَقِّ، الفَجَرةُ الَّذين كانوا يَعمَلونَ السَّيِّئاتِ مُتجَرِّئينَ على إتيانِ المحَرَّماتِ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ كونُ أقرَبِ النَّاسِ للإنسانِ يَفِرُّ منهم يَقتضي هَوْلَ ذلك اليوم؛ بحيثُ إذا رَأى ما يَحُلُّ مِن العذابِ بأقرَبِ النَّاسِ إليه، تَوهَّمَ أنَّ الفِرارَ منه يُنجيهِ مِن الوُقوعِ في مِثلِه؛ إذ

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٨).

قال البقاعي: (هم -في الأغلَبِ- المُتْرَفُونَ الَّذين يَحمِلُهم غِناهم على التَّكَبُّرِ والأَشَرِ والبَطَرِ، فلِجَمْعِهم بيْن الكُفرِ والفُجورِ، جُمِع لهم بيْن الغَبَرةِ والقَتَرةِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٧٣).

قد عَلِم أنَّه كان مماثلًا لهم فيما ارتكَبوهُ مِن الأعمالِ، فذُكِرتْ هنا أصنافٌ مِن القَرابةِ؛ فإنَّ القَرابةَ آصِرةٌ تكونُ لها في النَّفْسِ مَعَزَّةٌ وحِرصٌ على سلامةِ صاحِبِها وكرامتِه، والإلْفَ يُحدِثُ في النَّفْسِ حرصًا على الملازَمةِ والمقارَنةِ، وكِلا هذينِ الوِجْدانَينِ يصُدُّ صاحِبَه عن المفارَقةِ، فما ظَنُّك بهَولٍ يَغْشى على هذينِ الوِجْدانينِ فلا يَترُكُ لهما مجالًا في النَّفْسِ[1]؟!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ بشارةٌ للمُؤمِنِ كبيرةٌ؛ لأنَّه -لا مَحالةَ- حاصلٌ له هذا الإخبارُ؛ لأنَّه قال على إثْرِه: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾ فحصَل هذا للكافرِ، وذلك للمؤمنِ إنْ شاء اللهُ؛ إذ لم يَذْكُرْ معهما ثالثةً[2].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾ أتبَعَ وَصْفَ الكَفَرةِ بوَصْفِ الفَجَرةِ، مع أنَّ وَصْفَ الكُفرِ أعظَمُ مِن وَصْفِ الفُجورِ؛ لِما في معنى الفُجورِ مِن خَساسةِ العَمَلِ، فذُكِرَ وَصْفاهم الدَّالَّانِ على مَجموعِ فَسادِ الاعتقادِ وفَسادِ العَمَلِ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في بَيانِ أحوالِ مَعادِهم إثرَ بيانِ مَبدأِ خلْقِهم ومَعاشِهم، والفاءُ للدَّلالةِ على تَرتُّبِ ما بعْدَها على ما يُشعِرُ به لَفظُ المتاعِ مِن سُرعةِ زَوالِ هاتيك النِّعمِ، وقُربِ اضْمحلالِها[4].

وقيل: الفاءُ في ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ للتَّفريعِ على اللَّومِ والتَّوبيخِ في قولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٥١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨٦).

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، وما تَبِعَهُ مِنَ الاستدلالِ على المُشرِكينَ مِن قولِه: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [عبس: ١٨] إلى قولِه: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا﴾ [عبس: ٢٥]، ففُرِّع على ذلك إنذارٌ بيومِ الجزاءِ، مع مُناسبةِ وُقوعِ هذا الإنذارِ عَقِبَ التَّعريضِ والتَّصريحِ بالامتنانِ في قولِه: ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس: ٢٤]، وقولِه: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾[1] [عبس: ٣٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾

- حرْفُ (مِنْ) في قولِه: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ بمعنى التَّعليلِ الَّذي يُعَدَّى به فِعلُ الفِرارِ إلى سَببِ الفرارِ حينَ يُقالُ: فَرَّ مِن الأسدِ، وفَرَّ مِن العدوِّ، وفَرَّ مِن الموتِ. ويجوزُ أنْ يكونَ بمعنى المجاوَزةِ مثلَ (عَنْ)[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ رُتِّبتْ أصنافُ القَرابةِ في هذه الآيةِ حسَبَ الصُّعودِ مِن الصِّنفِ إلى مَا هو أَقْوَى منه؛ تدَرُّجًا في تَهويلِ ذلك اليومِ؛ فابتُدِئ بالأخِ لشِدَّةِ اتِّصالِه بأخيه مِن زمنِ الصِّبا، فيَنشَأُ بذلك إلْفٌ بيْنَهما يَستمِرُّ طولَ الحياةِ، ثمَّ ارتُقِيَ مِن الأخِ إلى الأبوَينِ، وهما أشدُّ قُربًا لابنَيْهما، وانتُقِلَ إلى الزَّوجةِ والبنينَ، وهما مُجتمَعُ عائلةِ الإنسانِ، وأشَدُّ النَّاسِ قُربًا به ومُلازَمةً، كأنَّه قال: يَفِرُّ مِن أخيه، بل مِن أبوَيْه، بل مِن صاحِبتِه وبَنيه؛ لأنَّ تعلُّقَ القلبِ بهما أشدُّ مِن تعلُّقِه بالأبوَينِ[3]. فلمَّا كان السِّياقُ للفِرارِ قدَّمَ أدناهم رُتبةً في الحبِّ والذَّبِّ فأدناهم على سبيلِ التَّرقِّي، وأخَّر الأوجَبَ في ذلك فالأوجَبَ -بخِلافِ ما في سورة (المعارِجِ)- فقال: ﴿مِنۡ أَخِيهِ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٥)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٥).

لأنَّه يألَفُه صغيرًا، وقد يَركَنُ إليه كبيرًا، مع طولِ الصَّحابةِ، وشِدَّةِ القُربِ في القَرابةِ، فيكون عندَه في غايةِ العِزَّة. ولَمَّا كانت الأمُّ مُشاركةً له في الإلْفِ، ويَلزَمُ مِن حمايتِها أكثَرُ ممَّا يلزَمُ الأخ، وهو لها آلَفُ، وإليها أحَنُّ وعليها أرَقُّ وأعطَفُ؛ قال: ﴿وَأُمِّهِۦ﴾. ولَمَّا كان الأبُ أعظَمَ منها في الإلْفِ؛ لأنَّه أقرَبُ في النَّوعِ، وللولدِ عليه مِنَ العاطِفةِ لِمَا له مِن مَزيدِ النَّفعِ أكثَرُ ممَّنْ قبْلَه؛ قال: ﴿وَأَبِيهِ﴾، وأيضًا قُدِّمت الأمُّ للرَّعيِ على الفاصلةِ. ولَمَّا كانت الزَّوجةُ -الَّتي هي أهلٌ لأنْ تُصحَبَ- ألصَقَ بالفؤادِ، وأعرَقَ في الودادِ، وكان الإنسانُ أذَبَّ عنها عندَ الاشتدادِ؛ قال: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾، ولعلَّه أفرَدَها إشارةً إلى أنَّها عندَه في الدَّرجةِ العُلْيا من الموَدَّةِ، بحيثُ لا يألَفُ غيرَها. ولَمَّا كان للوالدِ إلى الولدِ مِنَ المحَبَّةِ والعاطفةِ، والإباحةِ بالسِّرِّ، والمُشاوَرةِ في الأمرِ ما ليس لغَيرِه؛ ولذلك يضَيِّعُ عليه رزقَه وعُمُرَه؛ قال: ﴿وَبَنِيهِ﴾، وإن اجتمَع فيها الصَّغيرُ الَّذي هو عليه أشفَقُ، والكبيرُ الَّذي هو في قلبِه أجَلُّ، وفي عَينِه أنبَلُ، ومَن بيْنَهُما مِنَ الذَّكَرِ والأنثى[(١)].

- وأيضًا الابتداءُ يكونُ في كلِّ مَقام بما يُناسِبُه؛ فتارةً يَقتضي الابتداءَ بالأعلى، وتارةً بالأدنى، وهنا المناسَبةُ تقتضي الابتداءَ بالأدنى؛ لأنَّ المقصودَ بيانُ فِرارِه عن أقارِبِه مفصَّلًا شَيئًا بعْدَ شَيءٍ، فلو ذُكِر الأقرَبُ أوَّلًا لم يكُنْ في ذِكرِ الأبعَدِ فائدةٌ طائلةٌ؛ فإنَّه يُعلَمُ أنَّه إذا فَرَّ مِنَ الأقرَبِ فَرَّ مِنَ الأبعَدِ، ولَمَا حصَل للمستمِعِ استِشعارُ الشِّدَّة مفصَّلةً، فابتُدئ بنَفيِ الأبعَدِ منتقلًا منه إلى الأقرَبِ، فقيل أوَّلًا: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ﴾، فعُلِم أنَّ ثَمَّ شِدَّةً توجِبُ ذلك. وقد يجوزُ أن يَفِرَّ مِن غَيرِه ويجوزُ ألَّا يَفِرَّ، فقيل: ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾؛ فعُلِم أنَّ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٠، ٢٧١).

الشِّدَّةَ أكبَرُ مِن ذلك بحيثُ توجِبُ الفِرارَ مِنَ الأبَوَين. ثمَّ قيل: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾؛ فعُلِم أنَّها طامَّةٌ بحيثُ توجِبُ الفِرارَ ممَّا لا يُفَرُّ منهم إلَّا في غايةِ الشِّدَّةِ، وهي الزَّوجةُ والبَنونَ. ولفظُ ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ أحسَنُ مِن زوجتِه[1].

- وكذلك أُطنِبَ بتَعدادِ هؤلاء الأقرباءِ دونَ أنْ يُقالَ: (يومَ يَفِرُّ المرءُ مِن أقرَبِ قرابتِه) مَثَلًا؛ لإحضارِ صورةِ الهَولِ في نفْسِ السَّامعِ[2].

- وكلٌّ مِن هؤلاء القَرابةِ إذا قدَّرْتَه هو الفارَّ، كان مَن ذُكِر معه مفرورًا منه، إلَّا قولَه: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾؛ لظُهورِ أنَّ معناهُ: والمرأةُ مِن صاحِبِها؛ ففيه اكتفاءٌ[3]، وإنَّما ذُكِرَتْ بوصْفِ الصَّاحبةِ الدَّالِّ على القُربِ والمُلازَمةِ دونَ وصْفِ الزَّوجِ؛ لأنَّ المرأةَ قد تكونُ غيرَ حسَنةِ العِشرةِ لزَوجِها، فلا يكونُ فِرارُه منها كِنايةً عن شِدَّةِ الهَولِ، فذُكِرَتْ بوصْفِ الصَّاحبةِ[4].

- وتعليقُ جارِّ الأقرباءِ بفعلِ ﴿يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ﴾ يَقتضي أنَّهم قد وقَعوا في عذابٍ يَخشَوْنَ تَعدِّيَه إلى مَن يَتَّصِلُ بهم[5].

- وقد اجتمَعَ في قولِه: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ...﴾ إلى آخِرِه أبلَغُ ما يُفيدُ هَوْلَ ذلك اليومِ، بحيثُ لا يَترُكُ هَولُه للمرءِ بقيَّةً مِن رُشدِه؛ فإنَّ نفْسَ الفِرارِ للخائفِ مَسَبَّةٌ فيما تَعارَفوهُ؛ لدَلالتِه على جُبنِ صاحِبِه، وهم يَتعيَّرونَ بالجُبنِ، وكونُه يترُكُ أعَزَّ الأعِزَّةِ عليه مَسَبَّةٌ عُظْمى[6].

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٦/ ٧٤، ٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٦).
(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قولُه تعالَى: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ لزيادةِ تهويلِ اليومِ، وحيثُ كان فِرارُ المرءِ مِن الأَقْرباءِ الخَمسةِ يَقتضي فِرارَ كلِّ قَريبٍ مِن أولئك مِن مِثلِه، كان الاستِئنافُ جامعًا للجميعِ تصريحًا بذلك المُقتضَى، فقال: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾، أي: عن الاشتغالِ بغيرِه مِن المذكوراتِ، بَلْهَ الاشتغالَ عمَّن هو دونَ أولئك في القَرابةِ والصُّحبةِ[١]. أو هو استِئنافٌ واردٌ لبيانِ سببِ الفِرارِ[٢].

- وتَنوينُ ﴿شَأۡنٞ﴾ للتَّعظيمِ. وتَقديمُ الخبَرِ في قولِه: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ﴾ على المبتدأِ؛ ليَتأتَّى تَنكيرُ ﴿شَأۡنٞ﴾ الدَّالِّ على التَّعظيمِ[٣].

- قولُه: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ أَصْلُ الإغناءِ والغِنى: حُصولُ النَّافعِ المحتاجِ إليه، وقد استُعمِلَ هنا في معْنى الإشغالِ، والإشغالُ أعمُّ، فاستُعمِل الإغناءُ الَّذي هو نفعٌ في معنى الإشغالِ الأعمِّ؛ إيماءً إلى أنَّ المؤمنينَ يَشغَلُهم عن قَرابتِهم المُشركينَ فَرْطُ النَّعيمِ، ورفْعُ الدَّرجاتِ، كما دَلَّ عليه قولُه عَقِبَه: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾ إلى آخِرِ السُّورةِ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ * ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾

- جُملةُ ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾ بيانٌ لمآلِ أمرِ المذكورينَ وانقسامِهم إلى السُّعداءِ والأشقياءِ، بعْدَ ذِكرِ وُقوعِهم في داهيةٍ دَهْياءَ[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قُدِّم هنا ذِكرُ وُجوهِ أهلِ النَّعيمِ على وُجوهِ أهلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٣٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٣).

الجَحيمِ، بخِلافِ قولِه في سورةِ (النازعاتِ): ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧]، ثمَّ قولِه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [النازعات: ٤٠] إلى آخِرِه؛ لأنَّ هذه السُّورةَ أُقيمَتْ على عِمادِ التَّنويهِ بشأنِ رجُلٍ مِن أفاضلِ المؤمِنينَ، والتَّحقيرِ لشأنِ عظيمٍ مِن صناديدِ المُشركينَ، فكان حظُّ الفريقَينِ مقصودًا مَسوقًا إليه الكلامُ، وكان حظُّ المؤمنينَ هو المُلتفَتَ إليه ابتداءً، وذلك مِن قولِه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس: ٣] إلى آخِرِه، ثمَّ قولِه: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ * فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [عبس: ٥، ٦]. وأمَّا سورةُ (النازعاتِ) فقد بُنِيَتْ على تهديدِ المُنكِرينَ للبعثِ ابتداءً مِن قولِه: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ * تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ * قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: ٦- ٨]، فكان السِّياقُ للتَّهديدِ والوَعيدِ، وتهويلِ ما يَلقَوْنَه يومَ الحشرِ، وأمَّا ذِكرُ حظِّ المؤمِنينَ يومَئذٍ، فقد دعا إلى ذِكرِه الاسْتِطرادُ، على عادةِ القرآنِ الكريمِ مِن تعقيبِ التَّرهيبِ بالتَّرغيبِ[١].

- وتَنكيرُ ﴿وُجُوهٞ﴾ الأوَّلِ والثَّاني للتَّنويعِ، وذلك مُسوِّغُ وُقوعِهما مُبتدأً[٢].

- قولُه: ﴿ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ ﴿ضَاحِكَةٞ﴾ كِنايةٌ عن السُّرورِ. والسِّينُ والتَّاءُ في ﴿مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ قيل: هي للمُبالَغةِ، ويُقالُ: بَشَرَ، أيْ: فَرِح وسُرَّ[٣].

- وفي هذه الآياتِ والَّتي تليها احتِباكٌ[٤]: ذِكْرُ الإسفارِ والبِشْرِ أوَّلًا يدُلُّ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٣٨).

(٤) الاحْتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لِدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخِرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القُرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألْطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

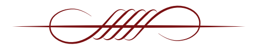
الخَوفِ والذُّعرِ ثانيًا، وذِكْرُ الغَبَرةِ ثانيًا يدُلُّ عل البياضِ والنُّورِ أوَّلًا، وسِرُّ ذلك أنَّه ذَكَر دليلَ الرَّاحةِ ودليلَ التَّعَبِ لظُهورِهما؛ ترغيبًا وترهيبًا[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾

- قولُه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ زيادةٌ في تشهيرِ حالِهم الفظيعِ للسَّامعينَ، وجيءَ باسمِ الإشارةِ؛ لزيادةِ الإيضاحِ؛ تشهيرًا بالحالةِ الَّتي سَبَّبتْ لهم ذلك[٢]؛ فـ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارةٌ إلى أصحابِ تلك الوُجوه، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ درَجتِهم في سُوءِ الحالِ، أي: أولئكَ المَوصوفونَ بسَوادِ الوُجوهِ وغيرِه هُمُ الكفَرةُ الفجَرةُ الجامِعونَ بينَ الكفرِ والفُجورِ؛ فلذلكَ جمَعَ اللهُ تعالى إلى سَوادِ وُجوهِهم الغَبَرةَ[٣].

- وضميرُ الفصلِ ﴿هُمُ﴾؛ لإفادةِ التَّقَوِّي[٤].

- وذِكرُ وصفِ ﴿الْفَجَرَةُ﴾ بدونِ عاطفٍ يُفيدُ أنَّهم جمَعوا بينَ الكُفرِ والفُجورِ[٥].



(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٣).

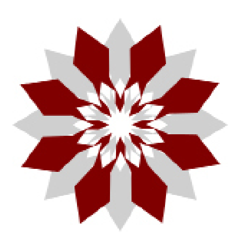
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٨).

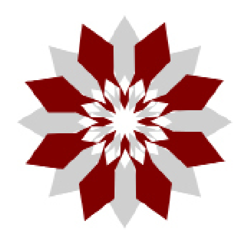
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٤).

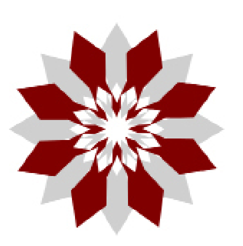
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَفْسِيرُ
سُورَةِ التَّكوِيرِ







سُورةُ التَّكويرِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ: (التَّكويرِ)[١].

وسُمِّيَتْ أيضًا بسورةِ (إذا الشَّمسُ كُوِّرَتْ)[٢]: فعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن سَرَّه أن يَنظُرَ إلى يوم القيامةِ كأنَّه رَأْيُ عَيْنٍ فلْيَقرأْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾))[٣].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

مَن قَرَأها فكأنَّه يَنظُرُ إلى يومِ القيامةِ رَأْيَ عَينٍ:

كما في حديثِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما المتقدِّمِ.

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ التَّكويرِ مَكِّيَّةٌ، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٤].

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لافتتاحِها بقَولِ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿كُوِّرَتۡ﴾، ولم يَرِدْ هذا اللَّفظُ في سُورةٍ سِواها.
يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٠٣).
قال ابن عاشور: (وأكثرُ التَّفاسيرِ يُسَمُّونَها سورةَ «التَّكْوِيرِ»، وكذلك تَسْمِيَتُها في المصاحِفِ، وهو اخْتِصارٌ لِمَدْلولِ ﴿كُوِّرَتۡ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٩).

(٢) عُنْوِنَتْ بذلك في ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ٣٩٥)، و((صحيح البخاري)) (٦/ ١٦٦) و((سنن الترمذي)) (٥/ ٤٣٣)، و((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٨).

(٣) أخرجه الترمذيُّ (٣٣٣٣)، وأحمدُ (٤٨٠٦).
صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٣٣)، وجوَّدَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٥٦٤)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٨/ ٩٦)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٨/ ٤٢٤).

(٤) ممَّن نقَلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: =

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

بيانُ أحوالِ القيامةِ، وأهوالِها[1].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- ذِكرُ أهوالِ يومِ القيامةِ.

٢- التَّأكيدُ على أنَّ هذا القُرآنَ الكَريمَ مِن عندِ اللهِ تعالى، وليس مِن كَلامِ البَشَرِ، وذِكرُ صِفةِ المَلَكِ الَّذي يحمِلُه، والنَّبيِّ الَّذي يتلَقَّاه، وإثباتُ نُبُوَّتِه.

٣- بيانُ أنَّ القُرآنَ عِظَةٌ وذِكْرى لِمَن أراد الهِدايةَ.

٤- تَقريرُ أنَّ مَشيئةَ العَبدِ تابِعةٌ لِمَشيئةِ الرَّبِّ سُبحانَه وتعالى.



= ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٦)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٦٠).

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٠٣).

الآيات (١-١٤)

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۝١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ۝١٣ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ۝١٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كُوِّرَتۡ﴾: أي: لُفَّت كما تُلَفُّ العِمامةُ، فذَهَب ضَوؤُها، والتَّكويرُ: تلفيفٌ على جِهةِ الاستِدارةِ، كتَكويرِ العِمامةِ، وأصلُ (كور): يدُلُّ على دَورٍ وتجَمُّعٍ[(١)].

﴿ٱنكَدَرَتۡ﴾: أي: تناثَرَتْ مِنَ السَّماءِ، وسَقَطَت على الأرضِ، وأصلُ (كدر) هنا: يدُلُّ على حَرَكةٍ[(٢)].

﴿ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ﴾: أي: النُّوقُ الحوامِلُ الَّتي قد أتَى عليها عَشَرةُ أشهُرٍ مِن حَمْلِها: سُيِّبَت وأُهمِلَت وتُرِكَت بلا راعٍ، وأصلُ (عطل): يدُلُّ على خُلُوٍّ وفَراغٍ[(٣)].

﴿سُجِّرَتۡ﴾: أي: أُوقِدَت فصارت نارًا تَضطَرِمُ. وقيل: مُلِئَتْ ونفَذ بعضُها إلى بعضٍ، فصارَتْ بحرًا واحِدًا مملوءًا. وأصلُ (سجر) على القولِ الأوَّلِ: الإيقادُ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥١).



وعلى القولِ الثَّاني: المَلْءُ[١].

﴿الْمَوْءُودَةُ﴾: هي الجاريةُ المدفونةُ حَيَّةً، سُمِّيَت بذلك لِما يُطرَحُ عليها مِن التُّرابِ فيَؤُودُها، أي: يُثقِلُها حتَّى تموتَ، وكان بعضُ العَرَبِ يَدفِنُ البناتِ حَيَّةً؛ مَخافةَ العارِ والحاجةِ! وأصلُ (وأد): يدُلُّ على إثقالِ شَيءٍ بشَيءٍ[٢].

﴿كُشِطَتْ﴾: أي: نُزِعَت وطُوِيَت وقُلِعَت، والكَشْطُ: قَلْعٌ عن شِدَّةِ التِزاقٍ، وأصلُ (كشط): يدُلُّ على تَنحيةِ شَيءٍ وكَشْفِه[٣].

﴿سُعِّرَتْ﴾: أي: أُوقِدَت، وأصلُ (سعر): يدُلُّ على اشتِعالِ شَيءٍ واتِّقادِه[٤].

﴿أُزْلِفَتْ﴾: أي: قُرِّبَت، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على تقَدُّمٍ في قُربٍ إلى شَيءٍ[٥].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ واصِفًا أحوالَ القيامةِ وأهوالَها، فقال

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٦).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٨، ٤١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٩، ٣٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٩).

تعالى: إذا لُفَّت الشَّمسُ وجُمِعَت، وطُوِيَ بَعْضُها على بَعضٍ؛ فذَهَب ضَوؤُها، وإذا النُّجومُ تساقَطَت وتناثَرَت، وإذا الجِبالُ قُلِعَت مِن أماكِنِها وسُيِّرَت عن وَجْهِ الأرضِ، وإذا النُّوقُ الحوامِلُ -وهي أنفَسُ أموالِ العَرَبِ- تُرِكَت مُهمَلةً بلا راعٍ؛ لِما دهاهم مِن الأمرِ العَظيمِ، وإذا الوُحوشُ مِن الحيواناتِ جُمِعَت يومَ القيامةِ؛ لِيَقتَصَّ اللهُ تعالى مِن بَعْضِها لبَعضٍ، وإذا البِحارُ أُوقِدَت فصارت نارًا تَضْطَرِمُ، وإذا قُرِنَ كُلُّ واحِدٍ بمَن هو مِثْلُه في الخَيرِ والشَّرِّ، وإذا البِنتُ الَّتي دُفِنَت في التُّرابِ حَيَّةً قد سُئِلَت عن الذَّنْبِ الَّذي استحَقَّتْ به القَتْلَ، وإذا صُحُفُ أعمالِ النَّاسِ عُرِضَت ونُشِرَت للحِسابِ، وإذا السَّماءُ نُزِعَت مِن مَكانِها وقُلِعَت، وإذا أُوقِدَت النَّارُ لأعداءِ اللهِ إيقادًا شديدًا، وقُرِّبَت الجنَّةُ وأُدْنِيَت لأهلِها المتَّقينَ المؤمنينَ لِيَدخُلوها؛ إذا وَقَعَت تلك الأُمورُ المَهُولةُ المُفزِعةُ عَلِمَت وتيَقَّنَت كُلُّ نَفْسٍ ما أحضَرَتْه مِن خَيرٍ أو شَرٍّ كان منها في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾.

أي: إذا لُفَّت الشَّمسُ وجُمِعَت، وطُوِيَ بَعْضُها على بَعضٍ؛ فذَهَب ضَوؤُها[١].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((الشَّمسُ والقَمَرُ مُكَوَّرانِ[٢] ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٩).

(٢) مُكَوَّرانِ: أي: مَطويَّانِ، ذاهِبا الضَّوءِ. وقيل: يُلَفَّانِ ويُجْمَعانِ، ويُلْقَيانِ في النَّارِ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/ ٢٠٨)، ((عمدة القاري)) للعيني (١٥/ ١٢٠).
قال القَسْطَلَّاني: (لأنَّهما عُبِدا مِن دونِ اللهِ، وليسَ المرادُ مِن تكويرِهما فيها تعذيبَهما بذلك، لكنَّه زيادةُ تَبكيتٍ لِمَن كان يَعبُدُهما في الدُّنيا؛ لِيَعْلَموا أنَّ عبادتَهم لهما كانتْ باطِلةً). ((إرشاد السَّاري)) (٥/ ٢٥٩).

يومَ القيامةِ))[1].

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان التَّأثيرُ في الأعظَمِ دالًّا على التَّأثيرِ فيما دُونَه بطَريقِ الأَوْلى؛ أَتْبَعَ ذلك قَوْلَه مُعَمِّمًا بعدَ التَّخصيصِ[2]:

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢﴾.

أي: وإذا النُّجومُ تهاوَتْ وتَساقَطَت مِن مَواضِعِها وتناثَرَت[3].

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٠).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: تناثَرَتْ وتساقطَتْ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابن عطية، وابن الجوزي، والرازي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والنسفي، وابن جُزَي، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٠)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٣٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٣)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، ومُجاهِدٌ، والرَّبيعُ بنُ خُثَيمٍ، والحسَنُ البصريُّ، وأبو صالحٍ، وحمَّادُ بنُ أبي سُلَيمانَ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) =

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بدأ بأعلامِ السَّماءِ لأنَّها أشهَرُ وأعَمُّ تَخويفًا وإرهابًا، وذكَرَ منها اثنَينِ هما أشهَرُ ما فيها وأعَمُّها نَفْعًا؛ أتْبَعَها أعلامَ الأرضِ، فقال مُكَرِّرًا للظَّرفِ؛ لِمَزيدِ الاعتناءِ بالتَّهويلِ[1]:

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ٣﴾.

أي: وإذا الجِبالُ سُيِّرَت عن وَجْهِ الأرضِ بَعْدَ قَلْعِها مِن أماكِنِها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ﴾ [الكهف: ٤٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠].

﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ أعلامَ الجَمادِ؛ أتْبَعَه أعلامَ الحَيوانِ النَّافِعِ الَّذي هو أعَزُّ أموالِ العَرَبِ

= لمكي (١٢/ ٨٠٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٠).

قال القرطبي: (وعن ابنِ عبَّاسٍ أيضًا: ﴿ٱنكَدَرَتۡ﴾: تغيَّرَتْ، فلم يَبْقَ لها ضوءٌ؛ لِزَوالِها عن أماكِنِها. والمعنى مُتقارِبٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٨). ويُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠٧٥).

وجمع السعديُّ بيْن المعنيَيْنِ السَّابقَينِ، فقال: (﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾ أي: تغيَّرَتْ، وتساقطَتْ مِن أفلاكِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٠).

وأغلَبُها- على وَجهٍ دَلَّ على عِظَمِ الهَولِ؛ فقال[١]:

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾.

أي: وإذا النُّوقُ الحوامِلُ الَّتي قد مَرَّ على حَمْلِها عَشَرةُ أشهُرٍ قد تَرَكها أصحابُها، وانشغَلوا عنها مع شِدَّةِ نَفاستِها لَدَيهم؛ من شِدَّةِ أهوالِ ذلك اليَومِ[٢].

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾.

أي: وإذا الحَيواناتُ البَرِّيَّةُ الَّتي لا تَأنَسُ بأحَدٍ قد بعَثَها اللهُ فجُمِعَت يومَ القيامةِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لَتُؤَدَّنَّ الحُقوقُ[٤] إلى أهلِها يومَ القيامةِ، حتَّى يُقادَ للشَّاةِ الجَلْحاءِ مِن الشَّاةِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٠، ٣٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٠).
قال البقاعي: (وهي أحَبُّ أموالِ العَرَبِ إليهم، وأنفَسُها عِندَهم؛ لأنَّها تَجمَعُ اللَّحْمَ والظَّهْرَ، واللَّبَنَ والوَبَرَ... ولا يزالُ ذلك اسمَها حتَّى تَضَع لتَمامِ السَّنَةِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٠).
قال السعدي: (جُمِعَت ليومِ القيامةِ؛ لِيَقتَصَّ اللهُ مِن بَعْضِها لبَعضٍ، ويرى العبادُ كَمالَ عَدْلِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢).

(٤) لَتُؤَدَّنَّ: بفتح الدَّالِّ المُشَدَّدة، وفي بعضِ النُّسخ بضَمِّها؛ فقولُه: (الحُقوقُ): بالرَّفع على الأوَّلِ، =

القَرْناءِ[(١)]))[(٢)].

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾.

أي: وإذا البِحارُ صارَتْ بحرًا واحدًا، ومُلِئَت، وأُوقِدَت نارًا[(٣)].

= وبالنَّصبِ على الثَّاني. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)) للقاري (٨/ ٣٢٠٢).

(١) الجَلْحاء هي التي لا قرنَ لها. والقَرْناء: هي الَّتي لها قَرْنٌ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ١٣٧)، ((شرح المصابيح)) لابن المَلَك (٥/ ٣٦١).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٢).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٧٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٩، ٢٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٠).

وممَّن قال بأنَّ المعنى: أُوقِدَتْ: الواحديُّ، وذهب ابنُ القَيِّم إلى أنَّه أقوى الأقوالِ، واختاره السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٧٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٩، ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وأُبَيُّ بنُ كعبٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وابنُ زَيدٍ، ومُجاهِدٌ، والحسَنُ بنُ مسلمٍ، وشِمْرُ بنُ عطيَّةَ، وسُفْيانُ، ووَهْبٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣٧)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٢).

وقيل: معنى: ﴿سُجِّرَتْ﴾ امتلأت بالماءِ حتَّى فاضَت به. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الرَّبيعُ بنُ خُثَيْمٍ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٢).

قال ابنُ عاشور: (المرادُ: تَجاوُزُ مِياهِها مُعَدَّلَ سُطوحِها، واختلاطُ بَعضِها ببَعضٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٣).

ومنهم مَن جمَع بيْنَ تلك المعاني، كالبِقاعي، فقال: (فُجِّرَ بَعْضُها إلى بعضٍ حتَّى صارت بحرًا واحدًا، ومُلِئَت حتَّى كان ما فيها أكثَرَ منها، وأُحمِيَت حتَّى كان كالتَّنُّورِ التِهابًا وتَسَعُّرًا). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٧٨). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦].

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾.

أي: وإذا النَّاسُ قد قُرِنَ كُلُّ واحِدٍ مِنهم بمَن هو مِثْلُه في الخَيرِ والشَّرِّ[1].

= (١٩/ ٢٣٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٩، ٢٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٣)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧١).

قال ابنُ جُزَي: (﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّ التَّزويجَ بمعنى التَّنويعِ؛ لأنَّ الأزواجَ هي الأنواعُ، فالمعنى: جَعْلُ الكافِرِ مع الكافِرِ، والمؤمنِ مع المؤمنِ.

والثَّاني: زُوِّجَت نُفوسُ المؤمِنينَ بزَوجاتِهم مِنَ الحُورِ العِينِ.

والثَّالثُ: زُوِّجَت الأرواحُ والأجسادُ، أي: رُدَّت إليها عندَ البعثِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٥).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والزمخشري، وابن عطية، والرَّسْعَني، وابنُ جُزَي، وابن القيِّم -ونسَبَه للأكثَرينَ-، وابنُ كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، والألوسي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٥، ٤٥٦)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عمرُ بنُ الخطَّابِ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والرَّبيعُ بنُ خُثَيمٍ، والحسَنُ في روايةٍ عنه، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ، وعِكْرِمةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٢).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وأنَّ المعنى: زُوِّجَتْ أنفُسُ المؤمِنينَ مع الحُورِ العِينِ، وزُوِّجَت أنفُسُ الكافِرينَ مع الشَّياطينِ، يعني: يُقرَنُ ابنُ آدَمَ وشيطانه في السِّلسلةِ الواحدةِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٠١). =

كما قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ⁽٨⁾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ⁽٩⁾﴾.

أي: وإذا البِنتُ الَّتي دُفِنَت في التُّرابِ حَيَّةً قد سُئِلَت عن الذَّنْبِ الَّذي استحَقَّتْ به القَتْلَ[1]!

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعَطاءٌ، والكلبيُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠٦).

قال ابن القيِّم: (وهو راجعٌ إلى القولِ الأوَّلِ). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٢٣١).

وممَّن اختار القولَ الثَّالثَ وأنَّ المعنى: قُرِنَتْ بأجسادِها: جلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والشربيني. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٩٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٩١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو العاليةِ، وعِكْرِمةُ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والشَّعبيُّ، والحسَنُ البصريُّ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٢).

وجمَع السعديُّ بيْن القولِ الأوَّلِ والثَّاني، فقال: (﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي: قُرِنَ كُلُّ صاحِبِ عَمَلٍ مع نَظيرِه، فجُمِعَ الأبرارُ مع الأبرارِ، والفُجَّارُ مع الفُجَّارِ، وزُوِّج المؤمنونَ بالحُورِ العِينِ، والكافِرونَ بالشَّياطينِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢).

وممَّن جمَع أيضًا بيْن المعاني السَّابقةِ: البِقاعي، فقال: (﴿زُوِّجَتْ﴾ أي: قُرِنَتْ بأبدانِها، وجُمِع كلٌّ مِن الخَلقِ إلى ما كانت نفْسُه تألَفُه وتَنزِعُ إليه، فكانوا أصنافًا، كما قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٧٩).

وقال ابن عاشور بعدَ أن جوَّز المعنى الأوَّلَ والثَّالثَ: (ولعلَّ قَصْدَ إفادةِ هذا التَّركيبِ لهذيْنِ المعنيَيْنِ هو مُقتضَى العُدولِ عن ذِكْرِ ما زُوِّجَتِ النُّفوسُ به. وأوَّلُ منازِلِ البعثِ اقْترانُ الأرواحِ بأجْسادِها، ثُمَّ تقسيمُ النَّاسِ إلى مَراتِبِهم للحشرِ). ((تفسير بن عاشور)) (٣٠/ ١٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤٦، ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٢-٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٩، ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧١).

مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾﴾.

أي: وإذا صُحُفُ أعمالِ النَّاسِ الَّتي طُوِيَت بعدَ مَوتِهم قد فُتِحَت لهم، فيَطَّلِعُ كُلُّ أحَدٍ فيها على عَمَلِه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥].

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾.

أي: وإذا السَّماءُ نُزِعَت مِن مَكانِها، وجُذِبَتْ، وقُلِعَت بقُوَّةٍ وسُرعةٍ، وأُزِيلَتْ(٢).

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾﴾.

أي: وإذا النَّارُ الشَّديدةُ التَّأجُّجِ قد أُحمِيَت لأهْلِها، واشتَدَّ توَقُّدُها ولَهيبُها(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، =

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر دارَ الأعداءِ البُعَداءِ ترهيبًا؛ أتبَعَه دارَ المقرَّبينَ السُّعَداءِ ترغيبًا، فقال[1]:

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣﴾.

أي: وإذا الجَنَّةُ قد قُرِّبت وأُدنيَت لأهْلِها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١].

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى هذه الأُمورَ الاثنَيْ عَشَرَ؛ ذَكَر الجزاءَ المرَتَّبَ على الشَّرطِ الَّذي هو مجموعُ هذه الأشياءِ، فقال[3]:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾.

أي: إذا وَقَعَت تلك الأُمورُ المَهُولةُ المُفزِعةُ عَلِمَت وتيَقَّنَت حينَئِذٍ كُلُّ نَفْسٍ ما أحضَرَتْه مِن خَيرٍ أو شَرٍّ عَمِلَتْه في الدُّنيا[4].

= ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٠).

قال ابنُ عاشور: (جُعِلَت بقُربٍ مِن مَحْشَرِهم، بحيث لا تَعَبَ عليهم في الوُصولِ إليها؛ وذلك كرامةً لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال سُبحانَه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ إعلامٌ بخَرابِ عالَمِ المُلْكِ والشَّهادةِ؛ تزهيدًا في كُلِّ ما يَجُرُّ إليه، وحَثًّا على عدَمِ المبالاةِ، والابتعادِ مِن التَّعَلُّقِ بشَيءٍ مِن أسبابِه[1].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ * وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ...﴾ هذه الأوصافُ الَّتي وَصَفَ اللهُ بها يومَ القيامةِ مِنَ الأوصافِ الَّتي تنزَعِجُ لها القُلوبُ، وتشتَدُّ مِن أَجْلِها الكُروبُ، وترتَعِدُ الفرائِصُ، وتَعُمُّ المَخاوِفُ، وتَحُثُّ أُولي الألبابِ للاستِعدادِ لذلك اليومِ، وتَزجُرُهم عن كُلِّ ما يُوجِبُ اللَّومَ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ ترغيبٌ في الأعمالِ الصَّالِحةِ والقُرَناءِ الصَّالِحينَ؛ لئلَّا يُزَوَّجَ بما يَسوءُه[3]!

٤- قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ يُؤخَذُ مِن سُؤالِ المَوْؤُودةِ

= عطية)) (٥/ ٤٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٠، ١٥١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٩).

تحريمُ الظُّلمِ لكُلِّ أحدٍ، وكَفُّ اليَدِ واللِّسانِ عن كُلِّ إنسانٍ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ سُؤالٌ: كيف الجَمعُ بيْن هذه الآيةِ الكريمةِ والحَديثِ الَّذي فيه ((أنَّ الشَّمسَ تَدنو مِن الخلائقِ يومَ القيامة))[٢]؟

الجوابُ: أنَّه ورَدَ في يومِ القيامةِ أشياءُ مُتغايرةٌ، ولكنَّ يومَ القيامةِ مِقْدارُه خمسونَ ألْفَ سَنَةٍ، فتتغيَّرُ فيها الأمورُ؛ تَدنو الشَّمسُ مِن الخلائقِ، وتُكَوَّرُ بعدَ ذلك، وكذلك أيضًا تُلْقَى في النَّارِ إهانةً لعابِديها، فيَومُ القيامةِ ليس يومًا أو شهرًا أو سَنَةً، وانظرْ إلى قَولِ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وقولِه: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢]، واختلافٌ بيْن الزُّرْقةِ والسَّوادِ، كذلك أيضًا أخْبَرَ عن المشركينَ أنَّهم يقولونَ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وفي آيةٍ أخرى قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، فَهُم في الأوَّلِ قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] في الآيةِ الأُولى، وفي الثَّانيةِ قال: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]؛ لأنَّ الحوادثَ تتغيَّرُ، فكلُّ ما أتاك مِن اختلافاتٍ في اليومِ الآخِرِ فإنَّما ذلك لطُولِ مُدَّته، وتَغَيُّرِ الأحوالِ فيه[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ سُؤالٌ: أنَّه إذا أُنْشِرَ الموتى للبَعثِ والحِسابِ، وزُوِّجَتِ النُّفوسُ بقُرَنائِها بالثَّوابِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨١).

(٢) يُنظر ما أخرجه البخاريُّ (٣٣٤٠)، ومسلمٌ (١٩٤) من حديث أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((دروس الحرم المدني)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٦).

والعِقابِ؛ فلِمَ يحصُلُ هَدْمُ الأبنيةِ، وسَيْرُ الجبالِ، ودَكُّ الأرضِ، وفَطْرُ السَّماءِ، ونَثْرُ النُّجومِ، وتكويرُ الشَّمسِ؟!

الجوابُ: أنَّه إنَّما بُنِيَتْ لهم الدَّارُ للسُّكنى والتَّمَتُّعِ، وجَعَلَها سُبحانَه وجَعَلَ ما فيها للاعتِبارِ والتَّفَكُّرِ، والاستِدلالِ عليه بحُسْنِ التَّأمُّلِ والتَّذَكُّرِ، فلمَّا انقضَتْ مدةُ السُّكنى، وأَجْلَاهم مِن الدَّارِ؛ خَرَّبَها لانتِقالِ السَّاكنِ منها، وفي إحالةِ الأحوالِ وإظهارِ تلك الأهوالِ بيانُ المقدرةِ بعدَ بيانِ العِزَّةِ، وتكذيبٌ لأهلِ الإلحادِ وزنادقةِ المنجِّمينَ وعُبَّادِ الكواكِبِ والشَّمسِ والقَمَرِ والأوثانِ، فيَعْلَمُ الَّذين كفروا أنَّهم كانوا كاذِبينَ، فإذا رأَوا آلهتَهم قد انهَدَمتْ، وأنَّ معبوداتِهم قد انتَثَرتْ وانفَطَرتْ، ومَحَالَّها قد تشَقَّقتْ؛ ظهرتْ فضائِحُهم، وتَبَيَّنَ كَذِبُهم، وظَهَرَ أنَّ العالَمَ مَربوبٌ مُحْدَثٌ مُدَبَّرٌ، له ربٌّ يُصَرِّفُه كيف يشاءُ؛ تكذيبًا لملاحِدةِ الفلاسِفةِ القائِلينَ بالقِدَمِ، فكم للهِ تعالى مِن حِكمةٍ في هَدمِ هذه الدَّارِ! ودَلالةٍ على عِظَمِ عِزَّتِه وقُدرتِه وسُلطانِه، وانفرادِه بالرُّبوبيَّةِ، وانقيادِ المخلوقاتِ بأَسْرِها لقَهْرِه، وإذعانِها لمشيئَتِه. فتبارَكَ اللهُ ربُّ العالَمينَ(١)!

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ الغَرَضُ مِن ذِكرِ هذه القِصَّةِ هاهنا وُجوهٌ:

أحَدُها: أنَّه تعالى إذا كان يومُ القيامةِ يَحشُرُ كُلَّ الحيواناتِ؛ إظهارًا للعَدْلِ، فكيف يجوزُ مع هذا ألَّا يَحشُرَ المكَلَّفينَ مِنَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

الثَّاني: أنَّها تجتَمِعُ في مَوقِفِ القيامةِ مع شِدَّةِ نفْرتِها عن النَّاسِ في الدُّنيا، وتَبَدُّدِها في الصَّحاري؛ فدَلَّ هذا على أنَّ اجتِماعَها إلى النَّاسِ ليس إلَّا مِن هَولِ ذلك اليَومِ.

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٨٢)، والجواب نقله عن أبي الوفاء ابنِ عَقيل.

والثَّالثُ: أنَّ هذه الحيواناتِ بَعضُها غِذاءٌ للبَعضِ، ثمَّ إنَّها في ذلك اليومِ تَجتَمِعُ، ولا يتعَرَّضُ بَعضُها لبعضٍ، وما ذاك إلَّا لشِدَّةِ هَولِ ذلك اليَومِ(١).

٤- اللهُ سُبحانَه وتعالى يَحكُمُ في الأُمورِ المتماثِلةِ بأحكامٍ مُتماثِلةٍ؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قَرَنَ النَّظيرَ بنَظيرِه، وقال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣]، وقال: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] أي: أشباهَهم ونُظَراءَهم(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أنَّه يُقْرَنُ كلُّ صاحِبِ عَمَلٍ بشَكْلِه وَنظيرِه، فقُرِنَ بيْن المتحابِّينَ في اللهِ في الجَنَّةِ، وقُرِنَ بيْن المتحابِّينَ في طاعةِ الشَّيطانِ في الجَحيمِ؛ فالمرءُ مع مَن أَحَبَّ، شاء أو أَبَى(٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ سُؤالٌ: ما معنى سُؤالِ المَوؤودةِ عن ذَنْبِها الَّذي قُتِلَت به؟ وهلَّا سُئِلَ الوائِدُ عن مُوجِبِ قَتْلِه لها؟!

الجوابُ: سُؤالُها وجوابُها تَبكيتٌ لقاتِلِها، وهو كتَبكيتِ النَّصارى في قَولِه لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦](٤)! ونظيرُ ذلك لو أنَّ شخصًا اعتدى على آخَرَ في الدُّنيا، فأَتَوا إلى السُّلطانِ أوِ الأميرِ، فقال للمظلومِ: بأيِّ ذَنْبٍ ضرَبَك هذا الرَّجُلُ؟ وهو يَعرِفُ أنَّه مُعتدًى عليه؛ ليس له ذنْبٌ، لكنْ مِن أجْلِ التَّوبيخِ للظَّالِمِ، فالمَوؤدةُ تُسْأَلُ: بأيِّ ذنبٍ قُتِلَتْ؟ توبيخًا لظالِمِها وقاتِلِها ودافِنِها(٥)،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٢).

ولإدْخالِ الرَّوعِ على مَن وَأَدها، وليَكونَ جَوابُها شَهادةً على مَن وَأَدها؛ فيَكونَ استِحقاقُه العِقابَ أشَدَّ وأَظهَرَ[1]، أو تَوجيهُ السُّؤالِ إليْها لتَسليتِها، وإظهارِ كَمالِ الغَيظِ والسَّخَطِ لوائِدِها، وإسقاطِه عن دَرجةِ الخِطابِ، والمُبالَغةِ في تَبكيتِه[2]؛ فيومَ القيامةِ تُسألُ الموءودةُ على أيِّ ذنبٍ قُتِلَتْ؛ لِيَكونَ ذلك تهديدًا لقاتلِها، فإذا سُئِل المظلومُ فما ظَنُّ الظَّالِمِ إذَن[3]؟!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ سؤالٌ عن وَجهِ الجَمعِ مع الآياتِ الَّتي تَنْفي السُّؤالَ يومَ القيامةِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وقَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]؟

الجوابُ: أنَّ سُؤالَ المَوْؤودةِ لا يُعارِضُ الآياتِ النَّافيةَ السُّؤالَ عن الذَّنْبِ؛ لأنَّها سُئِلَت عن أيِّ ذَنبٍ قُتِلَت، وهذا ليس من ذَنْبِها، والمرادُ بسُؤالِها توبيخُ قاتِلِها وتقريعُه؛ لأنَّها هي تقولُ: لا ذَنْبَ لي! فيَرجِعُ اللَّومُ على مَن قَتَلَها ظُلْمًا[4].

٨- إسقاطُ الحَمْلِ حَرامٌ، قال بعضُ العُلماءِ: وهو مِن الوَأْدِ الَّذي قال اللهُ تعالى فيه: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٣).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٧/ ٥٠٤).

(٥) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٣/ ٤٠٠).

وهذا مذهبُ المالكيَّةِ: أنَّه لا يجوزُ إسقاطُه ولو قبْلَ الأربَعينَ يومًا. يُنظر: ((الشرح الكبير وحاشية الدسوقي)) (٢/ ٢٦٦).

وذهَب الجُمهورُ مِن الحَنَفيَّةِ، والشَّافعيَّةِ، والحنابلةِ إلى أنَّه يجوزُ إسقاطُ الجَنينِ قبْلَ نَفخِ =

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ دَليلٌ على أنَّه لا يجوزُ قَتْلُ النَّفْسِ إلَّا بذَنْبٍ منها، فلا يجوزُ قَتْلُ الصَّبيِّ والمجنونِ؛ لأنَّ القَلَمَ مرفوعٌ عنهما، فلا ذَنْبَ لهما، وهذه العِلَّةُ لا يَنبغي أنْ يُشَكَّ فيها في النَّهيِ عن قَتلِ صِبيانِ أهلِ الحَرْبِ، وأمَّا العِلَّةُ المشترَكةُ بيْنَهم وبيْن النِّساءِ فكَونُهم ليسوا من أهلِ القِتالِ -على الصَّحيحِ الَّذي هو قولُ الجُمهورِ-، أو كونُهم يَصيرون للمُسلِمينَ، فأمَّا التَّعليلُ بهذا وَحْدَه في الصَّبيِّ فلا، والآيةُ تَقتضي ذَمَّ قَتْلِ كلِّ مَن لا ذَنْبَ له مِن صغيرٍ وكبيرٍ[1].

١٠- قال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾، والمعنى: حُصولُ اليَقينِ بما لم يَكُنْ لها به عِلمٌ مِن حَقائقِ الأعْمالِ الَّتي كان عِلمُها بها أشتاتًا؛ بَعضُه معلومٌ على غَيرِ وَجْهِه، وبَعضُه مَعلومٌ صُورتُه مَجهولةٌ عَواقِبُه، وبَعضُه مَغفولٌ عنه؛ فنُزِّلَ العِلمُ الَّذي كان حاصِلًا للنَّاسِ في الحَياةِ الدُّنيا مَنزِلةَ عَدَمِ العِلمِ، وأُثبِتَ العِلمُ لهم في ذلك اليَومِ؛ عِلمُ أعْمالِهم مِن خَيرٍ أو شرٍّ، فيَعلَمُ ما لم يَكُنْ له به عِلمٌ ممَّا يَحْقِرُه مِن أعمالِه، ويَتذكَّرُ ما كان قد عَلِمَه مِن قبْلُ، وتَذَكُّرُ المَنسيِّ والمَغفولِ عنه نَوعٌ مِن العِلمِ[2].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ سُؤالٌ: أنَّ كُلَّ نفْسٍ تَعلَمُ ما

= الرُّوحِ فيه. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٣/ ١٧٦)، ((الغرر البهية)) لزكريا الأنصاري (٥/ ٣٣١)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (١/ ١٢١).

قال ابنُ باز: (إسقاطُ الجنينِ فيه تفصيلٌ؛ فإذا كان في الأربعينَ الأُولى فالأمرُ فيه أوسَعُ، ولا يَنبغي إسقاطُه، لكنْ إذا اقتضَت المصلحةُ الشَّرعيَّةُ إسقاطَه لِمَضَرَّةٍ على الأمِّ، أو لهذا السَّببِ الَّذي قرَّره الأطبَّاءُ أنَّه قد يَتشوَّهُ بأسبابٍ فعَلَتْها الأمُّ: فلا حرَجَ في ذلك). ((فتاوى نور على الدرب)) (٢١/ ٤٣٠).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥١).

أحضَرت؛ لِقَولِه: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، فما معنى قَولِه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾؟

الجوابُ مِن وَجهَين:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ هذا هو مِن عَكسِ كَلامِهم الَّذي يَقصِدونَ به الإفراطَ -وإن كان اللَّفظُ مَوضوعًا للقَليلِ-، ومنه قَولُه تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحجر: ٢]، وكمَن يَسألُ فاضِلًا مسألةً ظاهِرةً، ويقولُ: هل عندَك فيها شَيءٌ؟ فيقولُ: «رُبَّما حَضَر شَيءٌ»، وغَرَضُه الإشارةُ إلى أنَّ عِندَه في تلك المسألةِ ما لا يقولُ به غيرُه؛ فكذا هاهنا.

الوَجهُ الثَّاني: لعَلَّ الكُفَّارَ كانوا يُتعِبونَ أنفُسَهم في الأشياءِ الَّتي يَعتَقِدونَها طاعاتٍ، ثمَّ بدا لهم يومَ القيامةِ خِلافُ ذلك، فهو المرادُ مِن هذه الآيةِ(١). والتَّنوينُ في ﴿نَفْسٌ﴾ إذَنْ للنَّوعِ، أي: عَلِمَت نفْسٌ كافِرةٌ أنَّ ما حَسِبَته طاعةً كان وَبالًا عليها(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ الافتِتاحُ بحَرفِ (إذَا) افتِتاحٌ مُشوِّقٌ؛ لأنَّ (إذَا) ظَرْفٌ يَستَدعي مُتعلَّقًا، ولأنَّه أيضًا شَرطٌ يُؤذِنُ بذِكرِ جَوابٍ بعْدَه، فإذا سَمِعَه السَّامعُ تَرقَّبَ ما سيأتي بعدَه، فعندَما يَسمَعُه يَتمكَّنُ مِن نَفْسِه كَمالَ تَمكُّنٍ، وخاصَّةً بالإطْنابِ بتَكريرِ كَلِمةِ (إذَا)،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٩).
ويُنظر ما يأتي في البلاغةِ (ص: ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣١٣).

وتَعدُّدِ الجُملِ الَّتي أُضيفَ إليها اثنَتَيْ عَشْرةَ مرَّةً، فإعادةُ كَلِمةِ (إِذَا) بعدَ (واو) العَطفِ في هذه الجُمَلِ المُتعاطِفةِ إطْنابٌ، وهذا الإطْنابُ اقْتَضاه قَصدُ التَّهويلِ، والتَّهويلُ مِن مُقْتَضَياتِ الإطْنابِ والتَّكريرِ[1].

- وفي إعادةِ (إِذَا) إشارةٌ إلى أنَّ مَضمونَ كُلِّ جُملةٍ مِن هذه الجُمَلِ الثِّنتَيْ عَشْرةَ مُستقِلٌّ بحُصولِ مَضمونِ جُملةِ الجَوابِ عندَ حُصولِه، بقَطْعِ النَّظرِ عن تَفاوُتِ زَمانِ حُصولِ الشُّروطِ؛ فإنَّ زَمنَ سُؤالِ المَوْءُودةِ، ونَشرِ الصُّحُفِ أقْرَبُ لِعلمِ النُّفوسِ بما أَحضرَتْ، أقْرَبُ مِن زَمانِ تَكويرِ الشَّمسِ وما عُطِفَ عليه ممَّا يَحصُلُ قبْلَ البَعثِ[2].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليْه في الجُمَلِ الثِّنتَيْ عَشْرةَ المُفتتَحاتِ بكَلِمةِ (إِذَا) مِن قولِه: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ إلى قولِه: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ﴾، والإخبارُ عنه بالمُسنَدِ الفِعليِّ، مع إمكانِ أنْ يُقالَ: إذا كُوِّرَتِ الشَّمسُ، وإذا انكَدرَتِ النُّجومُ... وهكذا؛ لإفادةِ الاهتِمامِ بتلك الأخبارِ المَجْعولةِ عَلاماتٍ ليَومِ البَعثِ؛ تَوسُّلًا بالاهتِمامِ بأشْراطِه إلى الاهتِمامِ به وتَحقيقِ وُقوعِه؛ لأنَّ الابْتداءَ بها أَدخَلُ في التَّهويلِ والتَّشويقِ، وليُفيدَ ذلك التَّقديمُ على المُسنَدِ الفعليِّ تَقوِّيَ الحُكمِ وتأكيدَه في جَميعِ تلك الجُملِ؛ رَدًّا على إنْكارِ مُنكِريه؛ فلذلك قيلَ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾، ولم يُقلْ: إذا كُوِّرَتِ الشَّمسُ، وهكذا نَظائِرُه[3].

- وصِيغةُ الماضي في الجُملِ الثِّنتَيْ عَشْرةَ الوارِدةِ شُروطًا لأداةِ الشَّرطِ (إذا) مُستَعمَلةٌ في مَعنى الاستِقبالِ؛ تَنبيهًا على تَحقُّقِ وُقوعِ الشَّرطِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٤٠، ١٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٤١، ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٤١).



- وفي قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قالَ هُنا: ﴿سُجِّرَتْ﴾ -أي: أُوقِدَتْ فَصارَتْ نارًا، أو مُلِئَتْ بتَفجيرِ بَعضِها إلى بَعضٍ حتَّى تَعودَ بَحرًا واحِدًا، مِن: (سَجَرَ التَّنُّورَ): إذا مَلأَه بالحَطَبِ ليُحمِيَه، وقالَ في (الانفِطارِ): ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣]: أي: سالَتْ مِياهُها على الأرضِ، فَصارَتْ بَحرًا واحِدًا، واختَلَطَ العَذبُ بالمِلحِ-؛ مُوافَقةً في الأوَّلِ لقولِه بعدَه: ﴿سُعِّرَتْ﴾؛ ليَقَعَ الوَعيدُ بتَسجيرِ البِحارِ، وتَسعيرِ النَّارِ. وفي الثَّاني لقولِه: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢]، أي: تَساقَطَتْ على الأرضِ[١]، فهذه الآيةُ مُناسِبةٌ لبقيَّةِ الآياتِ؛ لأنَّ معناه: تغييرُ أوصافِ تلك الأشياءِ عن حالاتِها، وتنقلِها عن أماكِنِها، فناسَبَ ذلك انفجارُ البحارِ؛ لتغيُّرِها عن حالِها مع بقائها[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ بمُناسَبةِ ذِكرِ تَزويجِ النُّفوسِ بالأجسادِ - على قولٍ في معنى التَّزويجِ- خُصَّ سُؤالُ المَوءُودةِ بالذِّكرِ دونَ غَيرِه ممَّا يُسألُ عنه المُجرِمون يومَ الحِسابِ؛ ذلك لأنَّ إعادةَ الأرواحِ إلى الأجسادِ كان بعْدَ مُفارَقتِها بالمَوتِ، والمَوتُ إمَّا بعارِضٍ جَسَديٍّ مِن انحِلالٍ أو مَرَضٍ، وإمَّا باعتِداءٍ عُدوانيٍّ مِن قَتلٍ أو قِتالٍ، وكان مِن أفظَعِ الاعتِداءِ على إزهاقِ الأرواحِ مِن أجسادِها اعتِداءُ الآباءِ على نُفوسِ أطفالِهم بالوَأْدِ؛ فإنَّ اللهَ جَعَلَ في الفِطرةِ حِرصَ الآباءِ على استِحياءِ -أي: طلَبِ حَياةِ- أبنائِهم، وجَعَلَ الأبَوَينِ سَببَ إيجادِ الأبناءِ؛ فالوَأْدُ أفظَعُ أعْمالِ أهلِ الشِّركِ. وسُؤالُ المَوْءودةِ سُؤالٌ تَعريضيٌّ مُرادٌ منه تَهديدُ وائِدِها ورُعْبُه بالعَذابِ[٣].

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٥).
(٢) يُنظر: ((كشف المعاني في المتشابه من المثاني)) لابن جماعة (ص: ٣٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٤).

- وأيضًا الاستِفهامُ في ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ﴾ تقريريٌّ، وإنَّما سُئِلَتْ عن تَعيينِ الذَّنْبِ المُوجِبِ قَتْلَها، دُون أنْ تُسأَلَ عن قاتِلِها؛ لزِيادةِ التَّهديدِ؛ لأنَّ السُّؤالَ عن تَعيينِ الذَّنْبِ مَع تَحقُّقِ الوائِدِ الَّذي يَسمَعُ ذلك السُّؤالَ أنْ لا ذَنْبَ لها، إشعارٌ للوائِدِ بأنَّه غَيرُ مَعذورٍ فيما صَنَعَ بها[1].

- قولُه: ﴿قُتِلَتْ﴾ قُرِئَ بتَشديدِ التَّاءِ[2]؛ لأنَّ الموءودةَ اسمُ جِنسٍ، فناسَبَ التَّكثيرُ باعتبارِ الأشخاصِ[3]، أو تُفيدُ مَعنى: أنَّه قَتلٌ شَديدٌ فَظيعٌ[4].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾

- قولُه: ﴿نُشِرَتْ﴾ قُرِئ بالتَّشديدِ[5]؛ للمُبالَغةِ في النَّشرِ، أو لكَثرةِ الصُّحُفِ المنْشورةِ، أو شِدَّةِ التَّطايُرِ[6].

- قولُه: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾، أي: هذا الجِنسُ كلُّه؛ أفرَدَه لأنَّه يُعلَمُ بالقُدرةِ على بعضِه القُدرةُ على الباقي[7].

و﴿كُشِطَتْ﴾، أي: قُلعتْ بقُوَّةٍ عظيمةٍ وسُرعةٍ زائدةٍ، وأُزيلتْ عن مَكانِها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٦).

(٢) قرأ أبو جعفرٍ بتشديدِ التَّاءِ، وقرأ الباقونَ بتخفيفِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٩).

(٥) قرأها نافعٌ وأبو جَعْفرٍ، وابنُ عامرٍ، ويعقوبُ، وعاصِمٌ بتخفيفِ الشِّينِ، وقرَأها الباقونَ بتَشديدِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٩، ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٩).

(٧) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨١).



الَّتي هي ساترةٌ له محيطةٌ به، أو عن الهواءِ المحيطِ بسَطْحِها الَّذي هو كالرُّوح لها، كما يُكشَطُ الإهابُ عمَّا هو ساترٌ له ومحيطٌ به مع شِدَّةِ الالتزاقِ به؛ لأنَّ ذلك يومُ الكشفِ والإظهارِ. والكشطُ: إزالةُ الإهابِ عن الحيوانِ الميِّتِ، وهو أعمُّ مِن السَّلخِ، والظَّاهرُ أنَّ السَّماءَ تبقَى مُنشقَّةً مُنفطِرةً تعرُجُ الملائكةُ بيْنَهما وبيْنَ أرضِ المحشرِ حتَّى يتِمَّ الحسابُ، فإذا قُضِيَ الحسابُ أُزيلتِ السَّماءُ مِن مكانِها؛ فالسَّماءُ مَكشوطةٌ، والمكشوطُ عنه هو عالَمُ الخُلودِ، ويكون ﴿كُشِطَتۡ﴾ مُعبَّرًا بها عن الإزالةِ[1].

- قولُه: ﴿سُعِّرَتۡ﴾ بتَشْديدِ العَينِ مُبالَغةً في الإسعارِ، أي: أُوقِدَت إيقادًا شديدًا[2].

- قولُه: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ﴾، أي: قُرِّبتْ مِن المؤمنينَ، ونُعِّمتْ ببَردِ العَيشِ وطِيبِ المستقَرِّ، والآيةُ مِن الاحتباكِ[3]: ذِكْرُ التَّسعيرِ أوَّلًا دالٌّ على ضِدِّه في الجَنَّة ثانيًا، وذِكرُ التَّقريبِ ثانيًا دالٌّ على مِثلِه أولًا[4].

٤- قولُه تعالَى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ هو جَوابُ (إذَا)، على أنَّ المرادَ بها: زَمانٌ واحِدٌ مُمتَدٌّ يَسَعُ الأمورَ المذكورةَ، لكنْ لا بمَعنى أنَّها تَعلَمُ ما تَعلَمُ في كُلِّ جُزءٍ مِن أجزاءِ ذلك الوَقتِ المَديدِ، أو عِندَ وُقوعِ داهِيةٍ مِن تلك الدَّواهي، بل عندَ نَشْرِ الصُّحُفِ، إلَّا أنَّه لَمَّا كان بَعضُ تلك الدَّواهي مِن مَباديهِ وبعضُها مِن رَوادفِه نُسِبَ عِلمُها بذلك إلى زَمانِ وَقْعِ كُلِّها؛ تَهويلًا للخَطْبِ، وتَفظيعًا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٠).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨١).

للحالِ[١]. وجُعِلَتْ مَعرفةُ النُّفوسِ لِجَزاءِ أعْمالِها حاصِلةً عندَ حُصولِ مَجموعِ الشُّروطِ الَّتي ذُكِرَتْ في الجُمَلِ الثِّنتَيْ عَشْرةَ؛ لأنَّ بعضَ الأحوالِ الَّتي تَضمَّنَتْها الشُّروطُ مُقارِنٌ لِحُصولِ عِلمِ النُّفوسِ بأعمالِها، وهي الأحوالُ السِّتَّةُ المَذكورةُ أخيرًا، وبَعضُ الأحوالِ حاصِلٌ مِن قبْلُ بقَليلٍ، وهي الأحوالُ السِّتَّةُ المَذكورةُ أوَّلًا؛ فنُزِّلَ القَريبُ مَنزلةَ المُقارِنِ؛ فلِذلك جُعِلَ الجَميعُ شُروطًا لأداةِ الشَّرطِ (إِذَا)[٢].

- قولُه: ﴿نَفْسٌ﴾ نَكِرةٌ في سِياقِ الشَّرطِ، مُرادٌ بها العُمومُ، أي: عَلِمَتْ كُلُّ نفْسٍ ما أحضَرَتْ[٣].

- وأيضًا تَنكيرُ النَّفْسِ المفيدُ لثُبوتِ العِلمِ المذكورِ لفَرْدٍ مِن النُّفوسِ أو لبَعضٍ منها؛ للإيذانِ بأنَّ ثُبوتَه لجَميعِ أفرادِها قاطبةً مِن الظُّهورِ والوُضوحِ بحيثُ لا يَكادُ يَحومُ حوْلَه شائبةُ اشْتِباهٍ قطعًا، يَعرِفُه كلُّ أحدٍ ولو جِيءَ بعِبارةٍ تدُلُّ على خِلافِه، وللرَّمزِ إلى أنَّ تلكَ النُّفوسَ العالِمةَ بما ذُكِرَ -مع تَوفُّرِ أفرادِها، وتَكثُّرِ أعدادِها- ممَّا يُستقَلُّ بالنِّسبةِ إلى جَنابِ الكِبرياءِ الَّذي أُشيرَ إلى بَعضِ بَدائعِ شُؤونِه المنْبئةِ عن عِظَمِ سُلطانِه. ويَجوزُ أنْ يَكونَ ذلك للإشعارِ بأنَّه إذا عَلِمَتْ حِينَئذٍ نفْسٌ مِن النُّفوسِ ما أحضَرَتْ، وَجَبَ على كُلِّ نفْسٍ إصلاحُ عَمَلِها؛ مَخافةَ أنْ تَكونَ هي تلك الَّتي عَلِمَتْ ما أحضَرَتْ؛ فكيفَ وكُلُّ نفْسٍ تَعلَمُه؟! على طَريقةِ قولِك -لِمَن تَنصَحُه-: لعلَّكَ ستَندَمُ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٩٣).

على ما فعَلْتَ، ورُبَّما نَدِمَ الإنسانُ على ما فَعَل! فإنَّك لا تَقصِدُ بذلك أنَّ نَدَمَه مَرجُوُّ الوُجودِ لا مُتيَقَّنٌ به، أو نادِرُ الوُقوعِ، بل تُريدُ أنَّ العاقِلَ يَجِبُ عليه أنْ يَجتَنِبَ أمرًا يُرجَى فيه النَّدَمُ، أو قَلَّ ما يَقَعُ فيه، فكيفَ به إذا كان قَطْعيَّ الوُجودِ كَثيرَ الوُقوعِ[1]؟!

- قولُه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾، أُسنِدَ الإحضارُ إلى النُّفوسِ؛ لأنَّها الفاعِلةُ للأعْمالِ الَّتي يَظهَرُ جَزاؤُها يومَئذٍ، فهذا الإسنادُ مِن إسنادِ فِعلِ الشَّيءِ إلى سَببِ فِعلِه[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ خَتَمَ الآيةَ هنا بقولِه: ﴿مَّآ أَحْضَرَتْ﴾، وختَمَها في الانفِطارِ بقَولِه: ﴿مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥]؛ قيل: وجْهُ ذلِك: أنَّ ما في هذه السُّورةِ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾، فقَرَأَها أرْبابُها فعَلِموا ما أحْضَرَت، وفي الانفطارِ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾، والقُبورُ كانت في الدُّنيا، فيَذكُرون ما قدَّموا في الدُّنيا وما أخَّروا في العُقبى؛ فكلُّ خاتمةٍ لائقةٌ بمَكانِها، وهذه السُّورةُ مِن أوَّلِها شَرطٌ وجَزاءٌ، وقسَمٌ وجَوابٌ[3].

وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّه رِعايةٌ للمُناسَبةِ؛ إذ شُروطُ الجَوابِ هنا طالَتْ بكَثرتِها، فحَسُنَ اختِصارُه لِيُوقَفَ عليه، وشُروطُه ثَمَّ قَصُرَتْ بقِلَّتِها، فحَسُنَ بَسْطُه لتَيَسُّرِ الوَقفِ عليه حِينَئذٍ[4]، وقيل غيرُ ذلك[5].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥١).
(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٦).
(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٠).
(٥) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٣٨)، ((كشف المعانى فى المتشابه من المثانى)) لابن جماعة (ص: ٣٧٤، ٣٧٥).

الآيات (١٥-٢٩)

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾
إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم
بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ
﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ
إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾: أي: النُّجومِ الَّتي تختفي في النَّهارِ فلا تُرى، والخُنوسُ: الانقِباضُ والاستِخفاءُ، تقول: خَنَس مِن بيْنِ القومِ، وانْخَنَسَ، أي: انقَبَض واستَخْفى، وأصلُ (خنس): يدُلُّ على استِخفاءٍ وتَستُّرٍ[1].

﴿ٱلْجَوَارِ﴾: أي: الَّتي تَجري في فَلَكِها بسُرعةٍ، جَمعُ جاريةٍ؛ مِنَ الجَرْيِ: وهو المَرُّ السَّريعُ[2].

﴿ٱلْكُنَّسِ﴾: أي: النُّجومِ الَّتي تَكنِسُ -تَستَتِرُ- في أبراجِها في السَّماءِ؛ مِن: كَنَس الوَحْشُ: إذا دَخَل كِناسَه، وهو بَيتُه الَّذي يأوي إليه، وأصلُ (كنس): يدُلُّ على استِخفاءٍ[3].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٦١).

﴿عَسْعَسَ﴾: أي: وَلَّى وذَهَب وأدبَرَ، أو: أقبَلَ بظَلامِه، فهو مِن الأضْدادِ، وعَسْعَسَ: مقلوبٌ عن «سَعْسَعَ»: إذا مَضَى، وأصلُ (سعع): يدُلُّ على ذَهابِ الشَّيءِ(١).

﴿تَنَفَّسَ﴾: أي: أضاءَ وأسفَرَ وانتَشَر ضَوؤُه وامتدَّ وتتابَع، وأصلُ (نفس): يدُلُّ على خُروجِ النَّسيمِ كيف كان، مِن رِيحٍ أو غَيرِها(٢).

﴿مَكِينٍ﴾: أي: وَجيهٍ عِندَ اللهِ تعالى؛ مِن: مَكُنَ مَكانةً: إذا عَلَت رُتبتُه عندَ غَيرِه، وأصلُ (مكن): يدُلُّ على الموضِعِ الحاوي للشَّيءِ(٣).

﴿بِٱلْأُفُقِ﴾: أي: الأُفُقِ الأعلى مِن ناحيةِ المَشرِقِ حيثُ تَطلُعُ الشَّمسُ، والأُفُق: ناحِيةُ السَّماءِ، وأصلُ (أفق): يدُلُّ على تَباعُدِ ما بيْن أطرافِ الشَّيءِ واتِّساعِه(٤).

﴿بِضَنِينٍ﴾: أي: ببَخيلٍ، والضِّنَّةُ: البُخلُ بالشَّيءِ النَّفيسِ، وأصلُ (ضنن): يدُلُّ على بُخلٍ بالشَّيءِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٥٧) و(٤/ ٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٢).

وقال الماوردي: (وأصلُه العسُّ وهو الامتلاءُ، ومنه قيل للقَدَحِ الكبيرِ: عُسٌّ؛ لامتلائِه بما فيه، فأُطلِق على إقبالِ الليلِ لابتداءِ امتلائه، وأُطلِق على إدْبارِه لاستكمالِ امتلائِه). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢١٧). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٩).

(٢) يُنظَر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢، ٧٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥٧)، =

﴿رَجِيمٍ﴾: أي: مَلْعُونٍ مَطْرُودٍ، والرَّجمُ: اللَّعنُ والطَّردُ والإبعادُ، وأصلُ الرَّجمِ: الرَّميُ بالحِجارةِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

رَدَّ اللهُ تعالى في هذه الآياتِ على افتراءاتِ قُرَيشٍ الذين كذَّبوا بنُبُوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وزَعموا أنَّه ساحِرٌ وكاهِنٌ وشاعِرٌ ومجنونٌ، وكذَّبوا بالوَحْيِ المُنزَّلِ عليه، فأقسَمَ تعالى بالنُّجومِ العَظيمةِ الَّتي تختَفي وتَغيبُ بالنَّهارِ، والَّتي تَجري في السَّماءِ وتَكنِسُ وتَسْتَتِرُ، وأقسَمَ باللَّيلِ إذا أقْبَلَ بظَلامِه وإذا أدبَرَ، وبالصُّبحِ إذا أقبَلَ وتَبَيَّنَ ضَوؤُه: إنَّ هذا القُرآنَ المُنزَّلَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو تبليغُ رَسولٍ كَريمٍ على اللهِ تعالى، وهو جِبريلُ عليه السَّلامُ، وهو صاحِبُ قُوَّةٍ عَظيمةٍ، وله عِندَ اللهِ تعالى مكانةٌ عاليةٌ، ومَنزِلةٌ رَفيعةٌ، وهو مُطاعٌ في السَّماءِ بيْن الملائِكةِ، أَمينٌ على ما ائتَمَنَه اللهُ عليه مِن الوَحْيِ.

ثمَّ خاطَبَهم اللهُ تعالى بقَولِه: وما نَبيُّكم محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّذي خالَطْتُموه -يا مَعْشَرَ قُرَيشٍ- وعَرَفْتُم صِدْقَه وأمانَتَه: بمَجنونٍ كما تَزعُمونَ، ولقد رأى محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جِبْريلَ في صُورتِه الَّتي خَلَقَه اللهُ عليها، في أُفُقِ الشَّمسِ الأَعْلى مِن جِهةِ المَشرِقِ حيثُ تَطلُعُ الشَّمسُ، وتُرى الأشياءُ بوُضوحٍ.

وما محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ببَخيلٍ على النَّاسِ بالقُرآنِ، بل هو حَريصٌ على تبليغِ القُرآنِ إلى جميعِ النَّاسِ، وما هذا القُرآنُ بقَولِ شَيطانٍ مَلعونٍ مَطرودٍ

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٦).

مِن رَحمةِ اللهِ، مَرجومٍ بالشُّهُبِ.

ثُمَّ قال تعالى موَبِّخًا لهم: فإلى أين تَذهَبونَ -أيُّها المُشرِكونَ- عن هذا القُرآنِ مع وُضوحِ الحَقِّ فيه بدَلائِلِه؟! وإلى أيِّ طَريقٍ تَعدِلونَ عنه؟!

ما هذا القُرآنُ إلَّا تذكيرٌ مِنَ اللهِ تعالى للخَلْقِ أجمعينَ؛ لِمَن شاء منهم أن يَستقيمَ على الحَقِّ، فيتَّبِعَه ويؤمِنَ به.

ثُمَّ ختم اللهُ سُبحانَه هذه السُّورةَ الكريمةَ ببيانِ أنَّ مشيئتَه هي النَّافذةُ، فقال: وما تَشاؤونَ الاستقامةَ على الحَقِّ إلَّا إذا شاء اللهُ رَبُّ العالَمينَ لكم ذلك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥﴾.

أي: فأُقسِمُ بالنُّجومِ العَظيمةِ الَّتي تختَفي وتَغيبُ[1].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٧، ٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٩٤) و(١١/ ٢٧٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٩٧).
المرادُ بالخنَّسِ الجوارِ الكُنَّسِ: النُّجومُ، واختُلِف هل هي السَّبعةُ أو الخمسةُ أو جميعُ النُّجومِ.
ممَّن قال: إنَّ المرادَ السَّبعةُ (الشَّمسُ والقمرُ وزُحَلُ وعُطارِدُ والمِرِّيخُ والمُشتَري والزُّهَرةُ): ابنُ جُزَي، والسيوطيُّ، والسعدي، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٦)، ((معترك الأقران)) للسيوطي (٢/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٣).
وممَّن قال: إنَّها الخمسةُ (بدونِ الشَّمسِ والقمرِ): مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، والرازي، والعُلَيمي، والمظهري. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٥٦)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٩٧)، ((التفسير المظهري)) (١٠/ ٢٠٧، ٢٠٨).
قال ابن جُزَي: (وقيل: يعني: النَّجومَ كلَّها؛ لأنَّها تَخنِسُ في جريِها، وتَكنِسُ بالنَّهارِ، أي: تسترُ، وتختفي بضَوءِ الشَّمسِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٦). =

﴿الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ١٦﴾.

أي: الَّتي تَجري في السَّماءِ وتَسْتَتِرُ(١).

= قيل: معنى خَنْسِ النُّجومِ: اختِفاؤُها في النَّهارِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، وابن تيميَّة، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٢).

وقيل: المعنى: رُجوعُها في مَجْراها. وممَّن قال بهذا المعنى: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، واستظهره الرَّازيُّ، وذهب إليه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٧)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٥).

قال ابنُ عطية: (أقسَم اللهُ تعالى بالخُنَّسِ الجَوارِ الكُنَّسِ، فقال جمهورُ المفَسِّرينَ: إنَّ ذلك الدَّراريُّ السَّبعةُ: الشَّمسُ، والقَمَرُ، وزُحَلُ، وعُطارِدُ، والمِرِّيخُ، والزُّهَرةُ، والمُشتَري، وقال عليُّ ابنُ أبي طالب: المرادُ الخَمسةُ دونَ الشَّمسِ والقَمَرِ؛ وذلك أنَّ هذه الكواكِبَ تَخنِسُ في جَرْيِها، أي: تتقهقَرُ فيما تَرى العَينُ... وقال عليُّ بنُ أبي طالبٍ أيضًا والحسنُ وقتادةُ: المرادُ النُّجومُ كلُّها؛ لأنَّها تخنسُ بالنَّهارِ حينَ تَخْتفي). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٣).

وقال الرازي: (القَولُ الأظهَرُ: أنَّ ذلك إشارةٌ إلى رُجوعِ الكواكِبِ الخَمْسةِ السَّيَّارةِ واستقامتِها، فرُجوعِها هو الخُنوسُ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٧، ٦٨).

وقال المظهري: (الخُنُوسُ: الرُّجوعُ مِن منتهى السَّيرِ الى مكانٍ ابتدَأَ منه، والمرادُ بها الكواكِبُ الخَمسةُ المُسمَّاةُ بالمتحَيِّرةِ، وهى: عُطارِدُ، والزُّهَرةُ، والمُشْتَري، والمِرِّيخُ، والزُّحَلُ؛ فإنَّها تُرى سيَّارةً مِن المغرِبِ إلى المشرِقِ، ثمَّ تَرجِعُ الى المغرِبِ، وقد تُرى ساكنةً؛ ولذلك سُمِّيَت مُتحَيِّرةً). ((التفسير المظهري)) (١٠/ ٢٠٧، ٢٠٨).

وقال ابن جُزَي: (وقيل: يعني: بقرَ الوحشِ، فالخنسُ على هذا مِن خَنَسِ الأنفِ، والكنسُ مِن سُكْناها في كِناسِها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٦). ويُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٦/ ٧٢).

ويُنظر الكلامُ عن (لَا أُقْسِمُ) والخلافُ فيها فيما تقدَّم (٤١/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٦).

والمراد بكُنوسِها: استتارُها وتواريها. وممَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ =

= سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبةَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٠٢)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٧).

وممَّن اختار أنَّ كُنوسَها هو اختِفاؤُها واسْتِتارُها بالنَّهارِ تحتَ ضَوءِ الشَّمسِ: الرازيُّ، والبِقاعي، والعُلَيمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢).

وقال الزَّجَّاج: (تَكْنِسُ: تَدخُلُ في كِنَاسِها، أي: تَغيبُ في المواضِعِ الَّتي تَغيبُ فيها). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٩٢). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٣).

وقال ابنُ عطيَّةَ وابنُ جُزَي: (هي تَكنِسُ في أبراجِها، أي: تستتِرُ). يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٦).

قال الرازي: (اختلَفوا في خُنوسِ النُّجومِ وكُنوسِها على ثلاثةِ أوجُهٍ:

فالقولُ الأظهَرُ: أنَّ ذلك إشارةٌ إلى رجوعِ الكواكبِ الخمسةِ السَّيَّارةِ واستقامَتِها؛ فرُجوعُها هو الخُنوسُ، وكُنوسُها اخْتِفاؤُها تحتَ ضَوءِ الشَّمسِ، ولا شكَّ أنَّ هذه حالةٌ عجيبةٌ، وفيها أسرارٌ عظيمةٌ باهرةٌ.

القولُ الثَّاني: ما رُويَ عن عليٍّ وعَطاءٍ ومُقاتلٍ وقَتادةَ: أنَّها هي جميعُ الكواكبِ، وخُنوسُها عبارةٌ عن غَيبوبتِها عن البصرِ في النَّهارِ، وكُنوسُها عبارةٌ عن ظُهورِها للبصرِ في اللَّيلِ، أي: تَظهَرُ في أماكِنِها، كالوَحشِ في كُنُسِها.

والقولُ الثَّالثُ: أنَّ السَّبعةَ السَّيَّارةَ تختلِفُ مَطالِعُها ومَغاربُها، على ما قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، ولا شكَّ أنَّ فيها مَطلِعًا واحدًا ومَغرِبًا واحدًا هما أقرَبُ المَطالِعِ والمَغارِبِ إلى سَمتِ رُؤوسِنا، ثمَّ إنَّها تأخُذُ في التَّباعُدِ مِن ذلك المَطلعِ إلى سائر المطالعِ طولَ السَّنةِ، ثمَّ ترجِعُ إليه؛ فخُنوسُها عبارةٌ عن تَباعُدِها عن ذلك المطلعِ، وكُنوسُها عبارةٌ عن عَودِها إليه، فهذا محتملٌ.

فعلى القولِ الأوَّلِ يكونُ القسَمُ واقعًا بالخمسةِ المتحيِّرةِ، وعلى القولِ الثَّاني يكونُ القسَمُ واقعًا بجميعِ الكواكبِ، وعلى هذا الاحتمالِ الَّذي ذكَرْتُه يكونُ القسَمُ واقعًا بالسَّبعةِ السَّيَّارةِ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٦).

وقال ابن جرير: (اختلَف أهلُ التَّأويلِ في الخُنَّسِ الجَوارِ الكُنَّسِ؛ فقال بعضُهم: هي النُّجومُ الدَّراريُّ الخَمسةُ، تَخنِسُ في مَجْراها فتَرجِعُ، وتَكنِسُ فتَستَتِرُ في بُيوتِها، كما تَكنِسُ الظِّباءُ =

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾.

أي: وأُقسِمُ باللَّيلِ إذا أقبَلَ بظَلامِه، وإذا أدبَرَ(١).

= في المغارِ... وقال آخَرونَ: هي بقَرُ الوَحشِ الَّتي تَكنِسُ في كِناسِها... وقال آخَرونَ: هي الظِّباءُ... وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه أقسَمَ بأشياءَ تَخنِسُ أحيانًا -أي: تغيبُ- وتَجري أحيانًا وتَكنِسُ أخرى، وكُنوسُها: أن تأويَ في مَكانِسِها، والمكانسُ عندَ العرَبِ هي المواضعُ الَّتي تأوي إليها بقرُ الوحشِ والظِّباءُ...، وغيرُ مُنْكَرٍ أن يُستعارَ ذلك في المواضعِ الَّتي تكونُ بها النُّجومُ مِن السَّماءِ، فإذْ كان ذلك كذلك، ولم يكُنْ في الآيةِ دَلالةٌ على أنَّ المرادَ بذلك النُّجومُ دونَ البقرِ، ولا البقرُ دونَ الظِّباءِ؛ فالصَّوابُ أن يُعَمَّ بذلك كلُّ ما كانت صِفتُه الخُنوسَ أحيانًا، والجَرْيَ أخرى، والكُنوسَ بآناتٍ، على ما وصَف جلَّ ثناؤُه مِن صِفَتِها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٥٢-١٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٦).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿عَسۡعَسَ﴾: أدبَرَ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والزمخشري، وابن عطية، وابن تيميَّة، وابن القيِّم، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٧٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (١/ ١١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وعَطاءٌ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٧).

قال ابنُ القَيِّم: (الأكثرونَ على أنَّ «عَسْعَسَ» بمعنى: ولَّى، وذَهَب، وأدبَرَ. هذا قولُ: عليٍّ، وابنِ عبَّاسٍ وأصحابِه... ومَن رجَّحَ أنَّه إدبارُه احتجَّ بقَولِه تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ * وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ * وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ [المدثر: ٣٢- ٣٤]، فأقسَمَ سبحانه بإدبارِ اللَّيلِ، وإسفارِ الصُّبحِ، وذلك نظيرُ عَسْعَسَةِ اللَّيلِ، وتنفُّسِ الصُّبحِ. قالوا: والأحسَنُ أن يكونَ القَسَمُ بانصرامِ اللَّيلِ، وإقبالِ النَّهارِ عَقيبَه مِن غَيرِ فَصْلٍ، فهذا أعظَمُ في الدَّلالةِ والعِبرةِ، بخِلافِ إقبالِ اللَّيلِ وإقبالِ النَّهارِ؛ فإنَّه لم يُعرَفِ =

= القَسَمُ في القرآنِ بهما، ولأنَّ بيْنَهما زمنًا طويلًا، فالآيةُ في انصِرام هذا ومجيءِ الآخَرِ عَقيبَه بغيرِ فَصْلٍ أبلَغُ؛ فذَكَر سُبحانَه حالةَ ضَعْفِ هذا وإدبارِه، وحالةَ قوَّةِ هذا وتنفُّسِه وإقبالِه يَطرُدُ ظُلْمةَ اللَّيلِ بتنفُّسِه، فكُلَّما تنفَّسَ هَرَبَ اللَّيلُ وأدبَرَ بيْن يديه، وهذا هو القَولُ. واللهُ أعلَمُ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (١/ ١١٨).

وحكى الفَرَّاءُ إجماعَ المفَسِّرينَ على هذا القَولِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٤٢).

وقال ابنُ جُزَي: (﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ يُقالُ: عَسْعَسَ: إذا كان غيرَ مُستحكِمِ الظَّلامِ؛ فقيل: ذلك في أوَّلِه، وقيل: في آخِرِه، وهذا أرجَحُ؛ لأنَّ آخِرَ اللَّيلِ أفضَلُ، ولأنَّه أعقَبَه بقَولِه: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي: استطار واتَّسَع). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٦).

وقيل: معنى ﴿عَسۡعَسَ﴾: أقبَلَ بظَلامِه. وممَّن ذهب إليه: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسِّجِسْتانيُّ، والسَّمْعانيُّ، والخازن، وابن كثير، والبِقاعي، والعُلَيمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٦٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٧، ٣٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والحسَنُ البصريُّ، وعطيَّةُ العَوْفيُّ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٧).

قال ابنُ كثير: (وعندي أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿عَسۡعَسَ﴾ إذا أقبَلَ، وإن كان يصِحُّ استِعمالُه في الإدبارِ، لكِنَّ الإقبالَ هاهنا أنسَبُ، كأنَّه أقسَم تعالى باللَّيلِ وظَلامِه إذا أقبَلَ، وبالفَجْرِ وضيائِه إذا أشرَقَ، كما قال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [اللَّيل: ١، ٢]، وقال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضُّحَى: ١، ٢]، وقال: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ [الأنْعام: ٩٦]، وغير ذلك مِن الآياتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٨).

وقال المُبَرِّدُ -كما نقله عنه القرطبيُّ- والزَّجَّاجُ، والرَّاغبُ، وابن عجيبة: المعنيانِ (أي: أقبَلَ وأدبَرَ) يَرجِعانِ إلى شَيءٍ واحدٍ، وهو ابتداءُ الظَّلامِ في أوَّلِه، وإدبارُه في آخِرِه. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ٢٥٠). ويُنظر أيضًا: ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٢٧٥).

قال الزَّجَّاج: (يُقالُ: عَسْعَسَ اللَّيلُ: إذا أقبَلَ، وعَسْعَسَ: إذا أدبَرَ، والمعنيانِ يَرجِعانِ إلى شَيءٍ =

﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾.

أي: وأُقسِمُ بالصُّبحِ إذا أقبَلَ وتَبَيَّنَ ضَوؤُه[1].

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر المُقسَمَ به؛ أتْبَعَه بذِكرِ المُقسَمِ عليه[2].

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾.

أي: إنَّ مَنْ يُنزِلُ هذا القُرآنَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رَسولٌ مِن عندِ اللهِ تعالى، حَسَنُ الخَلْقِ والأخلاقِ، وهو جبريلُ عليه السَّلامُ[3].

= واحدٍ، وهو ابتداءُ الظَّلامِ في أوَّلِه، وإدبارُه في آخِرِه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٩٢).

وقال الرَّاغب: (أي: أقبَلَ وأدبَرَ، وذلك في مبدَأِ اللَّيلِ ومُنتَهاه، فالعَسْعَسةُ والعِسَاسُ: رِقَّةُ الظَّلامِ، وذلك في طرَفَي اللَّيلِ). ((المفردات)) (ص: ٥٦٦).

وقال ابنُ كثير: (قال كثيرٌ مِن عُلَماءِ الأُصولِ: إنَّ لَفظةَ «عَسعَسَ» تُستعمَلُ في الإقبالِ والإدبارِ على وَجهِ الاشتراكِ؛ فعلى هذا يَصِحُّ أن يُرادَ كُلٌّ منهما. والله أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٨).

وذكر ابنُ عاشور أنَّه أُتِيَ بهذا الفعلِ لأنَّه يفيدُ حالَينِ صالحينِ للقسَمِ به فيهما؛ فهُما مِن مَظاهِرِ القدرةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣).

قال البِقاعي: (﴿وَٱلصُّبۡحِ﴾ أي: الَّذي هو أعدَلُ أوقاتِ النَّهارِ ﴿إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي: أضاء وأقبَلَ رَوْحُه ونَسيمُه، وأُنسُه ونَعيمُه، واتَّسَعَ نُورُه، وانفرج به عن اللَّيلِ دَيجورُه [أي: ظَلامُه]). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٦). =

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠)﴾.

أي: وهو صاحِبُ قُوَّةٍ عَظيمةٍ، وله عِندَ اللهِ تعالى مكانةٌ عاليةٌ، ومَنزِلةٌ رَفيعةٌ[١].

كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥].

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١)﴾.

أي: وهو مُطاعٌ في السَّماءِ عندَ الملائِكةِ، أَمينٌ على ما ائتَمَنَه اللهُ عليه، ومِن ذلك تبليغُه الوَحْيَ إلى أنبيائِه دونَ زيادةٍ أو نَقصٍ[٢].

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بَعدَ أنْ أَثنى اللهُ تعالى على القُرآنِ بأنَّه قَولُ رَسولٍ مُرسَلٍ مِن اللهِ، وكان قد تَضَمَّنَ ذلك ثَناءً على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه صادِقٌ فيما بَلَّغَه عن اللهِ

= قال القرطبي: (﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هذا جوابُ القَسَم). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٠)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٨).

قال الشوكاني: (﴿ثَمَّ أَمِينٍ﴾... ﴿ثَمَّ﴾ ظرفُ مكانٍ للبعيدِ، والعاملُ فيه ﴿مُطَاعٍ﴾ أوْ ما بعدَه، والمعنَى: أنَّه مُطاعٌ في السَّمواتِ أوْ أمينٌ فيها، أيْ: مُؤْتَمَنٌ على الوحيِ وغيرِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧٣).

تعالى؛ أَعقَبَه بإبْطالِ بُهْتانِ المُشرِكين فيما اختَلَقوه عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن قَولِهم: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤]، وقَولِهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾[١] [سبأ: ٨].

وأيضًا لَمَّا ذكَر فَضْلَ الرَّسولِ المَلَكيِّ الَّذي جاء بالقُرآنِ؛ ذَكَر فَضْلَ الرَّسولِ البَشَريِّ الَّذي نَزَل عليه القُرآنُ، ودعا إليه النَّاسَ، فقال[٢]:

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: وما نَبيُّكم محمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- يا أهلَ مكَّةَ، الَّذي خالَطْتُموه وعَرَفْتُم صِدْقَه وأمانَتَه: بمَجنونٍ كما تَزعُمونَ[٣]!

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

وقال الله سُبحانَه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٠).
قال ابنُ عطيَّة: (أجمَع المفسِّرونَ على أنَّ قَولَه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ يُرادُ به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ المُشرِكين كانوا إذا بَلَغَهم أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُخبِرُ أنَّه نَزَلَ عليه جِبريلُ بالوَحيِ مِن وَقتِ غارِ حِراءَ فما بعْدَه، استَهزَؤُوا وقالوا: إنَّ ذلك الَّذي يَتَراءى له هو جِنِّيٌّ! فكَذَّبهم اللهُ بنَفيِ الجُنونِ عنه، ثمَّ بتَحقيقِ أنَّه إنَّما رأى جِبريلَ القَويَّ الأَمينَ(١).

وأيضًا لَمَّا كان المجنونُ لا يُثبِتُ ما يَسمَعُه ولا ما يُبصِرُه حَقَّ الإثباتِ، فكان التَّقديرُ بعْدَ هذا النَّفيِ: «فلقد سَمِعَ مِن رَسولِنا إليه ما أُرسِلَ به حَقَّ السَّمْعِ، ما التبَسَ عليه فيه حَقٌّ بباطِلٍ»؛ عَطَفَ عليه الإخبارَ برِفعةِ شَأنِه في رُؤيةِ ما لم يَرَه غَيرُه، وأمانتِه، وجُودِه؛ فقال(٢):

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ٢٣﴾.

أي: ولقد رأى محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جِبْريلَ في صُورتِه الَّتي خَلَقَه اللهُ عليها، وذلك في السَّماءِ مِن جِهةِ المَشرِقِ حيثُ تَطلُعُ الشَّمسُ، وتُرى الأشياءُ بوُضوحٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٩).

قال الواحدي: (يعني: رأى محمَّدٌ جبريلَ عليهما السَّلامُ ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ يعني: حيثُ تَطلُعُ الشَّمسُ، في قَولِ الجَميعِ). ((البسيط)) (٢٣/ ٢٧٦).

وقال ابنُ عاشور: (الأُفُقُ: الفَضاءُ الَّذي يَبْدو للعَينِ مِن الكُرَةِ الهوائيَّةِ بيْن طَرَفَي مَطلَعِ الشَّمسِ ومَغرِبِها، مِن حيثُ يَلوحُ ضَوءُ الفَجرِ ويَبدو شَفَقُ الغُروبِ، وهو يلوحُ كأنَّه قُبَّةٌ زَرقاءُ، والمعنى: رآه ما بيْن السَّماءِ والأرضِ. و﴿ٱلْمُبِينِ﴾: وَصفُ الأُفُقِ، أي: للأُفُقِ الواضِحِ البَيِّنِ، والمقصودُ مِن هذا الوَصفِ نَعتُ الأُفُقِ الَّذي تَراءى منه جِبريلُ للنَّبيِّ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّه =

كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ * أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: ٥ - ١٥].

وعن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رأى جِبْريلَ له سِتُّمِئةِ جَناحٍ!))(١).

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا انتَفَى ما يُظَنُّ مِن لَبسِ السَّمعِ وزَيغِ البصَرِ، لم يَبْقَ إلَّا ما يتعَلَّقُ بالتَّأديةِ؛ فنفى ما يُتوَهَّمُ مِن ذلك(٢).

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿بِظَنِينٍ﴾ بالظَّاءِ، مِن الظِّنَّةِ، وهي التُّهْمةُ، أي: ليس محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمتَّهَمٍ فيما يُخبِرُهم به عن اللهِ، بل هو ثِقةٌ صادِقٌ في ذلك(٣).

= أُفُقٌ واضِحٌ بَيِّنٌ، لا تَشتَبِهُ فيه المرئيَّاتُ، ولا يُتخَيَّلُ فيه الخَيالُ. ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٩).

(١) رواه البخاريُّ (٣٢٣٢)، ومسلمٌ (١٧٤) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٣).

(٣) قرأَ بها ابنُ كثيرٍ، وأبو عَمرٍو، والكِسائيُّ، ورُوَيسٌ عن يَعقوبَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٨، ٣٩٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٧)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٦٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٢٤).

٢- قِراءةُ: ﴿بِضَنِينٍ﴾ بالضَّادِ، مِن الضَّنِّ، وهو البُخلُ، أي: ليس محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ببَخيلٍ عليهم بالوَحْيِ، بل هو يُعَلِّمُهم ما عَلَّمَه اللهُ تعالى مِن القُرآنِ، ويُبَلِّغُهم إيَّاه[1].

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: وما محمَّدٌ ببَخيلٍ على النَّاسِ بالقُرآنِ، ولا يَمتَنِعُ مِن إخبارِهم به، بل هو حَريصٌ على تبليغِ القُرآنِ إلى جميعِ النَّاسِ[2].

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٧)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٦٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٠، ٢٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٠).
قال ابنُ القَيِّم: (أجمَعَ المفَسِّرون على أنَّ ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ هاهنا: القُرآنُ والوَحْيُ، وقال الفَرَّاءُ: يقولُ تعالى: يأتيه غَيبُ السَّماءِ، وهو مَنفوسٌ فيه، فلا يَضِنُّ به عليكم. وهذا معنًى حَسَنٌ جدًّا؛ فإنَّ عادةَ النُّفوسِ الشُّحُّ بالشَّيءِ النَّفيسِ، ولا سيَّما عمَّن لا يَعرِفُ قَدْرَه، ويَذُمُّه، ويَذُمُّ مَن هو عِندَه، ومع هذا فهذا الرَّسولُ لا يَبخَلُ عليكم بالوَحْيِ الَّذي هو أنفَسُ شَيءٍ وأجَلُّه. وقال أبو عليٍّ الفارسيُّ: المعنى: يأتيه الغَيبُ فيُبَيِّنُه ويُخبِرُ به ويُظهِرُه، ولا يَكتُمُه كما يَكتُمُ الكاهِنُ ما عندَه ويُخْفيه حتَّى يأخُذَ عليه حُلْوانًا. وفيه معنًى آخَرُ: وهو أنَّه على ثِقةٍ مِن الغَيبِ الَّذي يُخبِرُ به، فلا يخافُ أن يَنتَقِضَ ويَظهَرَ الأمرُ بخِلافِ ما أخبَرَ به، كما يَقَعُ للكُهَّانِ وغَيرِهم ممَّن يُخبِرُ بالغَيبِ؛ فإنَّ كَذِبَهم أضعافُ صِدْقِهم، وإذا أخبَرَ أحَدُهم بخبَرٍ لم يكُنْ على ثقةٍ منه، بل هو خائِفٌ مِن ظُهورِ كَذِبِه، فإقدامُ هذا الرَّسولِ على الإخبارِ بهذا الغَيبِ العَظيمِ -الَّذي هو أعظَمُ الغَيبِ- واثِقًا به، مقيمًا عليه، مُبْديًا له في كُلِّ مَجمَعٍ ومُعيدًا، مُناديًا به على صِدْقِه، مُجلِبًا به على أعدائِه: مِن أعظَمِ الأدِلَّةِ على صِدْقِه). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٢٤، ١٢٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٤٢)، ((الحجة للقراء السبعة)) للفارسي (٦/ ٣٨١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر جَلالةَ كِتابِه وفَضْلَه بذِكْرِ الرَّسُولَينِ الكَريمَينِ -اللَّذَينِ وصلَ الكتابُ إلى النَّاسِ على أيديهما، وأثنى اللهُ عليهما بما أثنى؛ دفَعَ عنه كُلَّ آفةٍ ونَقصٍ ممَّا يَقدَحُ في صِدْقِه، فقال[1]:

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥)﴾.

أي: وما هذا القُرآنُ بقَولِ شَيطانٍ مَلعونٍ مَطرودٍ مِن رَحمةِ اللهِ، مَرجومٍ بالشُّهُبِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢].

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا لم يَدَعْ وَجهًا يُلَبَّسُ به على مَن لا يَعرِفُ حالَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ سَبَّبَ عنه قَولَه مُوَبِّخًا مُنكِرًا[3]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣).

قال ابن عطية: (﴿رَجِيمٍ﴾ معناه: مرجومٌ مبعدٌ بالكواكبِ واللَّعنةِ وغيرِ ذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٤).

وقال البِقاعي: (﴿رَجِيمٍ﴾ أي: مرجومٌ باللَّعنِ وغيرِه من الشُّهبِ؛ لأجْلِ استراقِ السَّمعِ، مطرودٌ عن ذلك). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٤).

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ٢٦﴾.

أي: فإلى أين تَذهَبونَ -أيُّها المُشرِكونَ- عن هذا القُرآنِ مع وُضوحِ الحَقِّ فيه بدَلائِلِه؟ وإلى أيِّ طَريقٍ تَعدِلونَ عنه(١)؟

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ٢٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعْدَ أنْ أفاقَهم مِن ضَلالتِهم؛ أرشَدَهم إلى حَقيقةِ القُرآنِ بقولِه(٢):

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ٢٧﴾.

أي: ما هذا القُرآنُ إلَّا تذكيرٌ مِنَ اللهِ تعالى لجَميعِ الإنسِ والجِنِّ، فيتَّعِظونَ به ويَعتَبِرونَ ويَنتَفِعونَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١٩).

قال ابنُ كثير: (أي: فأين تَذهَبُ عُقولُكم في تكذيبِكم بهذا القُرآنِ مع ظُهورِه ووُضوحِه، وبيانِ كَونِه جاء مِن عندِ اللهِ عزَّ وجَلَّ؟!). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٠).

وقال السعدي: (﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أي: كيف يَخطُرُ هذا ببالِكم؟ وأين عَزَبَت عنكم أذهانُكم حتَّى جعَلْتُم الحَقَّ الَّذي هو في أعلى دَرَجاتِ الصِّدقِ بمَنزِلةِ الكَذِبِ الَّذي هو أنزَلُ ما يكونُ، وأرذَلُ وأسفَلُ الباطِلِ؟! هل هذا إلَّا مِن انقِلابِ الحقائِقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٥).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى ﴿ذِكْرٌ﴾ أي: تَذكِرةٌ وعِظَةٌ وزَجْرٌ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحدي، والقرطبي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٠). =

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾.

أي: وذلك إنَّما يكونُ لِمَن شاء منكم أن يَستقيمَ على الحَقِّ، فيتَّبِعَه ويؤمِنَ به، وأمَّا مَن لا يُريدُ ذلك فلن ينتَفِعَ بالقُرآنِ[1].

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾.

أي: وما تَشاؤونَ الاستِقامةَ على الحَقِّ إلَّا إذا شاء الخالِقُ المالِكُ المدَبِّرُ ذلك

= قال السعدي: (﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يتذكَّرونَ به رَبَّهم، وما لَه مِن صِفاتِ الكَمالِ، وما يُنَزَّهُ عنه مِن النَّقائِصِ والرَّذائِلِ [والأمثالِ]، ويتذكَّرونَ به الأوامِرَ والنَّواهيَ وحُكْمَها، ويتذكَّرونَ به الأحكامَ القَدَريَّةَ والشَّرعيَّةَ والجَزائيَّةَ، وبالجُملة يتذكَّرون به مَصالِحَ الدَّارَينِ، ويَنالونَ بالعَمَلِ به السَّعادَتينِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣).

وقال ابنُ عاشور: (والذِّكْرُ اسمٌ يجمَعُ معانيَ الدُّعاءِ والوَعظِ بحُسنِ الأعمالِ، والزَّجْرِ عن الباطِلِ وعن الضَّلالِ، أي: ما القرآنُ إلَّا تذكيرٌ لجميعِ النَّاسِ، يَنتَفِعونَ به في صلاحِ اعتِقادِهم، وطاعةِ اللهِ رَبِّهم، وتهذيبِ أخلاقِهم، وآدابِ بَعضِهم مع بعضٍ، والمحافَظةِ على حُقوقِهم، ودَوامِ انتظامِ جماعتِهم، وكيف يُعامِلونَ غيرَهم مِن الأُمَمِ الَّذين لم يتَّبِعوه). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٥).

وقيل: قَولُه: ﴿ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: شَرَفٌ لهم، يَشْرُفُ قَدْرُهم به، ويَصيرون أئمَّةً يُقتدَى بهم، ويُختَلَفُ إليهم؛ ليُتعَلَّمَ منهم. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٤٣٩).

وقال البقاعي: (ما ﴿هُوَ﴾ أي: القُرآنُ الَّذي أتاكم به ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: شَرَفٌ للخَلْقِ كُلِّهم مِنَ الجِنِّ والإنسِ والملائكةِ، ومَوعِظةٌ بَليغةٌ عَظيمةٌ لهم). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين - جزء عم)) (ص: ٨١).

لكم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٥، ٥٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا * يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ [الإنسان: ٢٩ - ٣١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ * مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ أنَّ الوِلايةَ لها رُكنانِ: القُوَّةُ والأمانةُ، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وقال صاحِبُ مِصرَ ليوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾[2] [يوسف: ٥٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ بدَلٌ مِن ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، والتَّقديرُ: «إنْ هو إلَّا ذِكرٌ لِمَن شاء منكم أن يَستقيمَ»، وفائدةُ هذا الإبدالِ: أنَّ الَّذين شاؤوا الاستِقامةَ بالدُّخولِ في الإسلامِ هم المنتَفِعونَ بالذِّكْرِ، فكأنَّه لم يُوعَظْ به غيرُهم، والمعنى: أنَّ القرآنَ إنَّما ينتَفِعُ به مَن شاء أن يَستقيمَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٩٣، ٢٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧١).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ الاستِقامةُ هي الاعتِدالُ، ولا عَدْلَ أقوَمُ مِن عَدلِ اللهِ عزَّ وجَلَّ في شريعتِه. وفي الشَّرائعِ السَّابِقةِ كانت الشَّرائِعُ تُناسِبُ حالَ الأُمَمِ زمانًا ومكانًا وحالًا، وبعدَ بَعْثةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كانت شريعتُه تناسِبُ الأُمَّةَ الَّتي بُعِث النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليها مِن أوَّلِ بَعْثتِه إلى نهايةِ الدُّنيا؛ ولهذا كان مِن العباراتِ المعروفةِ: «إنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ صالحٌ لكُلِّ زمانٍ ومكانٍ وحالٍ»، لو تمسَّك النَّاسُ به لَأصلَحَ اللهُ الخَلْقَ[١].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ ضِدُّ الاستقامةِ انحِرافان: انحِرافٌ إلى جانِبِ الإفراطِ والغُلُوِّ، وانحرافٌ إلى جانبِ التَّفريطِ والتَّقصيرِ؛ ولهذا كان النَّاسُ في دِينِ اللهِ عزَّ وجَلَّ ثلاثةَ أشكالٍ: طرَفانِ ووَسَطٌ؛ طرَفٌ غالٍ مُبالِغٌ مُتنَطِّعٌ مُتعَنِّتٌ، وطرَفٌ آخَرُ مُفرِّطٌ مُقصِّرٌ مُهمِلٌ. الثَّالِثُ: وَسَطٌ بيْن الإفراطِ والتَّفريطِ، مستقيمٌ على دينِ اللهِ، هذا هو الَّذي يُحمَدُ، أمَّا الأوَّلُ الغالي، والثَّاني الجافي؛ فكِلاهما هالِكٌ[٢].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ أي: مَن أراد الهِدايةَ فعليه بهذا القُرآنِ؛ فإنَّه مَنجاةٌ له وهِدايةٌ، ولا هِدايةَ فيما سِواه[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هاتان الآيَتانِ مُتضَمِّنتانِ إثباتَ الشَّرعِ والقَدَرِ، والأسبابِ والمُسَبَّباتِ، وفِعلِ العبدِ واستِنادِه إلى فِعْلِ الرَّبِّ، ولكُلٍّ منهما عُبوديَّةٌ مختَصٌّ بها؛ فعُبوديَّةُ الآيةِ الأُولى: الاجتِهادُ واستِفراغُ الوُسعِ، والاختيارُ والسَّعيُ. وعُبوديَّةُ الثَّانيةِ:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٠).

الاستعانةُ باللهِ والتَّوكُّلُ عليه واللَّجأُ إليه، واستِنزالُ التَّوفيقِ والعَونِ منه، والعِلمُ بأنَّ العبدَ لا يمكِنُه أنْ يشاءَ ولا يَفْعَلَ حتَّى يَجعَلَه اللهُ كذلك. وقولُه: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يَنْتَظِمُ ذلك كلَّه ويَتضَمَّنُه، فمَن عَطَّلَ أحدَ الأمْرَينِ فقد جَحَدَ كَمالَ الرُّبوبيَّةِ وعَطَّلَها[١].

٧- قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: الموجِدُ لهم والمالِكُ، والمحسِنُ إليهم، والمرَبِّي لهم، وهو أعلَمُ بهم منهم؛ فمِن أجْلِ ذلك لا يَقدِرونَ إلَّا على ما قَدَّرَهم عليه، ويجِبُ على كُلٍّ منهم طاعتُه، والإقبالُ بالكُلِّيَّةِ عليه سبحانه وتعالى، وشُكْرُه؛ اسْتِمْطارًا للزِّيادةِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ * ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ حصَلَ مِن مَجموعِ الأَوصافِ الثَّلاثِ ما يُشبِهُ اللُّغزَ، يُحسَبُ به أنَّ المَوصوفاتِ ظِباءٌ أو وُحوشٌ؛ لأنَّ تلك الصِّفاتِ حَقائِقُها مِن أحوالِ الوُحوشِ. والألغازُ طَريقةٌ مُستَملَحةٌ عندَ بُلَغاءِ العَرَبِ، وهي عَزيزةٌ في كَلامِهم[٣].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ * ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ * وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هنا يُقسِمُ بحالاتِ الكواكِبِ في ظُهورِها واختِفائِها وجَرَيانِها، وبـ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، وهما أثَرانِ مِن آثارِ الشَّمسِ في غُروبِها وشُروقِها، والمُقسَمُ عليه: هو أنَّ القُرآنَ قَولُ رَسولٍ كَريمٍ، كأنَّه يقولُ: إنَّ القُرآنَ المقسَمَ عليه: حالُه في الثُّبوتِ والظُّهورِ، وحالُ النَّاسِ معه؛ كحالِ هذه الكواكِبِ الثَّوابتِ لديكم في ظُهورِها تارةً، واختفائِها أُخرى، وكحالِ اللَّيلِ

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٣).

والصُّبحِ؛ فهو عِندَ أناسٍ مَوضِعُ ثِقةٍ وهِدايةٍ، كالصُّبحِ في إسفارِه، قُلوبُهم مُتفَتِّحةٌ إليه، وعُقولُهم مُهتَدِيةٌ به؛ فهو لهم رُوحٌ ونُورٌ، وعندَ أُناسٍ مُظلِمةٌ أمامَه قُلوبُهم، عُمْيٌ عنه بصائِرُهم، وفي آذانِهم وَقْرٌ، وهو عليهم عَمًى، وأناسٌ تارةً وتارةً، كالنُّجومِ أحيانًا وأحيانًا، تارةً ينقَدِحُ نُورُه في قُلوبِهم، فتَظهَرُ مَعالِمُه فيَسيرون معه، وتارةً يَغيبُ عنهم نورُه، فتَخنِسُ عنه عُقولُهم وتَكنِسُ دُونَه قُلوبُهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْ﴾ [البقرة: ٢٠]، وليس بعيدًا أن يُقالَ: إنَّه مِن وَجهٍ آخَرَ؛ تُعتَبَرُ النُّجومُ كالكُتُبِ السَّابِقةِ، مضى عليها الظُّهورُ في حينِها والخَفاءُ بَعْدَها، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾: هو ظلامُ الجاهِليَّةِ، ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾: يُقابِلُه ظُهورُ الإسلامِ، وأنَّه سيَنتشِرُ انتِشارَ ضَوءِ النَّهارِ، ولا تقوى قوَّةٌ قَطُّ على حَجْبِه، وسيَعُمُّ الآفاقَ كُلَّها مهما وَقَفوا دُونَه: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[1] [الصف: ٨].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ * ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ * وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ * وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ مُناسَبةٌ بيْن ذِكْرِ هذه الآياتِ العُلْويَّةِ الأُفُقيَّةِ مع الرَّسولِ الَّذي أُقْسِمَ على أنَّه قولُه، وهو جِبريلُ؛ لأنَّ جِبريلَ عندَ اللهِ عزَّ وجَلَّ[2].

٤- الصُّبحُ هو الفَجْرُ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، وقال: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾[3] [هود: ٨١].

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٤٤).

قال عطية سالم بعدَ إيرادِ ما سبق: (وقد يكونُ في هذا الإيرادِ غرابةٌ على بعضِ النَّاسِ، ولا سيَّما وأنِّي لم أقِفْ على بحثٍ مُستقِلٍّ فيه، ولا توجيهٍ يُشيرُ إليه، ولكِنْ مع التَّتبُّعِ وجَدْتُ اطِّرادَه في مواضِعَ متعَدِّدةٍ، وجديرٌ بأن يُفرَدَ برسالةٍ).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٩).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٥/ ٢٩).

٥- قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، وفي التَّعبيرِ عن جِبريلَ بوَصفِ رَسولٍ إيماءٌ إلى أنَّ القولَ الَّذي يُبَلِّغُه هو رِسالةٌ مِن اللهِ، مأمورٌ بإبلاغِها كما هيَ[1].

٦- في قَولِه -تعالى- عن جِبريلَ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، وفي الآيةِ الثَّانيةِ عن محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١] أنَّ الرَّسولَ يُطلَقُ على البَشَرِ والمَلَكِ، بخِلافِ النَّبيِّ؛ فإنَّه لا يُطْلَقُ إلَّا على البَشَرِ، فيكونُ الرَّسولُ أعَمَّ مِن حيثُ مُتَعَلَّقُه، يعني: يكونُ للبَشَرِ والملائِكةِ[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ نُسِبَ القَولُ إلى الرَّسولِ؛ لأنَّ القَولَ الصَّادِرَ إليك عن رَسولٍ يُبَلِّغُه إليك عن مُرسِلٍ له: يَصِحُّ أن تَنسُبَه إليه تارةً، وإلى رَسولِه تارةً، وكِلاهما صَحيحٌ[3]، وقد ظَنَّ بَعضُ الغالِطينَ أنَّ إضافتَه إلى الرَّسولِ تقتضي أنَّه أنشَأَ حُروفَه، وهذا خَطَأٌ؛ لأنَّه لو كان جبريلُ أو محمَّدٌ هو الَّذي أنشأَ لَفْظَه ونَظْمَه، امتنَعَ أن يكونَ الآخَرُ الَّذي أنشأ ذلك، فلمَّا أضافه إلى هذا تارةً، وإلى هذا تارةً؛ عُلِمَ أنَّه أضافه إليه لأنَّه بَلَّغَه وأدَّاه، لا لأنَّه أنشأه وابتدَأَه لا لَفْظَه ولا معناه؛ ولهذا قال: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، ولم يقُلْ: لَقَولُ مَلَكٍ ولا نبيٍّ، فذَكَر ذلك بلَفظِ الرَّسولِ؛ ليُبَيِّنَ أنَّه يُبَلِّغُ عن غَيرِه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[4] [المائدة: ٦٧].

٨- في هذه الآياتِ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أقسَمَ اللهُ عزَّ وجَلَّ على أنَّ هذا القُرآنَ قَولُ هذا الرَّسولِ الكريمِ الملَكيِّ جِبريلَ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٤١، ٥٤٢).

الصَّلاةُ والسَّلامُ، وفي آيةٍ أُخرى بَيَّن اللهُ سُبحانَه وتعالى وأقسَمَ أنَّ هذا القُرآنَ قَولُ رَسولٍ كريمٍ بَشَريٍّ، في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ * وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ * إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖ﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٤١]، فكيف يَصِفُ اللهُ القرآنَ بأنَّه قَولُ الرَّسولِ البَشَريِّ والرَّسولِ المَلَكيِّ؟

الجوابُ: نعَمْ، الرَّسولُ المَلَكيُّ بَلَّغه إلى الرَّسولِ البَشَريِّ، والرَّسولُ البَشَريُّ بَلَّغَه إلى الأُمَّةِ، فصار قَولَ جبريلَ بالنِّيابةِ، وقَولَ محمَّدٍ بالنِّيابةِ، والقائلُ الأوَّلُ هو اللهُ عزَّ وجلَّ؛ فالقرآنُ قولُ اللهِ حقيقةً، وقولُ جبريلَ باعتبارِ أنَّه بَلَّغَه لمحمَّدٍ، وقولُ محمَّدٍ باعتبارِ أنَّه بَلَّغَه إلى الأُمَّةِ[(١)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ * مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ وُصِفَ الرَّسولُ المَلَكيُّ في هذه السُّورةِ بأنَّه كَريمٌ، قَويٌّ، مَكينٌ عند الرَّبِّ تعالى، مُطاعٌ في السَّمَواتِ، أمينٌ، فهذه خَمسُ صِفاتٍ تتضَمَّنُ تزكيةَ سَنَدِ القُرآنِ، وأنَّه سَماعُ محمَّدٍ مِن جبريلَ، وسماعُ جبريلَ مِن ربِّ العالَمينَ، فناهيك بهذا السَّنَدِ عُلُوًّا وجَلالةً! تَوَلَّى اللهُ سُبحانَه بنَفْسِه تزكيتَه[(٢)].

١٠- في قَولِه -تعالى- عن جِبريلَ: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ تنبيهٌ على أُمورٍ:

أحدُها: أنَّه بقُوَّتِه يَمنعُ الشَّياطينَ أنْ تدنوَ مِن القُرآنِ، وأنْ يَنالوا منه شَيئًا، وأنْ يَزيدوا فيه أو يَنْقُصوا منه، بل إذا رآه الشَّيطانُ هَرَبَ منه، ولَمْ يَقْرَبْه.

الثَّاني: أنَّه مُوالٍ لهذا الرَّسولِ الَّذي كَذَّبْتُموه، ومُعاضِدٌ له، ومُوَادٌّ له وناصِرٌ، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]، ومَن كان هذا القويُّ وليَّه ومِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٨).
(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢٠).

أنصارِه وأعوانِه، ومُعَلِّمَه: فهو المَهْديُّ المنصورُ، واللهُ هاديه وناصِرُه.

الثَّالثُ: أنَّ مَن عادى هذا الرَّسولَ فقد عادى صاحِبَه ووليَّه جِبريلَ، ومَن عادى ذا القُوَّةِ والشِّدَّةِ فهو عُرْضَةٌ للهَلاكِ.

الرَّابعُ: أنَّه قادِرٌ على تنفيذِ ما أُمِرَ به لقُوَّتِه، فلا يَعْجِزُ عن ذلك، مُؤَدٍّ له كما أُمِرَ به لأمانتِه، فهو القَوِيُّ الأمينُ، وأحدُكم إذا انتَدبَ غيرَه في أمْرٍ مِن الأُمورِ لِرسالةٍ أو وِلايةٍ أو وَكالةٍ أو غَيرِها فإنَّما يَنتَدِبُ لها القَويَّ عليه، الأمينَ على فِعْلِه، وإنْ كان ذلك الأمرُ مِن أهمِّ الأُمورِ عندَه انتَدبَ له قَوِيًّا أمينًا مُعَظَّمًا ذا مكانةٍ عندَه، مُطاعًا في النَّاسِ، كما وَصَفَ اللهُ عبْدَه جبريلَ بهذه الصِّفاتِ، وهذا يدُلُّ على عَظَمةِ شأنِ المُرْسِلِ والرَّسولِ والرِّسالةِ والمُرْسَلِ إليه؛ حيثُ انتَدبَ له الكريمَ القويَّ المكينَ عندَه، المطاعَ في الملأِ الأعلى، الأمينَ حقَّ الأمينِ؛ فإنَّ الملوكَ لا تُرسِلُ في مُهِمَّاتِها إلَّا الأشرافَ ذَوِي الأقدارِ والرُّتَبِ العاليةِ[(١)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ أنَّ جبريلَ له مَكانةٌ ووَجاهةٌ عِندَه سُبحانَه، وهو أقربُ الملائكةِ إليه[(٢)].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾ إشارةٌ إلى عُلُوِّ مَنزلةِ جبريلَ؛ إذْ كان قَرِيبًا مِن ذي العَرْشِ سُبحانَه[(٣)].

١٣- في قَولِه -تعالى- عن جبريلَ: ﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ جنودَ جبريلَ وأعوانَه يُطيعونَه إذا نَدَبَهم لنَصرِ صاحِبِه وخَليلِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٤)].

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذا الَّذي تُكَذِّبونَه وتُعادونَه سيَصيرُ مُطاعًا في الأرضِ، كما أنَّ جِبريلَ مُطاعٌ في السَّماءِ، وأنَّ كلًّا مِن الرَّسولَينِ مُطاعٌ في مَحَلِّه وقَومِه[١].

١٥- قال اللهُ تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ هذا عَظيمٌ جدًّا؛ أنَّ الرَّبَّ عزَّ وجَلَّ يُزَكِّي عَبْدَه ورَسولَه المَلَكيَّ جِبريلَ كما زكَّى عَبْدَه ورَسولَه البَشَريَّ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بقَولِه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾[٢] [التكوير: ٢٢].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ تعظيمٌ لجبريلَ بأنَّه بمَنزِلةِ الملوكِ المُطاعِينَ في قَومِهم، فلَمْ يَنْتَدِبْ لهذا الأمرِ العظيمِ إلَّا مِثلَ هذا المَلَكِ المُطاعِ[٣].

١٧- قال تعالى: ﴿أَمِينٍ﴾ وَصْفُ جبريلَ بالأمانةِ؛ إشارةٌ إلى حفْظِه ما حُمِّلَه، وأدائِه له على وَجْهِه[٤].

١٨- لَمَّا كان جِبرائيلُ هو الَّذي جاء بالرِّسالةِ، وهو صاحِبُ الوَحيِ، وهو غَيبٌ عن النَّاسِ، لم يَرَوه بأبصارِهم، ولم يَسمَعوا كلامَه بآذانِهم، وزَعَم زاعِمونَ أنَّ الَّذي يأتيه شيطانٌ يُعَلِّمُه ما يقولُ، أو أنَّه إنَّما يُعَلِّمُه إيَّاه بعضُ الإنسِ- أخبَرَ اللهُ العِبادَ عن الرَّسولِ الَّذي جاء به، ونعَتَه أحسَنَ النَّعتِ، وبَيَّن حالَه أحسَنَ البَيانِ، وذلك كُلُّه إنَّما هو تشريفٌ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونَفْيٌ عنه ما زعموه، وتقريرٌ للرِّسالةِ؛ إذ كان هو صاحِبَه الَّذي يأتي بالوَحيِ، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، أي: أنَّ الرَّسولَ البَشَريَّ لم يَنطِقْ به مِن عِندِ نَفْسِه، وإنَّما هو مُبَلِّغٌ يقولُ ما قِيلَ له؛ فكان في اسمِ الرَّسولِ إشارةٌ إلى مَحْضِ التَّوَسُّطِ والسِّعايةِ، ثمَّ

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٩).
(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٣).

وَصَفَه بالصِّفاتِ الَّتي تَنفي كلَّ عَيب؛ مِنَ القُوَّة والمُكْنة والأمانة، والقُرْب مِنَ اللهِ سُبحانَه، فلمَّا استقرَّ حالُ الرَّسولِ الملَكيِّ بَيَّن أنَّه مِن جِهتِه، وأنَّه لا يجيءُ إلَّا بالخيرِ، وكان الرَّسولُ البَشَريُّ معلومًا ظاهِرُه عِندَهم، وهو الَّذي يُبَلِّغُهم الرِّسالةَ، ولولاه لَمَا أطاقُوا الأخْذَ عن الرَّسولِ الملَكيِّ[1].

١٩- قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾. في قَولِه تعالى: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه قد صَحِبَكم سِنينَ قبْلَ ذلك، ولا سابقةَ له بما تقولونَ فيه وتَرمُونَه من الجُنونِ والسِّحْرِ وغيرِ ذلك! وأنَّه لولا سابقتُه وصُحبتُه إيَّاكم لَمَا استَطَعْتُم الأخْذَ عنه، أَلَا تَسمَعُه يقولُ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩][2]؛ ففيه تنبيهٌ على نِعْمتِه على البَشَرِ وإحسانِه إليهم؛ إذْ بَعَثَ إليهم مَن يَصحَبُهم ويَصحَبونَه بَشَرًا مِثْلَهم؛ فإنَّهم لا يُطيقونَ الأخذَ عن المَلَكِ[3].

٢٠- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ الظَّاهِرُ -واللهُ أعلَمُ- أنَّ هذه السُّورةَ نزَلَت قبْلَ ليلةِ الإسراءِ؛ لأنَّه لم يَذكُرْ فيها إلَّا هذه الرُّؤيةَ، وهي الأُولى، وأمَّا الثَّانيةُ وهي المذكورةُ في قَولِه: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: ١٣ - ١٦]، فتلك إنَّما ذُكِرَت في سُورةِ «النَّجْمِ»، وقد نزَلَت بَعْدَ سُورةِ «الإسراءِ»[4].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ أنَّ جِبريلَ مَلَكٌ موجودٌ في الخارجِ، يُرى بالعِيانِ، ويُدْرِكُه البصَرُ، لا كما يقولُ المتفلسِفةُ ومَن قَلَّدَهم: إنَّه

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٣٨٩، ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٥٣٩).

ويُنظر ما يأتي في البلاغة (ص: ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٩).

العَقلُ الفَعَّالُ، وإنَّه ليس ممَّا يُدْرَكُ بالبصَرِ! وحقيقتُه عِندَهم أنَّه خيالٌ موجودٌ في الأذهانِ لا في الأعيانِ! وهذا ممَّا خالَفوا به جميعَ الرُّسُلِ وأتْباعَهم، وخَرَجوا به عن جَميعِ المِلَلِ؛ ولهذا كان تقريرُ رؤيةِ النَّبيِّ لجبريلَ أهمَّ مِن تقريرِ رؤيتِه لربِّه تعالى؛ فإنَّ رؤيتَه لجِبريلَ هي أصلُ الإيمانِ الَّذي لا يَتِمُّ إلَّا باعتِقادِها، ومَن أنْكَرَها كَفَرَ قَطْعًا، وأمَّا رؤيتُه لربِّه تعالى فغايتُها أنْ تكونَ مَسألةَ نزاعٍ لا يَكْفُرُ جاحِدُها بالاتِّفاقِ، فنحن إلى تقريرِ رؤيتِه لجِبريلَ أحوَجُ مِنَّا إلى تقريرِ رؤيتِه لربِّه تعالى، وإنْ كانت رُؤيةُ الرَّبِّ أعظَمَ مِن رُؤيةِ جِبريلَ ومَن دُونَه؛ فإنَّ النُّبُوَّةَ لا يَتوقَّفُ ثُبوتُها عليها البَتَّةَ[1].

٢٢- قال تعالَى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ وُصِف الأُفُقُ الَّذي تَراءى منه جِبريلُ للنَّبيِّ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّه أُفُقٌ واضِحٌ بَيِّنٌ لا تَشتبِهُ فيه المَرئيَّاتُ، ولا يُتخيَّلُ فيه الخَيالُ، وجُعِلَتْ تلك الصِّفةُ عَلامةً على أنَّ المَرئيَّ مَلَكٌ وليس بخَيالٍ؛ لأنَّ الأخْيِلةَ الَّتي يَتخيَّلُها المَجانينُ إنَّما يَتخيَّلُونها على الأرضِ تابِعةً لهم، على ما تَعوَّدوه مِن وَقتِ الصِّحَّةِ[2].

٢٣- قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ هذا إبْطالٌ لقَولِ المُشركينَ في الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّه كاهِنٌ؛ فإنَّهم كانوا يَزعُمون أنَّ الكُهَّانَ تأْتيهم الشَّياطينُ بأخبارِ الغَيبِ، قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢]، وقال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]، وقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]، وهُم كانوا يَزعُمون

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٩، ١٦٠).

أنَّ الكاهِنَ يَتَلقَّى عن شَيطانِه، ويُسَمُّون شَيطانَه رَئِيًّا[١].

٢٤- قال اللهُ تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ إنَّ الَّذينَ لم يَشاؤوا أنْ يَسْتَقيموا هم الكافِرونَ بالقرآنِ، وهم المَسوقُ لهم الكلامُ، ويُلْحَقُ بهم على مَقاديرَ مُتفاوِتةٍ كلُّ مَن فَرَّط في الاهتداءِ بشَيءٍ مِن القرآنِ مِن المسلمينَ؛ فإنَّه ما شاءَ أنْ يستقيمَ لِمَا فَرَطَ منه في أحوالٍ أو أزمانٍ أو أمكنةٍ، وفي هذه الآيةِ إشارةٌ بَيِّنَةٌ على أنَّ مِنَ الخَطَأِ أن يُوزَنَ حالُ الدِّينِ الإسلاميِّ بمِيزانِ أحوالِ بَعضِ المُسلِمينَ أو مُعظَمِهم، كما يَفعَلُه بَعضُ أهلِ الأنظارِ القاصِرةِ مِنَ الغَربيِّينَ وغَيرِهم؛ إذ يَجعَلونَ وِجهةَ نَظَرِهم التَّأَمُّلَ في حالةِ الأُمَمِ الإسلاميَّةِ، ويَستَخلِصونَ مِن استقرائِها أحكامًا كُلِّيَّةً يَجعَلونَها قَضايا لفَلْسفتِهم في كُنْهِ الدِّيانةِ الإسلاميَّةِ[٢]!

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ الأسبابَ لا تَستَقِلُّ بالتَّأثيرِ في مُسَبَّباتِها[٣].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ ما كان مِن فِعْلِ المخلوقِ فهو بمشيئةِ اللهِ[٤].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ مشيئةَ الإنسانِ تابعةٌ لمشيئةِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٥].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٦٦، ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٦٧).

(٥) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٢١٩).

ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ العبدَ فاعلٌ حقيقةً، وله مَشيئةٌ وقُدرةٌ[١].

٢٩- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لا يَدُلُّ على أنَّ العبدَ ليس بفاعِلٍ لفِعْلِه الاختياريِّ، ولا أنَّه ليس بقادرٍ عليه، ولا أنَّه ليس بمُريدٍ، بل يدُلُّ على أنَّه لا يَشاؤُه إلَّا أنْ يشاءَ اللهُ، وهذه الآيةُ ردٌّ على الطَّائِفتَينِ: المُجْبرةِ الجَهميَّةِ، والمُعتَزِلةِ القَدَريَّةِ؛ فإنَّه تعالى قال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ فأثْبَتَ للعَبدِ مشيئةً وفِعلًا، ثُمَّ قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فبَيَّنَ أنَّ مَشيئةَ العبدِ مُعَلَّقةٌ بمشيئةِ اللهِ، والأُولى ردٌّ على الجَبْريَّةِ، وهذه رَدٌّ على القَدَريَّةِ الَّذين يقولون: قد يشاءُ العَبدُ ما لا يَشاؤه اللهُ! كما يقولون: إنَّ اللهَ يشاءُ ما لا يَشاؤونَ[٢]! فدَلَّت الآيةُ على أنَّ مَشيئتَه سُبحانَه نافِذةٌ لا يُمكِنُ أن تُعارَضَ أو تُمانَعَ، ففي هذه الآيةِ وأمثالِها رَدٌّ على هاتَينِ الفِرقتَينِ؛ لأنَّه أثبَتَ لهم مَشيئةً، لكِنْ بخَلْقِه لا بخَلْقِهم[٣].

٣٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لَمَّا وَصَفَ نَفْسَه سُبحانَه بأنَّه لا يَخرُجُ شَيءٌ عن أَمْرِه، أَتْبَعَ ذلك الوَصْفَ بما هو كالعِلَّةِ لذلك، فقال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٤].

٣١- قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ في هذه الآيةِ، وآيةِ سورةِ الإنسانِ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠] إفْصاحٌ عن شَرَفِ

---

(١) يُنظر: ((مجموعة الرسائل والمسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤٨٨).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٦).

أهلِ الاستِقامةِ بِكَونِهم بمَحَلِّ العِنايةِ مِن رَبِّهم؛ إذْ شاءَ لهم الاستِقامةَ، وهَيَّأَهم لها[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ * ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾

- قولُه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ الفاءُ لتَفريعِ القَسَمِ وجَوابِه على الكَلامِ السَّابقِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ ما تَقدَّمَ مِن الكَلامِ هو بمَنزِلةِ التَّمهيدِ لِما بعْدَ الفاءِ؛ فإنَّ الكَلامَ السَّابقَ أفادَ تَحقيقَ وُقوعِ البَعثِ والجَزاءِ، وهم قدْ أنكَروه، وكَذَّبوا القُرآنَ الَّذي أنذَرهم به، فلمَّا قُضِيَ حَقُّ الإنذارِ به، وذُكِرَ أشْراطُه، فُرِّعَ عنه تَصديقُ القُرآنِ الَّذي أنذَرَهم به، وأنَّه مُوحًى به مِن عِندِ اللهِ؛ فالتَّفريعُ هنا تَفريعُ معنًى وتَفريعُ ذِكرٍ معًا[2].

- قولُه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ القَسَمُ هنا مُرادٌ به تأكيدُ الخَبَرِ وتَحقيقُه، وأُدمِجَ فيه أَوصافُ الأشياءِ المُقسَمِ بها؛ للدَّلالةِ على تَمامِ قُدرةِ اللهِ تعالَى[3].

- و(الْخُنَّسِ): جَمعُ خانسةٍ؛ وهي الَّتي تَخنِسُ، أي: تَختَفي. و(الجَواري): جَمعُ جاريةٍ؛ وهي الَّتي تَجري، أي: تَسيرُ سَيرًا حَثيثًا. و(الْكُنَّسِ): جَمعُ كانِسةٍ، يُقالُ: كَنَسَ الظَّبْيُ، إذا دَخَلَ كِناسَه (بكَسرِ الكافِ)؛ وهو البَيتُ الَّذي يَتَّخِذُه للمَبيتِ. وهذه الصِّفاتُ المُرادُ بمَوصوفاتِها: الكَواكِبُ، وُصِفْنَ بذلك؛ لأنَّها تَكونُ في النَّهارِ مُختفِيةً عن الأنظارِ، فشُبِّهَتْ بالوَحشيَّةِ المُختفِيةِ في شَجَرٍ ونَحوِه، فقيلَ: (الْخُنَّسِ)، وهو مِن بَديعِ التَّشبيهِ؛ لأنَّ الخُنوسَ اختِفاءُ الوَحشِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عن أنظارِ الصَّيَّادينَ ونَحوِهم دُون سُكونٍ في كِناسٍ، وكذلك الكَواكِبُ؛ لأنَّها لا تُرى في النَّهارِ لغَلَبةِ شُعاعِ الشَّمسِ على أُفُقِها، وهي مع ذلك مَوجودةٌ في مَطالِعِها، وشَبَّهَ ما يَبدو للأنظارِ مِن تَنقُّلِها في سَمْتِ النَّاظِرين للأُفُقِ -باعتِبارِ اختلافِ ما يُسامِتُها مِن جُزءٍ مِن الكُرةِ الأرضيَّةِ- بخُرُوجِ الوَحشِ، فشُبِّهَتْ حالةُ بُدُوِّها بعْدَ احتِجابِها مع كَونِها كالمُتحَرِّكةِ بحالةِ الوَحْشِ تَجري بعدَ خُنوسِها تَشبيهَ التَّمثيلِ، وهو يَقتَضي أنَّها صارَتْ مَرئيَّةً؛ فَلذلك عَقَّبَ بعْدَ ذلك بوَصفِها بالكُنَّسِ، أي: عندَ غُروبِها، تَشبيهًا لغُروبِها بدُخولِ الظَّبْيِ أو البَقَرةِ الوَحشيَّةِ كِناسَها بعدَ الانْتشارِ والجَريِ؛ فشُبِّهَ طُلوعُ الكوكبِ بخُروجِ الوَحشيَّةِ مِن كِناسِها، وشُبِّهَ تَنقُّلُ مَرآها للنَّاظرِ بجَرْيِ الوَحشيَّةِ عندَ خُروجِها مِن كِناسِها صَباحًا، وشُبِّهَ غُروبُها بعدَ سَيْرِها بكُنوسِ الوَحشيَّةِ في كِناسِها، وهو تَشبيهٌ بَديعٌ[(١)].

- وفي قَولِه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ * ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ * وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ احتِباكٌ[(٢)]؛ ذِكْرُ خُنوسِ الكواكِبِ وكُنوسِها أوَّلًا يُفهِمُ ظُهورَها ثانيًا، وذِكْرُ اللَّيلِ ثانيًا يُفهِمُ حَذْفَ النَّهارِ أوَّلًا[(٣)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ * وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ عُطِفَ القَسَمُ باللَّيلِ على القَسَمِ بالكَواكِبِ؛ لمُناسَبةِ جَرَيانِ الكَواكِبِ في اللَّيلِ، ولأنَّ تَعاقُبَ اللَّيلِ والنَّهارِ مِن أجَلِّ مَظاهِرِ الحِكمةِ الإلَهيَّةِ في هذا العالَمِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٢، ١٥٣).
(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٩١).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٤).

- الفعلُ (عَسْعَسَ) مِن الأضْدادِ؛ يُقالُ: عَسْعَسَ، إذا أَقبَلَ ظَلامُه، وعَسْعَسَ، إذا أَدبَرَ ظَلامُه؛ وبذلك يَكونُ إيثارُ هذا الفِعلِ لإفادَتِه كِلا حالَينِ صالِحَينِ للقَسَمِ به فِيهما؛ لأنَّهما مِن مَظاهِرِ القُدرةِ؛ إذ يَعقُبُ الظَّلامَ الضِّياءُ، ثمَّ يَعقُبُ الضِّياءَ الظَّلامُ، وهذا إيجازٌ[(١)].

- قولُه: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ عُطِفَ على القَسَمِ باللَّيلِ القسَمُ بالصُّبحِ حِينَ تَنفُّسِه -أي: انشِقاقِ ضَوئِه-؛ لمُناسَبةِ ذِكرِ اللَّيلِ، ولأنَّ تَنفُّسَ الصُّبحِ مِن مَظاهِرِ بَديعِ النِّظامِ الَّذي جَعَلَه اللهُ في هذا العالَمِ[(٢)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ * مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾

- ضَميرُ ﴿إِنَّهُۥ﴾ عائدٌ إلى القُرآنِ، ولم يَسبِقْ له ذِكرٌ، ولكنَّه مَعلومٌ مِن المقامِ في سِياقِ الإخبارِ بوُقوعِ البَعثِ؛ فإنَّه ممَّا أخبَرَهم به القرآنُ، وكذَّبوا بالقرآنِ مِن أجْلِ ذلك[(٣)].

- والرَّسولُ الكريمُ يُرادَ به: جِبريلُ عليْه السَّلامُ؛ وُصِفَ جِبريلُ برَسولٍ؛ لأنَّه مُرسَلٌ مِن اللهِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقُرآنِ. وإضافة (قَوْل) إلى (رَسُولٍ) لأَدْنى مُلابَسةٍ؛ لأنَّ جِبريلَ يُبَلِّغُ ألْفاظَ القُرآنِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيَحكِيها كما أَمَرَه اللهُ تعالَى، فهو قائِلُها؛ أي: صادِرةٌ منه ألْفاظُها[(٤)].

- واستُطرِدَ في خِلالِ الثَّناءِ على القُرآنِ الثَّناءُ على المَلَكِ المُرسَلِ به؛ تَنويهًا بالقُرآنِ، فإجراءُ أوصافِ الثَّناءِ على ﴿رَسُولٖ﴾ للتَّنويهِ به أيضًا، وللكِنايةِ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٥٤، ١٥٥).

أنَّ ما نَزَل به صِدقٌ؛ لأنَّ كَمالَ القائلِ يدُلُّ على صِدقِ القَولِ(١).

- ووُصِفَ جِبريلُ بقولِه: ﴿مَكِينٍ﴾، وخُصَّ مِن أوصافِ اللهِ ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾؛ ليَدُلَّ على عِظَمِ مَنزلةِ جِبريلَ عندَ اللهِ ومَكانتِه؛ لأنَّ حالَ الشَّخصِ يَتفاوَتُ بتَفاوُتِ حالِ مَن له عندَه المنزِلةُ(٢). وأيضًا عُدِلَ عن اسمِ الجَلالةِ إلى ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾؛ لتَمثيلِ حالِ جِبريلَ ومَكانَتِه عندَ اللهِ بحالةِ الأميرِ الماضي في تَنفيذِ أمرِ المَلِكِ، وهو بمَحَلِّ الكَرامةِ لَدَيْه(٣).

- وتَوسيطُ قولِه: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ بيْنَ ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ و﴿مَكِينٍ﴾؛ ليَتنازَعَه كِلَا الوَصفَينِ على وَجْهِ الإيجازِ(٤).

- وفي إجْراءِ تِلك الصِّفاتِ على جِبريلَ في هذا المَقامِ إدْماجٌ(٥) لتَعظيمِ الرَّسولِ، وأنَّه بَلَغ مِن المَكانةِ وعُلُوِّ المَنزِلةِ عندَ ذي العَرشِ أنْ جعَلَ السَّفيرَ بيْنَه وبيْنَه مِثلَ هذا المَلَكِ المُقرَّبِ المُطاعِ الأَمينِ(٦).

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ عَطفٌ على جُملة ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩]؛ فهو داخِلٌ في خَبَرِ القَسَمِ جَوابًا ثانِيًا عن القَسَمِ، والمَعنى: وما هو (أي: القُرآنُ) بقَولِ مَجنونٍ -كَما تَزعُمون-، فأَبطَلَ قولَهم إبْطالًا مُؤكَّدًا ومُؤيَّدًا؛ فتأْكيدُه بالقَسَمِ وبزِيادةِ (الباء) بعْدَ النَّفيِ، وتأييدُه بما أومَأَ إليه وصْفُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٦).

(٦) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣١٩).

بأنَّ الَّذي بلَّغَه صاحِبُهم؛ فإنَّ وصْفَ (صاحِب) كِنايةٌ عن كَونِهم يَعلَمون خُلُقَه وعَقلَه، ويَعلَمون أنَّه ليس بمَجنونٍ؛ إذْ شأْنُ الصَّاحِبِ ألَّا تَخفَى دَقائقُ أحوالِه على أصحابِه، والمَعنى: نَفيُ أنْ يَكونَ القُرآنُ مِن وَساوِسِ المَجانينِ؛ فسَلامةُ مُبَلِّغِه مِن الجُنونِ تَقتَضي سَلامةَ قولِه عن أنْ يَكونَ وَسوَسةً(١).

- قولُه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ التَّعرُّضُ لعُنوانِ المصاحَبةِ؛ للتَّلويحِ بإحاطَتِهم بتَفاصيلِ أحوالِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ خُبْرًا، وعِلمِهم بنَزاهته عليه السَّلامُ عمَّا نَسَبوه إليْه بالكُلِّيَّةِ، فالعُدولُ عن اسمِ النَّبيِّ العَلَمِ إلى ﴿صَاحِبُكُم﴾؛ لِما يُؤْذِنُ به ﴿صَاحِبُكُم﴾ مِن كَونِهم على عِلمٍ بأحوالِه(٢).

- وتَسميةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَجنونًا في قولِه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ جاءَ على المُشاكَلةِ(٣) وإطْباقِ الجَوابِ على ما سُمِعَ مِن كُفَّارِ مكَّةَ، ويُؤيِّدُه أنَّ قولَه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ جوابُ القَسَمِ -وذلك على قولٍ-، أي: أُقسِمُ بهذه الأشياءِ أنَّ القُرآنَ نَزَلَ به جِبريلُ، وأنَّ صاحِبَكم ليس بمَجنونٍ؛ لأنَّهم قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾(٤) [الحجر: ٦].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ الضَّنينُ هو: البَخيلُ، أي: وما صاحِبُكم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٩).

(٣) المُشاكَلةُ: هي ذِكرُ الشَّيءِ بغيرِ لَفظِه؛ لِوُقوعِه في صُحبتِه، كقولِه تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[الشورى: ٤٠]، فالجزاءُ عن السَّيِّئةِ في الحقيقةِ غيرُ سيِّئةٍ، والأصلُ: وجزاءُ سيِّئةٍ عقوبةٌ مِثلُها. يُنظر: ((خزانة الأدب)) للحموي (٢/ ٢٥٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٠٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٧١، ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣١٨).

ببَخيلٍ، أي: بما يُوحَى إليه، وما يُخبِرُ به عن الأُمورِ الغَيْبيَّةِ طَلَبًا للانتِفاعِ بما يُخبِرُ به، بحَيثُ لا يُنبِّئُكم عنه إلَّا بعِوَضٍ تُعْطونه، وذلك كِنايةٌ عن نَفيِ أن يكونَ كاهِنًا أو عرَّافًا يَتَلقَّى الأخبارَ عن الجِنِّ؛ إذ كان المُشرِكون يَتَرَدَّدون على الكُهَّانِ، فأقامَ لهم الفَرْقَ بيْنَ حالِ الكُهَّانِ وحالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإشارةِ إلى أنَّ النَّبيَّ لا يَسألُهم عِوَضًا عمَّا يُخبِرُهم به، وأنَّ الكاهِنَ يأخُذُ على ما يُخبِرُ به ما يُسَمُّونه حُلْوانًا، فيكونُ هذا المعنى مِن قَبيلِ قولِه تعالَى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧]، ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠]، ونحوِ ذلكَ، ويَتعلَّقُ ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ بقولِه: ﴿بِضَنِينٍ﴾، وحرْفُ (على) على هذا الوجْهِ بمعْنى الباءِ، مِثل قولِه تعالَى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، أي: حَقيقٌ بي، أو لتَضمينِ (ضَنِين) معْنى حَريصٍ، والحِرْصُ: شِدَّةُ البخلِ، أي: وما محمَّدٌ بكاتمٍ شيئًا مِن الغَيبِ، فما أخبَرَكم به فهو عَينُ ما أوحَيْناهُ إليه. وقد يكونُ البَخيلُ على هذا كِنايةً عن كاتِمٍ، وهو كِنايةٌ بمَرتَبةٍ أُخْرى عن عدَمِ التَّغييرِ، والمَعنى: وما صاحِبُكم بكاتِمٍ شَيئًا مِن الغَيبِ، أي: ما أَخبَرَكم به فهو الحَقُّ[(١)].

- قولُه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ عَطفٌ على ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩]، وهذا رُجوعٌ إلى ما أقسَمَ عليه مِن أنَّ القُرآنَ قولُ رَسولٍ كَريمٍ، بعدَ أن استُطرِدَ بيْنَهما بتلك المُستَطْرَداتِ الدَّالَّةِ على زيادةِ كَمالِ هذا القَولِ بقُدُسيَّةِ مَصدَرِه، ومَكانةِ حامِلِه عندَ اللهِ، وصِدقِ مُتلَقِّيه منه عن رُؤْيةٍ مُحقَّقةٍ لا تَخيُّلَ فيها؛ فكان التَّخلُّصُ إلى العَوْدِ لتَنزيهِ القُرآنِ بمُناسَبةِ ذِكرِ الغَيبِ في قولِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٢، ١٦٣).

تعالَى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤]؛ فإنَّ القُرآنَ مِن أَمرِ الغَيبِ الَّذي أُوحيَ به إلى مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفيه كَثيرٌ مِن الأخبارِ عن أُمورِ الغَيبِ؛ الجَنَّةِ، والنَّارِ، ونَحوِ ذلك[١].

- و﴿رَّجِيمٍ﴾ فعيلٌ بمعنَى مفعولٍ، أي: مَرجوم، والمرجومُ: المُبعَدُ الَّذي يَتباعَدُ النَّاسُ مِن شَرِّه، فإذا أقبَلَ عليهم رجَموه، فهو وصْفٌ كاشفٌ[٢] للشَّيطانِ؛ لأنَّه لا يكونُ إلَّا مُتبرَّأً منه[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ مُعترِضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٥] وقولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧]، و(الفاء) لتَفريعِ التَّوبيخِ والتَّعجيزِ على الحُججِ المُتقدِّمةِ المُثبتةِ أنَّ القُرآنَ لا يَجوزُ أنْ يَكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٣).

(٢) الصِّفةُ الكاشفةُ: هي الَّتي تُبيِّنُ الواقعَ، ولا تُقيِّدُ المَوصوفَ؛ لأنَّ الصِّفاتِ منها صِفةٌ مقيِّدةٌ تُخرِجُ ما سِواه، ومنها صفةٌ كاشِفةٌ تبيِّنُ حقيقةَ أمرِه، فهي خبرٌ عن المَوصوفِ عندَ التَّحقيقِ، تبيِّنُ ماهيَّةَ الشَّيءِ بأن تكونَ وصفًا لازمًا مختصًّا به. والصِّفةُ إذا كان لها مفهومٌ فهي مقيِّدةٌ، وإن لم يكن لها مفهومٌ فهي كاشفةٌ، أي: مبيِّنةٌ للحقيقة، مثال ذلك: قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فقولُه: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صفةٌ كاشفةٌ، ولا مفهومَ مخالفةٍ له، فلا يصحُّ لأحدٍ أن يقولَ: أمَّا مَن عبَدَ معه إلهًا آخَرَ له بُرهانٌ به فلا مانعَ مِن ذلك! لاستِحالةِ وُجودِ بُرهانٍ على عبادةِ إلهٍ آخَرَ معه، فقولُه: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ وصفٌ مطابقٌ للواقعِ؛ لأنَّهم يَدْعون معه غيرَه بلا بُرهانٍ، فذِكْرُ الوصفِ لموافقته الواقِعَ، لا لإخراجِ المفهومِ عن حُكمِ المنطوق. ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، وقولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. يُنظر: ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٧)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢٩٩، ٣١٤)، ((دراسات أصولية في القرآن الكريم)) للحفناوي (ص: ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٤).

كَلامَ كاهِنٍ، وأنَّه وَحيٌ مِن اللهِ بواسِطةِ المَلَكِ[١].

- و(أَيْنَ): اسمُ استِفهامٍ عن المَكانِ، وهو استِفهامٌ إنْكاريٌّ عن مَكانِ ذَهابِهم، أي: طَريقِ ضَلالِهم[٢].

ويَجوزُ أنْ يَكونَ الاستِفهامُ هنا مستَعمَلًا في التَّعجيزِ عن طَلَبِ طَريقٍ يَسلُكونه إلى مَقصدِهم مِن الطَّعنِ في القُرآنِ، والمَعنى: أنَّه قد سُدَّتْ عليْكم طُرُقُ بُهْتانِكم؛ إذِ اتَّضحَ بالحُجَّةِ الدَّامِغةِ بُطلانُ ادِّعائِكم أنَّ القُرآنَ كَلامُ مَجنونٍ، أو كَلامُ كاهِنٍ، فمَاذا تَدَّعون بعدَ ذلك[٣]؟!

- وقد أُرسِلَتْ جُملةُ ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ مَثلًا، ولعلَّه مِن مُبتَكَراتِ القُرآنِ. ووُجِدَ في كَلامِ بَعضِهم: أين يذهَبُ بك؟ لِمَن كان في خَطأٍ وعَمايةٍ[٤].

٧- قولُه تعالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾

- قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ هذه الجُملةُ تَتنزَّلُ مَنزِلةَ المُؤكِّدةِ لجُملةِ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٥]؛ ولذلك جُرِّدَتْ عن العاطِفِ؛ ذلك أنَّ القَصْرَ المُستَفادَ مِن النَّفيِ والاستِثْناءِ في قولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ يُفيدُ قَصْرَ القُرآنِ على صِفةِ الذِّكرِ، أي: لا غيرَ ذلك، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ[٥] قُصِدَ منه إبْطالُ أنْ يَكونَ قولَ شاعِرٍ، أو قولَ كاهِنٍ، أو قولَ مَجنونٍ، فمِن جُملةِ ما أَفادَه القَصْرُ نَفيُ أنْ يَكونَ قولَ شيطانٍ رَجيمٍ، وبذلك كان فيه تأْكيدٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٤، ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٦٥).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٨).

لجُملة ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾[1].

- فإنْ قِيل: القرآنُ يَشتمِلُ على أحاديثِ الأنبياءِ والأُمَمِ، وهو أيضًا مُعجِزةٌ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكيف قُصِرَ على كَونِه ذِكرًا؟

فالجوابُ: أنَّ القصْرَ هنا إضافيٌّ، والقصرُ الإضافيُّ لا يُقصَدُ منه إلَّا تخصيصُ الصِّفةِ بالمَوصوفِ بالنِّسْبةِ إلى صِفةٍ أُخْرى خاصَّةٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ القَصْرُ حَقيقيًّا[2] مُفيدًا قَصْرَ القُرآنِ على الذِّكرِ دُونَ غَيرِ ذلك مِن الصِّفاتِ؛ فإنَّ ما اشتَمَلَ عليْه مِن القَصصِ والأخبارِ مَقصودٌ به المَوعِظةُ والعِبرةُ، وأمَّا إعْجازُه فله مَدخلٌ عَظيمٌ في التَّذْكيرِ؛ لأنَّ إعْجازَه دَليلٌ على أنَّه ليس بكَلامٍ مِن صُنْعِ البشَرِ، وإذا عُلِمَ ذلك وَقَعَ اليَقينُ بأنَّه حَقٌّ[3].

- وقولُه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ بَدَلَ بَعضٍ مِن كُلٍّ، وأُعيدَ مع البَدَلِ حرفُ الجَرِّ العامِلُ مِثله في المُبدَلِ منه لتأْكيدِ العامِلِ[4]. وأُبدِلَ مِن (العالَمينَ) قولُه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾؛ لِأنَّهم المُنتَفِعون بالتَّذْكيرِ[5].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿مِنكُمْ﴾ للَّذين خُوطِبوا بقَولِه: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦]، وإذا كان القُرآنُ ذِكرًا لهم، وهم مِن جُملةِ العالَمينَ، كان ذِكْرُ ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ مِن بَقيَّةِ العالَمينَ أيضًا بحُكْمِ قِياسِ المُساواةِ؛ فَفي الكَلامِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٥).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٥، ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٩).

كِنايةٌ عن ذلك[١].

- قولُه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ في مَفهومِ الصِّلةِ تَعريضٌ بأنَّ الَّذين لم يَتذَكَّروا بالقُرآنِ ما حالَ بيْنَهم وبيْنَ التَّذكُّرِ به إلَّا أنَّهم لم يَشاؤُوا أنْ يَستقيموا، بل رَضُوا لأنفُسِهم بالاعْوِجاجِ -أي: سُوءِ العَملِ والاعتِقادِ-؛ ليَعلَمَ السَّامِعون أنَّ دوامَ أولئك على الضَّلالِ ليس لقُصورِ القُرآنِ عن هَديهم، بل لأنَّهم أَبَوا أنْ يَهتَدوا به؛ إمَّا للمُكابَرةِ فقد كانوا يَقولون: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥]، وإمَّا للإعْراضِ عن تَلقِّيه؛ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾[٢] [فصلت: ٢٦].

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ تَذْييلًا[٣] أو اعْتِراضًا في آخِرِ الكَلامِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ حالًا؛ والمَقصودُ التَّكْميلُ والاحْتِراسُ[٤] في مَعنى ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾، أي: ولِمَن شاءَ له ذلك من

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) التَّذييل: هو أن يُذَيِّلَ المتكلِّمُ كلامَه بعْدَ تمام معناهُ بجملةٍ تحقِّقُ ما قبْلَها، وذلك على ضربَين: ضرْبٍ لا يَزيدُ على المعنى الأوَّلِ، وإنَّما يؤكِّدُه ويحقِّقُه. وضرْبٍ يُخرِجُه المتكلِّمُ مخرجَ المثلِ السَّائرِ؛ ليشتهرَ المعنى؛ لكثرةِ دورانِه على الألسِنةِ. يُنظر: ((البديع)) لأسامة بن منقذ (ص: ١٢٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٣٨٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٧٩، ١٨٠)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٦- ٨٨).

(٤) الاحتِراسُ: هو التَّحرُّزُ من الشَّيءِ والتَّحفُّظُ منه، وهو نوعٌ من أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشَيءٍ بعيدٍ، فيُؤتى بكلامٍ يَدفعُ ذلك الاحتمالَ. أو الإتيانُ في كلامٍ يوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يَدفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه بعضُهم: التَّكميلَ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٤٥)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٢٠٨)، ((البرهان =

العالَمينَ[(١)].

- وفي قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ * لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ في آخِرِ سُورةِ (الإنسانِ) قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠]، والفَرْقُ بيْنَهما: أنَّ في هذه الآيةِ وُصِفَ اللهُ تعالَى بـ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهو مُفيدٌ التَّعليلَ لارْتِباطِ مَشيئةِ مَن شاءَ الاستِقامةَ مِن العالَمينَ لِمَشيئةِ اللهِ؛ ذلك لأنَّه رَبُّ العالَمينَ؛ فهو الخالِقُ فيهم دَواعيَ المَشيئةِ، وأسبابَ حُصولِها المُتَسلْسِلةَ، وهو الَّذي أرشَدَهم للاستِقامةِ على الحَقِّ، وبهذا الوَصفِ ظهَرَ مَزيدُ الاتِّصالِ بيْنَ مَشيئةِ النَّاسِ الاستِقامةَ بالقُرآنِ، وبيْنَ كَونِ القُرآنِ ذِكرًا للعالَمينَ. وأمَّا آيةُ سُورةِ (الإنسانِ) فقد ذُيِّلَتْ بقَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، أي: فهو بعِلمِه وحِكمتِه يَنوطُ مَشيئتَه لهم الاستِقامةَ بمَواضِعِ صَلاحِيَتِهم لها، فيُفيدُ أنَّ مَن لم يَشأْ أنْ يَتَّخِذَ إلى رَبِّه سَبيلًا قد حَرَمَه اللهُ تعالى مِن مَشيئتِه الخَيرَ بعِلمِه وحِكمتِه، كِنايةً عن شَقائِهم[(٢)].



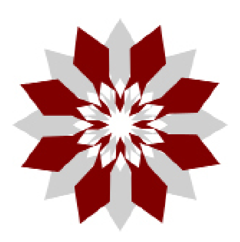
= في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).

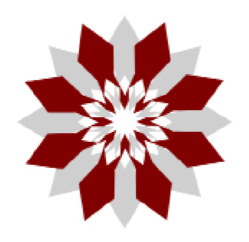
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٧).

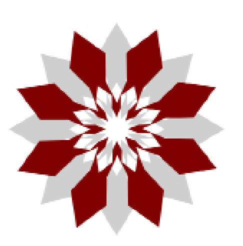
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الانفِطارِ







سورةُ الانفِطارِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ: بسُورةِ (الانفِطارِ)(١).

وسُمِّيَت أيضًا بسورةِ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾: فعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن سَرَّه أن يَنظُرَ إلى يومِ القِيامةِ كأنَّه رأيُ عَينٍ فلْيَقرَأْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾))(٢).

وعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قام مُعاذٌ فصَلَّى العِشاءَ الآخِرةَ، فطَوَّلَ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أفتَّانٌ يا مُعاذُ؟! أفتَّانٌ يا مُعاذُ؟! أينَ كُنتَ عن ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾؟))(٣).

---

(١) سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ سورَةَ «الانفطارِ» في المصاحفِ ومُعْظَمِ التَّفاسيرِ؛ لقولِه في مُفتَتَحِها: ﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٣٣)، وأحمد (٤٨٠٦).

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٣٣)، وجوَّده ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٥٦٤)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٨/ ٩٦)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٨/ ٤٢٤).

(٣) أخرجه النَّسائيُّ (٩٩٧).

صَحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٩٩٧).

وقال ابنُ كثيرٍ في ((الأحكام الكبير)) (٣/ ١٨٩): (أصلُ هذا الحديثِ في صَحيحِ البُخاريِّ).

والحديثُ أصلُه في الصَّحيحَينِ؛ أخرجه البخاريُّ (٦١٠٦)، ومسلمٌ (٤٦٥)، ولفظُ مسلمٍ: ((اقرَأْ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾)).

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

مَن قَرَأها فكأنَّه يَنظُرُ إلى يومِ القيامةِ رَأْيَ عَينٍ:

كما في حديثِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما المتقدِّمِ.

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الانفِطارِ مَكِّيَّةٌ، ونقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[1].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

إثباتُ البعثِ، وبيانُ أهوالِ يومِ القيامةِ، وتنبيهُ النَّاسِ إلى وجوبِ الاستعدادِ له[2].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- وَصفُ أهوالِ يومِ القيامةِ.

٢- ذِكرُ جانبٍ مِن نِعَمِ اللهِ على خَلْقِه.

٣- بيانُ أنَّ أعمالَ الإنسانِ مُوكَلٌ بها ملائِكةٌ كِرامٌ كاتِبونَ.

٤- بيانُ حُسنِ عاقِبةِ الأبرارِ، وسُوءِ عاقِبةِ الفُجَّارِ.

---

(١) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٤)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣٠٧).

٥- بيانُ عِظَمِ يومِ الحِسابِ وشِدَّةِ هَولِه، وتجَرُّدِ النُّفوسِ مِن كُلِّ حَولٍ فيه، وتفَرُّدِ اللهِ سُبحانَه فيه بالأمرِ.



الآيات (١-٥)

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾: أي: انشَقَّت، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[1].

﴿ٱنتَثَرَتۡ﴾: أي: تَساقَطَت مُتفرِّقةً، ونَثْرُ الشَّيءِ: نَشْرُه وتفريقُه، وأصلُ (نثر): يدُلُّ على إلقاءِ شَيءٍ مُتفَرِّق[2].

﴿فُجِّرَتۡ﴾: أي: فُتِحَ بَعضُها في بعضٍ، فصارت بحرًا واحِدًا مُمتَلِئًا، وأصلُ (فجر): يدُلُّ على تَفتُّحٍ في شَيءٍ[3].

﴿بُعۡثِرَتۡ﴾: أي: أُثِيرت، وقُلِبَ تُرابُها، وأُخرِجَ ما فيها، وأصلُ (بعثر): مُركَّبٌ مِن: بَعَث وأُثيرَ؛ فإنَّ البَعْثرةَ تتضَمَّنُ معناهما[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٣).

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالحَديثِ عن أشراطِ السَّاعةِ، فقال تعالى: إذا السَّماءُ انشَقَّت وتَصَدَّعَت يومَ القيامةِ، وإذا الكواكِبُ تَساقَطَت وتفَرَّقَت، وإذا البِحارُ فُجِّرَت واختَلَط بَعضُها ببَعضٍ، فصارت جميعُها بحرًا واحِدًا، وإذا القُبورُ أُثيرَت وقُلِبَ ما في بَطْنِها مِن الأمواتِ، فبُعِثُوا للحِسابِ- إذا وقَعَت تلك الأمورُ عَلِمَت كُلُّ نفْسٍ حِينَها بجميعِ أعمالِها مِن خَيرٍ وشَرٍّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾.

أي: إذا السَّماءُ مع قُوَّتِها وشِدَّةِ إحكامِها قد انشَقَّت يومَ القيامةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٨].

﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان يَلزَمُ مِن انفِطارِها وَهْيُها، وعَدَمُ إمساكِها لِما أُثبِتَ بها؛ ليَكونَ ذلك أشَدَّ تخويفًا لِمَن تحتَها بأنَّهم يتَرَقَّبونَ كُلَّ وَقتٍ سُقوطَها أو سُقوطَ طائفةٍ منها فَوقَهم، فيَكونونَ بحيثُ لا يَقِرُّ لهم قَرارٌ؛ قال[2]:

﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢﴾.

أي: وإذا الكواكِبُ تَساقَطَت وتفَرَّقَت[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٨، ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣﴾.

أي: وإذا البِحارُ المتفَرِّقةُ في الأرضِ قد فُجِّرَت تَفجيرًا كَثيرًا، وفُتِح بعضُها إلى بعضٍ[1].

= (٨/ ٣٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤).

قال الماوَرْدي: (﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ:

أحَدُها: يَبِسَت. قاله الحسَنُ.

الثَّاني: خُلِطَت فصارت بحرًا واحدًا. وهذا معنى قَولِ ابنِ عبَّاسٍ، قال: وهو سَبعةُ أبحُرٍ، فتصيرُ بحرًا واحدًا.

الثَّالثُ: فُجِّر عَذبُها في مالحِها: ومالِحُها في عَذْبِها. قاله قَتادةُ.

ويحتَمِلُ رابعًا: أي: فاضت). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٢٠، ٢٢١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: فُتِح بَعضُها إلى بعضٍ، فصارت بحرًا واحِدًا مُمتَلِئًا: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي، وابن الجوزي، والقرطبي، والبيضاوي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٠٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّالثِ -وهو قريبٌ مِن القولِ السَّابقِ- أنَّه اختلاطُ العَذبِ بالمِلْحِ الأُجاجِ، وزَوالُ ما بيْنَهما مِن البَرزخِ فتَصيرُ البِحارُ بحرًا واحدًا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والثعلبي، والبغوي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦١٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٦٧).

وممَّن ذهب إلى المعنى الرابع: ابنُ عاشور، فقال: (تفجيرُ البحارِ: انطِلاقُ مائِها مِن مُستواه، وفَيضانُه على ما حولَها مِن الأَرَضينَ كما يتفَجَّرُ ماءُ العَينِ حينَ حَفْرِها...، وبذلك التَّفجير يَعُمُّ الماءُ على الأرضِ، فيَهْلِكُ ما عليها، ويختَلُّ سَطْحُها). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧١، ١٧٢).

﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما سبَق مُقتَضِيًا لغَمْرِ القُبورِ، فأوهمَ أنَّ أهلَها لا يقومونَ -كما كان العَرَبُ يَعتَقِدونَ أنَّ مَن مات فات- قال دافِعًا لذلك على نَمَطِ كلامِ القادِرينَ؛ إشارةً إلى سُهولةِ ذلك عليه(١):

﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤﴾.

أي: وإذا القُبورُ أُثيرَت وقُلِبَ ما في بَطْنِها مِن الأمواتِ إلى ظَهْرِها، فبَعَثَهم اللهُ تعالى أحياءً(٢).

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [العاديات: ٩].

﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت هذه الشُّروطُ كُلُّها -الَّتي جُعِلَت أشراطًا على السَّاعةِ- مُوجِبةً لعُلومٍ دقيقةٍ، وتَكشِفُ كُلُّ واحدةٍ منها عن أمورٍ عَجيبةٍ، وكانت كُلُّها دالَّةً على الانتِقالِ مِن هذه الدَّارِ إلى دارٍ أُخرى لخرابِ هذه الدَّارِ؛ ناسَبَ أن يجيبَ «إذا» بقَولِه(٣):

﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ٥﴾.

أي: إذا وقَعَت تلك الأمورُ عَلِمَتْ كُلُّ نفْسٍ حِينَها بجميعِ أعمالِها؛ خَيْرِها

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٠).

وشَرِّها[١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٥ - ١٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٨، ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٣).

قوله: ﴿مَّا قَدَّمَتۡ﴾ قيل: المرادُ به: ما عَمِلَتْه مِن عمَلٍ صالحٍ وقَدَّمَتْه مِن خَيرٍ. وممَّن اختار هذا المعنى: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وهو ظاهِرُ اختيارِ السَّمْعانيِّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٧٢).

وقال الواحدي: (قال ابنُ مسعودٍ: ما قدَّمَتْ مِن خيرٍ... وهو قولُ الكلبيِّ، ومجاهِدٍ، وقَتادةَ، وعَطاءٍ، والقُرَظيِّ). ((البسيط)) (٢٣/ ٢٩٢).

وقيل: المرادُ: ما قدَّمَتْ مِن عمَلٍ صالحٍ أو سَيِّئٍ، أو خيرٍ أو شرٍّ. وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٤٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧٩).

وقولُه: ﴿وَأَخَّرَتۡ﴾ قيل: أي: مِن سُنَّةٍ يُعمَلُ بها بعدَ مَوتِها مما سَنَّتْه مِن سُنَّةٍ حسَنةٍ أو سَيِّئةٍ. وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير، وابن أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٥، ١٧٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٤٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٠٣)، ((تفسير الشوكاني)).

وقال الواحديُّ: (قال ابن مسعودٍ: ... وما أَخَّرَتْ مِن سُنَّةٍ استُنَّ بها بعدَه. وهو قولُ الكلبيِّ، ومجاهدٍ، وقَتادةَ، وعَطاءٍ، والقُرَظيِّ). ((البسيط)) (٢٣/ ٢٩٢).

وقيل: المرادُ: ما تَرَكَتْ وضَيَّعَت مِن خَيرٍ فلمْ تَعمَلْه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والسَّمْعانيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٧٢).

وقال الرازي: (الأصحُّ أنَّ المقصودَ منه الزَّجرُ عن المعصيةِ، والتَّرغيبُ في الطَّاعةِ، أي: يَعلَمُ كلُّ أحدٍ في هذا اليومِ ما قدَّمَ فلمْ يُقَصِّرْ فيه، وما أخَّر فقصَّر فيه؛ لأنَّ قولَه: ﴿مَّا قَدَّمَتۡ﴾ يَقتضي فِعلًا، وما أَخَّرَتْ يَقتضي تركًا، فهذا الكلامُ يَقتضي فِعلًا وتركًا، وتقصيرًا وتوفيرًا، فإنْ كان قدَّم الكبائرَ وأخَّر العملَ الصَّالحَ فمَأْواه النَّارُ، وإن كان قدَّم العملَ الصَّالحَ وأخَّر الكبائرَ فمأْواه الجنَّةُ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٣). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ لعلَّه نَكَّرَ؛ إشارةً إلى أنَّه ينبغي لِمَن وَهَبه اللهُ عقلًا أن يُجَوِّزَ أنَّه هو المرادُ، فيَخافَ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ زَجْرٌ عن المعصيةِ، وترغيبٌ في الطَّاعةِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ دَلالةٌ على سُرعةِ الانتِشارِ، كبَعْثرةِ الحَبِّ مِن الكَفِّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾[٣] [المعارج: ٤٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ دَلالةٌ على مُؤاخَذةِ الإنسانِ بما عُمِلَ به بَعْدَه مِمَّا سَنَّه مِن هُدًى أو ضَلالةٍ، كقَولِه تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا

= وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ أي: مِن سيِّئةٍ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦١٣).
قال الماتُريدي: (أي: تَعلَمُ الأنفُسُ ما عَمِلَت إلى آخِرِ ما انتهى إليه عَمَلُها، فلا يخفى عليها شيءٌ مِن أمْرِها.
ومنهم مَن يقولُ: ما قَدَّمَت مِن خيرٍ، وأخَّرَت مِن شَرٍّ: فستَعرِفُه في ذلك اليوم.
ومنهم مَن يقولُ: عَلِمَت ﴿مَا قَدَّمَتْ﴾ مِنَ العَمَلِ، أي: بما عَمِلَت بنَفْسِها، ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ أي: ما سَنَّت مِنَ السُّنَّةِ، فعُمِلَ بها بَعْدَها.
وهذا الَّذي ذكروه داخِلٌ في تفسيرِ الجُملةِ الَّتي ذكَرْنا أنَّها: تَعلَمُ مِن أوَّلِ ما عَمِلَت إلى آخِرِ ما انتهى إليه عَمَلُها). ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٤٤٤).
وقال ابنُ عطية: (قال كثيرٌ من المفسِّرين في معنى قَولِه تعالى: ﴿مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾: إنَّها عبارةٌ عن جميعِ الأعمالِ؛ لأنَّ هذا التَّقسيمَ يَعُمُّ الطَّاعاتِ المعمولةَ والمتروكةَ، وكذلك المعاصي). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٣).
(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٤٩).

قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] بناءً على أنَّ المعنَى: ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ مُباشِرًا له، ﴿وَأَخَّرَ﴾ مِمَّا عُمِلَ به بَعْدَه مِمَّا سَنَّه مِن هُدًى أو ضَلالٍ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ سؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ يُوهِمُ ظاهِرُها أنَّ الَّذي يَعلَمُ يومَ القيامةِ ما قَدَّم وما أخَّر: نفْسٌ واحِدةٌ، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على أنَّ كُلَّ نفْسٍ تَعلَمُ ما قَدَّمت وأخَّرت، كقَولِه تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠]، وقَولِه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ.

الجوابُ: أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿نَفْسٌ﴾ كُلُّ نفسٍ، والنَّكِرةُ وإن كانت لا تَعُمُّ إلَّا في سياقِ النَّفيِ أو الشَّرطِ أو الامتِنانِ، كما تقرَّر في الأُصولِ؛ فإنَّ التَّحقيقَ أنَّها رُبَّما أفادت العُمومَ بقرينةِ السِّياقِ مِن غَيرِ نَفيٍ أو شرطٍ أو امتنانٍ، كقَولِه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ في «التَّكوير» و«الانفطار»، وقَولِه: ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقَولِه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ [الزمر: ٥٦]، والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

- قولُه تعالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ * وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ * وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾

- الافْتِتاحُ بـ (إِذَا) افْتِتاحٌ مُشوِّقٌ لِما يَرِدُ بعدَها مِن مُتعلَّقِها الَّذي هو جوابُ ما في (إذا) مِن مَعنى الشَّرطِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٦/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٥٣).
ويُنظر ما تقدَّم في سورة التَّكوير (ص: ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٠).

- وصِيغةُ الماضي المُتَكرِّرةُ في قولِه: ﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾ وما عُطِفَ عليه، مُستعمَلةٌ في المُستقبَلِ؛ تَشْبيهًا لتَحقيقِ وُقوعِ المُستقبَلِ بحُصولِ الشَّيءِ في الماضي(١).

- وأيضًا الجُملُ الَّتي أُضيفَ إليها (إذا) مُفتتَحةٌ بمُسنَدٍ إليْه مُخبَرٍ عنه بمُسنَدٍ فِعليٍّ دُونَ أنْ يُؤتى بالجُملةِ الفِعليَّة، ودُونَ تَقديرِ أفْعالٍ مَحْذوفةٍ قبْلَ الأسْماءِ؛ لقَصْدِ الاهْتمامِ بالمُسنَدِ إليه، وتَقويةِ الخَبَرِ(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ فإنَّ الجُمَلَ المُتعاطِفةَ المُضافةَ إلى (إذا) هُنا أقَلُّ مِن اللَّاتي في سورةِ (التَّكويرِ)؛ لأنَّ المَقامَ لم يَقتَضِ تَطْويلَ الإطْنابِ كما اقْتَضاه المَقامُ في سورةِ (التَّكْويرِ)، وإنْ كان في كِلتَيهما مُقتَضٍ للإطْنابِ لكنَّه مُتفاوِتٌ(٣).

- قولُه: ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾ بَعْثرةُ القُبورِ: حالةٌ مِن حالاتِ الانقِلابِ الأرضيِّ والخَسفِ، خُصَّتْ بالذِّكرِ مِن بيْنِ حالاتِ الأرضِ؛ لِما فيها مِن الهَوْلِ باسْتِحضارِ حالةِ الأرضِ وقد ألْقَتْ على ظاهِرِها ما كان في باطِنِ المَقابِرِ مِن جُثَثٍ كامِلةٍ ورُفاتٍ(٤).

- وكُرِّرَتْ (إذا)؛ لتَهويلِ ما في حَيِّزِها مِن الدَّواهي(٥).

- قولُه: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ هذا العِلمُ كِنايةٌ عن الحِسابِ على ما قَدَّمَتِ النُّفوسُ وأخَّرَتْ(٦)؛ فهذا وَعيدٌ بالحِسابِ على جَميعِ أعمالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٢).

المُشرِكين، وهم المَقصودُ بالسُّورةِ، كما يُشيرُ إليه قولُه بعدَ هذا: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ [الانفطار: ٩]، ووَعْدٌ للمُتَّقينَ، ومُختَلَطٌ لِمَن عَمِلوا عمَلًا صالِحًا وآخَرَ سَيِّئًا[١].

- وأيضًا إثْباتُ العِلمِ للنَّاسِ بما قَدَّموا وأَخَّروا عندَ حُصولِ تلك الشُّروطِ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾؛ لعَدَمِ الاعتِدادِ بعِلمِهم بذلك الَّذي كان في الحياةِ الدُّنيا، فنُزِّلَ مَنزِلةَ عدَمِ العِلمِ[٢].

- و﴿نَفْسٌ﴾ نَكِرةٌ مُرادٌ بها العُمومُ[٣].

- والمَقصودُ مِن قولِه: ﴿مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ تَعميمُ التَّوقيفِ على جَميعِ ما عَمِلَتْه[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧٢، ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧٣).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ٣٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٦-١٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿غَرَّكَ﴾: أي: خدَعَك، يُقالُ: غَررْتُ فُلانًا: أصبتُ غِرَّتَه ونِلتُ منه ما أُريدُه، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقَظةِ، ويُقالُ: غرَّه بفُلانٍ، إذا أمَّنه المحذورَ مِن جهتِه وهو غيرُ مأمونٍ[1].

﴿فَسَوَّىٰكَ﴾: أي: جعلَك سَويًّا مُتساويَ الأعضاءِ والقُوى على وَفْقِ الحكمةِ ومُقتضاها، سالِمًا، والتَّسويةُ: جعلُ الشَّيءِ سَواءً، أي: مُعَدَّلًا مُقوَّمًا سليمًا، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعْتِدالٍ بيْنَ شيئَيْنِ[2].

﴿فَعَدَلَكَ﴾: أي: قَوَّمَ خَلْقَك، وجعَلَه مُعتَدِلًا، وأصلُ (عدل): يدُلُّ على اسْتِواءٍ[3].

﴿رَكَّبَكَ﴾: أي: وَضَعَك، وألَّف تركيبَ أعضائِك، وأصلُ (ركب): يدُلُّ على عُلُوِّ شَيءٍ شَيئًا[4].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٠)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٥).

﴿بِٱلدِّينِ﴾: أي: بالجزاءِ والحسابِ، يُقالُ: دِنْتُه بما صَنَع، أي: جازَيْتُه، وأصلُ (دين): جِنسٌ مِن الانْقِيادِ، والذُّلِّ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾

﴿فِيٓ أَيِّ﴾: شِبهُ جُملةٍ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بـ﴿رَكَّبَكَ﴾. و(مَا): على هذا الوَجهِ مَزيدةٌ، وجملةُ ﴿شَآءَ﴾ في محلِّ جَرٍّ نعتٌ لـ﴿صُورَةٖ﴾، والجُملةُ كُلُّها بيانٌ لِقَولِه: ﴿فَعَدَلَكَ﴾، والتَّقديرُ: فعَدَلَك: ركَّبَك في أيِّ صُورةٍ شاءَها. وجُوِّزَ أن يكونَ الجارُّ والمجرورُ في موضِعِ الحالِ، أي: ركَّبَك كائنًا في أيِّ صُورةٍ شاءَها، وجُوِّزَ أن تكونَ ﴿مَّا﴾ شَرطيَّةً في محلِّ نَصبٍ مَفعولٌ مُطلَقٌ، والتَّقديرُ: أيَّ تركيبٍ شاء ركَّبَك، و﴿شَآءَ﴾ فِعلُ الشَّرطِ، و﴿رَكَّبَكَ﴾ جوابُه، أي: إنْ شاء تركيبَك في أيِّ صورةٍ غيرِ هذه الصُّورةِ ركَّبَك فيها، والجُملةُ الشَّرطيَّةُ كلُّها في محلِّ جَرٍّ نعتٌ لـ﴿صُورَةٖ﴾، والعائِدُ محذوفٌ، وتقديرُه (فيها أو عليها)، ويكونُ ﴿فِيٓ أَيِّ﴾ عندَئذٍ مُتعَلِّقًا بـ(عَدَلَك)، أي: عَدَلَك في صُورةٍ أيِّ صورةٍ، ثمَّ استُؤنِفَ الشَّرطُ بَعْدَه، ولم يُجَوِّزوا على هذا الوَجهِ تعَلُّقَ ﴿فِيٓ أَيِّ﴾ بـ﴿رَكَّبَكَ﴾؛ لأنَّ مَعمولَ ما في حَيِّزِ الشَّرطِ لا يجوزُ تقديمُه عليه[2].

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٥/ ٢٩٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٧٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧١٠-٧١٢)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٣٣٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٦٩).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى معاتبًا الإنسانَ المفرِّطَ في حقِّ ربِّه: يا أيُّها الإنسانُ ما الَّذي خَدَعَك وسوَّلَ لك التَّجَرُّؤَ على الكُفْرِ بربِّك الكريمِ وعِصيانِه؟! وهو الَّذي أوجَدَك فجَعَلك سَوِيًّا مُعتَدِلَ الخِلْقةِ، وركَّبك في أيِّ صُورةٍ شاء أن تكونَ عليها!

ثمَّ يبيِّنُ اللهُ تعالى سببَ الغُرورِ والغفلةِ، فيقولُ: كلَّا، ليس هناك شيءٌ يَقتَضي غُرورَكم باللهِ تعالى، ولكِنَّ تكذيبَكم بالبَعثِ والحِسابِ هو الَّذي حَمَلكم على الكُفْرِ والفُسوقِ والعِصيانِ.

ثمَّ يُقرِّرُ سُبحانَه أنَّ الملائكةَ تَكتُبُ ما يَعمَلُه كلُّ إنسانٍ، فيقولُ: وإنَّ عليكم -أيُّها النَّاسُ- ملائِكةً حافِظينَ كِرامًا يُراقِبونَكم، ويُسَجِّلونَ أعمالَكم، ويَعلَمونَ ما تَفعَلونَ مِن قَولٍ أو فِعلٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ سُبحانَه في الآيةِ الأُولى عن وُقوعِ الحَشرِ والنَّشرِ؛ أتْبَعَه ما يدُلُّ عَقلًا على إمكانِه أو على وُقوعِه[١].

وأيضًا لَمَّا كان الإنسانُ إذا اعتَقَد البَعثَ قد يقولُ تهاوُنًا ببَعضِ المعاصي: المرجِعُ إلى كريمٍ، ولا يَفعَلُ بي إلَّا خيرًا؛ أنتج قَولَه مُنكِرًا سُبحانَه وتعالى على مَن يقولُ هذا اغترارًا بخَدْعِ الشَّيطانِ[٢]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠١).

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦)﴾.

أي: يا أيُّها الإنسانُ ما الَّذي خَدَعَك وسوَّلَ لك التَّجرُّؤَ على الكُفْرِ برَبِّك أو مَعصيتِه، وهو الكريمُ ذو الكَمالِ والجَمالِ، الَّذي ينبغي أن يُعبَدَ ويُطاعَ شُكرًا لإحسانِه، ومُقابَلةً لكَرَمِه[١]؟!

﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَف تعالى نفْسَه بالكَرَمِ؛ ذكَرَ هذه الأُمورَ الثَّلاثةَ كالدَّلالةِ على تحَقُّقِ ذلك الكَرَمِ[٢].

﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧)﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بتخفيفِ الدَّالِ، قيل: بمعنى: صَرَفَك اللهُ إلى أيِّ صُورةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤١، ٣٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠١-٣٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٩).

قيل: المرادُ بالإنسانِ هنا: الكافِرُ. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، والواحدي، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧٩).

وقيل: المرادُ: جِنسُ بني آدَمَ، فيَدخُلُ في ذلك الكُفَّارُ وعُصاةُ المؤمنينَ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الرازيُّ، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤).

شاءَها. وقيل: المعنى: صَرَفَك عن خِلْقةِ غَيْرِك إلى خِلْقةٍ حَسَنةٍ مُفارِقةٍ لسائِرِ الخَلْقِ. وقيل: معنى قِراءةِ التَّخفيفِ كقراءةِ التَّشديدِ، أي: عَدَلَ بعضَ أعضائِك ببعضٍ حتَّى اعتدَلَت[1].

٢- قِراءةُ: ﴿فَعَدَّلَكَ﴾ بتشديدِ الدَّالِ، أي: جعَلَك مُعتَدِلَ الخِلْقةِ، مُتناسِبَ الأعضاءِ[2].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾.

أي: الَّذي أوجَدَك فجعَل خَلْقَك سَوِيًّا سَلِيمًا مُتقَنًا، فصِرْتَ مُعتَدِلَ الخِلْقةِ، مُتناسِبَ الأعضاءِ[3].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

---

(١) قرأ بها عاصِمٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخَلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).
ويُنظَرُ لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٨)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٦٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٢٦، ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٢).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٨)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٦٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٢٦، ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٥، ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٩).

﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨﴾.

أي: ركَّبك اللهُ -أيُّها الإنسانُ- في أيِّ صُورةٍ شاء أن تكونَ عليها[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٤].

﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن سُبحانَه بالدَّلائِلِ العَقليَّةِ صِحَّةَ القَولِ بالبَعثِ والنُّشورِ على الجُملةِ؛ فَرَّع عليها شَرْحَ تفاصيلِ الأحوالِ المتعَلِّقةِ بذلك[(٢)].

﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩﴾.

أي: ارتَدِعوا وانزَجِروا عن الكُفْرِ بربِّكم ومَعْصيتِه، فالواجِبُ في حَقِّ مَن خَلَقَكم فسَوَّاكم وعَدَلَكم وصَوَّرَكم: طاعتُه وشُكْرُه؛ فلا عُذْرَ لكم في تَرْكِ ذلك، وإنَّما الَّذي يَحمِلُكم على تَرْكِه هو تكذيبُكم باليومِ الآخِرِ الَّذي يُحاسَبُ فيه النَّاسُ، ويُجازَونَ على أعمالِهم[(٣)].

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠﴾.

أي: وإنَّ عليكم -أيُّها النَّاسُ- ملائِكةً حافِظينَ يُراقِبونَكم، ولا يُضَيِّعونَ شَيئًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٩، ٩٠).

قال البِقاعي: (﴿مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ أي: ألَّف تركيبَ أعضائِك، وجَمَعَ الرُّوحَ إلى البَدَنِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٨، ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٠).

مِن أعمالِكم[١].

﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أثبَتَ لهم الحِفظَ، نَزَّهَهم عن الزِّيادةِ والنَّقْصِ، فقال[٢]:

﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ١١﴾.

أي: هم ذَوُو كَمالٍ وَجمالٍ في صِفاتِهم الخِلْقِيَّةِ والخُلُقِيَّةِ، لا يَظلِمونَكم، ويَكتُبونَ جميعَ أعمالِكم[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أفهَمَ الاستعلاءُ والتَّعبيرُ بالوَصْفِ -في قَولِه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾- إحاطة

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٩، ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٠).
ممَّن اختار أنَّ معنى: (حَافِظِينَ): يَحفَظونَ أعمالَ النَّاسِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والبغوي، وابن عطية، والبِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٠).

الاطِّلاعِ على ما يَبرُزُ مِنَ الأعمالِ؛ صَرَّحَ به فقال[(١)]:

﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢﴾.

أي: يَعلَمُ أولئك الملائِكةُ المُوَكَّلونَ بكِتابةِ أعمالِكم كُلَّ ما تَفعَلونَه؛ مِن قَولٍ أو فِعلٍ، خيرٍ أو شَرٍّ، ظاهِرٍ أو باطِنٍ[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ﴾، يَعني: أيُّها الغافِلُ، ورَاءَك هذا الخَطْبُ الجَسيمُ، والخَطَرُ العَظيمُ، وأنت قد اغتَرَرْتَ بما تَكرَّمَ علَيْك ربُّك، حيثُ خَلَقَك فسَوَّاك فعَدَلَك، في أيِّ صُورةٍ ما شاء رَكَّبَك، فاشتَغَلْتَ بذلك عن التَّزَوُّدِ لدارِ القَرارِ، وأَخْلَدتَ إلى دارِ الغُرورِ.

ولَمَّا كان مُؤدَّى غَفلةِ الإنسانِ الاغْتِرارَ إلى الذُّهولِ عن المُستقَرِّ الأَصليِّ، نَزَّلَه مَنزِلةَ التَّكْذيبِ بيَومِ الدِّينِ، حتَّى أضرَبَ عنه بقولِه: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾، وهذا كما تَرى مِن حالِ المُتَمادي في أُمورِ الدُّنيا مِن المُتَسَمَّينَ بالإسلامِ، إذا سَمِعَ شَيئًا مِن أَمرِ الآخِرةِ تَقَبَّضَ واشْمَأزَّ؛ لِغايةِ انهِماكِه في لَذَّاتِ العاجِلةِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٩٩)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (٢/ ٥٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٠).

قال ابنُ عثيمين: (﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ إمَّا بالمشاهَدةِ إنْ كان فِعلًا، وإمَّا بالسَّماعِ إن كان قولًا، بل إنَّ عَمَلَ القَلبِ يُطلِعُهم اللهُ عليه فيَكتُبونَه، كما قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «مَن هَمَّ بالحَسَنةِ فلم يَعمَلْها كُتِبَت حسَنةً، ومَن هَمَّ بالسَّيِّئةِ ولم يَعمَلْها كُتِبَت حَسَنةً كامِلةً» [البخاريُّ «٦٤٩١»، ومسلم «١٣١»]). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٠). ويُنظر ما يأتي في الفوائد (ص: ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٢٥). =

وهذا على أنَّ قولَه: ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ -هنا- يَشملُ جميعَ العُصاةِ.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أنَّه قد أقامَ اللهُ عليكم ملائِكةً كِرامًا يَكتُبونَ أقوالَكم وأفعالَكم، ويَعلَمونَ أفعالَكم، ودَخَل في هذا أفعالُ القُلوبِ وأفعالُ الجوارحِ، فاللَّائِقُ بكم أن تُكرِموهم وتُجِلُّوهم وتحترِموهم[1]، فعلى المسلِمِ إذا خلا بالأمرِ وسَوَّل له الشَّيطانُ أن يَفعَلَ فاحِشةً لأنَّ النَّاسَ لا يَرَونَه، وأنَّه لا يَطَّلِعُ عليه أحدٌ، كالَّذي يخلو بامرأةٍ في محَلٍّ مقفولٍ، يأمَنُ عُيونَ النَّاسِ فيه، فيُسوِّلُ له الشَّيطانُ الرِّيبةَ معها- عليه أن يَنظُرَ أنَّ اللهَ رَقيبٌ عليه، وأنَّ الملائكةَ الكِرامَ معه ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾[الأعراف: ٧]، وعلى الشَّخصِ أن يَعبُدَ اللهَ كأنَّه يراه، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنَّه يراك[2].

٣- يُنتزَعُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أنَّ هذه الصِّفاتِ الأربَعَ هي عِمادُ الصِّفاتِ المشروطةِ في كُلِّ مَن يقومُ بعَمَلٍ للأمَّةِ في الإسلامِ مِنَ الوُلاةِ وغَيرِهم؛ فإنَّهم حافِظونَ لمصالحِ ما استُحفِظوا عليه، وأوَّلُ الحِفظِ: الأمانةُ وعَدَمُ التَّفريطِ، ولا بُدَّ فيهم مِن الكَرَمِ: وهو زَكاءُ الفِطرةِ، أي: طَهارةُ النَّفْسِ، ومِنَ الضَّبطِ فيما يَجري على يديه بحيثُ لا تُضَيَّعُ المصالِحُ العامَّةُ ولا الخاصَّةُ، بأن يكونَ ما يُصدِرُه مكتوبًا أو كالمكتوبِ، مضبوطًا لا يُستطاعُ تَغييرُه، ويمكِنُ لكُلِّ مَن يقومُ بذلك العَمَلِ بعدَ القائِمِ به أو في مَغيبِه أن

= قال ابنُ كثيرٍ: (قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ هذا تهديدٌ، لا كما يتوهَّمُه بعضُ النَّاسِ من أنَّه إرشادٌ إلى الجوابِ؛ حيثُ قال: ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ حتَّى يقولَ قائلُهم: غرَّه كرمُه. بل المعنَى في هذه الآيةِ: ما غرَّك يا ابنَ آدمَ بربِّك الكريم -أي: العظيمِ- حتَّى أقدمْتَ على معصيتِه، وقابلْتَه بما لا يَليقُ؟). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٨٤).

يَعرِفَ ماذا أُجريَ فيه مِن الأعمالِ، وهذا أصلٌ عَظيمٌ في وَضعِ الملفَّاتِ للنَّوازِلِ والتَّراتيبِ، ومنه نشَأَتْ دواوينُ القُضاةِ، ودفاتِرُ الشُّهودِ، والخِطابُ على الرُّسومِ، وإخراجُ نُسَخِ الأحكامِ والأحباسِ وعُقودِ النِّكاحِ؛ ومِن إحاطةِ العِلمِ بما يَتعَلَّقُ بالأحوالِ الَّتي تُسنَدُ إلى المؤتَمَنِ عليها بحيثُ لا يستطيعُ أحدٌ مِنَ المخالِطينَ لوَظيفةٍ أن يُمَوِّهَ عليه شيئًا، أو أن يُلَبِّسَ عليه حقيقةً، بحيث يَنتفي عنه الغَلَطُ والخطَأُ في تمييزِ الأُمورِ بأقصى ما يمكِنُ، ويختَلِفُ العِلمُ المطلوبُ باختِلافِ الأعمالِ، فيُقَدَّمُ في كُلِّ ولايةٍ مَن هو أعلَمُ بما تقتضيه وِلايتُه مِن الأعمالِ، وما تتوَقَّفُ عليه مِن المواهِبِ والدِّرايةِ؛ فليس ما يُشتَرَطُ في القاضي يُشتَرَطُ في أميرِ الجَيشِ مَثَلًا، وبمِقْدارِ التَّفاوُتِ في الخِصالِ الَّتي تقتَضيها إحدى الوِلاياتِ يكونُ ترجيحُ مَن تُسنَدُ إليه الوِلايةُ على غيرِه؛ حِرصًا على حِفظِ مَصالحِ الأُمَّةِ، فيُقَدَّمُ في كُلِّ وِلايةٍ مَن هو أقوى كَفاءةً لإتقانِ أعمالِها، وأشَدُّ اضْطِلاعًا بممارستِها[١].

فالآيةُ كأنَّها توجيهٌ لِما ينبغي لوُلاةِ الأُمورِ مُراعاتُه في استِكتابِ الكُتَّابِ والأُمَناءِ؛ ولذا قالوا: على القاضي أن يتخَيَّرَ كاتِبًا أمينًا، حَسَنَ الخَطِّ، فاهِمًا[٢].

٤- لا ألأَمَ ممَّن لا يَستَحي مِن الكريمِ العَظيمِ القَدْرِ، ولا يُجِلُّه ولا يُوَقِّرُه، وقد نَبَّه سُبحانَه على لزومِ الاستحياءِ ممَّن لا يُفارِقُنا مِن الملائكةِ وإكرامِهم بقَولِه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، أي: استَحْيُوا من هؤلاءِ الحافظِينَ الكرامِ، وأكرِموهم وأَجِلُّوهم أنْ يَرَوْا منكم ما تَستحْيُونَ أنْ يَراكم عليه مَن هو مِثْلُكم، والملائكةُ تتأذَّى ممَّا يتأذَّى منه بنو آدمَ، وإذا كان ابنُ آدم يتأذَّى ممَّن يَفْجُرُ ويَعْصِي بيْن يَدَيه، وإنْ كان يَعمَلُ مِثلَ عَمَلِه، فما الظَّنُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٠، ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٥١).

بأذى الملائكةِ الكرامِ الكاتبينَ؟! واللهُ المستعانُ[(١)].

٥- عن عطاءِ بنِ أبي رباحٍ: (إنَّ مَن كان قبلَكم كانوا يكرَهونَ فُضولَ الكلامِ، وكانوا يعدُّونَ فضولَ الكلامِ ما عدا كتابَ الله تعالى أنْ يُقرأَ، أو أمرًا بمعروفٍ أو نهيًا عن منكرٍ، أو تنطِقَ في حاجتِك في معيشتِك التي لا بدَّ لك منها، أتُنكِرونَ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾، ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨]؟! أمَا يَسْتحي أحدُكم لو نُشِرتْ عليه صحيفتُه التي أملاها صدرَ نهارِه أكثرَ ما فيها ليس مِن أمرِ دينِه ولا دُنياه؟!)[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ سؤالٌ: أنَّ بِناءَ هذا الاستدلالِ على أنَّه تعالى حكيمٌ؛ ولذلك قال في سورةِ (التِّينِ) بعدَ هذا الاستدلالِ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، فلِمَ لَمْ يَقُلْ في هذه السُّورة: «ما غَرَّك بربِّك الحكيم»؟

الجوابُ: أنَّ الكريمَ يَجِبُ أن يكونَ حَكيمًا؛ لأنَّ إيصالَ النِّعمةِ إلى الغَيرِ لو لم يكُنْ مبنيًّا على داعيةِ الحِكمةِ لَكان ذلك تبذيرًا لا كَرَمًا، أمَّا إذا كان مَبنيًّا على داعيةِ الحِكمةِ فحينَئذٍ يُسَمَّى كَرَمًا[(٣)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ إنْ قيلَ: ما مُناسَبةُ وَصْفِه بالكريمِ هنا للتَّوبيخِ على الغُرورِ؟

فالجوابُ: أنَّ الكريمَ يَنبغي أن يُعبَدَ ويُطاعَ؛ شُكرًا لإحسانِه، ومُقابلةً لكَرَمِه،

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٠٨).

(٢) أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٣/ ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٤).

ومَن لم يفعَلْ ذلك فقد كَفَر النِّعْمةَ، وأضاع الشُّكرَ الواجِبَ[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ سؤالٌ: أنَّ كَونَه سُبحانَه كريمًا يَقتضي أن يغتَرَّ الإنسانُ بكَرَمِه؛ فكيف جعَلَه هاهنا مانعًا مِن الاغترارِ به؟!

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

أحدُها: أنَّ معنى الآيةِ: أنَّك لَمَّا كنتَ ترى حِلْمَ اللهِ على خَلْقِه ظَنَنْتَ أنَّ ذلك لأنَّه لا حِسابَ، ولا دارَ إلَّا هذه الدارُ، فما الَّذي دعاك إلى هذا الاغترارِ، وجَرَّأك على إنكارِ الحَشرِ والنَّشرِ؟! فإنَّ رَبَّك كريمٌ، فهو لكَرَمِه لا يُعاجِلُ بالعُقوبةِ؛ بَسطًا في مُدَّةِ التَّوبةِ، وتأخيرًا للجزاءِ إلى أن يَجمَعَ النَّاسَ في الدَّارِ الَّتي جعَلَها لهم للجَزاءِ. فالحاصِلُ أنَّ تَرْكَ المعاجَلةِ بالعُقوبةِ مِن أجْلِ الكَرَمِ، وذلك لا يَقتضي الاغترارَ بأنَّه لا دارَ بعْدَ هذه الدَّارِ.

ثانيها: أنَّ كَرَمَه لَمَّا بلغ إلى حيثُ لا يَمنَعُ مِن العاصي موائِدَ لُطْفِه، فبِأَنْ ينتَقِمَ للمَظلومِ مِنَ الظَّالمِ كان أَوْلى، فإذَنْ كَونُه كريمًا يَقتضي الخَوفَ الشَّديدَ مِن هذا الاعتِبارِ، وتَرْكَ الجَراءةِ والاغترارِ.

ثالِثُها: أنَّ كَثرةَ الكرَمِ تُوجِبُ الجِدَّ والاجتِهادَ في الخِدْمةِ، والاستِحياءَ من

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٨).

قال ابنُ كثيرٍ: (أتَى باسمِه ﴿ٱلۡكَرِيمِ﴾؛ ليُنبِّهَ على أنَّه لا ينبغي أنْ يُقابَلَ الكريمُ بالأفعالِ القبيحةِ، وأعمالِ السوءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٢).

وقال ابنُ القيِّم: (قد يقولُ بعضُهم: إنَّه لقَّن المغترَّ حُجَّتَه، وهذا جهلٌ قبيحٌ، وإنَّما غرَّه بربِّه الغَرورُ، وهو الشَّيطانُ، ونفسُه الأمَّارةُ بالسُّوءِ وجهلُه وهواه، وأتَى سبحانَه بلفظِ ﴿ٱلۡكَرِيمِ﴾ وهو السيدُ العظيمُ المطاعُ، الذي لا ينبغي الاغترارُ به، ولا إهمالُ حقِّه، فوضَع هذا المغترُّ الغرورَ في غيرِ موضعِه، واغترَّ بمَن لا ينبغي الاغترارُ به). ((الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي)) (ص: ٢٤).

الاغترارِ والتَّواني[١].

٤- قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ على القولِ بأنَّ ﴿كَلَّا﴾ إِبْطَالٌ لِوُجُودِ مَا يَغُرُّ الإنسانَ أنْ يُشْرِكَ باللَّهِ فالآيةُ بَيانٌ لِما جَرَّأهم على الإشراكِ، وأنَّه ليس غُرورًا؛ إذ لا شُبهةَ لهم في الإشراكِ حتَّى تكونَ الشُّبهةُ كالغُرورِ، ولكِنَّهم أصَرُّوا على الإشراكِ؛ لأنَّهم حَسِبوا أنفُسَهم في مأمَنٍ مِن تَبِعَتِه، فاختاروا الاستمرارَ عليه لأنَّه هوى أنفُسِهم، ولم يعبَؤوا بأنَّه باطِلٌ صُراحٌ، فهم يُكَذِّبونَ بالجَزاءِ؛ فذلك سَبَبُ تصميمِ جَميعِهم على الشِّركِ مع تفاوُتِ مَدارِكِهم الَّتي لا يَخفى على بَعْضِها بُطلانُ كَونِ الحِجارةِ آلِهةً، ألَا ترى أنَّهم ما كانوا يَرَونَ العَذابَ إلَّا عذابَ الدُّنيا؟! وعلى هذا الوَجهِ يكونُ فيه إشارةٌ إلى أنَّ إنكارَ البَعثِ هو جِماعُ الإجرامِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ * كِرَامًا كَـٰتِبِينَ﴾ سُؤالٌ: ما الحِكمةُ في أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وَكَّلَ بنا كِرامًا كاتِبينَ، يَعلَمونَ ما نَفْعَلُ، مع أنَّ اللهَ تعالى يَعلَمُ كُلَّ شَيءٍ؟

الجوابُ: الحِكمةُ مِن ذلك بيانُ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى نَظَّمَ الأشياءَ وقَدَّرَها، وأَحْكَمَها إحكامًا مُتقَنًا، حتَّى إنَّه سُبحانَه وتعالى جَعَلَ على أفعالِ بني آدمَ وأقوالِهم كِرامًا كاتِبينَ مُوَكَّلينَ بهم يَكتُبونَ ما يَفعَلونَ، مع أنَّه سُبحانَه وتعالى عالِمٌ بما يَفعَلونَ قبْلَ أنْ يَفعَلوه، ولكِنْ كلُّ هذا مِن أجْلِ بيانِ كَمالِ عِنايةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ بالإنسانِ، وكمالِ حِفْظِه تبارك وتعالى، وأنَّ هذا الكونَ مُنَظَّمٌ أحسَنَ نِظامٍ، ومُحْكَمٌ أحسنَ إحكامٍ، واللهُ عَليمٌ حَكيمٌ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٨).
(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ١٧٩).

٦- قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أنَّ وَصْفَ اللهِ إيَّاهم بهذه الصِّفاتِ يدُلُّ على أنَّه تعالى أثنى عليهم، وعَظَّم شأْنَهم، وفي تَعظيم الكَتَبةِ بالثَّناءِ عليْهم تعظيمٌ لأَمرِ الجَزاءِ، وأنَّه عندَ اللهِ مِن جَلائلِ الأُمورِ، ولولا ذلك لَما وَكَّلَ بضَبطِ ما يُحاسِبُ عليه ويُجازي به المَلائكةَ الكِرامَ، الحَفَظةَ الكَتَبةَ[١].

٧- ثَبَت عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ مَن هَمَّ بالحَسَنةِ فلمْ يَعمَلْها كُتبَت حَسَنةً، ومَن هَمَّ بالسَّيِّئةِ فلم يَعمَلْها كُتبَت حَسَنةً[٢]، والمعروفُ أنَّ الَّذي يَكتُبُ هم الملائكةُ؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، وعلى هذا فيكونُ الملائكةُ عندَهم اطِّلاعٌ على ما في القَلبِ، ولا غرابةَ في ذلك؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ يقولُ في كتابِه الكريم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦]، فهو سُبحانَه عالِمٌ بذلك، ويجوزُ أنْ يُطْلِعَ اللهُ هؤلاء الملائكةَ على ما عَلِمَه مِن حالِ الشَّخصِ، ويكونُ عِلْمُهم بذلك بواسطةٍ مِن عِلْمِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، ويجوزُ أنْ يَعلَموا ذلك بما يَحصُلُ للقلبِ مِن حركةٍ؛ لأنَّ الهَمَّ حركةُ القَلبِ، فهو يَهُمُّ بالشَّيءِ أي: يتحَرَّكُ، فيَعلَمونَ ما يَحصُلُ بحركةِ القلبِ، وإذا كان الشَّيطانُ يجري مِن ابنِ آدمَ مجرى الدَّمِ، ويَصِلُ إلى شَغَافِ قلْبِه؛ فلا غَرْوَ أنْ يَعْلَمَ الملائكةُ بما يَحْدُثُ للإنسانِ في قلْبِه[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أنَّهم يَعلَمونَ تلك الأفعالَ حتَّى

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٦)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٤٩١)، ومسلمٌ (١٣١) مطوَّلًا من حديث عبدِ الله بنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤٢٧).

يُمكِنَهم أن يَكتُبوها، وهذا تنبيهٌ على أنَّ الإنسانَ لا يجوزُ له الشَّهادةُ إلَّا بعْدَ العِلْمِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ قال الحُسَينُ بنُ الفَضلِ: (حيثُ قال: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ولم يَقُلْ: «يَكْتُبونَ» دَلَّ على أنَّه لا يُكتَبُ الجميعُ، فيَخرجُ عنه السَّهوُ والخَطَأُ، وما لا تَبِعةَ فيه)[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾

- قولُه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ استِئْنافٌ ابتدائيٌّ؛ لأنَّ ما قبْلَه بمَنزِلةِ المُقدِّمةِ له؛ لتَهيئةِ السَّامِعِ لتَلقِّي هذه المَوعِظةِ؛ لأنَّ ما سَبَقَه مِن التَّهويلِ والإنْذارِ يُهيِّئُ النَّفْسَ لقَبولِ المَوعِظةِ؛ إذ المَوعِظةُ تَكونُ أشَدَّ تَغَلْغُلًا في القَلبِ حينَئذٍ؛ لِما يَشعُرُ به السَّامِعُ مِن انكِسارِ نفْسِه، ورِقَّةِ قَلْبِه، فيَزولُ عنه طُغيانُ المُكابَرةِ والعِنادِ، فخَطَرَ في النُّفوسِ تَرقُّبُ شَيءٍ بعْدَ ذلك[٣].

- والنِّداءُ ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾؛ للتَّنبيهِ تَنبيهًا يُشعِرُ بالاهتِمامِ بالكَلامِ والاستِدعاءِ لسَماعِه، فليس النِّداءُ مُرادًا به طَلَبُ إقْبالٍ، ولا هو موَجَّهٌ لشَخصٍ مُعيَّنٍ أو جَماعةٍ مُعيَّنةٍ، بل مِثلُه يَجعَلُه المُتكلِّمُ مُوجَّهًا لكُلِّ مَن يَسمَعُه بقَصْدٍ أو بغَيرِ قَصْدٍ[٤].

- وتعريفُ (الإنسانِ) في قولِه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ قيل:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هو تَعريفُ الجنسِ، يُرادُ به العُمومُ، وهذا العُمومُ مُرادٌ به الَّذين أنْكَروا البَعثَ؛ بدَلالةِ وُقوعِه عَقِبَ الإنذارِ بحُصولِ البَعثِ، ويدُلُّ على ذلك قولُه بعْدَه: ﴿بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ٩]؛ فالمَعنى: يا أيُّها الإنسانُ الَّذي أَنكَرَ البَعثَ، ولا يَكونُ مُنكِرُ البَعثِ إلَّا مُشرِكًا؛ لأنَّ إنْكارَ البَعثِ والشِّركِ مُتلازِمان يَومَئذٍ، فهو مِن العامِّ المُرادِ به الخُصوصُ بالقَرينةِ، أو مِن الاستِغراقِ العُرفيِّ؛ لأنَّ جُمهورَ المُخاطَبينَ في ابتِداءِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ هم المُشرِكون[١].

وقيل: المقصودُ بالإنسانِ العُمومُ؛ وذلك أنَّ قولَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ إلى قولِه: ﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ كالاعتِراضِ بيْنَ قَرينتَيِ الجَمْعِ والتَّقسيمِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ عامٌّ اشتَمَلَ على الفُجَّارِ والأبْرارِ، وقولَه: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ * وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ تقسيمٌ تَضمَّنَ مَعنى التَّفريقِ[٢]؛ فإنَّه تعالى لَمَّا بيَّنَ أحوالَ القيامةِ بانفِطارِ السَّماءِ، وانتِثارِ الكَواكِبِ، وانفِجارِ الأبحُرِ، والبَعثِ عن القُبورِ، ثمَّ اطِّلاعِ كُلِّ نفْسٍ برِّها وفاجِرِها على عمَلِها، خَيرِها وشَرِّها؛ نَبَّهَ جِنسَ الإنسانِ عن رَقدةِ الغَفلةِ وسِنَةِ الجَهالةِ بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ﴾[٣].

- وإيثارُ تَعريفِ اللهِ بوَصْفِ (رَبِّك) دُون ذِكرِ اسمِ الجَلالةِ؛ لِما في مَعنى الرَّبِّ مِن المِلْكِ والإنشاءِ والرِّفْقِ؛ ففيه تَذْكيرٌ للإنسانِ بمُوجِباتِ استِحقاقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٣، ١٧٤).

(٢) الجمْعُ والتَّقسيمُ والتَّفريقُ: أنْ يُجمعَ بيْنَ مُتعدِّدٍ في حُكمٍ، ثمَّ يُفرَّقَ -أي: يُوقعَ التَّبايُنُ بيْنَها-، ثمَّ يُضافَ لكلِّ واحدٍ ما يُناسِبُه؛ كقولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥] الآياتِ؛ فالجمعُ في قولِه: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾؛ لأنَّها مُتعدِّدةٌ معنًى؛ إذِ النَّكرةُ في سياقِ النَّفْيِ تَعُمُّ. والتَّفريقُ في قولِه: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ [هود: ١٠٥]. والتَّقسيمُ في قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ [هود: ١٠٦] ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ [هود: ١٠٨]. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣١٥)، ((حاشية الدسوقي على مختصر المعاني)) (٤/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٢٥).

الرَّبِّ طاعةَ مَربوبِه؛ فهو تَعريضٌ بالتَّوبيخِ[١].

- وإجراءُ وصْفِ الكريمِ دونَ غيرِه مِن صِفاتِ اللهِ؛ للتَّذْكيرِ بنِعمتِه على النَّاسِ ولُطفِه بِهم؛ فإنَّ الكَريمَ حَقيقٌ بالشُّكرِ والطَّاعةِ، وأيضًا فذِكْرُ الكريمِ والتَّعرُّضُ لعُنوانِ كَرَمِه تعالَى؛ للمُبالَغةِ في المنعِ عنِ الاغترارِ؛ فإنَّ مَحْضَ الكرَمِ لا يَقتضي إهمالَ الظَّالمِ، وتسويةَ المُوالي والمُعادِي، والمُطيعِ والعاصي؛ فهو للإيذانِ بأنَّه ليس ممَّا يَصلُحُ أنْ يَكونَ مَدارًا لاغترارِه؛ يُغْويه الشَّيطانُ ويَقولُ له: افعَلْ ما شِئتَ؛ فإنَّ رَبَّك كَريمٌ، قد تَفضَّلَ عليْك في الدُّنيا، وسيَفعَلُ مِثْلَه في الآخِرةِ، ولا يُعذِّبُ أحدًا ولا يُعاجِلُ بالعقوبةِ؛ فإنَّه قِياسٌ عَقيمٌ، وتَمنيةٌ باطِلةٌ، بل هو ممَّا يُوجِبُ المبالَغةَ في الإقْبالِ على الإيمانِ والطَّاعةِ، والاجتِنابِ عن الكُفرِ والعِصيانِ، كأنَّه قِيلَ: ما حَمَلَك على عِصيانِ رَبِّك المَوصوفِ بالصِّفاتِ الزَّاجِرةِ عنه الدَّاعِيةِ إلى خِلافِه؟! فهو تَعْييرٌ وتَوبيخٌ، وليس بإطْماعٍ؛ فالدَّلالةُ على كَثرةِ كرَمِه تَستدعِي الجِدَّ في طاعتِه، لا الانهماكَ في عِصيانِه اغترارًا بكَرَمِه[٢].

- وقولُه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ صِفةٌ ثانيةٌ مُقرِّرةٌ للرُّبوبيَّةِ، مُبيِّنةٌ للكَرَمِ، مُنبِّهةٌ على أنَّ مَن قَدَرَ على ذلك بَدْءًا قَدَرَ عليه إعادةً[٣].

- والوَصفُ الثَّالثُ الَّذي تَضمَّنَتْه الصِّلةُ ﴿فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ﴾ جامِعٌ لكَثيرٍ ممَّا يُؤذِنُ به الوَصْفانِ الأوَّلانِ ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾؛ فإنَّ الخَلْقَ والتَّسويةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٢٣، ٣٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٥). ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ٣٨٥-٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢١).

والتَّعديلَ وتَحسينَ الصُّورةِ مِن الرِّفْقِ بالمَخلوقِ، وهي نِعَمٌ عليه، وجَميعُ ذلك تَعريضٌ بالتَّوبيخِ على كُفرانِ نِعمتِه بعِبادةِ غَيرِه[(١)].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ فيه تَعدادُ الصِّلاتِ وإنْ كان بَعضُها قد يُغْني عن ذِكرِ بعضٍ؛ فإنَّ التَّسويةَ حالةٌ مِن حالاتِ الخَلْقِ، وقد يُغْني ذِكرُها عن ذِكرِ الخَلْقِ، كقولِه: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، ولكنْ قُصِدَ إظْهارُ مَراتبِ النِّعمةِ، وهذا مِن الإطْنابِ المَقصودِ به التَّذْكيرُ بكُلِّ صِلةٍ، والتَّوقيفُ عليْها بخُصوصِها، ومِن مُقتَضياتِ الإطْنابِ مَقامُ التَّوبيخِ[(٢)].

- وفُرِّعَ فِعلُ (سَوَّاكَ) على ﴿خَلَقَكَ﴾، وفِعلُ (عَدَلَكَ) على (سَوَّاكَ) تَفْريعًا في الذِّكرِ؛ نَظَرًا إلى كَونِ مَعانيها مُترتِّبةً في اعتِبارِ المُعتبِرِ، وإنْ كان جَميعًا حاصِلًا في وَقتٍ واحِدٍ؛ إذ هي أطْوارُ التَّكْوينِ مِن حِينِ كَونِه مُضْغةً إلى تَمامِ خَلْقِه، فكان للفاءِ في عَطفِها أحسَنُ وَقْعٍ[(٣)].

- قولُه: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ قُرِئَ بتَشْديدِ الدَّالِ، وقُرِئ بتَخفيفِها، وهُما مُتَقاربانِ، إلَّا أنَّ التَّشْديدَ يَدُلُّ على المُبالَغةِ في العَدْلِ -أي: التَّسويةِ- فيُفيدُ إتْقانَ الصُّنْعِ[(٤)].

- والاستِفهامُ ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ﴾ مُرادٌ به الكِنايةُ عن التَّعجُّبِ أو التَّعجيبِ مِن شأْنِ ما أُضِيفتْ إليه (أيّ)؛ لأنَّ الشَّيءَ إذا بلَغَ مِن الكَمالِ والعظَمةِ مَبلغًا قَويًّا يُتساءلُ عنه، ويُستفهَمُ عن شأْنِه، ومِن هنا نشَأَ معْنى دَلالةِ (أيّ) على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
ويُنظر ما تقدَّم في القراءاتِ ذاتِ الأثرِ في التَّفسيرِ (ص: ٣٧٨).

الكَمالِ[١].

- قولُه: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ﴾، أي: في صُورةٍ أيِّ صورةٍ، أي: في صُورةٍ كامِلةٍ بَديعةٍ[٢].

- وحرفُ (فِي) للظَّرفيَّةِ الَّتي هي بمَعنى المُلابَسةِ، أي: ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ مُلابِسًا صُورةً عَجيبةً، فمَحَلُّ ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ﴾ مَحَلُّ الحالِ مِن (كافِ) الخِطابِ، وعامِلُ الحالِ (عَدَلَكَ)، أو (رَكَّبَكَ)، فجُعِلَتِ الصُّورةُ العَجيبةُ كالظَّرفِ للمُصوَّرِ بها؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِها مِن مَوصوفِها[٣].

- وقولُه: ﴿مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ بَيانٌ؛ فإنَّه لَمَّا قيلَ: ﴿فَعَدَلَكَ * فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ﴾ على التَّعجُّبِ والتَّنكيرِ للتَّفخيمِ، قيلَ: ما ذلك التَّعديلُ المُفخَّمُ، العَجيبُ الشَّأنِ؟ وأُجيبَ: لا يُحيطُ الوَصفُ بذلك؛ فإنَّه كما شاءَ اللهُ رَكَّبَك، ولا يَعلَمُ ذلك إلَّا هو[٤].

- و(مَا) يَجوزُ أنْ تَكونَ مَوصولةً، ماصَدَقَها[٥]: تَركيبٌ، وهي في مَوضِعِ نَصبٍ على المَفعوليَّةِ المُطلَقةِ، و(شَآءَ) صِلةُ (مَا)، والعائدُ مَحذوفٌ، تَقديرُه: شاءَه، والمَعنى: رَكَّبَك التَّركيبَ الَّذي شاءَه. وعُدِلَ عن التَّصريحِ بمَصدَرِ ﴿رَكَّبَكَ﴾ إلى إبهامِه بـ (ما) المَوصولةِ؛ للدَّلالةِ على تَفْخيمِ المَوصولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٧).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٨).

بـ(ما) في صِلَتِه مِن المَشيئةِ المُسنَدةِ إلى ضَميرِ الرَّبِّ الخَالِقِ المُبدِعِ الحَكيمِ، وناهيكَ بِها. ويَجوزُ أنْ تَكونَ جُملةُ ﴿شَآءَ﴾ صِفةً لـ﴿صُورَةٍ﴾، والرَّابطُ مَحذوفٌ، و(مَا) مَزيدةٌ للتَّأكيدِ، والتَّقديرُ: في صورةٍ عَظيمةٍ شاءَها مَشيئةً مُعيَّنةً، أي: عن تَدبيرٍ وتَقديرٍ[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾

- و﴿كَلَّا﴾ ردْعٌ عن الاغترارِ بكرَمِ اللهِ تعالَى، وجعْلِه ذَريعةً إلى الكُفرِ والمعاصِي، مع كَونِه مُوجِبًا للشُّكرِ والطَّاعةِ، وقولُه: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ إضْرابٌ عن جُملةٍ مُقدَّرةٍ يَنْساقُ إليها الكَلامُ، كأنَّه قيلَ بعْدَ الرَّدْعِ بطَريقِ الاعتِراضِ: وأنتم لا تَرتَدِعون عن ذلك، بل تَجتَرِئون على أَعظَمَ مِن ذلك، حيثُ تُكَذِّبون بالجَزاءِ والبَعثِ رأْسًا، أو بدِينِ الإسلامِ الَّذي هُمَا مِن جُملةِ أحْكامه، فلا تُصدِّقون سُؤالًا ولا جَوابًا، ولا ثَوابًا ولا عِقابًا. وقيلَ: كأنَّه قيلَ: إنَّكم لا تَستَقيمون على ما تُوجِبُه نِعَمي عليْكم، وإرْشادي لكُم، بل تُكذِّبون... إلخ. وقيلَ: ليس الأمرُ كما تَقولون مِن أنَّه لا بَعثَ ولا نُشورَ، ثمَّ قيلَ: أنتم لا تَتبيَّنون بهذا البَيانِ، بل تُكذِّبون بيَومِ الدِّينِ. وقولُه: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ فيه تَرَقٍّ مِن الأَهوَنِ إلى الأَغلَظِ[2].

وقيل: ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ عمَّا هو غُرورٌ باللهِ، أو كالغُرورِ، ممَّا تَضمَّنَه قولُه: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] مِن حُصولِ ما يَغُرُّ الإنسانَ بالشِّركِ، ومِن إعْراضِه عن نِعَمِ اللهِ تعالى بالكُفرِ، أو مِن كَونِ حالةِ المُشرِكِ كحالةِ المَغرورِ، والمَعنى:

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢١).

إشْراكُك بخالِقِك باطِلٌ، وهو غُرورٌ، أو كالغُرورِ، ويكون قولُه: ﴿بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ بعدَ ﴿كَلَّا﴾ إضْرابًا انتِقاليًّا مِن غَرَضِ التَّوبيخِ والزَّجرِ على الكُفرِ إلى ذِكرِ جُرْمٍ فَظيعٍ آخَرَ، وهو التَّكذيبُ بالبَعثِ والجَزاءِ، ويَشملُه التَّوبيخُ بالزَّجرِ بسَبَبِ أنَّه مَعطوفٌ على تَوبيخٍ وزَجْرٍ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ ﴿كَلَّا﴾ إبْطالًا لوُجودِ ما يَغُرُّ الإنسانَ أنْ يُشرِكَ باللهِ، أي: لا عُذرَ للإنسانِ في الإشراكِ باللهِ؛ إذ لا يُوجَدُ ما يَغُرُّه به، ويَكونَ قولُه: ﴿بَلۡ تُكَذِّبُونَ﴾ إضْرابًا إبْطاليًّا، وما بعْدَ ﴿بَلۡ﴾ بيانًا لِما جَرَّأَهم على الإشراكِ، وأنَّه ليس غُرورًا[1].

- وفي صِيغةِ المُضارعِ مِن قولِه: ﴿تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ إفادةُ أنَّ تَكذيبَهم بالجَزاءِ مُتَجدِّدٌ لا يُقلِعون عنه، وهو سَببُ استِمرارِ كُفرِهم. وفي المُضارعِ أيضًا استِحضارُ حالةِ هذا التَّكذيبِ استِحضارًا يَقتضي التَّعجيبَ مِن تَكذيبِهم؛ لأنَّ معهم مِن الدَّلائلِ ما حَقُّه أنْ يقلِعَ تَكذيبَهم بالجَزاءِ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامٗا كَٰتِبِينَ * يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ٩]؛ تأكيدًا لثُبوتِ الجزاءِ على الأعمالِ. وأُكِّدَ الكلامُ بحرْفِ (إنَّ) ولامِ الابتداءِ؛ لأنَّهم يُنكِرون ذلك إنكارًا قويًّا[3].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ﴾ تَحقيقٌ لِما يُكذِّبون به مِن الجَزاءِ، ومُفيدٌ لبُطلانِ تَكذيبِهم، يعني: أنَّكم تُكذِّبون بالجزاءِ، والكاتِبون يَكتُبون عليكم أعمالَكُم لتُجازَوا بها[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢١).

- و﴿لَحَـٰفِظِينَ﴾ صِفةٌ لمَحذوفٍ، تَقديرُه: لَمَلائكةً حافِظينَ، أي: مُحْصين غيرَ مُضيِّعينَ لشَيءٍ مِن أعمالِكُم[(١)].

- وجُمِعَ الملائكةُ باعتِبارِ التَّوزيعِ على النَّاسِ، وإنَّما لكلِّ أحدٍ مَلَكانِ؛ قال تعالَى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[(٢)] [ق: ١٧، ١٨].

- وفيه إنْذارٌ وتَهويلٌ وتَشويرٌ -أي: إخْجالٌ- للعُصاةِ، ولُطْفٌ للمُؤمنينَ[(٣)].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ﴾ هذا بصَريحِ معناه يُفيدُ كِنايةً عن وُقوعِ الجزاءِ؛ إذ لولا الجزاءُ على الأعمالِ لَكان الاعتناءُ بإحصائِها عبثًا[(٤)].

- وأُجرِيَ على الملائكةِ الموكَّلينَ بإحصاءِ أعمالِ النَّاسِ أربعةُ أوصافٍ؛ هي: الحِفظُ، والكرَمُ، والكِتابةُ، والعِلمُ بما يَعمَلُه النَّاسُ. وابتُدِئ منها بوصْفِ الحِفظِ؛ لأنَّه الغرَضُ الَّذي سِيقَ مِن أجْلِه الكلامُ، الَّذي هو إثباتُ الجزاءِ على جَميعِ الأعمالِ، ثمَّ ذُكِرَت بعْدَه صِفاتٌ ثلاثٌ بها كَمالُ الحِفظِ والإحْصاءِ، وفيها تَنويهٌ بشَأنِ الملائكةِ الحافظينَ[(٥)].

- والحِفظُ هنا بمعْنى الرِّعايةِ والمراقبةِ، وهو بهذا المعْنى يَتعدَّى إلى المعمولِ بحرْفِ الجرِّ، وهو (على)؛ لتَضمُّنِه معْنى المراقبةِ. والحَفيظُ: الرَّقيبُ؛ قال تعالَى: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: ٦]. وهذا الاستِعمالُ هو غيرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) .
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٧١٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

استِعمالِ الحِفظِ المعدَّى إلى المفعولِ بنفْسِه؛ فإنَّه بمعْنى الحِراسةِ، نحْو قولِه: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]؛ فالحِفظُ بهذا الإطلاقِ يَجمَعُ مَعنى الرِّعايةِ والقِيامِ على ما يُوكَلُ إلى الحَفيظِ، والأمانةِ على ما يُوكَلُ إليه، وحرْفُ (على) فيه للاستِعلاءِ؛ لتَضَمُّنِه مَعنى الرِّقابةِ والسُّلطةِ(١).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٧٠).

الآيات (١٢-١٩)

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾: أي: المؤمنينَ، الصَّادِقينَ في إيمانِهم، المُطيعينَ لرَبِّهم، قيل: أصلُ (برر) هنا: الصِّدْقُ، يُقالُ: يَبَرُّ رَبَّه، أي: يُطيعُه، وهو مِنَ الصِّدقِ. وقيل: لَمَّا كان البَرُّ خِلافَ البحرِ، وتُصُوِّرَ منه التَّوسُّعُ، اشتُقَّ منه البِرُّ، وهو التَّوسُّعُ في فِعلِ الخَيرِ، ويُقالُ: بَرَّ العبدُ ربَّه، أي: توسَّع في طاعتِه، وأصلُ (برر) هنا -على ذلك-: خلافُ البحرِ[١].

﴿ٱلۡفُجَّارَ﴾: أي: الكفَّارَ، جمعُ فاجِرٍ، وهو المُنْبَعِثُ في المعاصي والمحارِمِ، يُقالُ: فَجَرَ يَفْجُرُ فُجُورًا، فهو فاجِرٌ، والفُجورُ: الانبِعاثُ والتَّفَتُّحُ في المعاصي، وأصلُ (فجر): التَّفَتُّحُ في الشَّيءِ. وقيل: الفَجْرُ: شَقُّ الشَّيءِ شَقًّا واسعًا، والفُجورُ: شَقُّ سِتْرِ الدِّيانةِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٠٤).

وكلمة الأبرارُ قيل: هي جمعُ برٍّ، وقيل: جمعُ بارٍّ، وقيل: هي جمعُ برٍّ -كنَهْرٍ وأنْهارٍ، وجَدٍّ وأجدادٍ-، وجمعُ بارٍّ، كصاحِبٍ وأصحابٍ، وشاهِدٍ وأشْهادٍ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٥٨٨)، ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (٣/ ١٠٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥، ٦٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٧)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٤١٣).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾

﴿يَوْمَ﴾ بالفَتحِ، وهي فتحةُ إعرابٍ؛ لإضافتِه إلى فِعلٍ مُعرَبٍ، ونصبُه على المفعوليَّةِ بإضمارِ (أعني) أو (اذكُرْ)، أو مَنصوبٌ على الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ على تقديرِ (يُجازَوْن)، أو (يُدانُونَ). أو هو مَنصوبٌ على البَدَلِ مِن «يَوْمَ» في قَولِه تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾. وقيل: فَتْحَتُه فتحةُ بناءٍ على رأيِ الكُوفيِّينَ، وحينَئذٍ يكونُ خَبَرَ مُبتدَأٍ محذوفٍ، أي: هو يومَ لا تملِكُ. وبُنِيَ لإضافتِه إلى الفِعلِ «تَمْلِكُ» وإنْ كان مُعرَبًا، أو هو مبنيٌّ في محَلِّ رَفعٍ على البَدَلِ مِن «يَوْمُ» الَّذي قبلَه في قَولِه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا أحوالَ النَّاسِ يومَ القيامةِ: إنَّ المؤمنينَ الطَّائِعينَ لَفي جَنَّةٍ يَتَنَعَّمونَ فيها، وإنَّ الكُفَّارَ العُصاةَ لَفي نارِ الجَحيمِ، يَدخُلونَها ويُقاسُونَ حَرَّها يومَ الحِسابِ والجَزاءِ، وما هم بخارِجينَ منها، بل هم مُلازِمونَ لها أبَدًا.

ثَمَّ يقولُ تعالى مبيِّنًا شدَّةَ هَولِ يومِ القيامةِ: وما أعلَمَك ما يَومُ الحِسابِ والجَزاءِ، ثمَّ ما أعلَمَك بحقيقةِ ذلك اليومِ العَظيمِ المَهُولِ؟!

ذلك اليَومُ الَّذي لا يَملِكُ فيه أحَدٌ نَفْعًا لِغَيرِه، ولا إنقاذَه مِمَّا هو فيه، والمُلْكُ والتَّصَرُّفُ يومَئذٍ للهِ وَحْدَه.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي بن أبي طالب (٢/ ٨٠٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٧٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧١٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٧١).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَف تعالى الكِرامَ الكاتِبينَ لأعمالِ العِبادِ؛ ذكَرَ أحوالَ العامِلينَ، وقَسَّمَهم قِسمَينِ(١).

وأيضًا لَمَّا كانت نتيجةُ حِفظِ الأعمالِ الجَزاءَ عليها؛ أنتَجَ ذلك بيانَ ما كانت الكتابةُ مِن أَجْلِه؛ تفريقًا بيْنَ المحسِنِ والمُسيءِ، الَّذي لا يَصِحُّ في حِكمةِ حَكيمٍ ولا كَرَمِ كَريمٍ غيرُه، بقَولِه على سبيلِ التَّأكيدِ مِن أجْلِ تكذيبِهم(٢):

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ١٣﴾.

أي: إنَّ المؤمِنينَ الطَّائِعينَ الملازِمينَ لفِعلِ الخَيراتِ وأعمالِ البِرِّ والإحسانِ: لَفِي جَنَّةٍ يَتنَعَّمونَ فيها(٣).

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ١٤﴾.

أي: وإنَّ الكُفَّارَ العُصاةَ الَّذين قَصَّروا في حُقوقِ اللهِ تعالى وحُقوقِ عِبادِه: لَفِي نارٍ شَديدةِ التَّوَقُّدِ والتَّأجُّجِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٩)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩١).

﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان السِّياقُ للتَّرهيبِ؛ وَصَف عَذابَ الفُجَّارِ، فقال[١]:

﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥﴾.

أي: يُغمَسونَ فيها فيُباشِرونَ حرَّها، ويحترِقونَ بنارِها يومَ الحِسابِ والجَزاءِ على الأعمالِ، وهو يومُ القيامةِ[٢].

﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان العَذابُ على ما نَعْهَدُه لا بُدَّ أن يَنقَضِيَ؛ بَيَّن أنَّ عَذابَه على غَيرِ ذلك[٣]، فقال:

﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦﴾.

أي: وما هم بخارِجينَ منها، بل هم مُلازِمونَ لها أبَدًا[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين - جزء عم)) (ص: ٩١).

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٤ - ٧٧].

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عُلِمَ أنَّ الوعيدَ الأعظَمَ يومَ الدِّينِ، هَوَّل أمْرَه بالسُّؤالِ عنه إعلامًا بأنَّه أهلٌ لأن يُصرَفَ العُمُرُ إلى الاعتناءِ بأمرِه، والسُّؤالِ عن حقيقةِ حالِه سؤالَ إيمانٍ وإذعانٍ، لا سؤالَ كُفرانٍ وطُغيانٍ؛ لِيَكونَ أقعَدَ في الوَعيدِ به، فقال[١]:

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى مُعَظِّمًا ومُهَوِّلًا شأنَ يومِ القيامةِ: وما أعلَمَك[٢] بحقيقةِ ذلك اليومِ الَّذي يُحاسَبُ فيه النَّاسُ على أعمالِهم، ويُجازَونَ بحَسَبِها[٣]؟!

﴿ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٨).

(٢) قال الرازي: (الأكثَرونَ: أنَّه خِطابٌ للرَّسولِ، وإنَّما خاطبه بذلك؛ لأنَّه ما كان عالِمًا بذلك قبْلَ الوَحْيِ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨٠).

ومِمَّن قال بأنَّ الخِطابَ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٠٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٠٧).

ومِمَّن قال بأنَّ الخِطابَ عامٌّ لكُلِّ إنسانٍ: الألوسيُّ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٧١).

قال القاسمي: (الخِطابُ للإنسانِ المتقَدِّمِ أوَّلَ السُّورةِ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٣).

قال السمرقندي: (يعني: كيف تَعلَمُ حقيقةَ ذلك اليومِ ولم تُعايِنْه؟). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٥).

وقال ابن عاشور: (المقصودُ أنَّه لا تَصِلُ إلى كُنْهِهِ دِرايةُ دارٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت أهوالُه زائدةً على الحَدِّ؛ كَرَّر ذلك السُّؤالَ لذلك الحالِ(١).

﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨﴾.

أي: ثمَّ ما أعلَمَك بحقيقةِ ذلك اليومِ العَظيمِ المَهُولِ(٢)؟!

﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾.

﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: يومَ لا يَملِكُ فيه أحَدٌ نَفْعًا لِغَيرِه، ولا إنقاذَه مِمَّا هو فيه(٣)!

كما قال تعالى: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣].

وقال تبارَكَ وتعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [الدخان: ٤١].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٨، ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩١).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يا بَنِي هاشِمٍ، أنقِذُوا أنفُسَكم مِن النَّارِ، يا بَنِي عبدِ المُطَّلِبِ، أنقِذُوا أنفُسَكم مِنَ النَّارِ، يا فاطِمةُ، أنقِذي نَفْسَك مِنَ النَّارِ؛ فإنِّي لا أملِكُ لكم مِنَ اللهِ شَيئًا))(١).

﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾.

أي: المُلْكُ والتَّصَرُّفُ يومَ القيامةِ لله وَحْدَه، لا يُنازِعُه فيه أحَدٌ مِن خَلْقِه، فهو وَحْدَه الَّذي يُحاسِبُ الخلائِقَ، ويُجازيهم بأعمالِهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ * وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ مِن طريقةِ القُرآنِ الكريمِ التَّصريحُ بذِكْرِ ثوابِ الأبرارِ والمتَّقينَ، والمُخلِصين والمحسنينَ، ومَن رَجَحَتْ حسناتُهم، وبذِكْرِ عِقابِ الكُفَّارِ والفُجَّارِ، والظَّالمينَ لأنْفُسِهم، ومَن خَفَّتْ موازينُهم، ويَسكُتُ عن القِسْمِ الَّذي فيه شائبتانِ، وله مادَّتانِ؛ هذه طريقةُ القرآنِ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ * وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾، وقولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا * فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ * وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٧٧١)، ومسلمٌ (٢٠٤) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٥).

ﱡﭐ ﭏ ﭐﱠ ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١]، وهذا كثيرٌ في القرآنِ. قالوا: وفي السُّكوتِ عن شأنِ صاحِبِ الشَّائبتَينِ تحذيرٌ عظيمٌ وتخويفٌ له بأنَّ أمْرَه مُرْجَأٌ إلى اللهِ تعالى، وليس له عليه ضَمانٌ، ولا له عِندَه وَعْدٌ، فلْيَحْذَرْ كلَّ الحذرِ، ولْيُبادِرْ بالتَّوبةِ النَّصوحِ الَّتي تُلْحِقُه بالمضمونِ لهم النَّجاةُ والفَلاحُ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ تهديدٌ عَظيمٌ للعُصاةِ[2].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۞ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ فيه خِطابُ أعلَمِ الخَلقِ -على قولٍ في التَّفسيرِ- بأنَّه لم يُحِطْ بكُنْهِ ذلك اليَومِ، وكُرِّر ذلك، وأُوثِرَ (ثُمَّ) للتَّراخي رُتبةً؛ إشارةً إلى أنَّه مهما ترَقَّى في العِلمِ لم يَبلُغْ ذلك[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ﴾ إشارةٌ أنَّ بِرَّ القَلْبِ يُوجِبُ نعيمَ الدُّنيا[4].

٢- أنَّ لَفْظَ (الأبرارِ) إذا أُطْلِقَ دَخَلَ فيه كُلُّ تَقيٍّ مِن السَّابقِينَ والمقتَصِدينَ، وإذا قُرِنَ بالمقرَّبينَ كان أخَصَّ؛ قال تعالى في الأوَّلِ: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۞ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾، وقال في الثَّاني: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۞ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٣٤٥).

(٤) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (ص: ٢٧٠).

وذكر ابنُ القيِّم أنَّ هذا قد يُقالُ: إنَّه مُرادٌ مِن النَّعيمِ الأكبرِ، وقد يقالُ: إنَّه مفهومٌ بإشارةِ الآيةِ، ثمَّ قال عن الثَّاني: (وهو أظهَرُ). ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧١).

عِلِّيُّونَ ۞ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ۞ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾[1] [المطففين: ١٨ - ٢١].

٣- لَفظُ البِرِّ إذا أُطْلِقَ تَناوَلَ جميعَ ما أَمَرَ اللهُ به، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾، وقَولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقَولِه: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فالبِرُّ إذا أُطلِقَ كان مُسَمَّاه مُسَمَّى التَّقوى، والتَّقوى إذا أُطلِقَت كان مُسَمَّاها مُسَمَّى البِرِّ، ثُمَّ قد يُجمَعُ بيْنَهما، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾[2] [المائدة: ٢].

٤- قُلوبُ أهلِ البِدَعِ والمُعرِضِينَ عن القُرآنِ، وأهلِ الغَفْلةِ عن اللهِ، وأهلِ المعاصي: في جَحيمٍ قبْلَ الجَحيمِ الأكبرِ، وقُلوبُ الأبرارِ في نَعيمٍ قبْلَ النَّعيمِ الأكبرِ؛ ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾، وهذا في دُورِهم الثَّلاثِ -الدُّنيا، والبَرْزخِ، والآخرةِ-؛ ليس مختصًّا بالدَّارِ الآخرةِ، وإنْ كان تمامُه وكمالُه وظهورُه إنَّما هو في الدَّارِ الآخِرةِ، وفي البَرزخِ دُونَ ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٣٣).

قال ابن رجب: (وإذا قُرِنَ البرُّ بالتَّقوى، كما في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، فقَدْ يكونُ المُرادُ بالبِرِّ مُعامَلةَ الخَلقِ بالإحسانِ، وبالتَّقوى: مُعامَلةَ الحقِّ بفعلِ طاعَتِه، واجْتِنابِ مُحَرَّماتِه، وقد يكونُ أُريدَ بالبِرِّ فِعْلُ الواجِباتِ، وبالتَّقْوى: اجْتِنابُ المُحَرَّماتِ). ((جامع العلوم والحكم)) (٢/ ٩٨).

إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [النمل: ٧١، ٧٢]، وفي هذه الدَّارِ دونَ ما في البَرزخِ، ولكِنْ يَمْنَعُ مِن الإحساسِ به الاستِغراقُ في سَكْرةِ الشَّهَواتِ، وطَرحُ ذلك عن القَلبِ، وعدَمُ التَّفَكُّرِ فيه[1]؛ فلا تَحسَبْ أنَّ قَولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ مقصورٌ على نعيم الآخِرةِ وجَحيمِها فقط، بل في دُورِهم الثَّلاثةِ كذلك، فهؤلاء في نعيمٍ، وهؤلاء في جحيمٍ، وهل النَّعيمُ إلَّا نَعيمُ القَلبِ؟ وهل العَذابُ إلَّا عذابُ القَلْبِ؟ وأيُّ عذابٍ أشَدُّ مِنَ الخَوفِ والهَمِّ والحَزَنِ، وضِيقِ الصَّدرِ، وإعراضِه عن اللهِ والدَّارِ الآخِرةِ، وتعَلُّقِه بغيرِ اللهِ، وانقِطاعِه عن اللهِ، بكُلِّ وادٍ منه شُعبةٌ، وكُلُّ شَيءٍ تعَلَّقَ به وأحَبَّه مِن دونِ اللهِ فإنَّه يَسومُه سُوءَ العَذابِ[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ إشارةٌ أنَّ فُجورَ القَلبِ يُوجِبُ جَحيمَ الدُّنيا[3].

٦- أنَّ اسمَ الفاجِرِ في عُرْفِ القُرآنِ والسُّنَّةِ يَتناوَلُ الكافِرَ قَطْعًا، كقَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[4].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ دليلٌ مِن أدِلَّةِ خُلودِ الكُفَّارِ في النَّارِ[5]، والمرادُ بالفُجَّارِ هنا: المُشرِكونَ؛ فهم لا يَغيبونَ عن النَّارِ طَرْفةَ عَينٍ، وذلك هو

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٧٦).

(٣) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (ص: ٢٧٠).

وذكر ابنُ القيِّمِ أنَّ هذا قد يُقالُ: إنَّه مرادٌ مِن الجحيمِ الأكبَرِ، وقد يقالُ: إنَّه مفهومٌ بإشارةِ الآيةِ، ثمَّ قال عن الثَّاني: (وهو أظهَرُ). ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٨٥).

(٥) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٥١).

الخُلودُ، ونحن -أهلَ السُّنَّةِ- لا نَعتَقِدُ الخُلودَ في النَّارِ لغيرِ الكافِرِ، فأمَّا عُصاةُ المؤمِنينَ فلا يُخَلَّدونَ في النَّارِ، وإلَّا لَبَطَلَتْ فائدةُ الإيمانِ[1].

٨- قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ * يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ كلُّ موضعٍ في القرآنِ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد عُقِّبَ ببيانِه؛ نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ * نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ [القارعة: ١٠، ١١]، وكلُّ موضعٍ ذُكِر بلَفظِ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ لم يُعقَّبْ ببيانِه، نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾[2] [الشورى: ١٧].

٩- قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ و﴿شَيۡـٔٗا﴾ اسمٌ يدُلُّ على جِنسِ المَوجودِ، والمَعنى: لا تَملِكُ نفْسٌ لِنَفْسٍ شَيئًا يُغْني عنها ويَنفَعُها، أي: ليس في قُدرَتِها شَيءٌ يَنفَعُ نفْسًا أُخْرى، وهذا يُفيدُ تأْييسَ المُشركين من أنْ تَنفَعَهم أصْنامُهم يومَئذٍ، كما قال تعالَى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَـٰٓؤُاْ﴾[3] [الأنعام: ٩٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ سُؤالٌ: كيف قال ذلك، مع أنَّ النُّفوسَ المقبولةَ الشَّفاعةِ تَملِكُ لِمَن شَفَعَت فيه شيئًا، وهو الشَّفاعةُ؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٥٩٧).

وقال الفَرَّاءُ: (كلُّ ما كان في القرآنِ من قولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أدراه، وما كان من قولِه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يُدْرِه). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٨٠).

وأخرج ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٢٣/ ٢٠٧) بسندِه عن سُفْيانَ بنِ عُيَيْنةَ، قال: (ما في القرآنِ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يُخبِرْه، وما كان: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أخبَرَه). وأخرجه أيضًا ابنُ المُنذِرِ وابنُ أبي حاتم، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٥).

الجوابُ: أنَّ المنفِيَّ ثُبوتُ المُلْكِ بالسَّلْطَنةِ، والشَّفاعةُ ليست بطَريقِ السَّلْطَنةِ؛ فلا تدخُلُ في النَّفْيِ، ويُؤَيِّده قَولُه تعالى: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾[١]. فهي لا تَملِكُ ذلك استقلالًا، وإنَّما يكونُ ذلك بعدَ إذْنِ اللهِ ومَشيئتِه.

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ سؤالٌ: أنَّ ظاهِرَ هذه الآيةِ تقييدُ الأمرِ بالظَّرْفِ المذكورِ، ولكِنَّ الأمرَ لله في ذلك اليومِ وقبْلَ ذلك اليَومِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾ [الروم: ٤]، وقَولِه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] أي: يتصَرَّفُ في خَلْقِه بما يَشاءُ مِن أمْرِه لا يَشرَكُه أحَدٌ كما لا يَشرَكُه أحَدٌ في خَلْقِه. فما وَجهُ التَّخصيصِ بيومِ القيامةِ؟

والجوابُ: أنَّ الأمرَ للهِ تعالى في يومِ القيامةِ وفيما قَبْلَه، والمُلْكُ لله في الدُّنيا وفي الآخِرةِ، لكِنَّ ظهورَ مَلَكوتِ اللهِ عزَّ وجَلَّ وأمْرِه في ذلك اليومِ أكثرُ بكثيرٍ مِن ظهورِ ملَكوتِ الله وأمْرِه في الدُّنيا، فلا أمْرَ مع أمْرِه، ولا متقَدِّمَ عليه، حتَّى ولا بكَلِمةٍ، إلَّا مَن أذِنَ له الرَّحمنُ وقال صَوابًا، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فيتبَيَّنُ في ذلك اليومِ أنَّه ليس هناك آمِرٌ في ذلك اليَومِ إلَّا اللهُ عزَّ وجَلَّ[٢].

وأيضًا فالأمرُ إذا كان إلى اللهِ وحْدَه في ذلك اليومِ العظيمِ، فما دُونَه أَولى.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۞ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ۞ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۞ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ﴾ فُصِلَتْ هذه الجُملةُ عن الَّتي قبْلَها؛ لأنَّها

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٢).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٢).

استِئنافٌ بَيانيٌّ جَوابٌ عن سُؤالٍ يَخطُرُ في نفْسِ السَّامِعِ يُثيرُه قولُه: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ [الانفطار: ٩، ١٠] الآيةَ؛ لتَشوُّفِ النَّفْسِ إلى مَعرفةِ هذا الجَزاءِ: ما هو؟ وإلى مَعرفةِ غايةِ إقامةِ المَلائكةِ لإحْصاءِ الأعْمالِ: ما هيَ؟ فبيَّنَ ذلك بقولِه: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ الآيةَ. وأيضًا تَتضمَّنُ هذه الجُملةُ تَقسيمَ أصحابِ الأعمالِ؛ فهي تَفصيلٌ لجُملةِ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٢]، وذلك مِن مُقتضَياتِ فَصْلِ الجُملةِ عن الَّتي قبْلَها[(١)]. فقولُه: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ نَتيجةِ الحِفظِ والكِتابِ مِن الثَّوابِ والعِقابِ[(٢)].

- وجِيءَ بالكَلامِ مُؤكَّدًا بـ(إنَّ) ولامِ الابتِداءِ؛ ليُساويَ البَيانُ مُبيَّنَه في التَّحقيقِ ودَفْعِ الإنْكارِ[(٣)].

- والظَّرفيَّةُ مِن قولِه: (فِي نَعِيمٍ) تُفيدُ تَشبيهَ دَوامِ التَّنعُّمِ لهم بإحاطةِ الظَّرفِ بالمَظروفِ بحَيثُ لا يُفارِقُه[(٤)].

- وكُرِّرَ التَّأكيدُ مع الجُملةِ المَعطوفةِ ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾؛ للاهتِمامِ بتَحقيقِ كَونِهم في جَحيمٍ، لا يَطْمَعون في مُفارَقتِه[(٥)].

- وفي تَنكيرِ النَّعيمِ والجَحيمِ مِن التَّفخيمِ والتَّهويلِ ما لا يَخْفى[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٨٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٢).

- قولُه: ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ إمَّا صِفةٌ لـ﴿جَحِيمٍ﴾، أو استِئنافٌ مَبنيٌّ على سُؤالٍ نَشَأَ مِن تَهويلِها، كأنَّه قيلَ: ما حالُهم فيها؟ فقيلَ: يُقاسون حَرَّها[1].

- و﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ ظَرفٌ لـ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾، وذُكِرَ لبَيانِ أنَّهم يَصْلَونها جَزاءً عن فُجورِهم؛ لأنَّ الدِّينَ الجَزاءُ، ويومَ الدِّينِ يومُ الجَزاءِ[2].

- قولُه: ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ﴾، أي: لا يَغيبون عنها طَرْفةَ عَينٍ؛ فإنَّ المُرادَ دَوامُ نَفيِ الغَيبةِ، لا نَفيُ دَوامِ الغَيبةِ؛ لأنَّ الجُملةَ الاسميَّةَ المَنفيَّةَ قد يُرادُ بها استِمرارُ النَّفيِ، لا نَفيُ الاستِمرارِ، باعتِبارِ ما تُفيدُه مِن الدَّوامِ والثَّباتِ بعْدَ النَّفيِ لا قبْلَه[3]، فجِيءَ بالجُملةِ ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ﴾ اسميَّةً دُون أنْ يُقالَ: (وما يَغيبون عنها)، أو (وما يُفارِقونها)؛ لإفادةِ الاسميَّةِ الثَّباتَ، سَواء في الإثْباتِ أو النَّفيِ؛ فالثَّباتُ حالةٌ للنِّسبةِ الخَبريَّةِ، سَواءٌ كانت نِسبةَ إثْباتٍ أو نِسبةَ نَفيٍ، وزِيادةُ الباءِ لتأكيدِ النَّفيِ[4].

- وتَقديمُ ﴿عَنۡهَا﴾ على مُتعلَّقِه؛ للاهتِمامِ بالمَجرورِ، وللرِّعايةِ على الفاصِلةِ[5].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ * يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ تَفخيمٌ لِشأْنِ وهَوْلِ يومِ الدِّينِ الَّذي يُكذِّبون به، إثْرَ تَفخيمٍ وتَهويلٍ لأمْرِه بعْدَ تَهويلٍ، وكَيْفَما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٠٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَصوَّرْتَه فهو فَوقَ ذلك وعلى أضْعافِه[١].

وقيل: الاستِفهامُ الأوَّلُ مُستعمَلٌ كِنايةً عن تَعظيمِ أمْرِ اليَومِ وتَهويلِه، والاستِفهامُ الثَّاني مُستعمَلٌ في معناهُ، أي: سؤالِ سائلٍ عن حَقيقةِ يومِ الدِّينِ، كما تَقولُ: عَلِمْتَ هلْ زَيدٌ قائمٌ؟ أي: عَلِمْتَ جوابَ هذا السُّؤالِ، ومِثلُ هذا التَّركيبِ ممَّا جَرى مَجْرى المَثَلِ، فلا يُغيَّرُ لَفْظُه[٢].

وقيل: قولُه: ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ تَكريرٌ للتَّهويلِ تَكريرًا يُؤْذِنُ بزيادتِه، أي: تَجاوُزِه حَدَّ الوَصفِ والتَّعبيرِ، فهو مِن التَّوكيدِ اللَّفْظيِّ[٣]. وقيلَ: الأوَّلُ للمُؤمِنينَ، والثَّاني للكُفَّارِ[٤].

- وقَرَنَ هذا بحرفِ (ثُمَّ) الَّذي شأْنُه -إذا عَطَفَ جُملةً على أُخرى- أنْ يُفيدَ التَّراخيَ الرُّتْبيَّ، أي: تَباعُدَ الرُّتْبةِ في الغَرَضِ المَسوقِ له الكَلامُ، وهي في هذا المَقامِ رُتبةُ العَظَمةِ والتَّهويلِ، فالتَّراخي فيها هو الزِّيادةُ[٥].

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ إظْهارُ يومِ الدِّينِ في مَوقِعِ الإضْمارِ، وهو تَأْكيدٌ لهَوْلِه وفَخامتِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠١).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٣).

- قولُه: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ بيانٌ إجْماليٌّ لِشأْنِ يَومِ الدِّينِ إثْرَ إبْهامِه وبَيانِ خُروجِه عن عُلومِ الخَلقِ بطَريقِ إنْجازِ الوَعْدِ؛ فإنَّ نفْيَ إدْرائِهم مُشعِرٌ بالوَعْدِ الكَريمِ بالإدْراءِ[1]؛ فهو بَيانٌ للتَّهويلِ العَظيمِ المُجمَلِ الَّذي أفادَه قولُه: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧، ١٨]؛ إذ التَّهويلُ مَشعِرٌ بحُصولِ ما يَخافُه المُهَوَّلُ لهم، فأُتبِعَ ذلك بزِيادةِ التَّهويلِ مع التَّأييسِ من وُجْدانِ نَصيرٍ أو مُعينٍ[2].

- وعُمومُ (نَفْس) الأُولى والثَّانيةِ في سِياقِ النَّفيِ يَقتَضي عُمومَ الحُكمِ في كُلِّ نفْسٍ[3].

- قولُه: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ تَذييلٌ[4]؛ والتَّعريفُ في (الأمْر) للاستِغراقِ، والأمرُ هُنا بمَعنى: التَّصرُّفِ والإذْنِ، وهو واحِدُ الأَوامِرِ، أي: لا يأمُرُ إلَّا اللهُ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ الأَمرُ مُرادِفًا للشَّيءِ، فتَغييرُ التَّعبيرِ للتَّفنُّنِ، والتَّعريفُ على كِلا الوَجْهَينِ تَعريفُ الجِنسِ المُستَعمَلُ لإرادةِ الاستِغراقِ، فيَعُمُّ كُلَّ الأُمورِ، وبذلك العُمومِ كانتِ الجُملةُ تَذْييلًا[5].

- أَفادَتْ لامُ الاختِصاصِ في ﴿لِّلَّهِ﴾ -مع عُمومِ الأَمرِ-: أنَّه لا أمْرَ يَومَئذٍ إلَّا للهِ وحْدَه، لا يَصدُرُ من غَيرِه فِعلٌ، وليس في هذا التَّركيبِ صِيغةُ حَصْرٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٨٥).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٥).

ولكنَّه آيِلٌ إلى مَعنى الحَصْرِ(١).

- وفي هذا الخِتامِ رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ(٢)؛ لأنَّ أوَّلَ السُّورةِ ابتُدئَ بالخَبَرِ عن بَعضِ أحوالِ يَومِ الجَزاءِ، وخُتِمَتِ السُّورةُ ببَعضِ أحوالِه(٣).

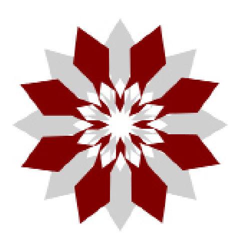


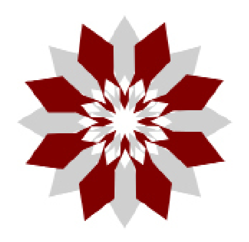
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٥).

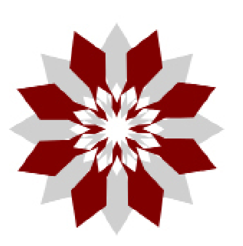
(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٥).

تَفْسِيرُ
سُورَةِ المُطَفِّفِينَ







سُورةُ المُطَفِّفينَ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (المُطَفِّفينَ)، و﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾[(١)].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ المُطَفِّفينَ مُختَلَفٌ فيها[(٢)]؛ فقِيلَ: مَكِّيَّةٌ[(٣)]، وقيلَ: مَدَنيَّةٌ[(٤)].

---

(١) سُمِّيت بذلك؛ لافتِتاحِها بقَولِ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٠٦).

وقال ابنُ عاشور: (سُمِّيَت هذه السُّورةُ في كُتُبِ السُّنَّةِ وفي بعضِ التَّفاسيرِ «سورةَ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾»، وكذلك ترجَمَها البُخاريُّ في كتابِ التَّفسيرِ مِن «صحيحِه» [«٦/ ١٦٧»]، والتِّرمذيُّ في «جامِعِه» [«٥/ ٤٣٤»]، وسُمِّيَت في كثيرٍ مِن كُتُبِ التَّفسيرِ والمصاحِفِ «سُورةَ المطَفِّفينَ» اختصارًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٧).

وتسمَّى أيضًا سورةَ التَّطفيفِ. يُنظر: ((جمال القراء وكمال الإقراء)) للسخاوي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ٥١).

(٣) ممَّن اختار أنَّها مَكِّيَّةٌ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِين، والواحديُّ، والزَّمخشريُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٠).

(٤) ممَّن اختار أنَّها مَدَنيَّةٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والبَغَويُّ، وابنُ كثير، والبِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦١٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٦)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٦٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٩٩).

قال ابن الجوزيِّ: (فيها ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحَدُها: أنَّها مكِّيَّةٌ. قاله ابنُ مَسعودٍ، والضَّحَّاكُ، ويحيى بنُ سَلَّام.

والثَّاني: مَدَنيَّةٌ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، والحَسَنُ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، ومُقاتِلٌ، إلَّا أنَّ ابنَ عبَّاسٍ وقَتادةَ قالا: فيها ثماني آياتٍ مَكِّيَّةٌ؛ مِن قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ [المطففين: ٢٩] إلى آخِرِها. وقال مقاتِلٌ: فيها آيةٌ مكِّيَّةٌ، وهي قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين: ١٣].

=

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

١- التَّحْذيرُ مِن التَّطْفيفِ(١).

٢- الحديثُ عن الفُجَّارِ والأبرارِ، والموازنةُ بيْنَ مصيرِ كلٍّ منهما(٢).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- التَّحذيرُ مِن التَّطفيفِ في الكَيلِ والميزانِ، وتوَعُّدُ المطَفِّفينَ، وتذكيرُهم بيَومِ البَعثِ والحِسابِ والجَزاءِ.

٢- بيانُ سُوءِ عاقِبةِ الفُجَّارِ، وحُسنِ عاقِبةِ الأبرارِ، وبيانُ أنَّ صَحائِفَ أعمالِ الفُجَّارِ في أسفَلِ سافِلينَ، وصَحائِفَ أعمالِ الأبرارِ في أعلى عِلِّيِّينَ.

٣- ذِكرُ ما كان يَفعَلُه المُشرِكونَ مع المؤمِنينَ مِن استِهزاءٍ وإيذاءٍ.

٤- تبشيرُ المؤمِنينَ بأنَّهم يومَ القيامةِ سيَضحَكونَ مِن الكُفَّارِ كما ضَحِكَ الكُفَّارُ منهم في الدُّنيا.

= والثَّالثُ: أنَّها نزَلَت بيْن مكَّةَ والمدينةِ. قاله جابرُ بنُ زَيدٍ، وابنُ السَّائبِ. وذَكَرَ هبةُ الله بنُ سلامةَ المفسِّرُ أنَّها نزلت في الهِجرةِ بيْن مكَّةَ والمدينةِ، نِصفُها يُقارِبُ مكَّةَ، ونِصفُها يُقارِبُ المدينةَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٣). ويُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) لهبة الله بن سلامة (ص: ١٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٨). ويُنظر أيضًا: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣١٥).

وذكر الإسكافي أنَّ سورةَ المطَفِّفينَ: (مَقصورةٌ على التَّرهيبِ مِن النَّارِ ووَصْفِها ومُعاقَبةِ أهْلِها، وعلى التَّرغيبِ في الجنَّةِ ونَعيمِ أهْلِها؛ ليس في السُّورةِ غيرُ هذَينِ المعنيَينِ). ((درة التنزيل وغرة التأويل)) (ص: ١٣٤٩).

الآيات (١-٦)

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَيْلٌ﴾: أي: عَذابٌ وهَلاكٌ. وقيلَ: وَيلٌ: وادٍ في جَهنَّمَ[1].

﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾: أي: الَّذين يَنقُصونَ النَّاسَ حُقوقَهم في الكَيْلِ والوَزْنِ، والتَّطفيفُ: النُّقصانُ، أصلُه في الشَّيءِ الطَّفيفِ، وهو النَّزْرُ القليلُ، والمطَفِّفُ إنَّما يأخُذُ بالميزانِ شيئًا طفيفًا، وأصلُ (طفف): يدُلُّ على قِلَّةِ الشَّيءِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨).

قال الراغب: (ومَن قال: وَيْلٌ: وادٍ في جَهنَّمَ، فإنَّه لم يُرِدْ أنَّ وَيْلًا في اللُّغةِ هو موضوعٌ لهذا، وإنَّما أراد: مَن قال اللهُ تعالى ذلك فيه فقد استحَقَّ مَقَرًّا من النَّارِ، وثَبَت ذلك له). ((المفردات)) (ص: ٨٨٨). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (الوَيلُ في كلامِ العَرَبِ: المصائِبُ والحُزنُ والشِّدَّةُ من هذه المعاني، وهي لفظةٌ تُستعمَلُ في الدُّعاءِ على الإنسانِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨١).

وقال الشنقيطي: (الأظهرُ أنَّ لفظةَ ﴿وَيْلٌ﴾ كلمةُ عَذابٍ وهلاكٍ، وأنَّها مَصدرٌ لا فِعلَ له مِن لَفظِه، وأنَّ المسَوِّغَ للابتِداءِ بها -مع أنَّها نَكِرةٌ- كَونُها في مَعرِضِ الدُّعاءِ عليهم بالهَلاكِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٤).

قال الزَّجَّاجُ: (والمطَفِّفونَ: الَّذين يَنقُصونَ المِكْيالَ والميزانَ، وإنَّما قيل للفاعِلِ مِن هذا مُطَفِّفٌ؛ لأنَّه لا يَكادُ يَسرِقُ في المِكْيالِ والميزانِ إلَّا الشَّيءَ الحقيرَ الطَّفيفَ، وإنَّما أُخِذَ مِن طَفِّ =

﴿اكْتَالُوا﴾ ﴿كَالُوهُمْ﴾: يُقالُ: كِلْتُ فُلانًا: أعطَيْتُه. واكتَلْتُ عليه: أخَذْتُ منه، والاكتيالُ: الأخذُ بالكَيْلِ[1].

﴿يَسْتَوْفُونَ﴾: أي: يأخُذونَ حُقوقَهم وافيةً تامَّةً، وأصلُ (وفي): يدُلُّ على إكمالٍ وإتمامٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالوَعيدِ الشَّديدِ للَّذين يَنقُصونَ في الكَيلِ أو الوَزنِ، فقال تعالى: عَذابٌ وهَلاكٌ للَّذين يَنقُصونَ النَّاسَ حُقوقَهم في المِكْيالِ والمِيزانِ؛ الَّذين إذا اشتَرَوا مِنَ النَّاسِ أخَذُوا حَقَّهم كامِلًا، وإذا كالُوا أو وَزَنوا لغَيرِهم مِن النَّاسِ يَنقُصونَهم حَقَّهم.

ثمَّ قال تعالى متوعِّدًا لهم: ألَا يَظُنُّ أولئك المُطَفِّفونَ أنَّهم مَبعوثونَ ليومِ الحِسابِ العَظيمِ؛ يومَ يَقومُ النَّاسُ لله رَبِّ العالَمينَ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١)﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((لَمَّا قَدِمَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المدينةَ كانوا مِن أخبَثِ النَّاسِ كَيْلًا، فأنزَل اللهُ سُبحانَه: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾؛

= الشَّيءِ، وهو جانِبُه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٩٧).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

فأحسَنُوا الكَيلَ بعْدَ ذلك))[١].

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ للَّذين يَنقُصونَ النَّاسَ حُقوقَهم في المِكْيالِ والمِيزانِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩].

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢﴾.

أي: الَّذين إذا اشتَرَوا مِنَ النَّاسِ ما يُباعُ بالكَيلِ أخَذُوا حَقَّهم كامِلًا بلا نَقْصٍ[٣].

﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣﴾.

أي: وإذا كالُوا أو وَزَنوا للنَّاسِ حينَ يَبيعونَ لهم ما يُكالُ أو يُوزَنُ يَنقُصونَهم حَقَّهم[٤].

---

(١) أخرجه النَّسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١١٦٥٤)، وابنُ ماجه (٢٢٢٣) واللَّفظُ له.
صَحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٤٩١٩)، والحاكم في ((المستدرك)) (٢٢٤٠)، وصَحَّح إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٥٦٥)، وحَسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢٢٢٣)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٤٩١٩).
قال ابنُ عاشور: (اجتَمَعت كَلِمةُ المفَسِّرينَ على أنَّ أهلَ يَثرِبَ كانوا من أخبَثِ النَّاسِ كَيلًا، فقال جماعةٌ مِنَ المفَسِّرينَ: إنَّ هذه الآيَةَ نزلت فيهم؛ فأحسَنوا الكَيلَ بعدَ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين - جزء عم)) (ص: ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩١، ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين - جزء عم)) (ص: ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٦، ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٦)، ((تفسير =

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر سُبحانَه وتعالى أنَّهم أدمَنُوا على هذه الرَّذائِلِ حتَّى صارت لهم خُلُقًا مَرَنُوا عليه، وأَنِسُوا به، وسَكَنوا إليه، وكان ذلك لا يكونُ إلَّا مِمَّن أَمِنَ العِقابَ وأنكَرَ الحِسابَ- أنتجَ ذلك الإنكارَ عليهم على أبلَغِ الوُجوه؛ لإفهامِه أنَّ حالَهم أهلٌ لأن يُتعَجَّبَ منه ويُستفهَمَ عنه، وأنَّ المُستفهَمَ عن حُصولِه عِندَهم الظَّنُّ -وذلك على قولٍ-، وأمَّا اليقينُ فلا يُتخَيَّلُ فيهم؛ لبُعدِ أحوالِهم الجافيةِ وأفهامِهم الجامدةِ عنه؛ فقال تعالى[1]:

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤﴾.

أي: أَلَا يَظُنُّ أولئك المُطَفِّفونَ أنَّهم مَبعوثونَ مِن قُبورِهم أحياءً بَعْدَ مَوتِهم[2]؟!

﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٍ ٥﴾.

= السعدي)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩١، ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٣).

قال ابنُ عثيمين: (فهؤلاء يَستوفُونَ حَقَّهم كاملًا، ويَنقُصونَ حَقَّ غَيرِهم؛ فجَمَعوا بيْن الأمْرَين؛ بيْن الشُّحِّ والبُخلِ. الشُّحُّ: في طَلَبِ حَقِّهم كاملًا بدونِ مُراعاةٍ أو مُسامحةٍ. والبُخلُ: بمَنعِ ما يجبُ عليهم مِن إتمامِ الكَيلِ والوَزنِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٥، ٣١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٣).

قال القرطبي: (الظنُّ هنا بمعنى اليقينِ، أي: ألَا يوقنُ أولئك، ولو أيقنوا ما نقَصوا في الكيلِ والوزنِ. وقيل: الظنُّ بمعنى الترددِ، أي: إنْ كانوا لا يستيقنونَ بالبعثِ، فهلا ظنُّوه، حتى يتدبَّروا ويَبحثوا عنه، ويأخذوا بالأحوطِ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٤).

أي: ليومٍ عَظيمٍ شأنُه، شديدةٍ أهوالُه[(١)]

﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

أي: يومَ يكونُ النَّاسُ قيامًا لله رَبِّ العالَمينَ، فيُحاسِبُهم ويُجازيهم على أعمالِهم[(٢)].

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ حتَّى يَغيبَ أحَدُهم في رَشَحِه[(٣)] إلى أنصافِ أُذُنَيه!))[(٤)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ ذَمُّ التَّطفيفِ والخيانةِ في الكَيلِ والوَزنِ[(٥)]. فأَمرُ المكيالِ والميزانِ عَظيمٌ؛ وذلك لأنَّ عامَّةَ الخَلْقِ يحتاجونَ إلى المعامَلاتِ، وهي مَبنيَّةٌ على أمرِ المِكيالِ والميزانِ؛ فلهذا السَّبَبِ عَظَّمَ اللهُ أمْرَه، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ * أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ * وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩]، وقال: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٦).

(٣) في رَشَحِه: أي: عَرَقِه. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٨/ ٤٨٧).

(٤) رواه البخاريُّ (٤٩٣٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٨٦٢).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٨٤).

وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥][١]، ولا ينفَعُ فيما وقع مِن التَّطفيفِ ولا يُخلِّصُ صاحِبَه إلَّا التَّوبةُ، ورَدُّ المَظْلمةِ إلى صاحِبِها، وقال مالِكُ ابنُ دِينارٍ: (احتُضِرَ جارٌ لي، فجعل يقولُ: جبلانِ مِن نارٍ، فقلتُ له ما هذا؟ فقال لي: يا أخي، كان لي مِكيالانِ، آخُذُ بالوافي، وأُعطي بالنَّاقِصِ)[٢]!

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ هذه الآيةُ تحذيرٌ للمُسلِمينَ مِن التَّساهُلِ في التَّطفيفِ، وحَسْبُهم أنَّ التَّطفيفَ يَجمَعُ ظُلمًا واختِلاسًا ولُؤْمًا، والعَرَبُ كانوا يتعَيَّرونَ بكُلِّ واحدٍ مِن هذه الخِلالِ مُتفرِّقةً ويتبَرَّؤونَ منها، ثمَّ يَأتونَها مُجتَمِعةً، وناهِيكَ بذلك أفَنًا[٣]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ الوَعيدُ على مَن يَستوفي العُقودَ تامَّةً ولا يُوَفِّيها تامَّةً[٤]!

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ هذا مِثالٌ ذَكَرَه اللهُ عزَّ وجلَّ في الكَيلِ والوَزنِ، فيُقاسُ عليه كلُّ ما أشْبَهَه؛ فكلُّ مَن طَلَبَ حقَّه كامِلًا ممَّن هو عليه، ومَنَعَ الحقَّ الَّذي عليه: فإنَّه داخِلٌ في الآيةِ الكريمةِ؛ فمثلًا الزَّوجُ يريدُ مِن زوجتِه أنْ تعطيَه حقَّه كاملًا، ولا يَتهاوَنُ في شَيءٍ مِن حقِّه، لكِنَّه عندَ أداءِ حقِّها يَتهاوَنُ، ولا يُعطيها الَّذي لها! ورُبَّما يَنْقُصُ أكثرَ حقِّها مِن النَّفَقةِ والعِشْرةِ بالمعروفِ وغيرِ ذلك[٥]،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٢).

والأَفَنُ: ضَعفُ الرَّأيِ والعَقْلِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٤/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٣).

وأيضًا الموظَّفُ إذا كان يريدُ أنْ يُعطَى راتبَه كامِلًا لكِنَّه يتأخَّرُ في الحُضورِ أو يتقدَّمُ في الخُروجِ، فإنَّه مِن المطَفِّفينَ الَّذين توعَّدَهم اللهُ بالوَيلِ؛ لأنَّه لا فرقَ بيْن إنسانٍ يَكِيلُ أو يَزِنُ للنَّاسِ، وبيْن إنسانٍ مُوظَّفٍ عليه أنْ يَحْضُرَ في السَّاعةِ الفلانيَّةِ ولا يَخْرُجَ إلَّا في السَّاعةِ الفلانيَّةِ، ثُمَّ يتأخَّرُ في الحضورِ ويتقَدَّمُ في الخُروجِ! هذا مُطَفِّفٌ، وهذا المُطَفِّفُ في الوظيفةِ لو نَقَصَ مِن راتبِه ريالٌ واحِدٌ مِن عَشَرةِ آلافٍ لَقال: لماذا تَنْقُصُ! هذا مُطَفِّفٌ يَدخُلُ في هذا الوَعيدِ[1]، وأيضًا فمِن الحَيفِ والجَورِ أنْ يَتكَلَّمَ الإنسانُ في شَخصٍ كعالِمٍ أو تاجرٍ أو أيِّ إنسانٍ، ثُمَّ يَذْكُرَ مَساوِيَه -الَّتي قد يكونُ معذورًا فيها- ولا يَذْكُرَ محاسِنَه! هذا ليس مِن العَدْلِ؛ يأتي إلى عالِمٍ مِن العُلَماءِ أخطأَ في مَسألةٍ وهو فيها معذورٌ، ثُمَّ يَنْشُرُ هذه المسألةَ الَّتي أخطَأَ فيها، ويَنْسَى محاسِنَ هذا العالِمِ الَّذي نفَعَ العِبادَ بكَثيرٍ مِن عِلْمِه! هذا لا شَكَّ أنَّه تطفيفٌ وجَورٌ وظُلْمٌ. إذا كنتَ تريدُ أنْ تُقَوِّمَ الشَّخصَ فلا بُدَّ أنْ تَذْكُرَ محاسِنَه ومَساوِيَه، أمَّا إذا كنتَ تريدُ أنْ تتكَلَّمَ على خَطَأٍ معيَّنٍ لِتُحَذِّرَ النَّاسَ منه، فنَعم، اذكُرِ الخطأَ، لكنْ بقَطْعِ النَّظَرِ عن قائلِه، وقُلْ مثلًا: سَمِعْنا أنَّ بعضَ النَّاسِ يقولُ كذا وكذا، وهو خطأٌ، ثُمَّ تُبَيِّنُ الخطأَ، أمَّا أنْ تريدَ أنْ تنشرَ مَساويَ الآخَرينَ دونَ محاسِنِهم، فهذا ظُلْمٌ وجَورٌ[2].

٥- قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ والمطَفِّفُ الَّذي يَنقُصُ الكَيلَ والوَزنَ، وأراد بهذا الَّذينَ يُعامِلونَ النَّاسَ؛ فإذا أخَذوا لأنفُسِهم استَوفَوا، وإذا دَفَعوا إلى مَن يُعامِلُهم نَقَصوا، ويَتجَلَّى ذلك في الوَزنِ والكَيلِ، وفي إظهارِ العَيبِ، وفي القَضاءِ والأداءِ والاقتِضاءِ، فمَن لم يَرْضَ لأخيه المُسلِمِ ما يَرضاه لنَفْسِه، فليس بمُنصِفٍ؛ فالَّذي يرى عَيبَ النَّاسِ ولا يرى عيبَ نَفْسِه فهو مِن هذه الجُملةِ؛

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٥٠).

جُملةِ المطَفِّفينَ، كما قيل:

وتَعـــذِرُ نفْسَـــك إمَّـــا أَسَـــأْتَ　　وغــيـــرُكَ بــالــعُــذرِ لا تَــعــذِرُ
وتُبصِـــرُ في العَيـــنِ مِنْـــهُ القَذَى　　وفـــي عَينِـــكَ الجِـــذْعُ لا تُبصِرُ

ومَنِ اقتضى حَقَّ نَفْسِه دونَ أن يَقضيَ حُقوقَ غَيرِه مِثلَما يَقتضيها لنَفْسِه، فهو مِن جُملةِ المُطَفِّفينَ[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ تَنبيهٌ على أنَّ أصلَ الآفاتِ: الخُلُقُ السَّيِّئُ، وهو حُبُّ الدُّنيا المُوقِعُ في جَمعِ الأموالِ مِن غَيرِ وَجْهِها، ولو بأخَسِّ الوُجوهِ؛ التَّطفيفِ الَّذي لا يَرضاه ذو مُروءةٍ[2]!

٧- التَّقديمُ في افتتاحيةِ هذه السُّورةِ بـ ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ يُشعِرُ بشِدَّةِ خَطَرِ هذا العَمَلِ، وهو فِعلًا خَطيرٌ؛ لأنَّه مِقياسُ اقتِصادِ العالَمِ، ومِيزانُ التَّعامُلِ، فإذا اختَلَّ أحدَثَ خَلَلًا في اقتصادِه، واختلالًا في التَّعامُلِ، وهو فسادٌ كبيرٌ، وأكبَرُ مِن هذا كُلِّه وُجودُ الرِّبا إذا بِيعَ جِنسٌ بجِنْسِه، وحَصَل تفاوُتٌ في الكَيلِ أو الوَزنِ، وفيه كما قال تعالى: ﴿فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[3] [البقرة: ٢٧٩].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الإنسانَ كما يأخُذُ مِنَ النَّاسِ الَّذي له يجِبُ عليه أن يُعطِيَهم كُلَّ ما لَهم مِن الأموالِ والمعاملاتِ، بل يَدخُلُ في عُمومِ هذا الحُجَجُ والمقالاتُ؛ فإنَّه كما أنَّ المتناظِرَينِ قد جرت العادةُ أنَّ كُلَّ واحدٍ منهما يحرِصُ على ما له مِن الحُجَجِ، فيَجِبُ عليه أيضًا أن يُبَيِّنَ ما لخَصْمِه مِنَ الحُجَجِ الَّتي لا

(١) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٦٩٩، ٧٠٠)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١١).
(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٥٤).

يَعلَمُها، وأن يَنظُرَ في أدِلَّةِ خَصْمِه كما يَنظُرُ في أدِلَّتِه هو، وفي هذا الموضِع يُعرَفُ إنصافُ الإنسانِ مِن تعَصُّبِه واعتِسافِه، وتواضُعُه مِن كِبْرِه، وعَقْلُه مِن سَفَهِه[١].

٩- قال عُلَماءُ الدِّينِ: (التَّطفيفُ في كُلِّ شَيءٍ؛ في الصَّلاةِ والوُضوءِ، والكَيلِ والميزانِ)، كما أنَّ السَّرِقةَ في كُلِّ شَيءٍ، وأسوأُ النَّاسِ سَرِقةً مَن يَسرِقُ صَلاتَه؛ فلا يُتِمُّ ركوعَها ولا سُجودَها[٢]. وعن سَلْمانَ الفارسيِّ رضيَ اللهُ عنه، قال: (الصَّلاةُ مِكيالٌ، فمَن أوفى أوفى اللهُ له، وقد عَلِمتُم ما قال اللهُ في الكَيلِ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾)[٣]. قال مالِكٌ: (وكان يُقالُ: في كُلِّ شَيءٍ وفاءٌ وتطفيفٌ)، فإذا توعَّد اللهُ سُبحانَه بالوَيلِ للمُطَفِّفينَ في الأموالِ، فما الظَّنُّ بالمطَفِّفينَ في الصَّلاةِ[٤]؟!

١٠- يُشعِرُ قَولُه تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ أنَّ عدَمَ الإيمانِ بالبَعْثِ أو الشَّكَّ فيه: هو الدَّافِعُ لكُلِّ سُوءٍ، والمضَيِّعُ لكُلِّ خيرٍ، وأنَّ الإيمانَ باليَومِ الآخِرِ هو المُنطَلَقُ لكُلِّ خيرٍ، والمانِعُ لكُلِّ شَرٍّ، والإيمانُ بالبَعثِ هو مُنطَلَقُ جميعِ الأعمالِ الصَّالحةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٦٦).

فيه إشارةٌ إلى حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أسوأُ النَّاسِ سرقةً الذي يسرِقُ صلاتَه. قال: وكيفَ يسرقُ صلاتَه. قال: لا يتمُّ ركوعَها ولا سجودَها)) أخرجه ابن حبان (١٨٨٨) واللفظ له، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٤٦٦٥)، والحاكم (٨٣٦).

صحَّحه ابن حبان، وحسَّنه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٥٣٣)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ، وحسَّنه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (١٨٨٨).

(٣) أخرجه ابنُ أبي شَيْبَةَ في ((المصنَّف)) (١/ ٢٥٩) (٢٩٧٩).

(٤) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ١٢٤). ويُنظر: ((الموطأ)) للإمام مالك (١/ ١٢).

(٥) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٧١).

١١- قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ * لِيَوۡمٍ عَظِيمٍ * يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في هذا الإنْكارِ والتَّعْجيبِ، وكَلِمةِ الظَّنِّ، ووَصفِ اليَومِ بالعِظَمِ، وقِيامِ النَّاسِ فيه للهِ خاضِعينَ، ووَصْفِه ذاتَه برَبِّ العالَمينَ: بَيانٌ بَليغٌ لعِظَمِ الذَّنْبِ وتَفاقُمِ الإثمِ في التَّطفيفِ، وفيما كان في مِثلِ حالِه مِن الحَيفِ، وتَرْكِ القِيامِ بالقِسطِ والعَمَلِ على السَّويَّةِ والعَدْلِ في كُلِّ أخْذٍ وإعْطاءٍ، بل في كُلِّ قَولٍ وعَملٍ، وليس ذلك كُلُّه مِن أجْلِ التَّطْفيفِ مِن حَيثُ هو التَّطفيفُ، بل مِن حَيثُ إنَّ الميزانَ قانونُ العَدْلِ والاستِقامةِ، وهو الحِكمةُ في الخَلقِ والتَّكليفِ، والحَشْرِ والنَّشْرِ، ومَن تَطفَّفَ حاوَلَ إبْطالَ حِكمةِ اللهِ في الدَّارَينِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ أنَّه إذا كان الوعيدُ بالوَيلِ على الشَّيءِ الطَّفيفِ، فما فَوقَه مِن بابِ أَولى[٢]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ أنَّه إذا كان هذا الوعيدُ على الَّذين يَبخَسُونَ النَّاسَ بالمِكيالِ والميزانِ، فالَّذي يأخُذُ أموالَهم قَهْرًا أو سَرِقةً أَولى بهذا الوعيدِ مِن المُطَفِّفينَ[٣].

٣- يُفهَمُ مِن فَحْوى قَولِه تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّهم إذا بُعِثوا إلى ذلك اليَومِ العَظيمِ، وقام النَّاسُ لرَبِّ العالَمينَ، واجتَمَع الخلائِقُ الأوَّلونَ والآخِرونَ في صَعيدٍ واحدٍ يَنفُذُهم البَصَرُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥).

ويُسْمِعُهم الدَّاعي: أنَّ ذلك الخائِنَ النَّاقِصَ في الكَيلِ والوَزنِ يُنادَى به على رُؤوسِ الأشهادِ، ويُفتَضَحُ على رُؤوسِ الأشهادِ يومَ القيامةِ، وفَضيحةُ القيامةِ ليست كفَضيحةِ الدُّنيا[(١)]!

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ إلى قَولِه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في هذه الآياتِ مُبالَغاتٌ:

منها: أنَّ الوَيلَ إنَّما يُذكَرُ عند شِدَّةِ البلاءِ.

ومنها: الإنكارُ بقَولِه تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾.

ومنها: استِعظامُه تعالى لليَوم.

ومنها: تأكيدُه بما بَعْدَه، وما يُوهِمُ ذلك وما يَقتَضيه مِن خضوعِهم وذِلَّتِهم، وفي هذا نكتةٌ، وهي كأنَّ قائِلًا يقولُ: هذا التَّشديدُ العظيمُ، والوعيدُ البليغُ، كيف يكونُ على التَّطفيفِ مع نَزارتِه وزَهادتِه، وكَرَمِ المَولى وإحسانِه؟ فأشار بقَولِه: ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى أنَّه مُرَبِّيهم ومَسؤولٌ عن أمورِهم، فلا يليقُ أن يُهمِلَ مِن أمورِهم شيئًا[(٢)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ أنَّ الظَّنَّ قد يُستعمَلُ بمعنى اليقينِ في اللُّغةِ العربيَّةِ[(٣)]. وذلك على قولٍ في الآيةِ.

٦- يومُ القيامةِ إنَّما سُمِّيَ يومَ القيامةِ؛ لوُجوهٍ ثلاثةٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ النَّاسَ يَقومون فيه مِن قُبورِهم للهِ عزَّ وجَلَّ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨٥)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٥).

الثَّاني: أنَّه يُقامُ فيه العَدلُ؛ لِقَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء: ٤٧].

والثَّالثُ: أنَّه يقومُ فيه الأشهادُ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[1] [غافر: ٥١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ افتِتاحُ السُّورةِ باسمِ الوَيلِ مُؤذِنٌ بأنَّها تَشتَمِلُ على وَعيدٍ، فلَفْظُ (وَيْلٌ) مِن بَراعةِ الاستِهلالِ[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى هنا: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، وقال في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]؛ فمعْنى هذه الآيةِ: تَحرَّوا بقدْرِ المستطاعِ مِن التَّطفيفِ ولو يَسيرًا وبعْدَ بَذْلِ الجُهدِ، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وهذا غايةٌ في التَّحرِّي، مع شِدَّةِ التَّحذيرِ، والتَّوعُّدِ بالويْلِ[3].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ...﴾ إلخ، صِفةٌ كاشِفةٌ[4] للمُطفِّفينَ، شارِحةٌ لكَيفيَّةِ تَطْفيفِهم الَّذي استَحقُّوا به الذَّمَّ، والدُّعاءَ بالوَيلِ[5]، ويجوزُ

---

(١) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٦/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٩).

وبراعةُ الاستهلالِ تقدَّم تعريفُها (ص: ١٥).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٥٥).

(٤) تقدَّم تعريفُها (ص: ٣٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٤).

أنْ تكونَ صِفةً مُخصِّصةً، أو جارِيةً على الذَّمِّ.

- وجُملةُ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾ قيل: هي إدْماجٌ(١)، مَسوقةٌ لكَشْفِ عادةٍ ذَميمةٍ في تُجَّارِ الكافِرين، وهي الحِرصُ على توفيرِ مِقْدارِ ما يَبْتاعونه بدُونِ حَقٍّ لهم فيه، والمَقصودُ الجُملةُ المَعطوفةُ عليها، وهي جُملةُ ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾؛ فَهُم مَذْمومون بمَجْموعِ ضِمْنِ الجُملتَينِ(٢).

- قولُه: ﴿ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، أي: اشتَروا مِن النَّاسِ ما يُباعُ بالكَيلِ، فحُذِفَ المَفعولُ؛ لأنَّه مَعلومٌ في فِعلِ ﴿ٱكۡتَالُواْ﴾، أي: اكْتالوا مَكيلًا، ومَعنى ﴿كَالُوهُمۡ﴾: باعوا للنَّاسِ مَكيلًا، فحُذِفَ المَفعولُ؛ لأنَّه مَعلومٌ(٣). أو عَدَمُ التَّعرُّضِ للمَكيلِ والمَوزونِ في الصُّورتَينِ ﴿ٱكۡتَالُواْ﴾، ﴿كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ﴾؛ لأنَّ مَساقَ الكَلامِ لبَيانِ سُوءِ مُعامَلَتِهم في الأَخْذِ والإعْطاءِ، لا في خُصوصيَّةِ المأْخوذِ والمُعْطى(٤).

- ولَمَّا كان اكْتيالُهم مِن النَّاسِ اكْتيالًا يَضُرُّهم ويُتحامَلُ فيه عليهم، أُبدِلَ (عَلَى) مَكانَ (مِن)؛ للدَّلالةِ على ذلك، بتَضْمينِ ﴿ٱكۡتَالُواْ﴾ مَعنى التَّحامُلِ، أي: إلْقاءِ المَشقَّةِ على الغَيرِ وظُلمِه؛ ذلك أنَّ شأْنَ التَّاجرِ وخُلُقَه أنْ يَتطلَّبَ تَوفيرَ الرِّبحِ، وأنَّه مَظِنَّةُ السَّعةِ، ووُجودِ المالِ بيَدِه؛ فهو يَستَعمِلُ حاجةَ مَن يأْتيه بالسِّلعةِ. وقيلَ: إنَّ الحَرفَينِ (مِن) و(عَلَى) يَتعاقَبانِ في هذا المَوضِعِ؛ لأنَّه حَقٌّ عليه، فإذا قالَ: اكتَلْتُ عليك، فكأنَّه قال: أخَذْتُ ما عليك، وإذا قالَ: اكتَلْتُ منك، فكقَولِه: استَوفَيْتُ منك(٥).

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير أبي =

- وقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ ولم يَقُلْ: (اكْتالوا واتَّزنوا)، كما قال في مقابِلِه: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾؛ لأنَّ المُطفِّفين كانتْ عادَتُهم ألَّا يَأخُذوا ما يُكالُ وما يُوزَنُ إلَّا بالمِكيالِ؛ لأنَّ استيفاءَ الزِّيادةِ بالمِكيالِ أمكَنُ لهم، وأهْوَنُ عليهم منه بالميزانِ، وإذا أَعطَوا كالُوا ووَزَنوا؛ لتَمَكُّنِهم مِن البَخْسِ فيهما[1].

أو لم يَقُلْ: (أو اتَّزنوا)، كما قيلَ: ﴿أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾؛ لأنَّ قولَه: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا﴾ إمَّا أنْ يَكونَ صِفةً مُخصِّصةً، أو كاشِفةً، أو جارِيةً على الذَّمِّ؛ فَعَلى الأوَّلِ لا يَنبَغي ذِكرُ الوَزنِ؛ لأنَّ سَببَ النُّزولِ في قَومٍ مَخصوصينَ، وفي فِعلٍ مَخصوصٍ، وهو: الكَيلُ؛ لأنَّ مَعنى التَّطْفيفِ: البَخْسُ في الكَيلِ والوَزنِ، فيَدخُلُ في هذا العامِّ مَن نَزَلَتْ فيهم الآيةُ دُخولًا أوَّليًّا، أو يَكونُ ذِكرُ الوَزنِ لمَزيدِ الذَّمِّ، يَعني: إذا اتَّفَقَ أحْيانًا لهم وَزنٌ بما هو قانونُ العَدلِ -لقولِه تعالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]- يُخسِرون أيضًا[2].

أو الاقتِصارُ على قولِه: ﴿إِذَا اكْتَالُوا﴾ دُونَ أنْ يَقولَ: (وإذا اتَّزَنوا) كما قال: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾؛ اكتِفاءٌ بذِكرِ الوَزنِ في الثَّاني تَجنُّبًا لفِعلِ (اتَّزَنوا)؛ لقِلَّةِ دَورانِه في الكلامِ؛ فكان فيه شَيءٌ مِن الثِّقَلِ، ولنُكْتةٍ أُخْرى؛ وهي: أنَّ المُطفِّفين هم أهلُ التَّجْرِ، وهم يأخُذونَ السِّلَعَ مِن الجالِبينَ في الغالِبِ بالكَيلِ؛ لأنَّ الجالِبينَ يَجلِبونَ التَّمرَ والحِنطةَ ونَحوَهما ممَّا يُكالُ، ويَدفَعون لهم الأثْمانَ

= حيان)) (١٠/ ٤٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٠، ١٩١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٣٩، ٣٤٠).

عَينًا بما يوزَنُ مِن ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ مَسْكوكَينِ أو غَيرَ مَسْكوكَينِ؛ فلذلك اقتُصِرَ في ابْتِياعِهم مِن الجالِبينَ على الاكْتيالِ نَظرًا إلى الغالِبِ، وذكَرَ في بَيعِهم للمُبْتاعِينَ الكَيلَ والوَزنَ؛ لأنَّهم يَبيعون الأشْياءَ كَيلًا، ويَقبِضون الأثْمانَ وَزْنًا، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ التَّطْفيفَ مِن عَملِ تُجَّارِهم[١].

- والاسْتيفاءُ: أَخْذُ الشَّيءِ وافِيًا؛ فالسِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿يَسۡتَوۡفُونَ﴾ للمُبالَغةِ في الفِعلِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ مُقابَلةٌ أَتَتْ على أحسَنِ وَجْهٍ وأنْظَمِه، أي: إذا كان الكَيلُ مِن جِهةِ غَيرِهم استَوفَوه، وإذا كان الكَيلُ مِن جِهتِهم خاصَّةً أخْسَروه، سَواءٌ باشَروه أو لا؛ فالضَّميرُ لا يدُلُّ على مُباشَرةٍ ولا إشعارِ أيضًا بذلك، والَّذي يدُلُّ على أنَّ الضَّميرَ لا يُعطي مُباشرةَ الفعلِ: أنَّه يَجوزُ أنْ يُقالَ: الأمراءُ همُ الَّذين يُقيمون الحدودَ لا السُّوقةُ، وليس معناه أنَّهم يُباشِرونَ ذلك بأنفُسِهم، وإنَّما مَعناهُ أنَّ فِعلَ ذلك مِن جِهتِهم خاصَّةً[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ * لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ * يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ استِئنافٌ ناشئٌ عن الوَعيدِ والتَّقْريعِ للمُطفِّفينَ بالوَيلِ على التَّطْفيفِ، وما وُصِفوا به مِن الاعتِداءِ على حُقوقِ المُبتاعينَ[٤]؛ فهو استئنافٌ واردٌ لتهويلِ ما ارتكَبُوه مِن التَّطفيفِ، والتَّعجيبِ مِن اجترائِهم عليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٥).

- قولُه: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾ الهَمزةُ للاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّعْجيبيِّ، بحَيثُ يَسألُ السَّائلُ عن عِلمِهم بالبَعثِ، كأنَّهم لا يَخطُرُ ببالِهم، ولا يُخمِّنون تَخْمينًا أنَّهم مَبْعوثونَ ومُحاسَبون على مِقدارِ الذَّرَّةِ والخَرْدَلةِ[1]!

- و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المُطفِّفينَ، ووَضَعه مَوضِعَ ضَميرِهم للإشْعارِ بمَناطِ الحُكمِ الَّذي هو وَصفُهم؛ فإنَّ الإشارةَ إلى الشَّيءِ مُتعرِّضةٌ له مِن حَيثُ اتِّصافُه بوَصفِه، وأمَّا الضَّميرُ فلا يَتَعرَّضُ لوَصفِه. وللإيذانِ بأنَّهم مُمتازونَ بذلك الوَصفِ القَبيحِ عن سائرِ النَّاسِ أكْمَلَ امتيازٍ، نازلون مَنزلةَ الأُمورِ المُشارِ إليها إشارةً حِسِّيَّةً؛ فالعُدولِ عن الإضْمارِ إلى اسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ لقَصدِ تَمييزِهم، وتَشهيرِ ذِكرِهم في مَقامِ الذَّمِّ، ولأنَّ الإشارةَ إليهم بعْدَ وَصفِهم بالمُطَفِّفينَ تُؤذِنُ بأنَّ الوَصفَ مَلحوظٌ في الإشارةِ، فيُؤذِنُ ذلك بتَعليلِ الإنْكارِ. وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ للإشْعارِ ببُعدِ دَرَجتِهم في الشَّرارةِ والفَسادِ[2].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ لامُ التَّوقيتِ، وفائدةُ لامِ التَّوقيتِ إدْماجُ الرَّدِّ على شُبهتِهم الحامِلةِ لهم على إنْكارِ البَعثِ، باعتِقادِهم أنَّه لو كان بَعثٌ لَبُعِثَتْ أمْواتُ القُرونِ الغابِرةِ، فأَوْمأَ قولُه: ﴿لِيَوۡمٍ﴾ أنَّ للبَعثِ وَقتًا مُعيَّنًا يَقَعُ عندَه لا قبْلَه[3].

- ومَعنى ﴿يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾: أنَّهم يكونون قِيامًا؛ فالتَّعبيرُ بالمُضارِعِ لاستِحضارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٢، ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٣).

الحالةِ[1].

- وفي تَخصيصِ (ربِّ العالَمينَ) بالذِّكرِ هنا مِن بيْنِ سائِرِ الصِّفاتِ: إشْعارٌ بالمالِكيَّةِ والتَّربيةِ، ولاستِحضارِ عَظَمتِه بأنَّه مالِكُ أَصنافِ المَخلوقاتِ؛ فلا يَمتَنِعُ عليه الظَّالمُ القَويُّ، ولا يَترُكُ حَقَّ المَظلومِ الضَّعيفِ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٣).

الآيات (٧-١٧)

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا
قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ
لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿سِجِّينٍ﴾: على وزنِ فِعِّيلٍ مِن مادَّةِ السَّجْنِ، قيل: هي اسمٌ للأرضِ السَّابعةِ السُّفلى، وقيل: هي اسمٌ لجهنَّمَ، بإزاءِ عِلِّيِّينَ؛ سُمِّيَ ذلك المكانُ سِجِّينًا لأنَّه أشَدُّ الحَبسِ لِمَن فيه، فلا يفارِقُه، وأصلُ (سجن): يدُلُّ على حَبسٍ[1].

﴿مَّرْقُومٌ﴾: أي: مَكتوبٌ كِتابةً بَيِّنةً تُشبِهُ الرَّقْمَ في الثَّوبِ المَنسوجِ، وأصلُ (رقم): يدُلُّ على خَطٍّ وكِتابةٍ وما أشبَهَ ذلك[2].

﴿ٱلدِّينِ﴾: أي: الجزاءِ والحسابِ، يُقالُ: دِنْتُه بما صَنَع، أي: جازيتُه، وأصلُ (دين): جِنْسٌ مِن الانْقِيادِ، والذُّلِّ[3].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٥).
قال ابن جُزَي: (هو مشتَقٌّ مِن السجنِ بمعنى الحَبسِ؛ لأنَّه سببُ الحبسِ والتَّضييقِ في جهنَّمَ، أو لأنَّه مطروحٌ في مكانِ الهَوانِ والعذابِ كالسجنِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩، ٤٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٩٨)، ((المفردات في غريب =

﴿أَثِيمٍ﴾: أي: كثيرِ الإثمِ، مُتجاوزٍ في الظُّلمِ، مُتمادٍ في الكُفرِ، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتَّأخُّرِ؛ لأنَّ ذا الإثمِ بَطيءٌ عن الخَيرِ، متأخِّرٌ عنه(١).

﴿أَسَٰطِيرُ﴾: أي: أباطيلُ، جمعُ أُسطُورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلِينَ وكَذِبِهم، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطِفافِ شَيءٍ(٢).

﴿رَانَ﴾: أي: غَطَّى وغلَب، والرَّيْنُ كالصَّدَأِ يَغْشَى القَلْبَ مِن كَثرةِ المعاصي والذُّنوبِ، وكُلُّ ما غَلَبَك وعَلاك فقد رانَ بك، وران عليك، وأصلُ (رين): يدُلُّ على غِطاءٍ وسَترٍ(٣).

﴿لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ﴾: أي: لَداخِلو الجَحيمِ ومُقاسونَ حَرَّها، والجحيمُ: النَّارُ، والصَّلَى أصلُه: الإيقادُ بالنَّارِ، وأصلُ (صلى) هنا: النَّارُ، وأصلُ (جحم): الحرارةُ وشِدَّتُها(٤).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى متوَعِّدًا ومهدِّدًا: فارتَدِعوا -أيُّها الفُجَّارُ الظَّلَمةُ- عمَّا أنتم فيه من

= القرآن)) للراغب (ص: ٣٢٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠، ٣٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩) و(٣/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٣٥).

التَّطفيفِ والغَفْلةِ عن البَعثِ والحِسابِ؛ إنَّ صَحيفةَ أعمالِ الفُجَّارِ مِنَ المُطَفِّفينَ وغَيرِهم في مكانٍ ضَيِّقٍ مِنَ الأرضِ السَّابعةِ، وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- بحَقيقةِ سِجِّينٍ الموضوعِ فيه كتابُ أعمالِ الفُجَّارِ؟ كِتابُ الفُجَّارِ كِتابٌ مَكتوبةٌ فيه أعمالُهم.

عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ الَّذين يُكَذِّبونَ بيَومِ الحِسابِ والجَزاءِ. ثمَّ يُبيِّنُ تعالى أوصافَ هؤلاءِ المكذِّبينَ، فيقولُ: وما يُكَذِّبُ بذلك اليَومِ إلَّا كُلُّ مُعتَدٍ على حُدودِ اللهِ، كَثيرِ الآثامِ، إذا تُلِيَت عليه آياتُ القُرآنِ قال مُكَذِّبًا: تلك أحاديثُ الأوَّلينَ وخُرافاتُهم الَّتي سُطِرَت في الكُتُبِ مِن قَبْلُ!

ثمَّ يبيِّنُ سُبحانَه السَّببَ الَّذي حمَلَهم على أن يَقولوا في القرآنِ ما قالوا، فيقولُ: ارتَدِعوا وانزَجِروا عن هذه الأقوالِ؛ فليس الأمرُ كما زعَمْتُم أيُّها المعتَدُونَ الآثِمونَ، وإنَّما السَّبَبُ في افترائِهم هو كثرةُ الذُّنوبِ والخَطايا الَّتي حجَبَت قُلوبَهم عن الإيمانِ بالقُرآنِ، كَلَّا إنَّ أولئك المكَذِّبينَ لَمَحجوبونَ يومَ القيامةِ عن رَبِّهم، فلا يَرَونَه أبدًا، ثمَّ إنَّهم يَدخُلونَ النَّارَ، ويَحتَرِقونَ فيها، ثمَّ يُقالُ لهم تقريعًا وتَوبيخًا: هذا هو عذابُ النَّارِ الَّذي كنتُم في الدُّنيا تُكَذِّبونَ به؛ فذُوقوه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن عِظَمَ ذلك الذَّنْبِ؛ أَتْبَعَه بذِكْرِ لواحِقِه وأحكامِه[1].

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ۝٧﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨٦).

أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ هؤلاءِ الكفَّارُ أنَّهم غيرُ مبعوثينَ ولا مُعذَّبينَ، فلْيَرْتَدِعوا! إنَّ صَحيفةَ أعمالِ الفُجَّارِ مِنَ المُطَفِّفينَ وغَيرِهم في مكانٍ ضَيِّقٍ مِنَ الأرضِ السَّابعةِ[1]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٧، ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٤، ١٩٥).

قال ابن الجوزي: (﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾ وفيها أربعةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّها الأرضُ السَّابعةُ...

والثَّاني: أنَّ المعنى: إنَّ كتابَهم لَفي سفالٍ، قاله الحسَنُ.

والثَّالثُ: لَفي خَسارٍ، قاله عِكْرِمةُ.

والرَّابعُ: لَفي حبسٍ، فِعِّيلٌ مِن السِّجنِ، قاله أبو عُبَيْدةَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٥).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ المرادَ الأرضُ السَّابعةُ السُّفلى-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّيٌّ، والواحدي، والعُلَيمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: عبدُ الله بنُ عَمرٍو، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ، ومُغيثُ بنُ سُمَيٍّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٣، ١٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣١٥).

ونسَبَ الواحديُّ والرازيُّ هذا القولَ للأكثَرينَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣١٥)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨٦).

قال الواحديُّ: (المعنى في الآيةِ: إنَّ كِتابَ عمَلِهم يُوضَعُ في الأرضِ السَّابعةِ، وذلك علامةُ خَسارِهم، ودليلٌ على خَساسةِ مَنزلتِهم، ولا يُصعَدُ به إلى السَّماءِ كما يُصعَدُ بكتابِ المؤمِنِ، وهو قَولُه: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المُطَفِّفين: ١٨]). ((الوسيط)) (٤/ ٤٤٤).

وقال ابنُ كثير: (الصَّحيحُ أنَّ «سِجِّينًا» مأخوذٌ مِنَ السَّجْنِ، وهو الضِّيقُ؛ فإنَّ المخلوقاتِ كُلَّ ما تسافلَ منها ضاقَ، وكُلُّ ما تعالى منها اتَّسَع، فإنَّ الأفلاكَ السَّبعةَ كُلَّ واحدٍ منها أوسَعُ وأعلى مِن الَّذي دُونَه، وكذلك الأَرَضونَ كُلُّ واحدةٍ أوسَعُ مِنَ الَّتي دونَها، حتَّى ينتهيَ السُّفولُ المُطلَقُ والمحَلُّ الأضيَقُ إلى المركَزِ في وَسَطِ الأرضِ السَّابعةِ... وهو يَجمَعُ الضِّيقَ والسُّفولَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٩).
=

عن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال في حديثِه الطَّويلِ في صفةِ قبضِ الرُّوحِ، ونعيمِ القبرِ وعذابِه: ((فيقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: اكتُبُوا كِتابَه في سِجِّينٍ في الأرضِ السُّفْلى، فتُطرَحُ رُوحُه طَرْحًا))[1].

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨﴾.

أي: وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- بحَقيقةِ سِجِّينٍ الموضوعِ فيه كتابُ أعمالِ الفُجَّارِ[2]؟

= وقيل: قولُه: ﴿لَفِي سِجِّينٖ﴾ فُسِّر بقولِه: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ [المطففين: ٩]، فكأنَّه قيل: إنَّ كتابَهم في كتابٍ مَرقومٍ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والنَّسَفي، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٦).

وممَّن اختار القولَ الرَّابعَ -أي: أنَّ المرادَ بقوله: ﴿لَفِي سِجِّينٖ﴾: لَفي حَبْسٍ وضِيقٍ شديدٍ-: أبو عُبَيْدةَ، ونسَبَه القرطبيُّ والشَّوكانيُّ إلى الأخفَشِ والزَّجَّاجِ، وزاد الشوكانيُّ: المُبَرِّدَ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨٤). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٨).

قال القرطبي: (المعنى [أي: على هذا القولِ]: كتابُهم في حبسٍ، جُعِل ذلك دليلًا على خَساسةِ منزلتِهم، أو لأنَّه يحلُّ مِن الإعراضِ عنه والإبعادِ له محلَّ الزَّجرِ والهَوانِ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٨). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٨).

(١) أخرجه ابنُ أبي شَيْبةَ في ((المصنَّف)) (١٢٠٥٩)، وأحمدُ (١٨٥٣٤)، والطَّيالِسيُّ (٧٨٩)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ متقاربةٍ.

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (١٦٧٦) و((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨)، وحسَّنه المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٨٠)، وابنُ تيميَّةَ في ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٩٠).

وصحَّح إسنادَه الطبريُّ في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٠/ ٥٠٣)، وقال ابن منده في ((الإيمان)) (٣٩٨): إسنادُه متَّصِلٌ مشهورٌ ثابتٌ على رسمِ الجماعةِ.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عثيمين - جزء عم)) (ص: ٩٨). =

﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٩﴾.

أي: كِتابُ الفُجَّارِ هذا كِتابٌ مَسطورةٌ فيه أعمالُهم بوُضوحٍ دونَ زيادةٍ أو نَقْصٍ(١).

= قال ابنُ عطيَّة: (قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾ تعظيمٌ لأمرِ هذا السِّجِّينِ، وتَعجُّبٌ منه. ويحتَمِلُ أن يكونَ تقريرَ استفهامٍ، أي: هذا ممَّا لم يكُنْ يَعرِفُه قبْلَ الوَحْيِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥١).

ومِمَّن قال بالمعنى الأولِ: ابنُ كثير، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٨).

ومِمَّن ذهب إلى الاحتِمالِ الآخَرِ: الزَّجَّاجُ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٨).

ممَّن اختار القولَ المذكورَ -أي: أنَّ ﴿مَّرۡقُومٞ﴾ بمعنى: مكتوب، قد كُتِبتْ فيه أعمالُهم وسُطِرَتْ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، وابنُ أبي زَمَنِين، ومكِّي، وابن عطية، وابن الجوزي، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٠٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٠٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٨).

وقال الثعلبيُّ والبغوي والقرطبي في الجملة: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ مكتوبٌ، مُثبَتٌ عليهم، كالرَّقْمِ في الثَّوبِ، لا يُنسى ولا يُمحى حتَّى يُجازَوا به. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٨).

وقيل: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ أي: مختومٌ. وممَّن اختاره: جلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٩٧).
=

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أعلَمَ هذا بما للكِتابِ مِنَ الشَّرِّ؛ استأنَفَ الإخبارَ بما أنتَجَه مِمَّا لأصحابِه؛ فقال[1]:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ١٠﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ[2]!

﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ١١﴾.

أي: الَّذين يُكَذِّبونَ في الدُّنيا بيَومِ الحِسابِ والجَزاءِ، فيُنكِرونَ البَعْثَ يومَ القيامةِ[3].

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ١٢﴾.

= قال الرازي: (معنى قولِه: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾... فيه وُجوهٌ؛ أحدُها: ﴿مَّرْقُومٌ﴾ أي: مكتوبةٌ أعمالُهم فيه.

وثانيها: قال قَتادةُ: رُقِم لهم بسوءٍ، أي: كُتِب لهم بإيجاب النَّارِ.

وثالثُها: قال القَفَّالُ: يحتملُ أن يكونَ المرادُ: أنَّه جُعِل ذلك الكتابُ مَرقومًا، كما يَرقُمُ التَّاجرُ ثوبَه علامةً لقيمته، فكذلك كتابُ الفاجِرِ جُعِل مَرقومًا برقْمٍ دالٍّ على شقاوته.

ورابعُها: المرقومُ هاهنا: المختومُ. قال الواحديُّ: وهو صَحيحٌ؛ لأنَّ الختمَ علامةٌ، فيجوزُ أن يُسمَّى المختومُ مرقومًا.

وخامِسُها: أنَّ المعنى: كتابٌ مُثبَتٌ عليهم كالرَّقْمِ في الثَّوبِ لا يَنْمَحي). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨٧). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٢٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٨).

أي: وما يُكَذِّبُ بذلك اليومِ إلَّا كُلُّ مُعتَدٍ على حُدودِ اللهِ، ظالمٍ لعِبادِ اللهِ، مُبالغٍ في الانهِماكِ في المحَرَّماتِ، كَثيرِ الآثامِ والسَّيِّئاتِ(١).

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣﴾.

أي: إذا تُلِيَت عليه آياتُ القُرآنِ قال مُكَذِّبًا: تلك أحاديثُ الأوَّلِينَ وخُرافاتُهم الَّتي سُطِرَت في الكُتُبِ مِن قَبلُ(٢)!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤].

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ ذكر أنَّهم قالوا: إنَّ القرآنَ أساطيرُ الأوَّلينَ، وليس وحيًا مِن عندِ الله- أردَفَ ذلك بيانَ أنَّ الَّذي جرَّأهم على ذلك هى أفعالُهم القبيحةُ(٣).

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ١٤﴾.

أي: ليس القُرآنُ بأساطيرِ الأوَّلِينَ كما يَزعُمُ المكَذِّبونَ، ولكِنَّ الَّذي حمَلَهم

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٣٠/ ٧٧).

على التَّكذيبِ بالحَقِّ وتَرْكِ الإيمانِ به أنَّه غَطَّى على قُلوبهم وأحاط بها ما كانوا يَعمَلونَه مِن الذُّنوبِ المُتتابِعةِ، حتَّى اسْوَدَّت قُلوبُهم، فرَأَوُا الحَقَّ باطِلًا[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ المؤمِنَ إذا أذنَبَ كانت نُكتةٌ[2] سَوداءُ في قَلْبِه، فإنْ تاب ونَزَع واستغفَرَ، صُقِلَ[3] قَلْبُه، فإن زاد زادت، فذلك الرَّانُ الَّذي ذكَرَه اللهُ في كِتابِه: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾))[4].

وعن حُذَيفةَ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((تُعرَضُ الفِتَنُ على القُلوبِ كالحَصيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قَلبٍ أُشرِبَها نُكِتَ فيه نُكتةٌ[5] سوداءُ، وأيُّ قَلبٍ أنكَرَها نُكِتَ فيه نُكتةٌ بيضاءُ، حتَّى تَصيرَ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥، ٩١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٩، ١٠٠).

(٢) النُّكْتةُ: أثَرُ الذَّنْبِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٦٢٢).

(٣) صُقِلَ قَلْبُه: أي: محا الله تلك النُّكتةَ عن قلبه فيَنْجلي. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٨/ ٤٢).

(٤) أخرجه الترمذيُّ (٣٣٣٤)، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١١٦٥٨)، وابنُ ماجه (٤٢٤٤) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٧٩٥٢).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وصَحَّحه ابن جريرٍ الطبريُّ في ((التفسير)) (١/ ١٤٧)، وابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٩٣٠)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (٦)، وحَسَّنه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٢٤٤).

(٥) نُكِتَ فيه نُكتةٌ: أي: نُقِطَتْ وأُثِّرَتْ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٣٧٨).

قَلْبَينِ؛ على أبيضَ مِثلِ الصَّفا[١]، فلا تَضُرُّه فِتنةٌ ما دامَتِ السَّمواتُ والأرضُ، والآخَرُ أسْوَدُ مُرْبَادًّا[٢] كالكُوزِ مُجَخِّيًا[٣]، لا يَعرِفُ مَعروفًا ولا يُنكِرُ مُنكَرًا إلَّا ما أُشرِبَ مِن هَواه))[٤].

﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾.

أي: كَلَّا[٥] إنَّ أولئك المكَذِّبينَ لَمَحجوبونَ يومَ القيامةِ عن رَبِّهم، فلا يَرَونَه أبَدًا[٦].

﴿ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ١٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن ما لَهم مِنَ العَذابِ بالحِجابِ الَّذي هو عذابُ القَلْبِ الَّذي لا عذابَ أشَدُّ منه؛ لأنَّه يتفَرَّعُ عنه جميعُ العَذابِ- شَرَع يُبَيِّنُ بَعضَ ما تفَرَّعَ عنه مِن عذابِ

---

(١) الصَّفا: الحَجَر الأملَس؛ مِن غايةِ البَياضِ والصَّفاءِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٣٧٨).

(٢) مُرباداًّ: أي: صار كلَونِ الرَّمادِ؛ مِنَ الرُّبْدةِ: لونٌ بيْن السَّوادِ والغُبرةِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٨٣).

(٣) كالكُوزِ مُجَخِّيًا: أي: كالكوزِ المائِلِ المنكوسِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٣٧٨).

(٤) رواه مسلم (١٤٤).

(٥) قيل: المرادُ: نَفْيُ ما كان يقولُه هؤلاء المكَذِّبونَ بيومِ الدِّينِ مِن أنَّ لهم عندَ الله زُلْفةً. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠٤).
وقيل: المرادُ: نَفْيُ ما ادَّعَوه مِن أنَّ القُرآنَ أساطيرُ الأوَّلينَ، فهو ليس كذلك لا في الواقعِ ولا في قَرارةِ أنفُسِهم؛ فلْيَرتَدِعوا عن ذلك أعظَمَ ارتِداعٍ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥، ٩١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٠).

القالَبِ، مؤكِّدًا مِن أجْلِ إنكارِهم، مُعَبِّرًا بأداةِ التَّراخي إعلامًا بعُلُوِّ رُتبتِه في أنواعِ العَذابِ، فقال(١):

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾.

أي: ثمَّ إنَّهم مع حِرْمانِهم رُؤيةَ اللهِ يَدخُلونَ النَّارَ، ويَحترِقونَ فيها(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٤ - ١٦].

﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن ما لَهم مِنَ الفِعْلِ الَّذي هو للقَلْبِ والقالَبِ؛ أتْبَعَه القَولَ بالتَّوبيخِ والتَّبكيتِ الَّذي هو عذابُ النَّفْسِ(٣).

﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

أي: ثمَّ يُقالُ لهم تقريعًا وتَوبيخًا: هذا هو عذابُ النَّارِ الَّذي كنتُم في الدُّنيا تُكَذِّبونَ به؛ فذُوقوه الآنَ في الآخِرةِ(٤)!

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٢).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ فردَع المطفِّفينَ عمَّا كانوا عليه مِن التَّطفيفِ، والغفلةِ عن البعثِ والحسابِ، ونَبَّهَهم على أنَّه ممَّا يَجِبُ أنْ يُتابَ عنه ويُندَمَ عليه بقوله: ﴿كَلَّآ﴾، ثمَّ أتْبعه وَعيدَ الفُجَّارِ على العُمومِ بقولِه: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ التَّحذيرُ مِن الذُّنوبِ؛ فإنَّها تَرينُ على القَلْبِ، وتُغَطِّيه شَيئًا فشَيئًا؛ حتَّى يَنطَمِسَ نُورُه، وتموتَ بَصيرتُه؛ فتَنقَلِبَ عليه الحقائِقُ، فيَرى الباطِلَ حَقًّا، والحَقَّ باطِلًا! وهذا مِن بَعضِ عُقوباتِ الذُّنوبِ[2].

فالمُبادَرةُ بالعَمَلِ السَّيِّئِ سَبَبٌ لطَمسِ البَصيرةِ والطَّبعِ والرَّانِ على القُلوبِ، كما بيَّنَه اللهُ تعالى في آياتٍ كثيرةٍ، ومنها هذه الآيةُ: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، وقَولُه تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقَولُه جَلَّ وعلا: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾[3] [الصف: ٥].

٣- قال تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ * كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٍ لَّمَحۡجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾ فوصَفَهم بأنَّ كَسْبَهم رانَ على قُلوبِهم، والرَّانُ: هو ما يَعلو على القَلْبِ مِن الذُّنوبِ مِن ظُلمةِ المعاصي وقَسْوتِها، ثُمَّ ذَكَر جزاءَهم على ذلك، وهو ثلاثةُ أنواعٍ: الحِجابُ عن رَبِّهم، ثُمَّ صِلِيُّ الجَحيمِ، ثمَّ التَّوبيخُ.

فأعظَمُ عَذابِ أهلِ النَّارِ حِجابُهم عن رَبِّهم عَزَّ وجَلَّ، ولَمَّا كانت قُلوبُهم في

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٢٨).

الدُّنيا مُظلِمةً قاسِيةً، لا يَصِلُ إليها شيءٌ مِن نورِ الإيمانِ وحقائِقِ العِرفانِ، كان جزاؤُهم على ذلك في الآخِرةِ حِجابَهم عن رؤيةِ الرَّحمنِ.

قال بعضُ العارفينَ: «مَن عَرَف اللهَ في الدُّنيا عَرَفه بقَدْرِ تعَرُّفِه إليه، وتجلَّى له في الآخِرةِ بقَدْرِ مَعرفتِه إيَّاه في الدُّنيا، فرآه في الدُّنيا رؤيةَ الأسرارِ، ويراه في الآخِرةِ رُؤيةَ الأبصارِ، فمَن لا يراه في الدُّنيا بسِرِّه، لا يراه في الآخِرةِ بعَينِه» انتهى. فخَوفُ العارفينَ في الدُّنيا مِن احتِجابِه عن بصائِرِهم، وفي الآخِرةِ مِن احتِجابِه عن أبصارِهم ونواظِرِهم(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ كِتابَهم إذا كان في سِجنٍ عَظيمٍ، أي: ضيقٍ شَديدٍ؛ كانوا هم في أعظَمَ(٢)!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ أنَّ اسمَ الفاجِرِ في عُرْفِ القُرآنِ والسُّنَّةِ يتناولُ الكافِرَ قَطْعًا(٣).

٣- قَولُه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ النَّارَ في الأرضِ، فـ «سِجِّينٌ» هي الأرضُ السُّفلى، كذلك جاء في الحديثِ فيمَن احتُضِرَ وقُبِضَ مِن الكافِرينَ؛ فإنَّها لا تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السَّماءِ، ويقولُ اللهُ تعالى: ((اكتُبُوا كِتابَ عبدي في سِجِّينٍ في الأرضِ السُّفلَى، وأعيدُوه إلى الأرضِ))(٤). ولو كانت النَّارُ في السَّماءِ لَكانت تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السَّماءِ لِيَدخُلوها، وإذا كانت في السَّماءِ لَزِمَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٣٧٠).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٨).
(٣) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٨٥).
(٤) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٤٠).

مِن دُخولِهم في النَّارِ -الَّتي في السَّماءِ- أنْ تُفَتَّحَ أبوابُ السَّماءِ[1]!

٤- كُلَّما عَلَت الجِهةُ اتَّسَعَت، وكُلَّما سَفَلت ضاقَت؛ فلهذا كان الأعلى هو الأوسَعَ، وكان الأسفَلُ هو الأضيقَ؛ ولهذا قابَلَ اللهُ تعالى بيْن عِلِّيِّينَ وبيْن سِجِّين في كتابِه، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المُطَفِّفين ١٨] ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾، ولَم يَقُلْ: «في سِفْلِين» كما لَم يَقُلْ هناك: «في وِسْعِين»؛ لِيُبَيِّنَ الضِّيقَ والحَرَجَ الَّذي في المكانِ، كما بَيَّنَ سُفُولَه بمقابلتِه بـ«عِلِّيِّين»، وبَيَّنَ أيضًا سَعَةَ «عِلِّيِّين» بمُقابلةِ «سِجِّين»؛ فيكونُ قد دلَّ على العُلُوِّ والسَّعةِ الَّتي للأبرارِ، وعلى السُّفولِ والضِّيقِ الَّذي للفُجَّارِ[2].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ التَّكذيبُ بيَومِ الجزاءِ هو مَنشَأُ الإقدامِ على السَّيِّئاتِ والجرائمِ؛ ولذلك أعقَبَه بقَولِه: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: إنَّ تكذيبَهم به جَهلٌ بحِكمةِ اللهِ تعالى في خَلْقِ النَّاسِ وتَكليفِهم؛ إذ الحِكمةُ مِن خَلْقِ النَّاسِ تقتضي تحسينَ أعمالِهم، وحِفْظَ نِظامِهم؛ فلذلك جاءتهم الشَّرائعُ آمِرةً بالصَّلاحِ، وناهيةً عن الفَسادِ، ورَتَّب لهم الجزاءَ على أعمالِهم الصَّالحةِ بالثَّوابِ والكَرامةِ، وعلى أعمالِهم السَّيِّئةِ بالعَذابِ والإهانةِ؛ كُلٌّ على حَسَبِ عَمَلِه، فلو أهمَلَ الخالِقُ تَقويمَ مَخلوقاتِه، وأهمَلَ جزاءَ الصَّالحينَ والمُفسِدينَ؛ لم يكُنْ ذلك مِن حِكمةِ الخَلْقِ؛ قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾[3] [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢/ ٦٠).

وتُنظر الآثارُ الواردةُ في مكانِ جهنَّمَ في: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ٦٢).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٤/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٦).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ إلى قَولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام:٢٩، ٣٠] أنَّ مَن كَذَّبَ بالبَعْثِ فهو كافِرٌ(١).

٧- إذا طَبَعَ اللهُ على قَلبِ العَبْدِ فإنَّه يرى الباطِلَ حَقًّا، والحَقَّ باطِلًا، كما قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يعني: كَلَّا ليس أساطيرَ الأوَّلينَ، ولكِنْ لَمَّا كان هذا الإنسانُ قد كَسَب معاصيَ وآثامًا أظلَمَ بها قَلْبُه، اجتمَعَت هذه الآثامُ على القَلْبِ وصار لا يرى القرآنَ العظيمَ إلَّا كحِكاياتِ الأوَّلينَ، لم يَذُقْ له طَعْمًا، ولم يَستَنِرْ به قَلْبُه. والعِياذُ باللهِ(٢).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أنَّ المعاصيَ تَحُولُ بيْنَ الإنسانِ وبَيْنَ الفِقهِ في دِينِ اللهِ(٣).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ أنَّ أهلَ النَّارِ كما حُجِبَتْ قلوبُهم في الدُّنيا عن اللهِ، حُجِبُوا في الآخرةِ عن رؤيتِه، وهذا بخِلافِ حالِ أهلِ الجَنَّةِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، والَّذين أحسَنوا هم أهلُ الإحسانِ، والإحسانُ أنْ يَعْبُدَ العبدُ ربَّه كأنَّه يَراه، كما فَسَّرَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم لَمَّا سأله عنه جبريلُ عليه السَّلامُ، فجَعَل جزاءَ الإحسانِ الحُسْنى -وهي الجَنَّةُ-، والزِّيادةَ -وهي النَّظرُ

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٦/ ١٤٧).
(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٦٤٧).
ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ التَّربويَّةِ (ص: ٤٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٣٦).

إلى وجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ- كما فَسَّرَه بذلك رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم في حديثِ صُهَيبٍ وغَيرِه[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ رَدٌّ على مَن زَعَم أنَّ الكُفَّارَ يَرَونَه تعالى يومَ القيامةِ[٢]، ومفهومُ الآيةِ أنَّ المؤمِنينَ يَرَونَ رَبَّهم يومَ القيامةِ وفي الجَنَّةِ، ويتَلَذَّذونَ بالنَّظَرِ إليه أعظَمَ مِن سائِرِ اللَّذَّاتِ، ويبتَهِجونَ بخِطابِه، ويَفرَحونَ بقُرْبِه[٣]، وقد احتجَّ بهذه الحُجَّةِ الشَّافعيُّ نفْسُه وغيرُه من الأئمَّةِ، ووَجْهُ الاستِدلالِ بها أنَّه سُبحانَه وتعالى جعَلَ مِن أعظمِ عُقوبةِ الكُفَّارِ كونَهم محجوبينَ عن رؤيتِه واستِماعِ كلامِه، فلو لم يَرَه المؤمِنونَ ولم يَسمَعوا كلامَه لَكانوا أيضًا مَحجوبينَ عنه[٤]!

١١- قِيل هنا: ﴿عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾، دونَ أنْ يُقالَ: (عن رُؤيةِ ربِّهم)، أو (عن وجْهِ ربِّهم)؛ لِيَكونَ الكلامُ مُفيدًا لِمَعنيينِ: حَجْبِهم عن ربِّهم -والحجبُ هو السَّترُ- والإهانةِ؛ فالحجْبُ يُستعمَلُ في المنْعِ مِن الحُضورِ لَدَى الملِكِ ولَدَى سيِّدِ القَومِ، وكِلا المعنيَينِ مُرادٌ هنا؛ لأنَّ المكذِّبين بيومِ الدِّينِ لا يَرَونَ اللهَ يومَ القِيامةِ حينَ يَراهُ أهلُ الإيمانِ[٥].

١٢- قال اللهُ تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ * كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ مَن رانَ على قَلْبِه كَسْبُه، وغَطَّتْه معاصيه، فإنَّه محجوبٌ عن الحَقِّ؛ ولهذا

(١) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٩٦).
ويُنظر ما أخرجه مسلمٌ (١٨١) من حديثِ صُهَيبٍ رضيَ الله عنه.
(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).
(٤) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٩٢). ويُنظر أيضًا: ((مناقب الشافعي)) للبيهقي (١/ ٤١٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٠، ٢٠١).

جُوزِيَ على ذلك بأن حُجِبَ عن اللهِ كما حُجِبَ قَلْبُه في الدُّنيا عن آياتِ اللهِ[١].

١٣- قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فجمَعَ عليهم نَوعَيِ العذابِ: عَذابِ النَّارِ، وعذابِ الحِجابِ عنه سُبحانَه، كما جَمَعَ لأوليائِه نَوعَيِ النَّعيمِ: نعيمِ التَّمَتُّعِ بما في الجَنَّةِ، ونعيمِ التَّمَتُّعِ برُؤيتِه تعالى[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ ﴿كَلَّا﴾ إبْطالٌ ورَدْعٌ لِما تضَمَّنَتْه جُملةُ ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ [المطففين: ٤] مِن التَّعجيبِ مِن فِعلِهم التَّطفيفَ، وكذا الغفلةُ عن البعثِ والحِسابِ، والمَعنى: كَلَّا بل هم مَبْعوثون لذلك اليَومِ العَظيمِ، ولتَلَقِّي قَضاءِ رَبِّ العالَمينَ؛ فهي جَوابٌ عمَّا تَقدَّمَ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ...﴾ إلخ، استِئنافٌ ابتِدائيٌّ بمُناسَبةِ ذِكرِ يومِ القِيامةِ، وهو تَعريضٌ بالتَّهديدِ للمُطفِّفين بأنْ يَكونَ عَملُهم موجِبًا كَتْبَه في كِتابِ الفُجَّارِ[٤].

وقيل: إنَّ قولَه: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ...﴾ إلخ، تعليلٌ للرَّدْعِ أو وُجوبِ الارتِداعِ بطَريقِ التَّحقيقِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٦).

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْفُجَّارِ﴾ للجِنسِ مُرادٌ به: الِاستِغراقُ، أي: جَميعُ المُشرِكينَ؛ فيَعُمُّ المُطفِّفينَ وغَيرَ المُطفِّفينَ. وشُمولُ عُمومِ الفُجَّارِ لجَميعِ المُشرِكين؛ المُطفِّفينَ منهم وغيرِ المُطفِّفين، يُعنى به: أنَّ المُطفِّفينَ منهم والمَقصودُ الأوَّلُ مِن هذا العُمومِ؛ لأنَّ ذِكرَ هذا الوَصفِ والوَعيدِ عليه عَقِبَ كَلِمةِ الرَّدْعِ عن أعمالِ المُطفِّفينَ قَرينةٌ على أنَّ الوَعيدَ مُوَجَّهٌ إليهم(١).

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ أظهَرَ مَوضِعَ الإضمارِ؛ تعميمًا، وتعليقًا للحُكمِ بالوصفِ(٢).

- ومَحمَلُ قولِه: ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾ إنْ كان على ظاهِرِ الظَّرفيَّة، كان المَعنى: إنَّ كُتُبَ أعمالِ الفُجَّارِ مُودَعةٌ في مكانٍ اسمُه سِجِّينٌ، أو وَصفُه سِجِّينٌ، وذلك يُؤذِنُ بتَحقيرِه، أي: تَحقيرِ ما احْتَوى عليه مِن أعمالِهم المَكتوبة فيه. وإنْ حُمِلَت الظَّرفيَّةُ في قولِه: ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾ على غَيرِ ظاهِرِها، فجَعْلُ كِتابِ الفُجَّارِ مَظروفًا في سِجِّينٍ مُعبَّرٌ به عن جَعْلِ الأعمالِ المُحصاةِ فيه في سِجِّينٍ، وذلك كِنايةٌ رَمزيَّةٌ عن كَونِ الفُجَّارِ في سِجِّينٍ(٣).

- وجُملةُ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ مُعتَرِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ وجُملةِ ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾، وهي تَهويلٌ لأَمرِ السِّجِّينِ تَهويلَ تَفظيعٍ لحالِ الواقِعينَ فيه، أي: هو بحَيثُ لا يَبلُغُه دِرايةُ أحَدٍ(٤).

- قَولُه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ الاستِفهامُ فيه هو مِن بابِ تفخيمِ الأمرِ وتعظيمِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٨)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٠١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٥).

وكذلك قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾[1] [المطففين: ١٩].

- وقولُه: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ خبرٌ عن ضميرٍ محذوفٍ يَعودُ إلى ﴿كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ﴾، والتَّقديرُ: هو -أي: كِتابُ الفُجَّارِ- كِتابٌ مَرقومٌ، وهذا مِن حَذفِ المُسنَدِ إليه الَّذي اتُّبِعَ في حَذفِه استِعمالُ العَرَبِ[2] إذا تَحدَّثوا عن شَيءٍ ثمَّ أرادوا الإخْبارَ عنه بخَبرٍ جَديدٍ[3].

- والمَرقومُ: المَكتوبُ كِتابةً بَيِّنةً تُشبِهُ الرَّقْمَ في الثَّوبِ المَنسوجِ، وهذا الوَصفُ: ﴿مَّرۡقُومٞ﴾ يُفيدُ تأكيدَ ما يُفيدُه لَفظُ ﴿كِتَٰبٞ﴾[4].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾

- جُملةُ ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ يَجوزُ أنْ تَكونَ مُبيِّنةً لمَضمونِ جُملةِ ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ * لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [المطففين: ٤، ٥]؛ فإنَّ قولَه: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ يُفيدُ تَنوينُه جُملةً مَحذوفةً جُعِلَ التَّنوينُ عِوَضًا عنها، تَقديرُها: يومَ إذ يَقومُ النَّاسُ لرَبِّ العالَمين وَيلٌ فيه للمُكذِّبين. ويَجوزُ أنْ تَكونَ ابتدائيَّةً، وبيْنَ المُكذِّبين بيَومِ الدِّينِ والمُطفِّفين عُمومٌ وخُصوصٌ وَجهيٌّ[5]؛ فمِنَ المُكذِّبين مَن هم مُطفِّفون، ومِنَ المُطفِّفين مُسلِمون وأهلُ كِتابٍ لا يُكذِّبون بيَومِ الدِّينِ؛ فتَكونُ

---

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٢/ ٤٠٨).

(٢) وهو ما يُسمَّى بمُتابعةِ الاستعمالِ؛ وذلك أنَّ العرَبَ إذا أجْرَوا حَديثًا على شَيءٍ، ثمَّ أخبَروا عنه، الْتَزَموا حَذفَ ضَميرِه الَّذي هو مُسنَدٌ إليه؛ إشارةً إلى التَّنويهِ به كأنَّه لا يَخْفى. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٥، ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٩٦).

(٥) عُمومٌ وخُصوصٌ وَجهيٌّ: هو أنْ يَجتمِعَ الطَّرَفانِ في صُورةٍ، ويَنفرِدَا في صُورةٍ؛ مثلًا: الحمدُ والشُّكرُ، يَجتمِعانِ في أنَّهما ثَناءٌ باللِّسانِ، ويَنفرِدُ الحمدُ في صُورةٍ؛ وهي: الثَّناءُ على الصِّفاتِ الحميدةِ، ويَنفَرِدُ الشُّكرُ في صُورةٍ؛ هي: الثَّناءُ بالقلبِ. يُنظر: ((التحبير)) للمَرْداوي (١/ ٤٢).

هذه الجُملةُ إدْماجًا لتَهديدِ المُشرِكين المُكذِّبين بيَومِ الدِّينِ، وإنْ لم يَكونوا مِن المُطفِّفين(١).

- وقدْ ذُكِرَ المُكذِّبون مُجمَلًا في قولِه: ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾، ثمَّ أُعيدَ مُفصَّلًا ببَيانِ مُتعَلَّقِ التَّكْذيبِ، وهو ﴿بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾؛ لزِيادةِ تَقريرِ تَكذيبِهم في أذْهانِ السَّامِعين منهم ومِن غَيرِهم مِن المُسلِمينَ وأهلِ الكِتابِ؛ فالصِّفةُ هنا للتَّهديدِ، وتَحذيرِ المُطفِّفين المُسلِمينَ مِن أنْ يَستَخِفُّوا بالتَّطفيفِ فيَكونوا بمَنزِلةِ المُكذِّبين بالجَزاءِ عليه(٢).

- وفي قولِه: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث أُفرِدَت هذه الآيةُ في هذه السُّورةِ، وتَكرَّرت في سُورةِ (المرسَلاتِ) عشْرَ مرَّاتٍ؛ قيل: ذلك لأنَّ قولَه: (وَيلٌ لهم) كَلمةٌ تُقالُ في كلِّ مَن وقَعَ في هَلَكةٍ لا يُرْجَى خَلاصُه منها، وفي هذه السُّورةِ مَذكورةٌ مَرَّةً واحدةً؛ لأنَّها مَقصورةٌ على التَّرهيبِ مِن النَّارِ ووَصْفِها ومُعاقَبةِ أهْلِها، وعلى التَّرغيبِ في الجنَّةِ ونَعيمِ أهْلِها؛ ليس في السُّورةِ غيرُ هذَين المعْنيَينِ، فلمَّا جُرِّدتْ لهما ذُكِرتِ الكلِمةُ عِندَ ذِكرِ ما كُتِب على المكذِّبين وأعلَمَ به كِتابُهم بما يكونُ إليه مآلُهم، ثمَّ شُرِعَ في وَصْفِ كِتابِ الأبرارِ ومَحلِّه وتَبعيدِ ما بيْن جَزائِهم وجَزاءِ غيرِهم؛ فاكْتُفِيَ بذِكرِ الكلمةِ مرَّةً لِما بُنِيَ على اختصارِ السُّورةِ(٣).

أمَّا التَّكرارُ في سورةِ (المُرسَلاتِ) فلأنَّ كلَّ جُملةٍ منها فيها إخبارُ اللهِ تعالَى عن أشياءَ مِن أحوالِ الآخرةِ وتَقريراتٍ مِن أحوالِ الدُّنيا، فناسَبَ أنْ يُذكَرَ الوعيدُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٤٩).

عَقِيبَ كلِّ جُملةٍ منها للمُكذِّبِ بالوَيلِ في يومِ الآخرةِ[١].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وَصْفٌ لِلذَّمِّ لا للبَيانِ، كَقولِك: فَعَلَ ذلك فُلانٌ الفاسِقُ الخَبيثُ، فليسَ قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ﴾ صِفةً كاشِفةً[٢] للمُكذِّبين؛ لكَونِهم مَعلومينَ، ولا هي فارِقةٌ؛ لأنَّه لم يُرَدْ تَمييزُهم عن غَيرِهم، بل مَرفوعٌ أو مَنصوبٌ على الذَّمِّ، ويَجوزُ أنْ يُبدَلَ؛ لِيُناطَ به قولُه: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ﴾[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۞ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾ صِيغةُ القَصْرِ مِن النَّفيِ والاستِثناءِ (مَا... إلَّا) تُفيدُ قَصْرَ صِفةِ التَّكذيبِ بيَومِ الدِّينِ على المُعتَدينَ الآثِمينَ الزَّاعِمينَ القُرآنَ أساطيرَ الأوَّلين، وهو قَصرُ صِفةٍ على مَوصوفٍ، وهو قَصْرٌ حَقيقيٌّ[٤]؛ لأنَّ يومَ الدِّينِ لا يُكَذِّبُ به إلَّا غيرُ المُتدَيِّنين؛ المُشركون والوَثَنيُّون وأضْرابُهم ممَّن جَمَع الأوصافَ الثَّلاثةَ، وأعظَمُها التَّكْذيبُ بالقُرآنِ؛ فإنَّ أهْلَ الكِتابِ والصَّابِئةَ لا يُكذِّبون بيَومِ الدِّينِ، وكَثيرٌ مِن أهلِ الشِّركِ لا يُكذِّبون بيومِ الدِّينِ مِثلَ أَصحابِ دِيانةِ القِبْطِ؛ فالَّذين يُكذِّبون بيَومِ الدِّينِ هم مُشرِكو العَرَبِ ومَن شابَهَهم مِثلُ الدَّهْريِّين؛ فإنَّهم تَحقَّقَتْ فيهم الصِّفتانِ الأُولى والثَّانيةُ، وهي الاعتِداءُ والإثمُ، وهو ظاهِرٌ. وأمَّا زَعْمُ القُرآنِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩). ويُنظر ما تقدَّم في سورة المرسلات (٤١/ ٥٠٥).

(٢) تقدَّم تعريفُها (ص: ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٦).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٨).

أساطيرَ الأوَّلينَ فهو مَقالةُ المُشرِكين مِن العَرَبِ، وهم المَقصودُ ابتِداءً، وأمَّا غَيرُهم ممَّن لم يُؤثَرْ عنهم هذا القَولُ فَهُم مُتهيِّئون لِأنْ يَقولوه، أو يَقولوا ما يُساويه أو يَؤولُ إليه؛ لأنَّ مَن لم يُعرَضْ عليهم القُرآنُ منهم لو عُرِضَ عليه القُرآنُ لكَذَّبَ به تَكذيبًا يُساوي اعتِقادَ أنَّه مِن وَضعِ البَشَرِ، فهؤلاء وإنْ لم يَقولوا: القُرآنُ أساطيرُ الأوَّلينَ؛ فظَنُّهم في القُرآنِ يُساوي ظَنَّ المُشرِكين، فنُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يَقولُه. ويَجوزُ أنْ يكونَ القَصْرُ ادِّعائيًّا[1]، ولا يُلتَفَتُ إلى تَنزيلِ مَن لم يَقُلْ ذلك في القُرآنِ، ومَعنى الادِّعاءِ: أنَّ مَن لم يُؤثَرْ عنهم القَولُ في القُرآنِ بأنَّه أساطيرُ الأوَّلين، قد جُعِلَ تَكذيبُهم بيَومِ الدِّينِ كَلَا تَكذيبٍ؛ مُبالَغةً في إبطالِ تَكذيبِ المُشرِكين بيَومِ الدِّينِ[2].

- و﴿أَثِيمٍ﴾ صِفةُ مُبالَغةٍ في الآثِمِ، أي: كَثيرُ الإثْمِ، مُنهَمِكٌ في الشَّهَواتِ الفانيةِ، بحَيثُ شَغَلَتْه عمَّا وَراءَها مِن اللَّذَّاتِ التَّامَّةِ الباقِيةِ، وحَمَلَتْه على إنْكارِها[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿كَلَّا﴾ اعتِراضٌ بالرَّدْعِ وبَيانٌ له؛ لأنَّ ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ لقَولِهم: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: إنَّ قولَهم باطِلٌ، وحرفُ ﴿بَلْ﴾ للإبْطالِ؛ تأكيدًا لمَضمونِ ﴿كَلَّا﴾، وبَيانًا وكَشفًا لِما حَمَلَهم على أنْ يَقولوا في القُرآنِ ما قالوا، وأنَّه ما أعْمَى بَصائِرَهم مِن الرَّيْنِ[4].

- ومَجيءُ ﴿يَكْسِبُونَ﴾ بصِيغةِ المُضارِعِ دُونَ الماضي؛ لإفادةِ تَكرُّرِ ذلك

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٧، ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٨، ١٩٩).

الكَسْبِ وتَعدُّدِه في الماضي[(١)].

٥- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ وزَجْرٌ عن الكَسْبِ الرَّائنِ[(٢)]. أو ﴿كَلَّآ﴾ هُنا تأكيدٌ لـ ﴿كَلَّآ﴾ الأُولى؛ زِيادةً في الرَّدْعِ لِيَصيرَ تَوبيخًا[(٣)].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾ قيل: عُطِفَت الجُملةُ بحرفِ (ثُمَّ) الدَّالَّةِ في عَطْفِها الجُملَ على التَّراخي الرُّتْبيِّ، وهو ارتِقاءٌ في الوَعيدِ؛ لأنَّه وَعيدٌ بأنَّهم مِن أَهلِ النَّارِ، وذلك أشَدُّ مِن خِزيِ الإهانةِ، وحجبِهم عن ربِّهم[(٤)].

٧- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ تَقريعٌ، مع التَّأييسِ مِن التَّخفيفِ؛ فعَطفُ الجُملةِ بحَرْفِ (ثُمَّ) اقتَضَى تراخِي مَضمونِ الجُملةِ على مَضمونِ الَّتي قبْلَها، أي: بُعْدَ درجتِه في الغَرضِ المَسوقِ له الكلامُ. واقْتَضى اسمُ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ أنَّهم صاروا إلى العَذابِ. والإخبارُ عن العَذابِ بأنَّه الَّذي كانوا به يُكذِّبون، يُفيدُ أنَّه العَذابُ الَّذي تَكرَّرَ وَعيدُهم به وهُم يُكذِّبونه، وذلك هو الخُلودُ، وهو درَجةٌ أشَدُّ في الوَعيدِ، وبذلك كان مَضمونُ الجُملةِ أَرْقى رُتبةً في الغَرَضِ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٩، ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢١، ٧٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٥).

قال الألوسي: (﴿ثُمَّ﴾ قيل: لتَراخي الرُّتبةِ، لكن بناءً على ما عندَهم؛ فإنَّ صليَ الجحيم عندَهم أشدُّ مِن حجابِهم عن ربِّهم عزَّ وجلَّ، وأمَّا عندَ المؤمنينَ لا سيَّما الوالهينَ به سبحانَه منهم فإنَّ الحجابَ عذابٌ لا يُدانيه عذابٌ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨٠).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ٤٤٧-٤٤٨).

مَضمونِ الجُملةِ المَعطوفةِ هي عليها[١].

ويجوزُ أنْ يَكونَ قولُه: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ إشارةً إلى جَوابِ مالكٍ خازِنِ جَهنَّمَ المَذكورِ في قولِه تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ * لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧، ٧٨]؛ فطُوِيَ سُؤالُهم، واقتُصِرَ على جَوابِ مالكٍ خازِنِ جَهنَّمَ اعتِمادًا على قَرينةِ عَطْفِ جُملةِ هذا المَقالِ بـ (ثُمَّ) الدَّالَّةِ على التَّراخي[٢].

- وبُنِيَ فِعلُ ﴿يُقَالُ﴾ للمَجهولِ؛ لعَدَمِ تَعلُّقِ الغَرَضِ بمَعرِفةِ القائِلِ، والمَقصِدُ هو: القَولُ[٣].

- وجِيءَ باسمِ المَوصولِ؛ ليُذَكَّروا تكذيبَهم به في الدُّنيا؛ تَنديمًا لهم وتَحزينًا[٤].

- وتَقديمُ ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿تُكَذِّبُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بمُعادِ الضَّميرِ، مع الرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٥].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٠١، ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٨-٢٨)

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ
ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ
﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ
مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿عِلِّيِّينَ﴾: جَمعٌ منقولٌ مِن «عِلِّيٍّ» وهو فِعِّيلٌ مِنَ «العُلُوِّ»، كسِجِّينٍ مِنَ السَّجنِ، قيل: هو السَّماءُ السَّابعةُ تَحتَ العَرْشِ. وقيل: هو عَلَمٌ لديوانِ الخَيرِ الَّذي دُوِّنَ فيه كُلُّ ما عَمِلَتْه الملائكةُ وصُلَحاءُ الثَّقَلينِ؛ وسُمِّيَ بذلك إمَّا لأنَّه سَبَبُ الارتفاعِ إلى أعالي الدَّرَجاتِ في الجنَّةِ، وإمَّا لأنَّه مَرفوعٌ في السَّماءِ السَّابعةِ، وأصلُ (علو): يدُلُّ على ارتفاعٍ[(١)].

﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾: جمعُ أريكةٍ، وهي السَّريرُ في الحِجالِ، وتسميتُها بذلك إمَّا لكَونِها في الأرضِ متَّخذةً مِن أَراكٍ، وهو شجرةٌ، أو لكَونِها مكانًا للإقامةِ مِن قولِهم: أَرَكَ بالمكانِ أُرُوكًا، وأصلُ الأُرُوكِ: الإقامةُ على رَعْيِ الأَراكِ، ثمَّ تُجُوِّزَ به في غيرِه مِن الإقاماتِ، و(أرك) أصلانِ؛ أحدُهما: شَجَرٌ، والآخَرُ: الإقامةُ[(٢)].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٣٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).
قال ابن عاشور: (الأريكةُ: سريرٌ عليه وِسادةٌ، معها سَتْرٌ وهو حَجَلَتُه، والحَجَلةُ: ظُلَّةٌ تُنصَبُ =

﴿نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾: أي: بَهجةَ التَّنَعُّمِ وحُسْنَه، وأصلُ (نضر): يدُلُّ على حُسنٍ وجمالٍ، وأصلُ (نعم): يدُلُّ على تَرَفُّهٍ وطِيبِ عَيْشٍ وصَلاحٍ[١].

﴿رَّحِيقٖ﴾: الرَّحيقُ: اسمٌ للخَمرِ الصَّافيةِ الطَّيِّبةِ[٢].

﴿مَّخۡتُومٍ﴾: أي: مختومٍ شرابُه بالرَّائحةِ المسكيَّةِ، وقيل: مَسدودٍ إناؤُه، ممنوعٍ مِن أن تمَسَّه يدٌ إلى أن يَفُكَّ خَتْمَه الأبرارُ، وأصلُ (ختم): يدُلُّ على بُلوغِ آخِرِ الشَّيءِ[٣].

﴿فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾: أي: فلْيَرغَبِ الرَّاغِبونَ، ولْيَسْتَبِقُوا في طَلَبِه، ولْتَحْرِصْ عليه نُفوسُهم، والمُنافَسةُ: مُجاهَدةُ النَّفْسِ للتَّشبُّه بالأفاضلِ، واللُّحُوقِ بهم مِن غيرِ إدخالِ ضرَرٍ على غيرِه، يُقالُ: نافَسْتُ في الشَّيءِ مُنافَسةً ونِفاسًا، إذا رَغِبْتَ فيه على وجهِ المُباراةِ، ومِن هذا قولُهم: شَيءٌ نَفيسٌ، أي: هو أهلٌ أن يُتنافَسَ فيه، ويُرغَبَ فيه[٤].

= فوقَ السَّريرِ لِتَقيَ الحَرَّ والشَّمسَ، ولا يُسَمَّى السَّريرُ أريكةً إلَّا إذا كان معه حَجَلةٌ. وقيل: كُلُّ ما يُتوسَّدُ ويُفتَرَشُ مِمَّا له حَشوٌ: يُسَمَّى أريكةً، وإنْ لم تكُنْ له حَجَلةٌ)). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٩، ٤٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٠)، ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ٩٨٥)، ((البسيط)) =

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ﴾: أي: ما يُمزَجُ ويُخلَطُ به ذلك الشَّرابُ مِن تَسنيمٍ، وهو: اسمُ عَينٍ في الجنَّةِ رَفيعةِ القَدْرِ، سُمِّيَت بالتَّسنيمِ الَّذي هو مَصدَرُ سَنَّمَه: إذا رفَعَه؛ إمَّا لأنَّها أرفَعُ شَرابٍ في الجنَّةِ، وإمَّا لأنَّها تأتيهم مِن فَوقٍ، وأصلُ (مزج): يدُلُّ على خَلْطِ الشَّيءِ بغَيْرِه، وأصلُ (سنم): يدُلُّ على العُلُوِّ والارتفاعِ، ومنه سَنامُ البَعيرِ، وتَسَنَّمتُ الحائِطَ: إذا عَلَوتَه[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ * عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾

قَولُه تعالى: ﴿عَيۡنٗا﴾ في نَصبِه أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّه مَنصوبٌ على الحالِ مِنْ ﴿تَسۡنِيمٍ﴾؛ لأنَّه عَلَمٌ لعَينٍ واسمٌ لِماءٍ في الجَنَّةِ، ولا يَضُرُّ كَونُه جامِدًا؛ لوَصفِه بقَولِه تعالى: ﴿يَشۡرَبُ بِهَا﴾، أو لتأويلِه بمُشتَقٍّ كجاريةٍ، مع أنَّ الاشتِقاقَ غيرُ لازمٍ. الثَّاني: أنَّه مَنصوبٌ على المدحِ أو الاختِصاصِ بفِعلٍ مُقَدَّرٍ. الثَّالثُ: أنَّه مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ الثَّانيةِ بـ «يُسْقَونَ» مُقَدَّرًا. الرَّابعُ: أنَّه مَنصوبٌ على المفعوليَّة بـ﴿تَسۡنِيمٍ﴾ على أنَّه مَصدَرٌ مُنَوَّنٌ مُشتَقٌّ من سَنَّمَه: إذا رفَعَه.

وقولُه: ﴿يَشۡرَبُ بِهَا﴾: «الباءُ» إمَّا زائدةٌ، أي: يَشرَبُها، أو بمعنى «مِن»، أي: يَشرَبُ منها، أو هي على بابِها، على تَضمينِ ﴿يَشۡرَبُ﴾ معنى: يَرْوَى أو يَلْتَذُّ[2].

= للواحدي (٢٣/ ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٨)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٣٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٧) و(٥/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٤٢-٣٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٤٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٠١)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ١٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٤٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٧٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٢٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨٣).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ارتَدِعوا -أيُّها الفُجَّارُ- عن تَكذيبِكم بالبَعْثِ والجَزاءِ؛ إنَّ صَحيفةَ أعمالِ المؤمِنينَ الطَّائِعينَ في مَوضِعٍ عالٍ رفيعٍ، وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- بحقيقةِ عِلِّيِّينَ الموضوعِ فيه كتابُ أعمالِ الأبرارِ؟ كِتابُ الأبرارِ كِتابٌ مَسطورةٌ أعمالُهم فيه، يَحضُرُه المُقَرَّبونَ عِندَ اللهِ.

ثمَّ يبيِّنُ سُبحانَه ما أعدَّه للأبرارِ، فيقولُ: إنَّ الأبرارَ الَّذين أطاعوا اللهَ لَفي نَعيمِ الجَنَّةِ الدَّائم، على السُّرُرِ يَنظُرونَ إلى وَجهِ اللهِ الكَريم، وإلى ما أعطاهم مِنَ النَّعيم، تَعرِفُ في وُجوهِهم أثَرَ النِّعمةِ والسُّرور، يُسقَون مِن خَمرٍ لذيذةٍ صافيةٍ مختومةٍ بالمِسْكِ؛ فلْيَجتَهِدِ المُتسابِقونَ ويُبادِرُوا في طَلَبِ ذلك النَّعيمِ. ويُمزَجُ ذلك الرَّحيقُ المختومُ ويُخلَطُ بشَرابٍ شَريفٍ مِن عَينٍ رَفيعةٍ عاليةٍ اسمُها تَسنيمٌ، وتلك العَينُ يَروَى بها المقَرَّبونَ السَّابِقونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى أَمْرَ كِتابِ الفُجَّارِ وأنَّه في أسفَلِ الأمكِنةِ وأضيَقِها؛ عَقَّبَه بذِكرِ كِتابِ ضِدِّهم وهو كِتابُ الأبرارِ، وأنَّه في أعلَى الأمكنةِ وأوسَعِها وأفسَحِها؛ ليَتبيَّنَ الفَرْقُ(١).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر حالَ الفُجَّارِ المُطَفِّفينَ؛ أتْبَعَه بذِكْرِ حالِ الأبرارِ الَّذين لا يُطَفِّفونَ(٢).

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩٠).

أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ أولئك الفُجَّارُ مِن أنَّه لا بَعْثَ ولا حِسابَ ولا جَزاءَ؛ فلْيَرتَدِعوا عن تكذيبِهم بذلك! إنَّ صَحيفةَ أعمالِ المؤمِنينَ الطَّائِعينَ الملازِمينَ فِعْلَ الخَيراتِ وأعمالَ الإحسانِ: في مَوضِعٍ عالٍ رفيعٍ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠٦، ٢١٠، ٢١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٢).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ لَفي ساقِ العرشِ، يعني: أعمالَ المؤمنينَ وحسَناتِهم). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٢٤).

وقيل: المرادُ: أعلى الأمكنةِ. ومِمَّن ذهب إليه: الزَّجَّاجُ، والقُشَيريُّ، والسَّمْعانيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير القشيري)) (٣/ ٧٠١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٨٢).

وقيل: في السَّماءِ السَّابعةِ تحتَ العرشِ. ومِمَّن اختاره: الواحديُّ، وابنُ الجَوزيِّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣١٤).

قيل: عِلِّيُّونَ هو: عَلَمٌ لديوانِ الخَيرِ الَّذي دُوِّنَ فيه كُلُّ ما عَمِلَتْه الملائكةُ وصُلَحاءُ الثَّقَلينِ. ومِمَّن قال بهذا: الزمخشريُّ، والنسفي، وابنُ جُزَي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦١٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٠٣).

وقيل: عِلِّيُّونَ: هو اسمٌ لأعلى الجنَّةِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القول: السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٣).

قال ابن جرير: (قوله: ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ معناه: في علوٍّ وارتفاعٍ، في سماءٍ فوقَ سماءٍ، وعلوٍّ فوقَ علوٍّ. وجائزٌ أن يكونَ ذلك إلى السَّماءِ السَّابعةِ، وإلى سِدْرةِ المُنتهَى، وإلى قائمةِ العَرشِ، ولا خبَرَ يَقطَعُ العُذرَ بأنَّه مَعْنِيٌّ به بعضُ ذلك دونَ بعضٍ. والصَّوابُ أن يُقالَ في ذلك كما قال جلَّ ثناؤُه: إنَّ كتابَ أعمالِ الأبرارِ لَفي ارتفاعٍ إلى حدٍّ قد عَلِمَ اللهُ جلَّ وعزَّ مُنْتَهاه، ولا عِلْمَ عندَنا بغايتِه، غيرَ أنَّ ذلك لا يقصرُ عن السَّماءِ السَّابعةِ؛ لإجماعِ الحُجَّةِ مِن أهلِ التَّأويلِ على ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١١).

عن البَراءِ بن عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما في حَديثِه الطَّويلِ في صفةِ قبضِ الرُّوحِ، ونعيمِ القبرِ وعذابِه، وفيه: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((فيَصعَدونَ بها، فلا يَمُرُّونَ -يعني: بها- على مَلَإٍ مِنَ الملائِكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فيقولونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ؛ بأحسَنِ أسمائِه الَّتي كانوا يُسَمُّونَه بها في الدُّنيا، حتَّى يَنْتَهوا بها إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيَستَفتِحونَ له، فيُفتَحُ لهم، فيُشَيِّعُه مِن كُلِّ سَماءٍ مُقَرَّبُوها إلى السَّماءِ الَّتي تَلِيها، حتَّى يُنتَهَى به إلى السَّماءِ السَّابعةِ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: اكتُبُوا كِتابَ عَبْدي في عِلِّيِّينَ، وأَعيدوه إلى الأرضِ؛ فإنِّي منها خَلَقْتُهم، وفيها أُعِيدُهم، ومنها أُخرِجُهم تارةً أُخرى))[١].

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان هذا أمرًا عَظيمًا؛ زاد في تعظيمِه بقَولِه[٢]:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩﴾.

أي: وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- بحقيقةِ عِلِّيِّينَ الموضوعِ فيه كتابُ أعمالِ الأبرارِ[٣]؟

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٣).

والاستفهامُ هنا قيل: هو للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ. وممَّن اختاره: القرطبيُّ، وابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٣).

وقيل: هو امتنانٌ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه لم يكُنْ يَعلَمُ ذلك حتَّى أطْلَعَه اللهُ عليه. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٤٥٧).

﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عَظَّم المكانَ فعُلِمَت عَظَمةُ الكِتابِ، ابتدَأَ الإخبارَ عنه على سَبيلِ القَطْعِ؛ زيادةً في عَظَمتِه، فقال[1]:

﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ٢٠﴾.

أي: كِتابُ الأبرارِ هذا هو كِتابٌ مَسطورةٌ أعمالُهم فيه بوُضوحٍ دونَ زِيادةٍ أو نَقْصٍ[2].

﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عَظَّمَه في نَفْسِه وفي مَكانِه؛ عَظَّمَه في حُضَّارِه؛ فقال[3]:

﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١﴾.

أي: يَحضُرُه عِبادُ اللهِ المُقَرَّبونَ عِنْدَه[4].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٨، ٢٦٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٤).

ممَّن ذهب إلى أنَّ ﴿يَشۡهَدُهُ﴾ بمعنى: يَحضُرُه: ابنُ الجوزيِّ، والخازنُ، والبِقاعي، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٣٣). =

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها شُروعٌ في بَيانِ مَحاسِنِ أحوالِ الأبرارِ إثْرَ بَيانِ حالِ كِتابِهم، على طَريقةِ

= وقال الواحديُّ والبغويُّ والرازيُّ والرَّسْعَنيُّ: يَشهَدونَ ويَحضُرونَ ذلك المكتوبَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٤٠).

وقال ابنُ عاشور: (﴿يَشْهَدُهُ﴾ يطَّلِعونَ عليه، أي: يُعلَنُ به عندَ المقَرَّبينَ، وهم الملائِكةُ، وهو إعلانُ تَنويهٍ بصاحِبِه، كما يُعلَنُ بأسماءِ النَّابِغينَ في التَّعليمِ، وأسماءِ الأبطالِ في الكتائِبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٤).

والمُقَرَّبونَ قيل: هم الملائِكةُ. ومِمَّن قال به: ابنُ جريرٍ، وابنُ الجوزيِّ، والقرطبيُّ، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢).

وقيل: هم الملائكةُ ومَن في السَّمَواتِ مِنَ الأنبياءِ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصَّالِحينَ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: البِقاعيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).

وعن ابنِ عبَّاسٍ: يَشهَدُه كلُّ أهلِ السَّماءِ. وفي روايةٍ: يَشهَدُه مِن كلِّ سماءٍ مُقَرَّبوها، وقال بها الضَّحَّاكُ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤٤٨).

قال البقاعي: (﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: يَحضُرُه حضورًا تامًّا دائمًا -لا غَيبةَ فيه- الجماعةُ الَّذين يَعرِفُ كُلُّ أحدٍ أنَّه ليس لهم عندَ كُلِّ مَن يُعتَبَرُ تقريبُه إلَّا التَّقريبُ مِن ابتدائِه إلى انتهائِه، هم شهودُ هذا المسطورِ، وهم الملائِكةُ يُشَيِّعونَه مِن سماءٍ إلى سماءٍ، ويَحُفُّونَ به؛ سرورًا وتعظيمًا لصاحِبِه، ويَشهَدُه مَن في السَّمَواتِ مِنَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصَّالحينَ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٢٦، ٣٢٧).

ما مَرَّ في شَأنِ الفُجَّارِ[١].

وأيضًا لَمَّا عَظَّم كِتابَهم في الآيةِ المتقَدِّمةِ؛ عَظَّم بهذه الآيةِ مَنزِلتَهم[٢].

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: إنَّ المؤمِنينَ الَّذين أطاعوا اللهَ، وأحسَنُوا إلى عبادِ اللهِ: لَفِي نَعيمِ الجَنَّةِ الدَّائِمِ[٣].

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر أنَّ الأبرارَ في نعيمٍ؛ بَيَّن ذلك النَّعيمَ بأمورٍ ثَلاثةٍ[٤]:

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: هم على السُّرُرِ الَّتي أُرخِيَ عليها سُتورٌ مُزَيَّنةٌ يَنظُرونَ إلى وَجهِ اللهِ الكَريمِ، وإلى ما أعطاهم مِنَ النَّعيمِ العَظيمِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: يَنظُرونَ إلى ما أعَدَّ اللهُ لهم مِنَ النَّعيم، وما أعطاهم مِن أنواعِ الكرامةِ: ابنُ جرير، والبغويُّ، والرَّسْعَني، والبِقاعي، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٤٠)، ((نظم الدرر)) =

كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَف نَعيمَهم؛ أخبَرَ أنَّهم مِن عَراقَتِهم فيه يَعرِفُهم به كُلُّ ناظِرٍ إليهم[١].

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤)﴾.

أي: تَعرِفُ في وُجوهِهم أثَرَ النِّعمةِ والسُّرورِ الظَّاهِرَ؛ مِنَ الحُسْنِ والبَهاءِ والنَّضارةِ[٢].

= للبقاعي (٢١/ ٣٢٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٤).

قال ابن القيم: (هضمَ معنى الآيةِ مَن قال: يَنظرونَ إلى أعدائِهم يُعذَّبون، أو يَنظرونَ إلى قصورِهم وبساتينِهم، أو ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ. وكلُّ هذا عُدولٌ عن المقصودِ إلى غيرِه، وإنَّما المعنَى ينظرونَ إلى وجهِ ربِّهم، ضدَّ حالِ الكفارِ الذين هم عن ربِّهم محجوبونَ). ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٣٢).

وقال السعدي: (﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى ما أعدَّ الله لهم مِن النَّعيمِ، ويَنظُرونَ إلى وجهِ ربِّهم الكريمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).

وقال القُشَيري: (أثبتَ النَّظَرَ ولم يُبَيِّنِ المنظورَ إليه؛ لاختِلافِهم في أحوالِهم؛ فمِنهم مَن يَنظُرُ إلى قُصورِه، ومِنهم مَن ينظرُ إلى حُورِه، ومنهم ومنهم... ومنهم الخواصُّ فهُم على دوامِ الأوقاتِ إلى الله سُبحانَه يَنظُرونَ). ((تفسير القشيري)) (٣/ ٧٠٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٤).

قال ابنُ جُزَي: (الخِطابُ في ﴿تَعْرِفُ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، أو لكُلِّ مُخاطَبٍ مِن غيرِ تَعيينٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٢).

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت مجالِسُ الأُنْسِ -لا سِيَّما في الأماكِنِ النَّضِرةِ- لا تَطِيبُ إلَّا بالمآكِلِ والمَشارِبِ، وكان الشَّرابُ يدُلُّ على الأكلِ؛ قال مُقتَصِرًا عليه؛ لأنَّ هذه السُّوَرَ قِصارٌ، يُقصَدُ فيها الجَمعُ مع الاختِصارِ؛ قال[1]:

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ...﴾.

أي: يُسقَى هؤلاءِ الأبرارُ مِن خَمرٍ لذيذةٍ صافيةٍ لا كَدَرَ فيها، مختومةٍ بالمِسْك[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٤، ٢١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٥، ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٤، ١٠٥).

قال الماوَرْدي: (فيه أربعةُ تأويلاتٍ؛ أحدُها: مِزاجُه مِسْكٌ. قاله مجاهِدٌ. الثَّاني: عاقِبَتُه مِسْكٌ. ويكونُ خِتامُه آخِرَه... الثَّالثُ: أنَّ طَعْمَه وريحَه مِسْكٌ... الرَّابعُ: أنَّ خَتْمَه الَّذي خُتِمَ به إناؤُه مِسْكٌ. قاله ابنُ عبَّاس). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٣٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: أنَّ هذه الخَمْرَ مختومةٌ بالرَّائحةِ المِسْكيَّة، فتَفوحُ منها في آخِرِ شُرْبِهم لها رائحةُ المِسْكِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابن عطية، والقرطبي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٥).

وقال مقاتِلُ بنُ سُليمانَ: (إذا شرِب وفرَغ ونزَع الإناءَ من فيه وجَد طَعْمَ المِسْكِ). ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٦٢٤).

وقال الزَّجَّاجُ: (انختَمَ ذلك بطَعْمِ المِسْكِ ورائحتِه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٣٠١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: تُختَمُ أوانيه من الأكوابِ والأباريقِ بمِسْكٍ مكانَ السِّدادةِ الَّتي تُغَطِّي الأوانيَ: الزمخشريُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٦). =

﴿... وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

أي: فلْيَجتَهِدِ المتسابِقونَ ويُبادِرُوا في طَلَبِ ذلك النَّعيمِ[١]، بطاعةِ اللهِ تعالى، واجتنابِ ما يُسخِطُه، ولْيُسارِعوا؛ حِرصًا على الفَوزِ به[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ

= قال ابنُ عاشور: (الخِتامُ بوَزنِ كِتابٍ: اسمٌ للطِّينِ الَّذي يُختَمُ به، كانوا يجعَلونَ طِينَ الخِتامِ على مَحَلِّ السِّدادِ مِنَ القارورةِ أو الباطيةِ أو الدَّنِّ للخَمْرِ؛ لِمَنعِ تخلُّلِ الهواءِ إليها، وذلك أصلَحُ لاختمارِها، وزيادةِ صَفائِها، وحِفظِ رائحتِها، وجُعِلَ خِتامُ خَمرِ الجَنَّةِ بعَجينِ المِسْكِ عِوَضًا عن طِينِ الخَتْمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٦).

وقال البقاعي: (﴿مَّخْتُومٍ﴾ أي: فهو معَ نفاسته سالمٌ مِن الغبارِ وجميعِ الأقذاءِ والأقذارِ. ولَمَّا كان الخَتمُ حينَ الفكِّ لا بدَّ أن يَنزِلَ مِن فُتاتِه في الشَّرابِ؛ قال: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾. وقال ابنُ مسعودٍ رضيَ الله عنه: إنَّ المرادَ بخِتامِه: آخِرُ طَعمِه، فيحصلُ أنَّ خِتامَه في أوَّلِ فَتحِه وفي آخِرِ شربِه المِسكُ، وذلك يقتضي أن لا يكونَ يَفتَحُه إلَّا شاربُه، وأنَّه يكونُ على قدرِ كفايتِه فيَشرَبُه كلَّه، والعبارةُ صالحةٌ لأنْ يكونَ الختامُ أوَّلًا وآخِرًا، وهو يَجري مجرى افتِضاضِ البِكْرِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٢٩).

(١) قيل: المرادُ بقولِه ﴿ذَٰلِكَ﴾: الإشارةُ إلى ما سبق ذِكرُه في هذه السُّورةِ مِن نَعيمِ الجنَّة. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).

وقيل: اسمُ الإشارة يعودُ على الرَّحيقِ المختوم بمِسْكٍ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٩، ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٥).

أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [الحديد: ٢١].

﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الشَّرابَ أتْبَعَه مِزاجَه -على ما يَتعارَفُه أهلُ الدُّنيا- لكِنْ بما هو أشرَفُ منه؛ فقال مُبيِّنًا لحالِ هذا المَسْقِيِّ[(١)]:

﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ ﴾.

أي: ويُمزَجُ ذلك الرَّحيقُ المختومُ ويُخلَطُ بشَرابٍ شَريفٍ مِن عَينٍ رَفيعةٍ عاليةٍ اسمُها تَسنيمٌ[(٢)].

﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

أي: وتلك العَينُ يَروَى بها المقَرَّبونَ السَّابقونَ، وهم أعلى وأفضَلُ مِن الأبرارِ، فيَشرَبونَ منها شرابًا صافيًا خالِصًا دونَ أن يُمزَجَ بشَيءٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٥).

قال الجوهري: (تسنَّمه، أي: علاه. وقولُه تعالى: ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ قالوا: هو ماءٌ في الجنَّة، سمِّي بذلك لأنَّه يجري فوقَ الغرفِ والقصورِ). ((الصَّحاح)) (٥/ ١٩٥٥). ويُنظر: ((غريب الحديث)) لابن قتيبة (١/ ٥٤٥)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٥، ١٠٦).

قال ابن عثيمين: (مِن العلماءِ مَن قال: «الباءُ» بمعنى «مِن»، فمعنى ﴿ يَشْرَبُ بِهَا ﴾ أي: يَشرَبُ منها. ومنهم مَن قال: إنَّ ﴿ يَشْرَبُ ﴾ بمعنى: يَروَى، ضُمِّنَتْ معنَى يَروى، فمعنى ﴿ يَشْرَبُ بِهَا ﴾ =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ توجيهٌ إلى ما ينبغي أن تكونَ فيه المنافَسةُ؛ ففي هذه الآيةِ الكريمةِ لَفتٌ لأوَّلِ السُّورةِ؛ فإذا كان أولئك يَسعَونَ لجَمعِ المالِ بالتَّطفيفِ، فلَهُمُ الوَيلُ يومَ القيامةِ، وإذا كان الأبرارُ في نعيمٍ يومَ القيامةِ، وهذا شَرابُهم؛ فهذا هو محَلُّ المنافَسةِ، لا في التَّطفيفِ مِن أيِّ مَكيلٍ أو مَوزونٍ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أنَّ التَّنافُسَ ليس مذمومًا مُطلَقًا، بل هو محمودٌ في الخَيرِ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أنَّ العاقِلَ يُنافِسُ في العُلُوِّ الدَّائمِ الباقي الَّذي فيه رِضوانُ اللهِ وقُرْبُه وجِوارُه، ويَرغَبُ عن العُلُوِّ الفاني الزَّائلِ الَّذي يَعْقُبُه غَضَبُ اللهِ وسَخَطُه، وانحِطاطُ العبدِ وسُفولُه، وبُعْدُه عن اللهِ وطَرْدُه عنه؛ فهذا العُلُوُّ الفاني الَّذي يُذَمُّ، وهو العُتُوُّ والتَّكبُّرُ في الأرضِ بغَيرِ الحقِّ، وأمَّا العُلُوُّ الأوَّلُ والحِرصُ عليه فهو مَحمودٌ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أنَّ الشَّارعَ لَمْ يَجْعَلِ الطَّاعاتِ والقُرُباتِ محَلًّا للإيثارِ، بل مَحَلًّا للتَّنافُسِ والمُسابَقةِ؛ ولهذا قال

= أي: يَروى بها المقرَّبون. وهذا المعنى أو هذا الوجهُ أحسَنُ مِن الوجهِ الَّذي قبْلَه؛ لأنَّ هذا الوجهَ يتضَمَّنُ شيئين يُرجِّحانِه؛ وهما: أوَّلًا: إبقاءُ حرفِ الجرِّ على معناه الأصليِّ. والثَّاني: أنَّ الفعلَ ﴿يَشۡرَبُ﴾ ضُمِّن معنًى أعلى مِن الشُّربِ، وهو الرِّيُّ، فكم مِن إنسانٍ يَشرَبُ ولا يَروى، لكنْ إذا رَوِيَ فقد شَرِب). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٦).

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٨٩).

الفُقَهاءُ: «لا يُستحَبُّ الإيثارُ بالقُرُباتِ»، والسِّرُّ فيه -واللهُ أعلمُ- أنَّ الإيثارَ إنَّما يكونُ بالشَّيءِ الَّذي يَضِيقُ عن الاشتراكِ فيه، فلا يَسَعُ المؤْثِرَ والمؤْثَرَ، بل لا يَسَعُ إلَّا أحدَهما، وأمَّا أعمالُ البرِّ والطَّاعاتِ فلا ضِيقَ على العِبادِ فيها، فلو اشتركَ الألوفُ المؤلَّفةُ في الطَّاعةِ الواحدةِ لَمْ يكُنْ عليهم فيها ضِيقٌ ولا تزاحُمٌ، ووَسِعَتْهُم كلَّهم، وإنْ قُدِّرَ التَّزاحمُ فإنَّ في العَزْمِ والنِّيَّةِ الجازمةِ على فِعْلِه مِن الثَّوابِ ما لفاعلِه، فإذا قُدِّرَ فَوتُ مباشَرتِه له فلا يَفُوتُ عليه عَزْمُه ونيَّتُه لِفعْلِه، وأيضًا فإنَّه إذا فات عليه كان في غيرِه مِن الطَّاعاتِ والقُرُباتِ عِوضٌ منه، وأيضًا فإنَّ المقصودَ رغبةُ العَبدِ في التَّقَرُّبِ إلى اللهِ، وابتغاءِ الوَسيلةِ إليه، والمنافَسةِ في مَحابِّه. والإيثارُ بهذا التَّقَرُّبِ يدُلُّ على رَغبتِه عنه، وتَرْكِه له، وعدَمِ المُنافَسةِ فيه، وهذا بخِلافِ ما يَحتاجُ إليه العَبدُ مِن طَعامِه وشَرابِه ولباسِه إذا كان أخوه محتاجًا إليه، فإذا اختَصَّ به أحدُهما فات الآخَرَ؛ فنَدَبَ اللهُ سُبحانَه عبْدَه إذا وَجَدَ مِن نفْسِه قوَّةً وصبرًا على الإيثارِ به ما لَمْ يَخْرِمْ عليه دِينًا، أو يَجْلِبْ له مَفسَدةً[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- أهلُ الجَنَّةِ نَوعانِ: سابِقونَ مُقَرَّبون، وأبرارٌ أصحابُ يمينٍ، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٩٩، ٣٠٠).
وقال ابن القيِّم: (الله سُبحانَه وتعالَى يُحبُّ المُبادَرةَ أو المُسارَعةَ إلى خدمته، والتَّنافُسَ فيها؛ فإنَّ ذلك أبلَغُ في العُبوديَّةِ؛ فإنَّ المُلوكَ تحبُّ المُسارَعةَ والمُنافَسةَ في طاعتِها وخِدمَتِها، فالإيثارُ بذلك مُنافٍ لمقصودِ العُبوديَّةِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه أمَر عبدَه بهذه القُربةِ إمَّا إيجابًا وإمَّا استِحبابًا، فإذا آثَر بها ترَكَ ما أُمِر به وولَّاه غيرَه... وقد كان الصَّحابةُ يُسابِقُ بعضُهم بعضًا بالقُرَبِ، ولا يُؤْثِرُ الرَّجُلُ منهم غيرَه بها). ((الروح)) (ص: ١٣٠).

مَّخۡتُومٍ ۞ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ۞ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ۞ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: (تُمزَجُ لأصحابِ اليَمينِ مَزْجًا، ويَشرَبُها المقَرَّبونَ صِرْفًا [أي: خالصةً])[1].

٢- لَفظُ الأبرارِ إذا أُطْلِقَ دَخَلَ فيه كلُّ تَقيٍّ مِن السَّابِقينَ والمقتَصِدينَ، وإذا قُرِنَ بالمقرَّبينَ كان أخَصَّ؛ قال تعالى في الأوَّلِ: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، وقال في الثَّاني: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۞ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۞ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۞ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾[2].

٣- قَولُه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ استُدِلَّ به أنَّ الجنَّةَ في أعلى عِلِّيِّينَ، وكما في قَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في حَديثِ البراءِ بنِ عازبٍ المشهورِ في صفةِ قبضِ الرُّوحِ، ونعيمِ القبرِ وعذابِه: ((فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكتُبُوا كِتابَ عَبْدي في عِلِّيِّينَ، وأَعيدُوه إلى الأرضِ))[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ تحقيقٌ لكَونِه مَكتوبًا كِتابةً حَقيقيَّةً[4].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ خَصَّ تعالى كتابَ الأبرارِ بأنَّه يُكْتَبُ ويُوَقَّعُ لهم به بمَشْهَدِ المقرَّبينَ مِن الملائكةِ والنَّبيِّينَ وساداتِ المؤمنينَ -وذلك على قولٍ-، ولَمْ يَذْكُرْ شَهادةَ هؤلاء لكِتابِ الفُجَّارِ؛ تنويهًا بكتابِ الأبرارِ وما وَقَعَ لهم به، وإشهارًا له، وإظهارًا بيْن خواصِّ خلْقِه؛ كما تَكتبُ الملوكُ تواقيعَ مَن تُعظِّمُه بيْن الأمراءِ وخواصِّ أهلِ المملكةِ؛ تنويهًا باسمِ المكتوبِ له، وإشادةً

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٠١).

(٢) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تعليق مختصر على لمعة الاعتقاد)) لابن عثيمين (ص: ١٣٢).
والحديث تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٧٠).

بذِكْرِه، وهذا نوعٌ مِن صلاةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى وملائكتِه على عَبْدِه[1].

٦- في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ بِرَّ القَلبِ يُوجِبُ نَعيمَ الدُّنيا[2].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ يعني: أنَّهم في نَعيمٍ في القَلبِ، وفي نعيمٍ في البَدَنِ، فهُم في أَسَرِّ ما يَكونُ[3].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ دليلٌ على أنَّ المؤمنَ مَندوبٌ إلى الرَّغبةِ في مَلاذِّ النُّفُوسِ وشَهَواتِها في الآخِرةِ، والسَّعيِ في اكتِسابِها، وأنَّ تَنطُّعَ الصُّوفيَّةِ كما يَدَّعُون مِن تَرْكِ الاشتغالِ بها، والاقتصارِ على العَمَلِ الصَّالحِ الرَّضيِّ وحْدَه، لا للرَّغبةِ في الجَزاءِ عليه مِن مُباشرةِ ما وَعَدَه اللهُ تبارك وتعالى وأَعَدَّه لأهلِ الجَنَّةِ: مذمومٌ مِن قولِهم، وغيرُ مَرْضيٍّ مِن فِعْلِهم؛ لأنَّ رِضا اللهِ جلَّ جلالُه وإنْ كان مِن أجَلِّ الجزاءِ وأعظَمِ النَّعيمِ فليس بمانعٍ مِن الرَّغبةِ في مباشرةِ مَلاذِّ النُّفُوسِ، والتَّمَتُّعِ بما هو من حَظِّها، وأنَّه لا يَحُطُّه مِن درجةِ طُلَّابِ الرِّضا، وإنَّما نُهُوا عنه في الدُّنيا، ونُدِبُوا إلى الزُّهدِ فيها؛ لأنَّ محظورَها يُفضِي بهم إلى المُحَرَّمِ، ويَكْسِبُهم النَّارَ، ومُباحَها يُفْضي بهم إلى الفُتورِ والكَسَلِ، والرَّغبةِ في الدُّنيا عن مباشرةِ تَعَبِ العبادةِ ونَصَبِها، ويُصَعِّبُ عليهم تَجَرُّعَ المراراتِ، ويُطَمْئِنُ إلى الرَّاحاتِ وإيثارِ الحلاواتِ عليها، فإذا دَخَلوا الجَنَّةَ وانتَقَلوا عن دارِ المِحَنِ، ورُفِعَتْ عنهم العبادةُ؛ تَلَذَّذُوا بمَحابِّ النُّفُوسِ مِن الأكلِ والشُّربِ وأنواعِ النَّعيمِ مِن مُعانَقةِ الحُورِ ومَن يُزَوَّجُون مِن الآدَميَّاتِ المُطيعاتِ، ويُرَدُّ

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٧٠).

(٢) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (ص: ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٦/ ٧٢٦).

إليهم مِن الزَّوجاتِ اللَّواتي كُنَّ لهم في الدُّنيا، فلَمْ يَضُرَّهم ذلك، ولا خَشُوا مَقْتًا مِن ربِّهم، ولا حَذِروا فُتورًا عن العبادةِ؛ لأنَّه جزاءٌ لهم على ما أطاعوه في الدُّنيا، وآثَروا طاعتَه على مَلاذِّهم ومَحابِّهم فيها، أَلَا تراه يقولُ سُبحانَه: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، والقرآنُ مملوءٌ به؛ مِن قوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وكيف يكونُ مذمومًا مع قولِه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾، فلِمَ أمَرَهم إذَنْ بالتَّنافُسِ؟! ولِمَ وَصَفَه ومَلأَ القرآنَ بذِكْرِه[١]؟!

٩- في قولِه تعالى: ﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ﴾ عُبِّرَ بالفِعلِ ﴿يُسۡقَوۡنَ﴾ دُونَ (يَشرَبون)؛ للدَّلالةِ على أنَّهم مَخدومون، يَخدُمُهم مَخلوقاتٌ مِن أجْلِ ذلك في الجَنَّةِ، وذلك مِن تَمامِ التَّرفُّهِ ولَذَّةِ الرَّاحةِ[٢].

١٠- قال تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ قيل: إنَّ المرادَ بالخِتام: ما يَبقى في سُفْلِ الشَّرابِ مِن الثُّفْلِ[٣]، وهذا يدُلُّ على أنَّ أنهارَها تجري على المِسْكِ؛ ولذلك يَرْسُبُ منه في الإناءِ في آخِرِ الشَّرابِ كما يَرْسُبُ الطِّينُ في آنيةِ الماءِ في الدُّنيا[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ * عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ أنَّ مِزاجَ شَرابِ الأبرارِ مِن التَّسنيمِ؛ وأنَّ المقرَّبينَ يَشرَبونَ منه بلا مِزاجٍ؛ وهذا لأنَّ الجزاءَ وِفاقُ العَمَلِ، فكما خَلَصَتْ أعمالُ المقرَّبينَ كلُّها للهِ خَلَصَ شرابُهم، وكما مَزَجَ الأبرارُ الطَّاعاتِ بالمباحاتِ، مُزِجَ لهم شَرابُهم؛ فمَن أَخْلَصَ أُخْلِصَ شَرابُه،

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٨٧-٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٥).

(٣) الثُّفْلُ: حُثَالةُ الشَّيْءِ، وهو الثَّخينُ الَّذي يَبقَى أسفَلَ الصَّافي. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٦).

ومَن مَزَجَ مُزِجَ شرابُه[١].

١٢- قال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ لَمْ يَقُلْ: «يَشْرَبُ منها»؛ لأنَّه ضَمَّنَ قَوْلَه: «يَشْرَب» مَعْنى «يَرْوَى بها»؛ فإنَّ الشَّارِبَ قد يَشْرَبُ ولا يَرْوى، فإذا قيل: «يَشرَبونَ منها» لَمْ يَدُلَّ على الرِّيِّ، فإذا قيل: «يَشربونَ بها» كان المعنى: «يَرْوَون بها»، فالمقرَّبون يَرْوَونَ بها فلا يحتاجُونَ معها إلى ما دونَها؛ فلهذا يَشرَبونَ منها صِرْفًا بخِلافِ أصحابِ اليمينِ؛ فإنَّها مُزِجَتْ لهم مَزْجًا، وهو كما قال تعالى في سورةِ (الإنسانِ): ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٥، ٦]، فعِبَادُ اللهِ هم المقرَّبون المذكورونَ في تلك السُّورةِ؛ وهذا لأنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العمَلِ في الخَيرِ والشَّرِّ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾

- حرفُ ﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ وإبْطالٌ لِما تضمَّنَه ما يُقالُ لهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٧]، فيَجوزُ أنْ تكونَ كَلِمةُ ﴿كَلَّآ﴾ ممَّا قيلَ لهم مع جُملةِ ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ رَدْعًا لهم؛ فهي مِن المَحكيِّ بالقَولِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ مُعترِضةً مِن كَلامِ اللهِ في القُرآنِ؛ إبْطالًا لتَكذيبِهم المَذكورِ[٣].

وقيل: حرفُ ﴿كَلَّآ﴾ تكريرٌ، تأكيدٌ للرَّدعِ؛ ليُعقبَ بوَعدِ الأبرارِ، كَما عُقِّبَ الأوَّلُ بوَعيدِ الفُجَّارِ؛ إشْعارًا بأنَّ التَّطفيفَ فُجورٌ، والإيفاءَ بِرٌّ، أو رَدْعٌ عن التَّكذيبِ[٤].

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٩٤).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي =

- قولُه: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ مَحلِّ كِتابِ الأبْرارِ، بعدَ بيانِ سُوءِ حالِ الفُجَّارِ، مُتَّصلًا ببَيانِ سُوءِ حالِ كِتابِهم، وفيه تأكيدٌ للرَّدْعِ، ووُجوبِ الارتِداعِ(١).

- قولُه: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ الآياتِ؛ قيل: يَظهَرُ أنَّ هذه الآياتِ المُنتَهيةَ بقَولِه: ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ مِن الحِكايةِ، ولَيستْ مِن الكلامِ المَحكيِّ بقَولِه: ﴿ثُمَّ يُقَالُ ...﴾ إلخ؛ فإنَّ هذه الجُملةَ بحَذافِرِها تُشبِهُ جُملةَ ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ...﴾ [المطففين: ٧] إلخ، أُسلوبًا ومُقابَلةً؛ فالوَجْهُ أنْ يَكونَ مَضمونُها قَسيمًا لمَضمونِ شَبيهِها، فتَحصُلَ مُقابَلةُ وَعيدِ الفُجَّارِ بوَعدِ الأبْرارِ، ومِن عادةِ القُرآنِ تَعقيبُ الإنذارِ بالتَّبشيرِ، والعَكسُ؛ لأنَّ النَّاسَ راهِبٌ وراغِبٌ؛ فالتَّعرُّضُ لنَعيمِ الأبْرارِ إدْماجٌ(٢) اقتَضَتْه المُناسَبةُ، وإنْ كان المَقامُ مِن أوَّلِ السُّورةِ مَقامَ إنْذارٍ، ويَكونُ المُتكلِّمُ بالوَعدِ والوَعيدِ واحِدًا، وَجَّه كلامَه للفُجَّارِ الَّذين لا يَظُنُّون أنَّهم مَبْعوثون، وأعقَبَه بتَوجيهِ كلامٍ للأبْرارِ الَّذين هُم بضِدِّ ذلك، فتَكونُ هذه الآياتِ مُعترِضةً مُتَّصِلةً بحرفِ الرَّدْعِ. ويَجوزُ أنْ تَكونَ مِن المَحكيِّ بالقَولِ في ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٧]، فتَكونَ مَحكيَّةً بالقَولِ المَذكورِ، مُتَّصِلةً بالجُملةِ الَّتي قبْلَها وبحَرفِ الإبْطالِ، على أنْ يَكونَ القائلون لهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ على وَجْهِ التَّوبيخِ؛ أَعقَبوا تَوبيخَهم بوَصفِ نَعيمِ المُؤمِنينَ بالبَعثِ تَنْديمًا للَّذين أنكَروه، وتَحسيرًا لهم على ما أفاتوه مِن الخَيرِ(٣).

= السعود)) (٩/ ١٢٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٧).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٢، ٢٠٣).

- وفي قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ معَ الأولى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ [المُطَفِّفين: ٧] احتباكٌ[١]؛ ذِكرُ ﴿سِجِّينٖ﴾ أوَّلًا دالٌّ على الاتِّساعِ ثانيًا، وذكرُ ﴿عِلِّيِّينَ﴾ والمقرَّبينَ ثانيًا دالٌّ على أسفلِ سافلينَ والمُبعَدينَ أوَّلًا[٢].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾؛ (مَا) اسمُ استِفهامٍ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ[٣].

- وعِلِّيُّون: جَمعُ عِلِّيٍّ، وعِلِّيٌّ على وَزنِ (فِعِّيلٌ) مِن العُلُوِّ، وهو زِنةُ مُبالَغةٍ في الوَصفِ، جاءَ على صورةِ جَمْعِ المُذكَّرِ السَّالِمِ[٤]. وقيلَ: إنَّ عِلِّيِّينَ ليس جَمْعَ عِلِّيٍّ، ولكنَّه عَلَمٌ على مَكانِ الأبْرارِ في الجَنَّةِ، وصِيغَ على صِيغةِ جَمعِ المُذكَّرِ؛ لأنَّ أَصلَ تلك الصِّيغةِ أنْ تُجمَعَ بها أسْماءُ العُقلاءِ وصِفاتُهم، فاستُكمِلَ له صِيغةُ جَمعِ العُقلاءِ الذُّكورِ؛ إتْمامًا لشَرَفِ المَعنى بإعْطائِه صِيغةَ التَّذكيرِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ * وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ * عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ مَضمونُ هذه الجُملةِ قَسيمٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] إلى آخِرِها؛

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٩١).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٧).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٣).

ولذلك جاءَتْ على نَسيجِ نَظْمِ قَسيمتِها افتِتاحًا وتَوصيفًا وفَصلًا، وهي مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]؛ فمَوقعُها مَوقِعُ البَيانِ، أو موقِعُ بَدَلِ الاشتِمالِ[1] على كِلَا الوَجهَينِ في مَوقِعِ الَّتي قبْلَها، على أنَّه يَجوزُ أنْ تَكونَ مِن الكلامِ الَّذي يُقالُ لهم، وهو المَحكيُّ بقَولِه: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٧]، فيَكونَ قولُ ذلك لهم تَحسيرًا وتَنديمًا على تَفريطِهم في الإيمانِ، ولا تعارُضَ بيْن الوَجهَينِ[2]. وقيل: الجملةُ مستأنفَةٌ استئنافًا بيانيًّا، كأنَّه قيل: هذا حالُ كتابِهم، فما حالُهم؟ فأُجيبَ بما ذُكِر، أي: إنَّهم لفي نعيمٍ عظيمٍ[3].

- وذِكرُ ﴿ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ بالاسمِ الظَّاهِرِ دونَ ضَميرِهم، خِلافًا لِما جاءَ في جُملةِ ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]؛ تَنويهًا بوَصفِ الأبْرارِ[4].

- وحَذفُ مَفعولِ ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ إمَّا لدَلالةِ ما تَقدَّمَ عليه مِن قولِه في ضِدِّهم: ﴿إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، والتَّقديرُ: يَنظُرون إلى رَبِّهم، وإمَّا لقَصدِ التَّعميمِ، أي: يَنظُرون كُلَّ ما يُبهِجُ نُفوسَهم ويَسُرُّهم؛ بقَرينةِ مَقامِ الوَعدِ والتَّكريمِ[5].

- قولُه: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ كلامٌ مُستأْنَفٌ، مَسوقٌ لإيذانِ المُخاطَبِ بالالْتِفاتِ إليهم، والتَّأمُّلِ في آثارِ النَّعيمِ على وُجوهِهم[6].

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٠٥).

(٦) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٦).

- قولُه: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ الخِطابُ لكُلِّ أَحدٍ ممَّن له حَظٌّ مِن الخِطابِ؛ للإيذانِ بأنَّ ما لَهم مِن آثارِ النِّعمةِ وأَحكامِ البَهجةِ، بحَيثُ لا يَختَصُّ برُؤيتِه راءٍ دُونَ راءٍ. والخِطابُ بمِثلِه في مَقامِ وَصْفِ الأُمورِ العَظيمةِ طَريقةٌ عَرَبيَّةٌ مَشهورةٌ[1].

- والنَّضْرةُ: البَهْجةُ والحُسنُ، وإضافةُ ﴿نَضۡرَةَ﴾ إلى ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ مِن إضافةِ المُسبَّبِ إلى السَّببِ، أي: النَّضْرةُ والبَهْجةُ الَّتي تَكونُ لوَجْهِ المَسرورِ الرَّاضي؛ إذ تَبْدو على وَجْهِه مَلامِحُ السُّرورِ[2].

- قولُه: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ نَعتٌ للرَّحيقِ، أو بدَلٌ مُفَصَّلٌ مِن مُجمَلٍ، أو استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن وَصْفِ الرَّحيقِ بأنَّه مَختومٌ؛ أنْ يَسألَ سائلٌ عن خِتامِها، أيُّ شيءٍ هو مِن أصنافِ الخِتامِ؟ لأنَّ غالِبَ الخِتامِ أنْ يَكونَ بطِينٍ أو سِدادٍ[3]. وذلك على قولٍ.

- وجُملةُ ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ وجُملةِ ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ﴾، ونَظْمُ التَّركيبِ في هذه الجُملةِ دَقيقٌ يَحتاجُ إلى بَيانٍ؛ وذلك أنْ نَجعَلَ (الواوَ) اعتِراضيَّةً، فقَولُه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ هو مَبدأُ الجُملةِ، وتَقديمُ المَجرورِ لإفادةِ الحَصْرِ، أي: وفي ذلك الرَّحيقِ فلْيَتَنافَسِ النَّاسُ، لا في رَحيقِ الدُّنيا الَّذي يَتَنافَسُ فيه أهلُ البَذَخِ، ويَجلِبونه مِن أَقاصي البِلادِ، ويُنفِقون فيه الأموالَ، ولَمَّا كانت (الواوُ) اعتِراضيَّةً لم يَكُنْ إشْكالٌ في وُقوعِ (فاءِ) الجَوابِ بعْدَها، و(الفاءُ) إمَّا أنْ تَكونَ فَصيحةً؛ أفْصَحَتْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٠٦).

عن شَرطٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ: إذا عَلِمْتُم الأوصافَ لهذا الرَّحيقِ فلْيَتَنافَسْ فيه المُتَنافِسونَ، أو التَّقديرُ: وفي ذلك فلْتَتَنافَسوا، فلْيَتَنافَسْ فيه المُتَنافِسون، فتَكونَ الجُملةُ في قُوَّةِ التَّذييلِ؛ لأنَّ المُقدَّرَ هو تَنافُسُ المُخاطَبِينَ، والمُصَرَّحَ به تَنافُسُ جَميعِ المُتَنافِسينَ، فهو تعميمٌ بعدَ تَخصيصٍ. وإمَّا أنْ تَكونَ الفاءُ فاءَ جَوابٍ لشَرطٍ مُقدَّرٍ في الكَلامِ يُؤذِنُ به تَقديمُ المَجرورِ؛ لأنَّ تَقديمَ المَجرورِ كثيرًا ما يُعامَلُ مُعامَلَةَ الشَّرطِ، فالتَّقديرُ: إنْ عَلِمْتُم ذلك فلْيَتَنافَسْ فيه المُتَنافِسونَ. وإمَّا أنْ تَكونَ (الفاءُ) تَفريعًا على مَحذوفٍ على طَريقةِ الحَذفِ على شَريطةِ التَّفسيرِ، والتَّقديرُ: وتَنافَسوا -صيغة أمرٍ في ذلك- فلْيَتَنافَسِ المُتَنافِسونَ فيه، ويَكونَ الكَلامُ مُؤذِنًا بتَوكيدِ فِعلِ التَّنافُسِ؛ لأنَّه بمَنزِلةِ المَذكورِ مَرَّتَينِ، مع إفادةِ التَّخصيصِ بتَقديمِ المَجرورِ[١]. وذلك على قولٍ في المُتنافَسِ فيه.

- قولُه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ ما فيه مِن مَعْنى البُعدِ؛ إمَّا للإشْعارِ بعُلُوِّ مَرتَبتِه وبُعدِ مَنزِلتِه، أو لكَونِه في الجَنَّةِ، أي: في ذلك خاصَّةً دونَ غَيرِه[٢].

- و(لامُ) الأمرِ في ﴿فَلْيَتَنَافَسِ﴾ مُستَعمَلةٌ في التَّحريضِ والحَثِّ[٣].

- قولُه: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ عَطْفٌ على قولِه: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾، والتَّسنيمُ هو المَعنيُّ بالشَّرابِ الَّذي هو أرفَعُ شَرابٍ في الجَنَّةِ. وقولُه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ في حُكمِ المُتأخِّرِ؛ قُدِّمَ لمَكانِ العِنايةِ بشَأنِه، فالمُشارُ إليه بـ (ذلك) جَميعُ ما سَبَقَ مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ...﴾ إلى آخِرِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٦، ٢٠٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٧).

وذلك على قولٍ. وفائدةُ التَّقديمِ: التَّرغيبُ والحَثُّ على التَّحرِّي والاجتِهادِ، وإيثارِ ذلك على طَلَبِ العاجِلةِ، والمُسابقةِ فيه؛ ولذلك قُدِّمَ الظَّرفُ -أي: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾-، وخُصَّ التَّنافُسُ مع بِناءِ التَّفاعُلِ[1].



(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٤٩، ٣٥٠).

الآيات (٢٩-٣٦)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾
وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ
أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ
﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿يَتَغَامَزُونَ﴾: أي: يَغمِزُ بَعضُهم بَعضًا، ويُشيرونَ بأَعْيُنِهم على وجهِ السُّخريةِ، والغَمزُ: الإشارةُ بالجَفنِ والحاجِبِ، ويكونُ الغمزُ أيضًا بمعنى العَيبِ، يُقالُ: غَمَزَه إذا عابه، و: ما في فُلانٍ غَميزةٌ، أي ما يُعابُ به[(١)].

﴿ٱنقَلَبُوٓاْ﴾: أي: انصَرَفوا ورَجَعوا، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على صَرْفِ الشَّيءِ عن وجهٍ إلى وجهٍ، أو ردِّه مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ[(٢)].

﴿فَكِهِينَ﴾: أي: فَرِحينَ مَسرورينَ مُعْجَبِينَ باستِخفافِهم بالمؤمِنينَ، وأصلُ (فكه): يدُلُّ على طِيبٍ واستِطابةٍ[(٣)].

﴿ثُوِّبَ﴾: أي: جُوزِيَ وأُثيبَ، وأصلُ (ثوب): يدُلُّ على عَودٍ ورُجوعٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٤)، =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۞ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾

قَولُه تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ...﴾: في محَلِّ هذه الجُملةِ الاستفهاميَّةِ أَوجُهٌ؛

أحَدُها: أنَّها في محلِّ نصبٍ بعدَ إسقاطِ حرفِ الجَرِّ الَّذي هو «إلى»، فهي مُعَلِّقةٌ لـ﴿يَنظُرُونَ﴾ قَبْلَها، أي: يَنظُرونَ هلْ ثُوِّبَ الكُفَّارُ.

الثَّاني: أنَّها في محَلِّ نَصبٍ مَقولٌ لقَولٍ مَحذوفٍ وَقَع حالًا مِن ضَميرِ ﴿يَنظُرُونَ﴾، أي: يَنظُرونَ مَقولًا لهم...

الثَّالثُ: أنَّها استِئْنافيَّةٌ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما كان يفعلُه الكُفَّارُ معَ المؤمنينَ: إنَّ الكفَّارَ كانوا في الدُّنيا يَضحَكونَ مِنَ المؤمِنينَ؛ استِهزاءً بهم، وإذا مَرُّوا بهم أشار بَعضُهم إلى بَعضٍ بأعيُنِهم؛ استِهزاءً بالمؤمِنينَ، واحتِقارًا لهم، وإذا انصَرَفَ أولئك المجرِمونَ إلى أهلِهم انصَرَفوا فَرِحينَ مَسرورينَ باستِخفافِهم بالمؤمِنينَ، وإذا رَأَوُا المؤمِنينَ قالوا: إنَّ هؤلاء لَضالُّونَ عن طَريقِ الحَقِّ. وما أرسَلَ اللهُ الكُفَّارَ وُكَلاءَ على المؤمنينَ لِيَحفَظوا أعمالَهم!

ثمَّ يُبشِّرُ اللهُ تعالى المؤمنينَ بأنَّ العاقِبَةَ الطَّيِّبةَ لهم، فيقولُ: ففي اليَومِ الآخِرِ يَضحَكُ المُؤمِنونَ مِنَ الكُفَّارِ حِينَ يَرَونَهم وهم يُعَذَّبونَ، والمُؤمِنونَ في الجَنَّةِ

= ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٥).

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٧٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨٥).

على السُّرُرِ يَنظُرونَ إلى وجهِ اللهِ الكريمِ وإلى ما أُعِدَّ لهم مِن النَّعيمِ، وإلى الكافِرينَ وهم يُعذَّبونَ، هل جُوزيَ الكُفَّارُ على ما كانوا يَفعَلونَه في الدُّنيا بالمؤمِنينَ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَف سُبحانَه كَرامةَ الأبرارِ في الآخِرةِ؛ ذَكَر بعْدَ ذلك قُبْحَ مُعامَلةِ الكُفَّارِ معهم في الدُّنيا في استِهزائِهم وضَحِكِهم، ثمَّ بَيَّن أنَّ ذلك سيَنقَلِبُ على الكُفَّارِ في الآخِرةِ، والمقصودُ منه تسليةُ المؤمِنينَ وتقويةُ قُلوبِهم(١).

وأيضًا بعْدَ أنْ ذكَرَ حالَ المُشركين على حِدةٍ، وذكَرَ حالَ المُسلِمينَ على حِدةٍ، أَعقَبَ بما فيه صِفةٌ لعاقِبةِ المُشرِكين في مُعامَلتِهم للمُؤمِنينَ في الدُّنيا؛ ليَعلَموا جَزاءَ الفَريقَينِ مَعًا(٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾.

أي: إنَّ الكُفَّارَ كانوا في الدُّنيا يَضحَكونَ مِنَ المؤمِنينَ؛ استِهزاءً بهم، وسُخْريةً منهم، واحتِقارًا لهم(٣).

كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٦).

قال السمعاني: (قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ هم الكفَّارُ. وقيل: هذا في قومٍ مخصوصينَ مِن قريشٍ، منهم أبو جهلٍ والوليدُ بنُ المغيرةِ، والأسودُ بنُ عبدِ يغوثَ، والنَّضرُ بنُ الحارثِ وغيرُهم). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٨٤).

ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ * فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ * إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩ - ١١١].

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠﴾.

أي: وإذا مَرُّوا بهم في طَريقِهم تغامَزَ أولئك المجرِمونَ، فأشار بَعضُهم إلى بَعضٍ بأعيُنِهم؛ استِهزاءً بالمؤمِنينَ، واحتِقارًا لهم[1].

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).

قال ابنُ عاشور: (ضميرُ ﴿مَرُّواْ﴾ يجوزُ أن يعودَ إلى ﴿ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾، فيكونَ ضَميرُ ﴿بِهِمۡ﴾ عائِدًا إلى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ويجوزُ العَكسُ، والمعنى: وإذا مَرَّ المؤمنونَ بالَّذين أجرَموا وهم في مجالِسِهم يتغامَزُ المجرِمونَ حينَ مرورِ المؤمنينَ، أو: وإذا مَرَّ الَّذين أجرموا بالَّذين آمَنوا وهم في عَمَلِهم وفي عُسْرِ حالِهم يتغامَزُ المجرِمونَ حينَ مُرورِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١١).

وممَّن قال بأنَّ المؤمنينَ هم مَن يمُرُّونَ على المجرمينَ: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابن عطية، والبِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨٩).

وممَّن قال بأنَّ المجرمينَ هم الَّذين يمُرُّونَ على المؤمنينَ: مكِّيٌّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٣).

وذهب ابنُ عثيمينَ إلى أنَّ الآيةَ تَشملُ كِلا المعنيَين، فيَحصُلُ أنَّ المجرمينَ يَمُرُّونَ على المؤمِنينَ، ويَحصُلُ العَكسُ، وفي كلٍّ يَتغامَزُ المجرِمونَ بالمؤمنينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَفَهم في مَواضِعِ التَّرَدُّدِ والتَّقَلُّبِ؛ وصَفَهم في المنازِلِ(١):

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١﴾.

أي: وإذا انصَرَفَ أولئك المجرِمونَ إلى أهلِهم في بُيوتِهم انصَرَفوا فَرِحينَ مَسرورينَ باستِخفافِهم بالمؤمِنينَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ [الانشقاق: ١٣].

﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٣، ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٢، ٢١٣).

قال السعدي: (﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ﴾ صباحًا أو مساءً ﴿ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ أي: مَسرورينَ مُغتَبِطينَ، وهذا مِن أعظَمِ ما يكونُ مِنَ الاغترارِ؛ أنَّهم جمَعوا بيْن غايةِ الإساءةِ والأمْنِ في الدُّنيا، حتَّى كأنَّهم قد جاءهم كتابٌ مِن اللهِ وعَهدٌ أنَّهم مِن أهلِ السَّعادةِ، وقد حَكَموا لأنفُسِهم أنَّهم أهلُ الهدى، وأنَّ المؤمنينَ ضالُّونَ؛ افتِراءً على الله، وتجَرُّؤًا على القَولِ عليه بلا عِلمٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).

وقال ابن عاشور: (والمعنى: وإذا رَجَع الَّذين أجرَموا إلى بُيوتِهم وخَلَصوا مع أهلِهم تحَدَّثوا أحاديثَ الفُكاهةِ معهم بذِكْرِ المؤمِنينَ وذَمِّهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٢).

وقال ابن عثيمين: (﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ إذا انقلَب المجرمونَ إلى أهلِهم ﴿ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ يعني: متفكِّهينَ بما نالوه مِن السُّخريةِ بهؤلاء المؤمنينَ، فهُم يَستَهزِئونَ ويَسخَرونَ ويتفَكَّهون بهذا؛ ظنًّا منهم أنَّهم نجَحوا وأنَّهم غلَبوا المؤمنينَ، ولكنَّ الأمرَ بالعكسِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر مُرورَهم بهم وتغامزَهم؛ ذَكَر مُطلَقَ رُؤيتِهم لهم وما يقولونَ فيهم[(١)].

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢﴾.

أي: وإذا رَأَوُا المؤمِنينَ قالوا: إنَّ هؤلاء لَضالُّونَ عن طَريقِ الحَقِّ، وفِعْلِ الصَّوابِ[(٢)]!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ٣٣﴾.

أي: ولم يُرسِلِ اللهُ الكُفَّارَ وُكَلاءَ على المؤمِنينَ لِيَحفَظوا أعمالَهم، ويَنشَغِلوا بمُراقَبتِهم، ويَحكُموا عليهم، بل كَلَّفَهم اللهُ بالإيمانِ، والانشغالِ بالأعمالِ الصَّالحةِ[(٣)].

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ٣٤﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٧).

قال ابنُ عاشور: (مُرادُهم بالضَّلالِ: فَسادُ الرَّأيِ؛ لأنَّ المُشرِكينَ لا يَعرِفونَ الضَّلالَ الشَّرعيَّ، أي: هؤلاء سَيِّئُو الرَّأيِ؛ إذ اتَّبَعوا الإسلامَ، وانسَلَخوا عن قَومِهم، وفَرَّطوا في نَعيمِ الحياةِ؛ طَمَعًا في نَعيمٍ بعدَ المَوتِ، وأقْبَلوا على الصَّلاةِ والتَّخَلُّقِ بالأخلاقِ الَّتي يَراها المُشرِكونَ أوهامًا وعَنَتًا؛ لأنَّهم بمَعزِلٍ عن مَقدِرةِ قَدْرِ الكَمالِ النَّفْسانيِّ، وما هَمُّهم إلَّا التَّلَذُّذُ الجُثمانيُّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٧).

أي: ففي اليَومِ الآخِرِ يَضحَكُ المُؤمِنونَ مِنَ الكُفَّارِ حينَ يَرَونَهم وهُم يُعَذَّبونَ[1]!

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: والمُؤمِنونَ في الجَنَّةِ على السُّرُرِ الَّتي أُرخِيَ عليها السُّتُورُ المُزيَّنةُ يَنظُرونَ إلى وَجهِ رَبِّهم الكريمِ، وإلى ما أُعِدَّ لهم مِنَ النَّعيمِ، وإلى الكافِرينَ وهم يُعذَّبونَ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٨).

قيل: المرادُ بقوله هنا: ﴿يَنظُرُونَ﴾: نَظَرُهم إلى اللهِ تعالى. وممَّن قال به: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٤).

قال ابنُ القيم: (فأطلَقَ النَّظَرَ، ولم يُقَيِّدْه بمَنظورٍ دونَ مَنظورٍ، وأعلى ما نظَروا إليه وأجَلُّه وأعظَمُه هو اللهُ سُبحانَه وتعالى، والنَّظَرُ إليه أجَلُّ أنواعِ النَّظَرِ وأفضَلُها، وهو أعلى مراتِبِ الهِدايةِ؛ فقابَلَ بذلك قَولَهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾؛ فالنَّظَرُ إلى الرَّبِّ سُبحانَه مُرادٌ مِن هذَينِ الموضِعَينِ [أي قولِه: ﴿يَنظُرُونَ﴾ هنا وفي الآيةِ «٢٣»] ولا بُدَّ؛ إمَّا بخُصوصِه، وإمَّا بالعُمومِ والإطلاقِ، ومَن تأمَّلَ السِّياقَ لم يَجِدِ الآيتَينِ تحتَمِلانِ غيرَ إرادةِ ذلك، خُصوصًا أو عُمومًا). ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) (١/ ٣٣).

وقال السعدي: (﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى ما أعَدَّ اللهُ لهم مِنَ النَّعيمِ، ويَنظُرونَ إلى وَجهِ رَبِّهم الكريمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).

وقيل: المرادُ: أنَّهم يُشاهِدونَ الكُفَّارَ في العذابِ والإهانةِ، وممَّن قال به: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والبغوي، والرازي، والرَّسْعَني، والبقاعي، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩٥)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحَسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ =

﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾.

أي: هل جُوزِيَ الكُفَّارُ على ما كانوا يَفعَلونَه في الدُّنيا حينَ يُعَذِّبُهم اللهُ في النَّارِ[1]؟!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ: أنَّه إذا كان هذا حالَ بَعضِ الَّذين أجرَموا مع بَعضِ ضَعَفةِ المُؤمِنينَ، وكذلك حالُ بَعضِ الأُمَمِ مع رُسُلِها؛ فإنَّ الدَّاعِيةَ إلى اللهِ تعالى يجِبُ عليه ألَّا يَتأثَّرَ بسُخريةِ أحدٍ منه، وأن يَعلَمَ أنَّه على سَنَنِ غَيرِه مِنَ الدُّعاةِ إلى اللهِ تعالى، وأنَّ اللهَ تعالى سيَنتَصِرُ له إمَّا عاجِلًا وإمَّا آجِلًا[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ فيه عِظةٌ شَديدةٌ لِمَن يتضَحَّكُ مِنَ المؤمِنينَ، ومِمَّن يتَّخِذونَه ضُحْكةً؛ إذْ هو شيءٌ من أخلاقِ الكُفَّارِ، فإذا تشَبَّه بهم أهلُ الإيمانِ خِيفَ عليهم أن يَكونوا مِثْلَهم؛ كما في الحديثِ: ((مَن تَشَبَّه بقَومٍ فهو منهم))[3]. وإنَّما يَضحَكونَ في الآخِرةِ -واللهُ

= ٢٢٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٠٩).

ومِمَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: يَنظُرونَ إلى ما أُوتوا مِن النَّعيمِ، وما أُعِدَّ لهم مِن الثَّوابِ، وما حلَّ بالمجرِمين مِن عذابِ الجحيمِ: القاسميُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٦٤).

(٣) أخرجه أبو داودَ (٤٠٣١) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٥١١٤) مطوَّلًا من حديثِ ابنِ عُمرَ رضيَ الله عنهما. قال الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٠٣١): (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ =

أعلَمُ-؛ لأنَّه جزاءٌ لهم وعقوبةٌ لِما كان منهم إليهم في الدُّنيا، فيُصيبُهم مِن مَضَضِه ما كان يُصيبُ المؤمِنينَ في الدُّنيا؛ فصار كالاقتِصاصِ؛ فعلى المَضحوكِ منه أن يتَّقِيَ اللهَ، ولا يَضَعَ نَفْسَه هذا الموضِعَ، وعلى الضَّاحِكِ أن يجتَنِبَه في الجِدِّ والهَزْلِ؛ لأنَّه مِن عظيمِ الذَّنْبِ وفِعلِ الظَّالِمينَ، ومَن قد نَسِيَ أمرَ مَعادِه، وما هو مُفْضٍ إليه[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ قاعدةٌ ثابتةٌ لأتْباعِ الرُّسُلِ: «أنَّ أهلَ الباطِلِ يُلَقِّبُون أهلَ الحقِّ بألقابِ السُّوءِ؛ تنفيرًا للنَّاسِ عن قَبُولِهم»، واللهُ تبارك وتعالى قد جَعَل لكلِّ نبيٍّ عدوًّا مِن المجرِمينَ، والعدوُّ مِن المجرِمينَ عَدوٌّ للنَّبيِّ بوَصْفِه، بدليلِ أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قبْلَ أنْ تأتيَه الرِّسالةُ هو عندَ العربِ الصَّادقُ الأمينُ، ويَرون أنَّه مِن أفضلِ بني هاشِمٍ، وأقوَمِهم بالعَدْلِ؛ فلمَّا جاء بالحَقِّ صار عندَهم الخائِنَ الكذوبَ! فإذا كان هؤلاء المجرِمون يُعادُونَ الرُّسُلَ بوصْفِهم؛ فمعنى ذلك أنَّ هذه المُعاداةَ ستنتقلُ إلى مَن تابَعَ هؤلاء الرُّسُلَ؛ لأنَّ المعنى الَّذي حَصَلَتْ به العداوةُ موجودٌ أيضًا في أتْباعِ الرُّسُلِ، ونستفيدُ مِن هذا: طَمْأَنةَ أتْباعِ الرُّسُلِ، وتثبيتَهم على أنَّهم سيَنالُهم مِن ألقابِ السُّوءِ ومِن المُعاداةِ مِثلُ ما نال الرُّسُلَ؛ فعليهم أنْ يُقابِلوا ذلك بالصَّبرِ والثَّباتِ والقوَّةِ، لا أنْ يَنخَذِلوا، بل عليهم أنْ يَكونوا كما كان مَتبوعُهم الَّذي أَمَرَه اللهُ قائلًا: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ

= كما في ((بلوغ المرام)) لابن حجر (٤٣٧)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٣٥٨)، وجوَّده ابنُ تيميَّةَ في ((مجموع الفتاوى)) (٢٥/ ٣٣١)، وصحَّح إسنادَه العِراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٣٥٩)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٧/ ١٢١)، وحسَّن إسنادَه ابنُ حجرٍ في ((فتح الباري)) (١٠/ ٢٨٢)، وقال الذهبيُّ في ((سير أعلام النبلاء)) (١٥/ ٥٠٩): (إسنادُه صالحٌ).

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٩٠، ٤٩١).

مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾(١) [الأحقاف: ٣٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ أنَّ المجرمَ في أكثرِ القرآنِ: الكافِرُ، وقد حقَّقَه في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ تحريمُ السُّخْريةِ بالمُؤمِنينَ، والضَّحِكِ منهم، والتَّغامُزِ عليهم(٣).

٣- قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾، أهلُ الرَّجُلِ: زَوجُه وأبناؤه، وذُكِرَ الأهلُ هنا؛ لأنَّهم يُنبسَطُ إليهم بالحديثِ؛ فلذلك قيل: ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ﴾ دونَ (إلى بُيوتِهم)(٤).

٤- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾، أي: رَجَعوا مُلْتَذِّينَ بذِكرِهم بالسُّوءِ والسُّخريةِ منهم، وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم كانوا لا يَفعَلون ذلك بمَرأًى مِن المارِّينَ بهم، ويَكتَفون حِينَئذٍ بالتَّغامُزِ(٥).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ * عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ تأمَّلْ كيف قابَلَ سُبحانَه ما قاله الكُفَّارُ في أعدائِهم في الدُّنيا وسَخِروا به منهم، بضِدِّه في القيامةِ؛ فإنَّ الكُفَّارَ كانوا إذا مَرَّ بهم المؤمِنونَ يَتغامَزونَ ويَضحَكونَ منهم: ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾، فقال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٩).

ﱡﭐ ﭑ ﭒ ﱠ؛ مُقابَلةً لتَغامُزِهم وضَحِكِهم منهم[١]، فأفادت فاءُ السَّببيَّةِ في قوله: ﱡﭐ ﭐ ﱠ أنَّ استِهزاءَهم بالمُؤمِنين في الدُّنيا كان سَببًا في جَزائِهم بِما هو مِن نَوعِه في الآخِرةِ؛ إذ جعَلَ اللهُ الَّذين آمنوا يَضحَكون مِن المُشرِكين، فكان جَزاءً وِفاقًا[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ * عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ أنَّ المؤمِنينَ يُسَرُّونَ بعَذابِ أعداءِ اللهِ، فعذابُهم رحمةٌ للمؤمِنينَ[٣].

٧- قَولُ مَن قال: «إنَّ الثَّوابَ في اللُّغةِ يختَصُّ بجَزاءِ الخَيرِ بالخَيرِ» غيرُ صوابٍ، بل يُطلَقُ الثَّوابُ أيضًا على جزاءِ الشَّرِّ بالشَّرِّ، ومنه قَولُه تعالى: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[٤]، فالثَّوابُ هو المُجازاةُ على العمَلِ؛ إنْ خَيرًا فخَيرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ، حتَّى الإثابةُ على الشَّرِّ تُسَمَّى ثوابًا[٥]. وقيل: جُوِّز حملُه عليه هنا على أنَّ المرادَ التَّهكُّمُ[٦].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ * وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٤).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ التَّربويةِ (ص: ٤٩٢-٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣١٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨٤).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَسليةِ المُؤمنينَ، وتَقويةِ قُلوبِهم بِما أُعِدَّ للأبْرارِ في الجَنَّةِ[١].

وقيل: هو حِكايةٌ لبَعضِ قَبائحِ مُشركي قُرَيشٍ، وهو مِن جُملةِ القَولِ الَّذي يُقالُ يومَ القِيامةِ للفُجَّارِ المَحكيِّ بقَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٧]؛ لأنَّه مُرتَبطٌ بقَولِه في آخِرِه: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾؛ جِيءَ بها تَمهيدًا لذِكرِ بَعضِ أَحوالِ الأبْرارِ في الجَنَّةِ[٢].

- وإذا كانتْ جُملةُ ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨] الآياتِ، مَحكيَّةً بالقَولِ الواقِعِ في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٧] إلى هُنا؛ فجُملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾ مُتَّصلةٌ بها، والتَّعبيرُ عنهم بـ﴿ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ على طَريقةِ الالْتِفاتِ؛ إذ مُقتَضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ لهم: إنَّكم كُنتم مِن الَّذين آمنوا تَضحَكون، وهكذا على طَريقِ الخِطابِ.

وإنْ كانتْ تلك الجُملةُ ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨] وما بعْدَها اعتراضًا، فهذه الجُملةُ مَبدأُ كَلامٍ مُتَّصِلٍ بقَولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٦] واقِعٍ مَوقِعَ بَدَلِ الاشتِمالِ[٣] لمَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٦]، باعتِبارِ ما جاءَ في آخِرِ هذا مِن قولِه: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾؛ فالتَّعبيرُ بـ﴿ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ إذَنْ جارٍ على مُقتَضى الظَّاهِرِ، وليس بالْتِفاتٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٩).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٩).

- والافتِتاحُ بـ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ بصورةِ الكَلامِ المُؤكَّدِ؛ لإفادةِ الاهتِمام بالكَلامِ، وذلك كَثيرٌ في افتِتاحِ الكَلامِ المُرادِ إعْلانُه؛ ليَتوجَّهَ بذلك الافتِتاحِ جَميعُ السَّامِعينَ إلى استِماعِه؛ للإشْعارِ بأنَّه خبَرٌ مُهمٌّ[1].

- وعبَّرَ بالمَوصولِ وهذه الصِّلةِ: ﴿ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ ما أُخبِرَ به عنهم هو إجْرامٌ، وليَظهَرَ مَوقِعُ قولِه: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[2] [المطففين: ٣٦].

- وتَقديمُ الجارِّ والمَجرورِ في قولِه: ﴿كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ إمَّا للقَصْرِ؛ إشْعارًا بغايةِ شَناعةِ ما فَعَلوا، أي: كانوا مِن الَّذين آمنوا يَضحَكون، مع ظُهورِ عدَمِ استِحقاقِهم لذلك. أو لِمُراعاةِ الفَواصِلِ[3].

- ويُؤذِنُ تَركيبُ ﴿كَانُواْ ... يَضۡحَكُونَ﴾ بأنَّ الإجْرامَ -وهو ارتِكابُ الجُرْمِ، وهو: الإثْمُ العَظيمُ- صِفةٌ مُلازِمةٌ لهم في الماضي. وصَوْغُ ﴿يَضۡحَكُونَ﴾ بِصيغةِ المُضارعِ؛ للدَّلالةِ على تَكرُّرِ ذلك منهم، وأنَّه دَيدَنٌ لهم[4].

- قولُه: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ تَكريرُ فِعلِ ﴿ٱنقَلَبُواْ﴾ مِن النَّسجِ الجَزلِ في الكَلامِ؛ كان يَكْفي أنْ يُقالَ: (وإذا انقَلَبوا إلى أَهلِهم فَكِهوا)، أو (إذا انقَلَبوا إلى أَهلِهم كانوا فاكِهين)؛ وذلك لِما في إعادةِ الفِعلِ مِن زيادةِ تَقريرِ مَعناهُ في ذِهنِ السَّامِعِ؛ لأنَّه ممَّا يَنبَغي الاعتِناءُ به، ولزيادةِ تَقريرِ ما في الفِعلِ من إفادةِ التَّجدُّدِ؛ حتَّى يَكونَ فيه استِحضارُ الحالةِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢١٢).

- قولُه: ﴿فَكِهِينَ﴾، وفي قراءةٍ ﴿فَاكِهِينَ﴾[١] اسمُ فاعِلِ فَاكِهٍ، وهو مِن (فَكِهَ) -مِن باب فَرِحَ- إذا مَزَحَ وتَحدَّثَ فأَضحَكَ، والمَعْنى: فاكِهينَ بالتَّحدُّثِ عن المُؤمنينَ؛ فحُذِفَ مُتعَلَّقُ ﴿فَاكِهِينَ﴾؛ للعِلمِ بأنَّه مِن قَبيلِ مُتعَلَّقاتِ الأفعالِ المَذكورةِ معه[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ فيه تأكيدُ الخبَرِ بحرفِ التَّأكيدِ (إنَّ) ولامِ الابتِداءِ؛ لقَصْدِ تَحقيقِ الخَبَرِ، أي: نَسَبوا المُسلِمينَ ممَّن رَأَوهم ومِن غَيرِهم إلى الضَّلالِ بطَريقِ التَّأكيدِ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾، أي: قالوا ذلك، والحالُ أنَّهم ما أُرسِلوا مِن جِهةِ اللهِ تعالى مُوكَّلينَ بهم، يَحفَظون عليْهم أحوالَهم، ويُهَيْمِنون على أعمالِهم، ويَشهَدون برُشْدِهم وضَلالِهم، وهذا تَهكُّمٌ بهم، وإشْعارٌ بأنَّ ما اجْتَرَؤوا عليه مِن القَولِ مِن وَظائفِ مَن أُرسِلَ مِن جِهتِه تعالى؛ فإنَّ شِدَّةَ الحِرصِ على أنْ يَقولوا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ كُلَّما رَأَوهم، يُشبِهُ حالَ المُرسَلِ ليَتتبَّعَ أحوالَ أحَدٍ، ومِن شأنِ الرَّسولِ الحِرصُ على التَّبليغِ، والخَبَرُ مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ بالمُشرِكين، أي: لم يَكونوا مُقيَّضينَ للرَّقابةِ عليهم، والاعتِناءِ بصَلاحِهم، فمَعْنى الحِفظِ هنا: الرَّقابةُ؛ ولذلك عُدِّيَ بحرفِ (على)؛ ليَتسلَّطَ النَّفيُ على الإرسالِ والحِفظِ ومَعْنى الاستِعلاءِ الَّذي أفادَه حرفُ (على) فيَنتَفيَ حالُهم المُمَثَّلُ. وقد جُوِّزَ أنْ يَكونَ ذلك مِن جُملةِ قولِ المُجرِمين، كأنَّهم قالوا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾، وما أُرسِلوا علينا حافِظينَ؛

---

(١) قرأها ﴿فَكِهِينَ﴾ أبو جعفرٍ وحفصٌ، وقرأها الباقونَ بإثباتِ ألِفٍ ﴿فَاكِهِينَ﴾. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٤).

إنْكارًا لصَدِّهم عن الشِّركِ، ودُعائِهم إلى الإسلامِ، وإنَّما قيلَ: (عليْهم)؛ نَقلًا له بالمَعنى، كما في قولِك: حَلَفَ لَيَفعَلَنَّ؛ لا بالعِبارةِ، كما في قولِك: حَلَفَ لأَفعَلَنَّ[1].

- وأيضًا تَقديمُ المَجرورِ على مُتعَلَّقِه في قولِه: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾؛ للاهتِمامِ بمُفادِ حرْفِ الاستِعلاءِ وبمَجرورِه، مع الرِّعايةِ على الفاصِلةِ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ * عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾

- تَقديمُ (الْيَوْمَ) على ﴿يَضۡحَكُونَ﴾ للاهتِمامِ به؛ لأنَّه يومُ الجَزاءِ العَظيمِ الأَبَديِّ[3].

- وفي قولِه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ قُدِّمَ المُسنَدُ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ دونَ أنْ يُقالَ: (فاليَومَ يَضحَكُ الَّذين آمَنوا)؛ لإفادةِ الحَصْرِ، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ[4] في مُقابَلةِ قولِه: ﴿كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾[المطففين: ٢٩]، أي: زالَ استِهزاءُ المُشرِكين بالمُؤمِنينَ، فاليَومَ المُؤمِنونَ يَضحَكون مِن الكُفَّارِ، دُونَ العَكسِ[5].

- وتَقديمُ ﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ على مُتعَلَّقِه -وهو ﴿يَضۡحَكُونَ﴾- للاهتِمامِ بالمَضحوكِ منهم؛ تَعجيلًا لإساءتِهم عندَ سَماعِ هذا التَّقريعِ[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وقيل: تَقديمُ الجارِّ والمَجرورِ ﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ للقَصْرِ؛ تَحقيقًا للمُقابَلةِ، أي: فاليَومَ هم مِن الكُفَّارِ يَضحَكون، لا الكُفَّارُ منهم كما كانوا يَفعَلون في الدُّنيا[١].

- وقولُه: ﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ، عُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (منهم يَضحَكون)؛ لِما في الوَصفِ المُظهَرِ مِن الذَّمِّ للكُفَّارِ[٢].

- ومَفعولُ ﴿يَنظُرُونَ﴾ مَحذوفٌ دَلَّ عليه قولُه: ﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾، تَقديرُه: يَنظُرونَهم، أي: يُشاهِدونَ المُشرِكينَ في العَذابِ والإهانةِ[٣]. وذلك على قولٍ.

- قولُه: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ فَذْلَكةٌ[٤] لِمَا حُكِيَ مِن اعتِداءِ المُشرِكين على المُؤمِنينَ، وما ترَتَّبَ عليه مِن الجَزاءِ يومَ القِيامةِ؛ فالمَعنى: فقدْ جُوزيَ الكُفَّارُ بما كانوا يَفعَلونَ، وهذا مِن تَمامِ النِّداءِ الَّذي يُعلَّقُ به يَومَ القِيامةِ[٥].

- قولُه: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ، أي: يَقولونَ: هل ثُوِّبَ؟ وهو استِفهامٌ بمعْنى التَّقريرِ للمؤمنينَ، أي: هلْ جُوزوا بها؟ فهو استفهامٌ تَقريريٌّ وتَعجيبٌ مِن عدَمِ إفلاتِهم منه بعْدَ دُهورٍ. والخِطابُ بهذا الاستِفهامِ مُوَجَّهٌ إلى غَيرِ مُعيَّنٍ، بلْ إلى كُلِّ مَن يَسمَعُ ذلك النِّداءَ يَومَ القِيامةِ[٦].

- قولُه: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾، ليس الجَزاءُ هو ﴿مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدَّم تعريفُها (ص: ١١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٥، ٢١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٨).

بل عبَّرَ عنه بهذه الصِّلةِ؛ لمُعادَلتِه شِدَّةَ جُرْمِهم على طَريقةِ التَّشبيهِ البَليغِ، أو على حَذفِ مُضافٍ تَقديرُه: مِثلَ، أو جَزاءَ أو عِقابَ ما كانوا يَفعَلونَ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ على نَزْعِ الخافِضِ، وهو: (باءُ السَّبَبيَّةِ)، أي: بما كانوا يَفعَلون[1].

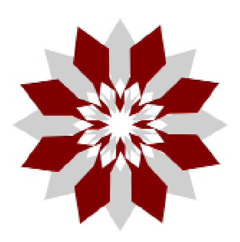
- وفي هذه الجُملةِ ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ مُحسِّنُ بَراعةِ المَقطَعِ[2]؛ لأنَّها جامِعةٌ لِما اشتَمَلَتْ عليه السُّورةُ[3].

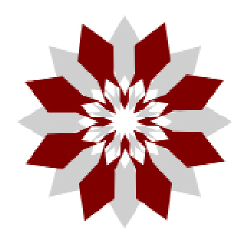


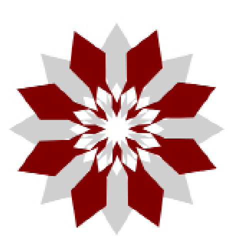
(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٦).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٦).

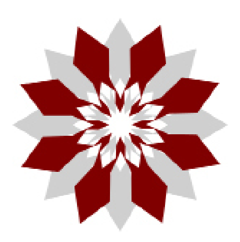


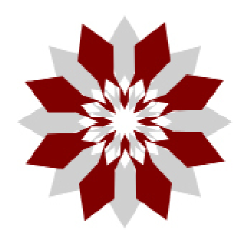


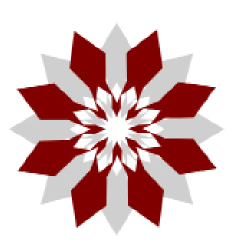




تَفْسِيرُ
سُورَةِ الانشِقاقِ







سورةُ الانشِقاقِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ: سورةَ الانشِقاقِ(١).

وسُمِّيَت أيضًا سورةَ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾(٢):

فعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن سَرَّه أن يَنظُرَ إلى يومِ القيامةِ كأنَّه رَأْيُ عَينٍ فلْيَقرَأْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾))(٣).

وعن أبي رافِعٍ، قال: ((صَلَّيتُ مع أبي هُرَيرةَ العَتَمةَ، فقَرَأَ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ فسجَدَ، فقُلتُ له(٤). قال: سجَدْتُ خَلْفَ أبي القاسِمِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلا أزالُ أسجُدُ فيها حتَّى ألقاه))(٥).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سَجَدْنا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

---

(١) قال ابنُ عاشورٍ: (سمَّاها المفسِّرونَ وكتَّابُ المصاحفِ «سورةَ الانشِقاقِ» باعتبارِ المعنى). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٧).

(٢) وَجهُ التَّسميةِ: افتِتاحُها بقَولِه تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٧).

(٣) أخرجه الترمذيُّ (٣٣٣٣)، وأحمدُ (٤٨٠٦).

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٣٣)، وجوَّده ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٥٦٤)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٨/ ٩٦)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٨/ ٤٢٤).

(٤) وفي روايةِ مسلم: ((فقُلتُ: تَسجُدُ فيها؟ فقالَ: نَعَمْ)).

(٥) أخرجه البخاريُّ (٧٦٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٥٧٨).

في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ و﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾))[١].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

١- مَن قَرَأها فكأنَّه يَنظُرُ إلى يوم القيامةِ رأيَ العَينِ:

كما في حديثِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما المتقدِّمِ.

٢- فيها مَوضِعُ سَجْدةٍ:

لِما تقدَّمَ في حديثِ أبي هُرَيرةَ، وذلك عندَ قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ﴾[٢].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الانشِقاقِ مَكِّيَّةٌ، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

وصفُ يومِ القيامةِ، وأحوالِ النَّاسِ فيه[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (٥٧٨) (١٠٨).

(٢) وهذا مذهبُ الجمهورِ مِن الحنفيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ، وهو روايةٌ عن مالكٍ، واختاره ابنُ حزم. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٢/ ١٠٤)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥٩)، ((الإقناع)) للحَجَّاوي (١/ ١٥٥)، (شرح مختصر خليل)) للخرَشي (١/ ٣٥٠)، ((المحلى)) لابن حزم (٣/ ٣٢٢).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٩)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٧)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣٣١). ويُنظر أيضًا: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٧١).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- ذِكرُ أهوالِ يومِ القيامةِ.

٢- الحديثُ عن أحوالِ السُّعَداءِ والأشقياءِ يومَ القيامةِ.

٣- تحذيرُ الكافِرينَ مِن سُوءِ عاقِبةِ إصرارِهم على كُفْرِهم وفُسوقِهم.



الآيات (١-٦)

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ۝٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَأَذِنَتۡ﴾: أي: سَمِعَت وأطاعت؛ مِنَ الأَذَنِ، وهو الاستِماعُ للشَّيءِ، والإصغاءُ إليه[(١)].

﴿وَحُقَّتۡ﴾: أي: وحُقَّ لها أن تُطيعَ رَبَّها؛ مِن قَولِهم: هو محقوقٌ بكذا وحقيقٌ به، وأصلُ (حقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[(٢)].

﴿مُدَّتۡ﴾: أي: بُسِطَت باندِكاكِ جِبالِها وتَسويتِها، وأصلُ (مدد): يدُلُّ على اتِّصالِ شَيءٍ بشَيءٍ[(٣)].

﴿وَتَخَلَّتۡ﴾: أي: خلَتْ عمَّا كان فيها غايةَ الخُلُوِّ، ولم تَتمسَّكْ منه بشَيءٍ، حتَّى لم يَبْقَ في باطِنِها شيءٌ، وأصلُ (خلو): يدُلُّ على تَعَرِّي الشَّيءِ مِن الشَّيءِ[(٤)].

﴿كَادِحٌ﴾: أي: ساعٍ بعَمَلِك، والكادِحُ: العامِلُ بشِدَّةٍ وسُرعةٍ واجتهادٍ، والكَدْحُ:

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٦)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩٧).

عَمَلُ الإنسانِ وجُهدُه في الأمرِ مِن الخَيرِ والشَّرِّ حتَّى يَكدَحَ ذلك فيه، أي: يُؤَثِّرَ، وأصلُ (كدح): يدُلُّ على تأثيرٍ في شيءٍ(١).

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالإخبارِ عن أهوالِ القيامةِ، فقال تعالى: إذا تَشَقَّقت السَّماءُ يومَ القيامةِ وتصَدَّعَت، واستمَعَت لأمرِ رَبِّها وأطاعَتْه في تشَقُّقِها، وحُقَّ لها أن تستمِعَ لأمْرِه وتُطيعَه، وإذا بُسِطَت الأرضُ فكانت واسِعةً مُسْتَوِيةً لا انخِفاضَ فيها ولا ارتِفاعَ، وألقَت ما في بَطْنِها من الأمواتِ إلى سَطْحِها، واستَمَعَت لأمرِ رَبِّها وأطاعَتْه، وحُقَّ لها ذلك- إذا حَدَث ذلك رأَيْتُم أعمالَكم مِن خيرٍ أو شَرٍّ.

ثمَّ قال تعالى موجِّهًا نداءَه إلى الإنسانِ: يا أيُّها الإنسانُ إنَّك عامِلٌ ومُجِدٌّ في عَمَلِك، وساعٍ إلى ربِّك بعَمَلِك لا محالةَ ولا مَفَرَّ، فتَلْقَاه بعَمَلِك ويُجازيك عليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾.

أي: إذا تَشَقَّقت السَّماءُ يومَ القيامةِ وتصَدَّعَت(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٦].

﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢﴾.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٩).
قال البِقاعي: (ذلك بعدَ القيامِ مِن القُبورِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٣٥).

أي: واستمَعَت لأمرِ ربِّها وأطاعَتْه في تشَقُّقِها، وحُقَّ لها أن تستَمِعَ لأمْرِه وتُطيعَه؛ فهو ربُّها الَّذي خلَقَها ويَملِكُها ويُدَبِّرُ أمْرَها[١].

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بدأ بالعالَمِ العُلويِّ؛ لِكَونِه أشرَفَ لأنَّه أعلى مكانةً ومَكانًا؛ ثَنَّى بالسُّفْليِّ[٢].

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ٣﴾.

أي: وإذا بُسِطَت الأرضُ يومَ القيامةِ ومُطَّت بعْدَ نَسْفِ جبالِها، فتكونُ أرضًا واسِعةً مُسْتَوِيةً لا انخِفاضَ فيها ولا ارتِفاعَ ولا انثِناءَ، وتَسَعُ النَّاسَ جَميعًا على كَثْرَتِهم[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٠-٢٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٩)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٥، ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٩).
قال ابنُ عطية: (يحتَمِلُ أن يريدَ: وحُقَّ لها أن تَنْشَقَّ؛ لشِدَّةِ الهَولِ وخَوفِ اللهِ تعالى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٦).
وقال البِقاعي: (﴿وَحُقَّتْ﴾ بالبناءِ للمَفعولِ، بمعنى: أنَّها مَجبولةٌ على أنَّ ذلك حَقٌّ عليها ثابتٌ لها، فهي حقيقةٌ به؛ لأنَّها مَربوبةٌ له سُبحانَه، وكُلُّ مَربوبٍ فهو حقيقٌ بالانقيادِ لرَبِّه، وهي لم تَزَلْ مُطيعةً له في ابتدائِها وانتهائِها، لكِنْ هناك يكونُ الكَشْفُ التَّامُّ لجميعِ الأنامِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٣٦).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٩، ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٠).
قال ابن عاشور: (... ومِن معاني المدِّ أن يُزالَ تَكويرُها بتمَدُّدِ جِسْمِها حتَّى تصيرَ إلى =

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وقال سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَجمَعُ اللهُ يومَ القيامةِ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ في صعيدٍ واحدٍ، فيُسمِعُهم الدَّاعي، ويَنفُذُهم البَصَرُ[١]))[٢].

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤)﴾.

أي: وألقَتِ الأرضُ ما في بَطْنِها مِن الأمواتِ إلى سَطْحِها، فخلَتْ عمَّا كان فيها، ولم يَبْقَ فيها أحدٌ منهم[٣].

= الاستِطالةِ بعدَ التَّكويرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٠).

(١) أي: يُحيطُ بهم بَصَرُ النَّاظِرِ لا يَخفى عليه منهم شَيءٌ؛ لاستواءِ الأرضِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٥/ ٣٥١).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٧١٢)، ومسلمٌ (١٩٤) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٠).

ومِمَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ إلقاءُ الأرضِ ما في جَوفِها مِن الأمواتِ: ابنُ جرير، وابنُ عطيَّةَ ونسَبَه للجُمهورِ، وقال به ابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، وسعيدٌ، وقَتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤٥٥).

وقيل: إلقاءُ الأرضِ يَعُمُّ الأمواتَ والكُنوزَ. ومِمَّن ذهب إليه: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والزمخشري، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٣٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧).

وضَعَّفه ابنُ عَطيَّةَ؛ حيث قال: (﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾: يريدُ الموتى. قاله الجمهورُ. وقال الزَّجَّاجُ: =

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾.

أي: واستَمَعَت لأمرِ رَبِّها، وأطاعَتْه في إخراجِ ما في بَطْنِها من الأمواتِ، وحُقَّ لها أن تستَمِعَ لأمْرِه وتُطيعَه؛ فهو رَبُّها الَّذي خلَقَها ويَملِكُها ويُدَبِّرُ أَمْرَها[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾.

أي: يا أيُّها الإنسانُ إنَّك عامِلٌ أعمالًا تجتَهِدُ فيها سواءٌ كانت خيرًا أو شرًّا، ثمَّ تَرجِعُ إلى رَبِّك فتَلْقاه بعَمَلِك ويُجازيك عليه[2].

= ومِن الكُنوزِ. وهذا ضعيفٌ؛ لأنَّ ذلك يكونُ وقتَ خُروجِ الدَّجَّالِ، وإنَّما تُلقي يومَ القيامةِ الموتى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٦).

وقال قَتادةُ في قولِه: ﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ﴾: أخرجَتْ أثقالَها وما فيها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٣).

وقال ابنُ عاشور: (قَولُه: ﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا﴾ صالحٌ للحَمْلِ على ما يُناسِبُ هذه الاحتِمالاتِ في مَدِّ الأرضِ، ومحتَمِلٌ لأن تنقَذِفَ مِن باطِنِ الأرضِ أجزاءٌ أُخرى يكونُ لانقذافِها أثَرٌ في إتلافِ الموجوداتِ؛ مِثلُ البراكينِ، واندِفاعِ الصُّخورِ العَظيمةِ، وانفِجارِ العُيُونِ إلى ظاهِرِ الأرضِ، فيكونُ طُوفانٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٣، ٢٣٤)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٥، ٣٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٧).

قيل: جوابُ ﴿إِذَا﴾ محذوفٌ، تقديرُه: إذا وقَعَت تلك الأمورُ قابَلَ الإنسانُ رَبَّه، أو: رأى ما عَمِلَه مِن خيرٍ أو شَرٍّ، أو رأى ثوابَه وعِقابَه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٤-٢٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٠).

وقيل غيرُ ذلك. ويُنظر ما يأتي في بلاغة الآيات (ص: ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٦)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١١).

قال ابنُ جُزَي: (الكَدْحُ في اللُّغةِ هو: الجِدُّ والاجتِهادُ والسُّرعةُ، فالمعنى: إنَّك في غايةِ =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ

= الاجتِهادِ في السَّيرِ إلى رَبِّك؛ لأنَّ الزَّمانَ يطيرُ، وأنت في كلِّ لحظةٍ تَقطَعُ حَظًّا مِن عُمُرِك القَصيرِ، فكأنَّك سائِرٌ مُسرِعٌ إلى الموتِ، ثمَّ تلاقي ربَّك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٤).

والخِطابُ هنا لجميعِ النَّاسِ لا لإنسانٍ بعَيْنِه. وممَّن ذكر ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ القيِّم، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٦)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢١).

وقولُه: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ يعودُ على قولِه: ﴿رَبِّكَ﴾ وأنَّ المعنى: «فمُلاقِي ربِّك»: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن جُزَي، والسعديُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ لجمهورِ المتأوِّلينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٠، ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٧).

وممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ يعودُ على العملِ، أي: فمُلاقٍ عمَلَك: الزَّجَّاجُ، ومكِّيٌّ، والواحدي، والنسفي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٠٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٥٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦١٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٩٩).

ونحو هذا القولِ قولُ مَن قال: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ أي: مُلاقي جزاءِ عمَلِك، خيرًا كان أو شرًّا. ومنهم: البغويُّ، والخازن، والعُلَيمي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٢١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨٨).

قال ابنُ القيِّم: (﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ إنْ عاد الضَّميرُ على العَمَلِ فهو رؤيتُه في الكتابِ مَسطورًا مُثبَتًا، وإن عاد على الرَّبِّ سُبحانَه وتعالى فهو لقاؤه الَّذي وَعَد به). ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) (ص: ٢٨٨).

وقال ابن كثير: (قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ أي: ساعٍ إلى ربِّك سَعْيًا، وعامِلٌ عمَلًا ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ ثمَّ إنَّك ستَلْقى ما عَمِلْتَ مِن خَيرٍ أو شرٍّ... ومِن النَّاسِ مَن يُعيدُ الضَّميرَ على قولِه: ﴿رَبِّكَ﴾ أي: فمُلاقٍ ربَّك، ومعناه: فيُجازيك بعَمَلِك، ويُكافئك على سَعْيِك. وعلى هذا فكِلا القولَينِ مُتلازِمٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٦).

﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مِمَّا هو جَديرٌ بالتَّنبيهِ عليه أنَّه إذا كانت السَّماءُ مع عِظَمِ جِرْمِها، والأرضُ مع مِساحةِ أَصْلِها (أَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ) مع أنَّها لم تتحَمَّلْ أمانةً، ولن تُسأَلَ عن واجِبٍ؛ فكيف بالإنسانِ على ضَعْفِه، وقد تحَمَّلَ أمانةَ التَّكليفِ؟! كما قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [النازعات: ٢٧]، وكقولِه تعالى: ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢]؛ فكان أحَقَّ بالسَّمعِ والطَّاعةِ في كَدْحِه إلى أن يَلْقى رَبَّه لِما يُرْضيه(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ إثباتُ لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويؤخَذُ مِن ذلك: أنَّه يَجِبُ على الإنسانِ أنْ يَسْتَعِدَّ لِمُلاقاةِ اللهِ، وأنْ يَعْرِفَ كيف يُلاقي اللهَ: هل يُلاقيه على حالٍ مَرْضِيَّةٍ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ، أو على العَكسِ؟ ففَتِّشْ نفْسَك، واعرِفْ ما أنت عليه(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ حَثٌّ على الاجتِهادِ في الإحسانِ في العَمَلِ؛ لأنَّ مَن أيقَنَ بأنَّه لا بُدَّ له مِن العَرْضِ على المَلِكِ أفرَغَ جُهْدَه في العَمَلِ بما يَحمَدُه عليه عندَ لِقائِه(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ أنَّ الإنسانَ لا بُدَّ أنْ يكونَ دائمًا في عملٍ، يجتازُ مِن عَمَلٍ إلى عَمَلٍ، ليس في حياتِه عُطْلةٌ إطلاقًا؛ فالإنسانُ دَؤوبٌ كادِحٌ إلى أنْ يَلْقى اللهَ عزَّ وجلَّ، فقد أَتَتِ «الفاءُ» بعدَ

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٦٩).

(٢) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٤٠٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٩).

قوله: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ إشارةً إلى أنَّ هذا الكَدْحَ سوف يَسْتَمِرُّ إلى مُلاقاةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وذلك بحُلولِ الأَجَلِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الأرضَ كُرَويَّةٌ؛ لأنَّ هذا إنَّما يكونُ يومَ القيامةِ، وهو يدُلُّ على أنَّها قبْلَ ذلك ليست ممدودةً، بل هي كُرَويَّةٌ، وهذا لا يعارِضُ قولَه تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠]؛ لأنَّ سَطْحَها هو باعتبارِ المشاهَدةِ، فأنت الآنَ إذا وقفتَ على الأرضِ تَجِدُها مُستَويةً إلى مَدِّ البَصَرِ(٢).

٢- في قَولِه -تعالى- عن السَّماءِ والأرضِ: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أنَّ الكونَ كُلَّه مُطِيعٌ مُنقادٌ لأوامِرِ اللهِ(٣)؛ فتأمَّلْ أيُّها الآدَميُّ البَشَرُ الضَّعيفُ كيف كانت هذه المخلوقاتُ العَظيمةُ تَسمَعُ وتُطيعُ لله عزَّ وجلَّ هذه الطَّاعةَ العظيمةَ في ابتداءِ الخَلْقِ، وفي انتهاءِ الخَلْقِ! في ابتداءِ الخَلْقِ قال: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وفي انتهاءِ الخَلْقِ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ حُقَّ لها أن تأذَنَ: تَسمَعَ وتُطيعَ(٤).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أنَّها بعدَ أن كانت لهم كِفاتًا أحياءً وأمواتًا، وبعدَ أن كانت لهم مِهادًا، لَفَظَتْهم وتخَلَّت عنهم، وهذا ما يَزيدُ في رَهبةِ الموقِفِ وشِدَّتِه والتَّضييقِ على العِبادِ؛ وأنْ لَا مَلْجَأَ لهم ولا مَنجَى إلَّا إلى اللهِ،

(١) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٠).

كما قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾(١) [القيامة: ١١، ١٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ أنَّ الخَلْقَ كلَّهم مَصيرُهم ومَرْجِعُهم إلى اللهِ على أيِّ طريقٍ سَلَكوا(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾

- (إذا) ظَرفٌ للزَّمانِ المُستَقبَلِ، والفِعلُ الَّذي في الجُملةِ المُضافةِ إليه (إذا) مُؤوَّلٌ بالمُستقبَلِ، وصِيغَ بالمُضِيِّ؛ للتَّنبيهِ على تَحقُّقِ وُقوعِه؛ لأنَّ أصلَ (إذا) القَطعُ بوُقوعِ الشَّرطِ(٣).

- وقُدِّمَ المُسنَدُ إليه -﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ و﴿ٱلْأَرْضُ﴾- على المُسنَدِ الفِعليِّ -﴿ٱنشَقَّتْ﴾ و﴿مُدَّتْ﴾- دُون أنْ يُقالَ: (إذا انشَقَّتِ السَّماءُ)، (وإذا مُدَّتِ الأرضُ)؛ لإفادةِ تَقَوِّي الحُكمِ، وهو التَّعليقُ الشَّرْطيُّ، أي: أنَّ هذا الشَّرطَ مُحقَّقُ الوُقوعِ، زِيادةً على ما يَقتَضيه (إذا) في الشَّرطيَّةِ مِن قَصدِ الجَزمِ بحُصولِ الشَّرطِ، بخِلافِ (إنْ)(٤).

- قولُه: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إليها؛ للإشْعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ؛ فالتَّعبيرُ بـ (رَبِّهَا) دُون غَيرِ ذلك مِن أسْماءِ اللهِ وطُرُقِ تَعريفِه؛ لِما يُؤذِنُ به وَصْفُ الرَّبِّ مِن المُلْكِ والتَّدْبيرِ(٥).

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢١٨، ٢١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٩).

- قولُه: ﴿وَحُقَّتْ﴾، أي: جُعِلَت حَقيقةً بالاستِماعِ والانقِيادِ، لكنْ لا بَعْدَ أنْ لم تَكُن كذلك، بلْ في نفْسِها وحَدِّ ذاتِها، مِن قَولِهم: هو مَحقوقٌ بكذا وحَقيقٌ به، والمَعْنى: انقادَتْ لرَبِّها، وهي حَقيقةٌ بذلك، لكنْ لا على أنَّ المُرادَ خُصوصيَّةُ ذاتِها مِن بيْنِ سائرِ المَقدوراتِ، بل خُصوصيَّةُ القُدرةِ القاهِرةِ الرَّبَّانيَّةِ الَّتي يَتأتَّى لها كُلُّ مَقدورٍ، ولا يَتخَلَّفُ عنها أمرٌ مِن الأُمورِ؛ فحَقُّ الجُملةِ أنْ تَكونَ اعتِراضًا مُقرِّرًا لِما قبْلَها، لا مَعطوفةً عليه[1].

- ومُتعلَّقُ (حُقَّتْ) مَحذوفٌ دَلَّ عليْه فِعلُ ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾، أي: وحُقَّتْ بذلك الانقِيادِ والتأثُّرِ، يُقالُ: حُقَّ فُلانٌ بكذا، أي: تَوجَّهَ عليْه حَقٌّ[2].

- قولُه: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ ذكَره مَرَّتَينِ؛ لأنَّ الأوَّلَ مُتَّصلٌ بالسَّماءِ، والثَّانيَ بالأرضِ، وإذا اتَّصَلَ بغيرِ ما اتَّصَلَ به الآخَرُ لا يكونُ تَكرارًا[3].

- قولُه: ﴿وَتَخَلَّتۡ﴾، أي: أَخرَجَتْ ما في باطِنِها، فلمْ يَبقَ منه شَيءٌ؛ لأنَّ فِعلَ (تَخلَّى) يدُلُّ على قُوَّةِ الخُلُوِّ عن شَيءٍ؛ لِما في مادَّة (التَّفَعُّلِ) مِن الدَّلالةِ على تَكلُّفِ الفِعلِ، كما يُقالُ: تَكرَّمَ فُلانٌ، إذا بالَغَ في الإكْرامِ، والمَعْنى: إنَّه لم يَبقَ ممَّا في باطِنِ الأرضِ شيءٌ[4].

- وتَكريرُ (إذا) في الآيتَينِ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾، ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾؛ لاستِقلالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٠).

كُلٍّ مِن الجُملتَين بنَوعٍ مِن القُدرةِ[1].

- وجَوابُ (إذَا) قيل: هو قولُه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ إلخ، وقولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ اعتراضٌ. وقيلَ: جَوابُ (إذَا) مَحذوفٌ؛ للتَّهويلِ، والإيماءِ إلى قُصورِ العِبارةِ عن بَيانِه، أو للتَّعويلِ على ما مَرَّ في سُورةِ (التَّكوير) و(الانفطار). وقيلَ: هو ما دَلَّ عليه قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾، تَقديرُه: لاقَى الإنسانُ كَدْحَه، وذلك على قولٍ. وقيلَ: هو قولُه تعالَى: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾، وما قبْلَه اعتراضٌ. وقيلَ: هو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ ...﴾ إلخ، بإضْمارِ القولِ، أي: يُقالُ: يا أيُّها الإنسانُ[2]، أو يكونُ قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ ...﴾ جوابَ (إذَا) باعتِبارِ ما فُرِّعَ عليه مِن قولِه: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾؛ فالمَعنى: إذا السَّماءُ انشَقَّتْ، وإذا الأرضُ مُدَّتْ؛ لاقَيتَ رَبَّك -أيُّها الإنسانُ- بعْدَ كَدْحِك لمُلاقاتِه؛ فكان قولُه: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ إدْماجًا[3] بمَنزلةِ الاعتِراضِ أمامَ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٢٢).

(٣) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغة، ويكونُ مرادُ البليغ غَرضينِ فيَقرنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعَلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: =

المَقصودِ. وجُوِّزَ أن يكونَ جوابُ (إذا) مَحذوفًا دَلَّ عليْه قولُه: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾، والتَّقديرُ: إذا السَّماءُ انشَقَّتْ... إلى آخِرِه، لاقَيتَ أيُّها الإنسانُ رَبَّك[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾

- الخِطابُ لجَميعِ النَّاسِ؛ فاللَّامُ في قولِه: ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ لتَعريفِ الجِنسِ، وهو للاستِغراقِ، كما دَلَّ عليه التَّفصيلُ في قولِه: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانشقاق: ٧] إلى قولِه: ﴿كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا﴾ [الانشقاق: ١٥]، والمَقصودُ الأوَّلُ مِن هذا وَعيدُ المُشرِكين؛ لأنَّهم الَّذين كَذَّبوا بالبَعثِ، فالخِطابُ بالنِّسبةِ إليهم زِيادةٌ للإنذارِ، وهو بالنِّسبةِ إلى المُؤمِنينَ تَذكيرٌ وتَبشيرٌ[2].

- وتَعليقُ مَجرورِ ﴿كَادِحٌ﴾ في هذه الآيةِ بحرْفِ (إلَى) يُؤذِنُ بأنَّ المُرادَ به: عمَلٌ يَنتَهي إلى لِقاءِ اللهِ، فيَجوزُ أنْ يُضَمَّنَ (كَادِحٌ) مَعنى: ساعٍ؛ لأنَّ كَدْحَ النَّاسِ في الحَياةِ يَتَطلَّبون بعَمَلِ اليَومِ عَملًا لغَدٍ، وهكذا[3].

- و﴿كَدۡحٗا﴾ مَنصوبٌ على المَفعوليَّةِ المُطْلَقةِ؛ لتَأكيدِ (كَادِحٌ) المُضمَّنِ مَعنى: ساعٍ إلى رَبِّك، أي: ساعٍ إليه لا مَحالةَ، ولا مَفرَّ[4].

- وضَميرُ النَّصبِ في (مُلَاقِيهِ) عائِدٌ إلى الرَّبِّ، أي: فمُلاقٍ رَبَّك، أي: لا مَفرَّ لك مِن لِقاءِ اللهِ؛ ولذلك أُكِّدَ الخَبَرُ بـ (إنَّ)[5].

= ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٢٢).

الآيات (٧-١٥)

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ثُبُورًا﴾: أي: هَلاكًا، والثُّبُورُ: الهَلاكُ والفَسادُ، وأصلُ (ثبر): يدُلُّ على هَلاكٍ[1].

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾: أي: يَدخُلُ النَّارَ، ويذُوقُ حَرَّها، والصَّلَى أصلُه: الإيقادُ بالنَّارِ، وأصلُ (صلى) هنا: النَّارُ، وأصلُ (سعر): يَدُلُّ على اشتعالِ الشَّيءِ واتِّقادِه وارتِفاعِه[2].

﴿يَحُورَ﴾: أي: يَرجِعَ ويُبعَثَ، وأصلُ (حور) هنا: يدُلُّ على رُجوعٍ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مفصِّلًا عاقِبةَ ذلك الكَدْحِ مُبتَدِئًا بحالِ السُّعداءِ: فأمَّا المؤمِنُ الَّذي يُعطَى كِتابَ أعمالِه بيَمينِه، فسَوْفَ يُحاسَبُ يومَ القيامةِ حِسابًا سَهْلًا يَسيرًا بلا مناقَشةٍ، ويَنصَرِفُ إلى أهلِه في الجَنَّةِ مَسرورًا.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٥، ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

ثمَّ يبيِّنُ سُبحانَه حالَ الأشقياءِ، فيقولُ: وأمَّا الكافِرُ الَّذي يُعطَى كِتابَ أعمالِه بشِمالِه مِن خَلْفِ ظَهْرِه، فسَوْفَ يُنادي على نَفْسِه بالهَلاكِ والخُسْرانِ، ويَدخُلُ النَّارَ فيَحترِقُ فيها.

ثمَّ يبيِّنُ سُبحانَه الأسبابَ الَّتي أدَّتْ به إلى هذه العاقِبةِ، فيقولُ: إنَّه كان في الدُّنيا مسرورًا في أهلِه باتِّباعِ هَواه وفِعْلِه المعاصيَ، فَرِحًا بدُنْياه وشَهَواتِها، إنَّه ظَنَّ في الدُّنيا أنَّه لن يَرجِعَ إلى رَبِّه بعْدَ مَوتِه؛ ليُحاسِبَه على أعمالِه، وليس الأمرُ كما يَظُنُّه هذا المكَذِّبُ بالبَعْثِ؛ فإنَّه سيُبعَثُ حَيًّا بعدَ مَوتِه، إنَّ اللهَ بصيرٌ به ومُطَّلِعٌ على أعمالِه، وسيُجازيه عليها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن المعلومِ أنَّ عَبيدَ المَلِكِ إذا عُرِضوا عليه كان فيهم المقبولُ والمردودُ؛ بسَبَبِ أنَّ كَدْحَهم تارةً يكونُ حَسَنًا، وتارةً يكونُ سَيِّئًا؛ قال مُعَرِّفًا أنَّ الأمرَ في لقائِه كذلك على ما نَعهَدُ؛ فمَن كان مقبولًا أُعطِيَ كِتابَه بيمينِه، ومَن كان مردودًا أُعطِيَ كتابَه بشِمالِه؛ فتَرْجَمَ هذا الغَرَضَ[1] بقولِه:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧)﴾.

أي: فأمَّا المؤمِنُ الَّذي يُعطَى كِتابَ أعمالِه، فيَتَسلَّمُه بيَدِه اليُمْنى[2].

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨)﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٣).

أي: فسوف يُحاسَبُ يومَ القيامةِ حِسابًا سَهْلًا، فتُعرَضُ عليه سَيِّئاتُه المكتوبةُ بلا مناقَشةٍ وتدقيقٍ وإطالةٍ، ولا يُؤاخَذُ بها[١].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١].

وعن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ. فقُلتُ: أوَلَيس يقولُ اللهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟! فقال: إنَّما ذلكِ العَرضُ، ولكِنْ مَن نُوقِشَ[٢] الحِسابَ يَهلِكْ))[٣].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ اللهَ يُدْنِي المؤمِنَ فيَضَعُ عليه كَنَفَه[٤] ويَستُرُه، فيقولُ: أتَعْرِفُ ذَنْبَ كذا؟ أتعرِفُ ذَنْبَ كذا؟ فيقولُ: نَعَمْ، أيْ رَبِّ! حتَّى إذا قَرَّره بذُنُوبه، ورأى في نَفْسِه أنَّه هَلَك، قال: ستَرْتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لك اليَومَ، فيُعطَى كِتابَ حَسَناتِه))[٥].

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٩﴾.

أي: ويَنصَرِفُ إلى أهلِه في الجَنَّةِ مَسرورًا بنَجاتِه مِن الجَحِيمِ، وبما أعطاه اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٦، ٢٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٢)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٣).

(٢) نُوقِشَ: استُقصِيَ عليه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٢٠٨).

(٣) رواه البخاريُّ (١٠٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٨٧٦).

(٤) كَنَفَه: سَتْرَه. يُنظر: ((خلق أفعال العباد)) للبخاري (ص: ٧٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٨٧).

(٥) رواه البخاريُّ (٢٤٤١) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٧٦٨).

مِن النَّعيمِ العَظيمِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢٤].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ (١٠)﴾.

أي: وأمَّا الكافِرُ الَّذي يُعطَى كِتابَ أعمالِه، فيَتسَلَّمُه بشِمالِه مِن خَلْفِ ظَهْرِه[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥ - ٢٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٣).

قيل: المرادُ بـ﴿أَهْلِهِۦ﴾: زَوجاتُه مِنَ الحُورِ العِينِ، والآدَميَّات. وممَّن قال بهذا: الواحديُّ، والبغويُّ، وابنُ الجَوزيِّ، والخازنُ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٠٩).

وقيل: هم: أزواجُه مِنَ الحُورِ العِينِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ أبي زَمَنين، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٢).

وقال الألوسي: (﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ أي: عَشيرتِه المؤمنينَ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨٩).

وقال ابنُ عاشور: (الأهلُ: العَشيرةُ مِن زَوجةٍ وأبناءٍ وقَرابةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٣).

وقال أبو السعود: (﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ أي: عشيرتِه المؤمنينَ، أو فريقِ المؤمنينَ). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٢).

وقال الشوكاني: (﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ أي: ويَنصَرِفُ بعدَ الحِسابِ اليَسيرِ إلى أهلِه الَّذين هم في الجنَّةِ مِن عَشيرتِه، أو إلى أهلِه الَّذين كانوا له في الدُّنيا مِن الزَّوجاتِ والأولادِ وقد سَبَقوه إلى الجنَّةِ، أو إلى مَن أعَدَّه اللهُ له في الجنَّةِ مِنَ الحُورِ العِينِ والوِلْدانِ المخَلَّدينَ، أو إلى جميعِ هؤلاء، مسرورًا مُبتَهِجًا بما أُوتِيَ مِنَ الخَيرِ والكَرامةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٣).

﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ١١﴾.

أي: فسوف يُنادي على نَفْسِه بالهَلاكِ والخُسْرانِ؛ نَدامةً وحَسرةً مِمَّا يَرى في كتابِه من السَّيِّئاتِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ١٢﴾.

أي: ويَنغَمِسُ في النَّارِ المُلتَهِبةِ الشَّديدةِ التَّوقُّدِ، فيَحتَرِقُ فيها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٥، ٥٦].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر العَذابَ الَّذي لا يُطاقُ؛ أتْبَعَه سَبَبَه؛ تَرهيبًا منه، وحَثًّا على التَّوبةِ[3].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ١٣﴾.

أي: إنَّه كان في الدُّنيا مسرورًا في أهلِه باتِّباعِ هَواه، ورُكوبِ شهوتِه، واقترافِ المعاصي، فَرِحًا بدُنْياه، لا يُفَكِّرُ في عاقِبةِ أعمالِه، ولا يَخافُ عَذابَ الآخِرةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن =

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤﴾.

أي: إنَّ هذا الكافِرَ قد ظَنَّ في الدُّنيا أنَّه لن يَرجِعَ إلى رَبِّه بعْدَ مَوتِه؛ لِيُحاسِبَه ويُجازِيَه على أعمالِه، فلَمْ يَكُنْ يَخشَى عِقابًا أو يَرجو ثَوابًا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ١٥﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّه هذا المكَذِّبُ بالبَعْثِ؛ فإنَّه سيُبعَثُ حَيًّا بعدَ مَوتِه، واللهُ بصيرٌ به ومُطَّلِعٌ على أعمالِه، فلا يخفى عليه كُفْرُه أو عِصيانُه، وسيُجازيه على ذلك(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ الكِتابُ: صَحيفةُ الأعمالِ، وجُعِلَ إيتاؤُه إيَّاه بيَمينِه شِعارًا للسَّعادةِ؛ لِما هو مُتعارَفٌ مِن أنَّ اليَدَ اليُمْنى تَتناوَلُ الأشياءَ الزَّكيَّةَ(٣).

= كثير)) (٨/ ٣٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٤).

قال ابن عطية: (وقولُه تعالى: ﴿فِيٓ أَهۡلِهِۦ﴾ يريدُ: في الدُّنيا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٥).

قال البِقاعي: (﴿بَصِيرًا﴾ أي: ناظِرًا له وعالِمًا به أبلَغَ نَظَرٍ وأكمَلَ عِلمٍ؛ فتَرْكُه مُهمَلًا -مع العِلمِ بأعمالِه- مُنافٍ للحِكمةِ والعَدْلِ والمُلْكِ؛ فهو شَيءٌ لا يمكِنُ في العَقْلِ بوَجهٍ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾ دَلالةٌ على أنَّه سبحانه أعَدَّ له ولأهلِه في الجَنَّةِ ما يَليقُ به مِنَ الثَّوابِ[١].

٣- اربطْ بيْن قَولِه تعالى فيمَن أُوتيَ كِتابَه بيَمينِه: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾، وهذا: ﴿كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ تجِدْ فرقًا بيْن السُّرورَينِ؛ فسُرورُ الأوَّلِ سرورٌ دائمٌ -نسألُ اللهَ أن يجعَلَنا منهم-، وسرورُ الثَّاني سُرورٌ زائلٌ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ سُؤالٌ عن وَجهِ الجَمعِ مع قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥]؟

الجوابُ: يُؤتَى كِتابَه بشِمالِه، فيكونُ الأخذُ بالشِّمالِ، ولكِنْ تُلوى يَدُه الشِّمالُ إلى الخَلْفِ حتَّى تكونَ مِن وراءِ ظهْرِه، والجزاءُ مِن جنسِ العملِ؛ فكما أنَّ هذا الرَّجُلَ جَعَلَ كتابَ اللهِ وراءَ ظَهْرِه، أُعطِيَ كتابَه يومَ القيامةِ من وراءِ ظَهْرِه؛ جَزاءً وِفاقًا[٣]. وقيل: بَعضُهم يُعطَى بشِمالِه، وبعضُهم مِن وَراءِ ظَهرِه[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا * إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ بيانُ نتيجةِ سُرورِ أولئك في الدُّنيا، بأنَّهم يَصْلَونَ سَعيرًا، ولم يُبَيِّنْ سَبَبَ سُرورِ الآخَرينَ، ولكِنْ بَيَّنَه في موضِعٍ آخَرَ: وهو خَوفُهم مِنَ اللهِ في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ * فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٦ - ٢٨]، وهنا يقالُ: إنَّ اللهَ سُبحانَه لم يجمَعْ على عَبْدِه خَوفَينِ، ولم يُعْطِه الأمْنَينِ معًا؛ فمَن خافه في الدُّنيا أمَّنَه في الآخِرةِ: ﴿وَلِمَنۡ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٤). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩٩).

خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، ومَنْ أَمِنَ مَكْرَ اللهِ، وقضى كُلَّ شَهَواتِه، وكان لا يُبالي؛ فيُؤتى كِتابَه بشِمالِه، ويَصلَى سَعيرًا، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ * وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٧] تكذيبًا للبَعْثِ، وقَولُه هذا هو بعَينِه المذكورُ في هذه الآياتِ: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾[1].

٦- السُّرورُ ورَد في القرآنِ على أَوجهٍ؛ منها: سُرورُ أهلِ الدُّنيا بدُنْياهم، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾، ومنها سرورُ المطيعينَ بنَعيمِ العُقْبَى، كما في قولِه: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾، وفيه تنبيهٌ على أنَّ سُرورَ الآخِرةِ يُضادُّ سُرورَ الدُّنيا[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا * إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أنَّ السُّرورَ في الدُّنيا، وعدَمَ الخَوفِ مِنَ اللهِ: سَبَبُ العَذابِ يومَ القيامةِ، وقد تقرَّر في مَسلَكِ الإيماءِ والتنبيهِ[3] أنَّ «إنَّ» المكسورةَ المشَدَّدةَ من حُروفِ التَّعليلِ، فقَولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ عِلَّةٌ لِقَولِه: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾[4].

٨- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ يُشعِرُ أنَّ عدَمَ الإيمانِ بالبَعثِ أو الشَّكَّ

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٢٠٩).

(٣) دلالةُ الإيماءِ والتَّنبيهِ: أن يُذكرَ وصْفٌ مُقتَرِنٌ بحُكمٍ في نصٍّ من نصوصِ الشَّرعِ على وجهٍ لو لم يكُنْ ذلك الوصفُ علَّةً لذلك الحُكمِ لَكان الكلامُ معيبًا. يُنظر: ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٧).

فيه: هو الدَّافِعُ لكُلِّ سُوءٍ، والمُضَيِّعُ لكُلِّ خَيرٍ، وأنَّ الإيمانَ باليَومِ الآخِرِ هو المُنطَلَقُ لكُلِّ خيرٍ، والمانِعُ لكُلِّ شَرٍّ، والإيمانُ بالبَعْثِ هو مُنطَلَقُ جميعِ الأعمالِ الصَّالحةِ كما في مُستَهَلِّ المُصحَفِ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[1] [البقرة: ٢- ٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ إشارةٌ إلى حِكمةِ البَعْثِ للجَزاءِ؛ لأنَّ رَبَّ النَّاسِ عَليمٌ بأحوالِهم؛ فمنهم المصلِحُ، ومنهم المفسِدُ، والكُلُّ متفاوِتونَ في ذلك؛ فليس مِن الحِكمةِ أن يَذهَبَ المُفسِدُ بفَسادِه وما ألحَقَه بالموجوداتِ مِن مَضارَّ، وأن يُهمَلَ صَلاحُ المُصلِحِ؛ فجَعَل اللهُ الحياةَ الأَبَديَّةَ، وجَعَلَها للجَزاءِ على ما قَدَّم صاحِبُها في حياتِه الأُولى[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ هذا تَفصيلُ الإجْمالِ الَّذي في قولِه: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، أي: رُجوعُ جَميعِ النَّاسِ أولئك إلى اللهِ؛ فمَنْ أُوتيَ كِتابَه بيَمينِه فَريقٌ مِن النَّاسِ هم المُؤمِنون، ومَن أُوتيَ كِتابَه وَراءَ ظَهْرِه فَريقٌ آخَرُ، وهم المُشرِكون، وبيْنَ مُنتهاهُما مَراتبُ، وإنَّما جاءَتْ هذه الآيةُ على اعتِبارِ تَقسيمِ النَّاسِ يَومَئذٍ بيْنَ أَتقياءَ ومُشرِكين[3].

- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٢٢).

﴿وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ احتباكٌ[١]: ذِكرُ اليَمينِ أوَّلًا يدُلُّ على الشِّمالِ ثانيًا، وذِكرُ الوراءِ ثانيًا يدُلُّ على الأمامِ أوَّلًا، وسِرُّ ذلك أنَّه ذَكَر دليلَ المَوَدَّةِ والرِّفْقِ بالمُصافَحةِ ونَحوِها في السَّعيدِ، ودليلَ الغَدْرِ والاغتيالِ في الشَّقيِّ[٢].

- قولُه: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ حرفُ (سوفَ) أصْلُه لحُصولِ الفِعلِ في المُستَقبَلِ، والأكثرُ أنْ يُرادَ به المستقبَلُ البعيدُ، ويُقصَدُ به في الاستِعمالِ البَليغِ تَحقُّقُ حُصولِ الفِعلِ واستِمرارِه، وهو هُنا مُفيدٌ للتَّحقُّقِ والاستِمرارِ بالنِّسبةِ إلى الفِعلِ القابِلِ للاستِمرارِ، وهو ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾، وهو المَقصودُ من هذا الوَعدِ[٣].

- والحِسابُ اليَسيرُ: هو عَرْضُ أعمالِه عليه دونَ مُناقَشةٍ، فلا يَطولُ زَمَنُه، فيُعَجَّلُ به إلى الجَنَّةِ، وذلك إذا كانت أعمالُه صالحةً؛ فالحِسابُ اليَسيرُ كِنايةٌ عن عدَمِ المُؤاخَذةِ[٤].

- وفي قَولِه: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ احتِباكٌ: ذِكرُ الحِسابِ اليَسيرِ -الَّذي هو الثَّمَرةُ والمسَبَّبُ- أوَّلًا يدُلُّ على حَذفِ ضِدِّه ثانيًا، وذِكرُ السُّرورِ في الأهلِ -الَّذي هو السَّبَبُ في الثَّاني- يدُلُّ على حَذفِ ضِدِّه، وهو سَبَبُ السَّعادةِ، وهو الغَمُّ، ومحاسَبةُ النَّفْسِ في الأوَّلِ. فهو احتِباكٌ في احتِباكٍ[٥].

(١) الاحْتِبَاك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لِدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخِرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القُرآنِ وعناصِرِ إعجازِه، وهو مِن ألْطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٢، ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٢٣).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٤).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾

- قولُه: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ المُرادُ بالدُّعاءِ هنا: النِّداءُ، أي: يُنادي الثُّبورَ بأنْ يَقولَ: يا ثُبوري، أو يا ثُبورًا، كما يُقالُ: يا وَيْلي، ويا وَيْلَتَنا، والثُّبورُ: الهَلاكُ وسُوءُ الحالِ، وهي كَلِمةٌ يَقولُها مَن وَقَعَ في شَقاءٍ وتَعْسٍ، والنِّداءُ في مِثلِ هذه الكَلماتِ مُستعمَلٌ في التَّحسُّرِ والتَّوجُّعِ مِن مَعْنى الاسمِ الواقِعِ بعْدَ حرفِ النِّداءِ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا * إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ * بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ استئنافٌ لبَيانِ عِلَّةِ ما يُلاقيه[2]. وقيل: هذه الجُملةُ مُعترِضةٌ. وهذا القولُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ مِن حالِهم؛ كيف انقَلَبَتْ مِن ذلك السُّرورِ الَّذي كان لهم في الحَياةِ الدُّنيا، المَعروفِ مِن أحوالِهم بما حُكِيَ في آياتٍ كَثيرةٍ، فآلُوا إلى ألَمِ النَّارِ في الآخِرةِ حتَّى دَعَوا بالثُّبورِ؟! وتأكيدُ الخَبَرِ مِن شأْنِ الأخبارِ المُستعمَلةِ في التَّعجيبِ[3].

- قولُه: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ تَعليلٌ لسُرورِه في الدُّنيا، أي: ظَنَّ أنْ لن يَرجِعَ إلى اللهِ تعالى تَكْذيبًا للمَعادِ؛ فهو تَعليلٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ...﴾ [الانشقاق: ١٠] إلى آخِرِها. وحرفُ (إنَّ) فيها مُغْنٍ عن (فاءِ) التَّعليلِ، فالمَعْنى: يَصْلى سَعيرًا؛ لأنَّه ظَنَّ أنْ لنْ يَحُورَ، أي: لن يَرجِعَ إلى الحَياةِ بعدَ المَوتِ، أي: لأنَّه يُكَذِّبُ بالبَعثِ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٤). =

- وجِيءَ بحرْفِ (لَن) الدَّالِّ على تأكيدِ النَّفيِ وتأييدِه؛ لحِكايةِ جَزْمِهم وقَطْعِهم بنَفيِه(١).

- قولُه: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ ﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجابٌ لِما بعْدَ ﴿لَّن﴾، وقولُه تعالَى: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ تَحقيقٌ وتَعليلٌ له، أيْ: بَلى لَيَحورَنَّ البَتَّةَ؛ إنَّ ربَّه الَّذي خَلَقَه كان به وبأعمالِه الموجِبةِ للجَزاءِ بَصيرًا، بحَيثُ لا يَخْفى منها خافِيةٌ، فلا بُدَّ مِن رَجْعِه وحِسابِه وجَزائِه عليها حَتْمًا؛ فأُجيبَ بقولِه: ﴿بَلَىٰٓ﴾ الكلامُ المنفيُّ لإبطالِ نفْيِه، ومَوقعُه الاستئنافُ، وجُملةُ ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ مُبيِّنةٌ للإبْطالِ الَّذي أفادَه حرفُ ﴿بَلَىٰٓ﴾ على وَجْهِ الإجْمالِ، يَعني: إنَّ ظَنَّه باطِلٌ؛ لأنَّ رَبَّه أنْبأَه بأنَّه يُبعَثُ، والمَعنى: إنَّ رَبَّه عَليمٌ بمآلِه. وتأكيدُ ذلك بحرْفِ (إنَّ)؛ لِرَدِّ إنْكارِه البَعثَ الَّذي أَخبَرَ اللهُ به على لِسانِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فآلَ المَعنى الحاصِلُ مِن حَرفِ الإبْطالِ ومِن حرفِ التَّأكيدِ إلى مَعنى: أنَّ رَبَّه بَصيرٌ به، وأمَّا هو فغَيرُ بَصيرٍ بحالِه، كقولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾(٢) [البقرة: ٢١٦].

- وتَقديمُ المَجرورِ ﴿بِهِۦ﴾ على مُتعلَّقِه ﴿بَصِيرًا﴾؛ للاهتِمامِ بهذا المَجرورِ، أي: بَصيرٌ به لا مَحالةَ، مع مُراعاةِ الفَواصِلِ(٣).



= ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ٥٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٦).

الآيات (١٦-٢٥)

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا
عَن طَبَقٖ ١٩ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ٢٥﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿بِٱلشَّفَقِ﴾: أي: الحُمْرةِ الَّتي تكونُ عندَ مَغيبِ الشَّمسِ، وسُمِّي بذلك لِرِقَّتِه، وأصلُ (شفق): يدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيءِ[1].

﴿وَسَقَ﴾: أي: جَمَع وضَمَّ، والوَسْقُ: جَمعُ المتفرِّقِ، وضَمُّك الشَّيءَ بَعضَه إلى بعضٍ[2].

﴿ٱتَّسَقَ﴾: أي: اجتَمَعَ، واستَوَى، وتَمَّ نُورُه، وهو افتَعَل مِنَ الوَسْقِ: الَّذي هو الجَمعُ[3].

﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾: المرادُ بالرُّكوبِ: المُلاقاةُ، والطَّبَقُ: ما طابَق غيرَه. يُقالُ: هذا طَبَقٌ لهذا: إذا طابَقه، والمعنى: لَتُلاقُنَّ حالًا كائنةً بعدَ حالٍ، كُلُّ واحدةٍ مُطابِقةٌ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٧، ١٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٦).

للأخرَى، أو: يكونُ الطَّبَقُ جمعَ طَبَقةٍ، وهي المرتبةُ[(١)]، والمعنى: لَتَرْكَبُنَّ أحوالًا بعدَ أحوالٍ هي طبقاتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ، وأصلُ (ركب): عُلُوُّ شَيءٍ شيئًا، وأصلُ (طبق): يدُلُّ على وَضعِ شَيءٍ مَبسوطٍ على مِثْلِه حتَّى يُغَطِّيَه[(٢)].

﴿يُوعُونَ﴾: أي: يَكتُمونَ ويَجمَعونَ في صُدورِهم مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ، وأصلُ (وعي): يدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ[(٣)].

﴿مَمۡنُونِۭ﴾: أي: مَقطوعٍ أو مَنقوصٍ، وأصلُ (منن) هنا: يدُلُّ على قَطْعٍ[(٤)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾

قَولُه تعالى: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾: هذا جوابُ القَسَمِ في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ [الانشقاق: ١٦]، فلا محَلَّ له مِنَ الإعرابِ. ﴿طَبَقًا﴾ مَفعولٌ به، على معنَى: لَتَرْكَبُنَّ وتُلاقُنَّ أحوالًا بعدَ أحوالٍ هي طبقاتٌ في الشِّدَّةِ. وقيل: منصوبٌ على الحالِ، على معنى: لَتركَبُنَّ هذه الأحوالَ أُمَّةً بعْدَ أمَّةٍ، كأنَّه قيلَ: مُتتابِعينَ أُمَّةً بعدَ أُمَّةٍ. ﴿عَن طَبَقٖ﴾: «عن» على بابِها مِن معنَى المُجاوَزةِ، أو بمعنى «بَعْدَ»، وفي محلِّ الجارِّ والمجرورِ وَجْهانِ؛ أحَدُهما: أنَّه في محلِّ نصبٍ على الحالِ مِنْ فاعِلِ

---

(١) قال أبو السعود: (وهو أوفقُ للرُّكوبِ المُنبِئِ عن الاعتِلاءِ). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٢) و(٣/ ٤٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٠).

«تَرْكَبُنَّ»، أي: لَتَرْكَبُنَّ طبقًا مُجاوزِينَ لطَبَقٍ. والثَّاني: أنَّه صِفةٌ لـ «طَبَقًا»، أي: طبقًا مُجاوِزًا لطَبَقٍ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُقْسِمًا ببعضِ مخلوقاتِه: فأُقسِمُ بالحُمْرةِ الَّتي تَلُوحُ في الأُفُقِ بعْدَ غُروبِ الشَّمسِ، وباللَّيلِ وما جَمَع مِن مَخلوقاتٍ، وبالقَمَرِ إذا تمَّ واكتَمَل فصار بَدْرًا مُنيرًا؛ لَتَركَبُنَّ -أيُّها الناسُ- حالًا بَعْدَ حالٍ!

ثمَّ يقولُ سبحانَه منكرًا وموبخًا: فما للكافِرينَ لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ، ولا يُقِرُّونَ بالبَعْثِ بعدَ المَوتِ، وإذا قُرِئَ عليهم القُرآنُ لا يَسجُدونَ للهِ؟! لا يُوجَدُ ما يَمنَعُهم مِن الإيمانِ والسُّجودِ، بل هم يُكَذِّبونَ بالقُرآنِ والبَعثِ؛ عِنادًا وكِبْرًا، واللهُ أعلَمُ بما يَجمَعُه الكافِرونَ في صُدورِهم مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ؛ فبَشِّرْهم -يا محمَّدُ- بعَذابٍ مُؤلِمٍ، إلَّا الَّذين تابُوا منهم فآمَنوا، وأطاعوا اللهَ تعالى؛ فأولئك لهم في الآخِرةِ أجرٌ كامِلٌ غيرُ مَنقوصٍ ولا مَقطوعٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦﴾.

أي: فأُقسِمُ بالحُمْرةِ الَّتي تَلُوحُ في الأُفُقِ بَعْدَ غُروبِ الشَّمسِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٣٧-٧٣٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٦).

قال الواحدي: (يعني: الحُمْرةَ الَّتي تكونُ بعدَ غُروبِ الشَّمسِ إلى وَقتِ العِشاءِ الآخِرةِ، وهذا قولُ المفَسِّرينَ وأهلِ اللُّغةِ جَميعًا). ((الوسيط)) (٤/ ٤٥٤). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧﴾.

أي: وأُقسِمُ باللَّيلِ وما جَمَع وضمَّ فيه مِن مَخلوقاتٍ[1].

= (٨/ ٣٥٨).

وقال ابنُ عاشور: (الشَّفَقُ: اسمٌ للحُمْرةِ الَّتي تَظهَرُ في أُفُقِ مَغرِبِ الشَّمسِ إثْرَ غُروبِها، وهو ضياءٌ مِن شُعاعِ الشَّمسِ إذا حَجَبها عن عُيونِ النَّاسِ بَعضُ جِرمِ الأرضِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٧).

قال ابن جُزَي: (﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي: جمَع وضمَّ، ومنه الوَسْقُ؛ وذلك أنَّ اللَّيلَ يضُمُّ الأشياءَ ويَستُرُها بظَلامِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٥).

قيل: المعنى: جَمَع وضَمَّ ما كان مُنتَشِرًا بالنَّهارِ في تصَرُّفِه؛ وذلك أنَّ اللَّيلَ إذا أقبَلَ أَوى كُلُّ شَيءٍ إلى مأواه. ومِمَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والرَّسْعَني، والعُلَيمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٩١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٥٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٢٣).

قال ابن جرير: (وقولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ يقولُ: واللَّيلِ وما جَمَع، مِمَّا سَكَن وهَدَأ فيه مِن ذي رُوحٍ كان يَطيرُ، أوْ يَدِبُّ نَهارًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤٥).

وقال ابنُ عاشور: (الوَسْقُ: جَمعُ الأشياءِ بَعْضِها إلى بعضٍ، فيَجوزُ أن يكونَ المعنى: وما جَمَع ممَّا كان مُنتَشِرًا في النَّهارِ مِن ناسٍ وحَيوانٍ؛ فإنَّها تأوي في اللَّيلِ إلى مآويها؛ وذلك ممَّا جعَلَ اللهُ في الجِبِلَّةِ مِن طلَبِ الأحياءِ السُّكونَ في اللَّيلِ؛ قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣]، وذلك مِن بديعِ التَّكوينِ...). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٧).

وقيل: المرادُ: النُّجومُ؛ لأنَّها تَظهَرُ في اللَّيلِ، فشَبَّه ظُهورَها فيه بوَسْقِ الواسِقِ أشياءَ مُتفَرِّقةً. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٧).

وقال القاسمي: (والأظهَرُ أن يكونَ إشارةً إلى الأشياءِ كُلِّها؛ لاشتِمالِ اللَّيلِ عليها. فكأنَّه تعالى أقسَمَ بجَميعِ المخلوقاتِ، كما قال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٤١).

﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨﴾.

أي: وأُقسِمُ بالقَمَرِ إذا تمَّ واكتَمَل فصار بَدْرًا مُنيرًا[١].

﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ بفَتحِ الباءِ، على خِطابِ الواحِدِ؛ قيل: المرادُ: النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمعنى: لتَرْكَبَنَّ -يا محمَّدُ- طَبَقًا مِن أطباقِ السَّماءِ بَعْدَ طَبَقٍ، ولَتَرتَقِيَنَّ حالًا بعدَ حالٍ. وقيل: يَذكُرُ حالاتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن يومِ أُوحِيَ إليه إلى يومِ قَبَضه اللهُ. أو أنَّه خِطابُ الإنسانِ المتقَدِّمِ الذِّكرِ في قَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾[٢] [الانشقاق: ٦].

٢- قراءة ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾ بضَمِّ الباءِ على خِطابِ الجَمعِ[٣].

﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٧).

(٢) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٦٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٣٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٥٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٣٧).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٦٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٣٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٥٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٣٧).

أي: لَتركَبُنَّ -أيُّها النَّاسُ- حالًا بَعْدَ حالٍ[(١)].

﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ظَهَر المرادُ ولم يَبْقَ إلَّا العِنادُ؛ سَبَّب عن ذلك الإنكارَ على الكافرينَ والتَّوبيخَ والتَّقريعَ والتَّهديدَ؛ فقال مُعرِضًا عن خِطابِهم إلى الغَيبةِ؛ إيذانًا باستِحقاقِهم للأخْذِ إنْ لم يَرجِعوا[(٢)]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٨)، ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٨٩، ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٧).

قيل: المعنى: لَتَركَبُنَّ -أيُّها النَّاسُ- ممَّا تَلْقَونَ مِن شدائِدِ القيامةِ وأهوالِها أحوالًا. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، واستظهره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٩). ويُنظر أيضًا: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٧٣).

وقيل: المعنى: لَتركَبُنَّ حالًا بعدَ حالٍ حتَّى يَصيروا إلى الله تعالى، مِن إحياءٍ، وإماتةٍ، وبعثٍ. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ، والسَّمَرْقَنْديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٠٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٦٢).

وقريبٌ منه قولُ مَن قال: لَتَركَبُنَّ الشَّدائِدَ: الموتَ والبعثَ والحسابَ حالًا بعدَ حالٍ. وممَّن اختاره: الثعالبيُّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٥٦٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٢٤).

وقيل: المعنى: لَتَكونُنَّ نُطفةً، ثمَّ عَلَقةً، ثمَّ مُضغةً، ثمَّ تُنفَخُ الرُّوحُ، فتَحْيَونَ إلى أن تموتوا، ثمَّ تُبعَثونَ، ثمَّ تُحاسَبونَ، ثمَّ تَصيرونَ إلى الجنَّةِ أو النَّارِ. ومِمَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والسمعانيُّ، وابنُ القيِّم، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٤٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٩٢)، ((تحفة المودود بأحكام المولود)) لابن القيم (ص: ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧).

وقال ابنُ كثيرٍ: (قال الحسنُ البصري: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ يقولُ: حالًا بعدَ حالٍ، رخاءً بعدَ شِدَّةٍ، وشدةً بعدَ رخاءٍ، وغنًى بعدَ فقرٍ، وفقرًا بعدَ غنًى، وصحةً بعدَ سقمٍ، وسقمًا بعدَ صحَّةٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٨).

﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠﴾.

أي: فما الَّذي يَمنَعُ الكافِرينَ إذَنْ مِنَ الإيمانِ بالآخِرةِ، والإقرارِ بالبَعْثِ بعدَ المَوتِ، واللهُ هو المتصَرِّفُ في الكَونِ كيف يَشاءُ، وقد ظهَرَت لهم دلائِلُ الحَقِّ، وقامت عليهم حُجَجُه البَيِّنةُ[1]؟!

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ٢١﴾.

أي: وما لَهم إذا قُرِئَ عليهم القُرآنُ لا يَسجُدونَ لله تَعظيمًا وخُضوعًا له[2]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٦)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ١٥١، ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٢).

قال الرازي: (قال ابنُ عَبَّاسٍ والحسَنُ وعَطاءٌ والكَلْبيُّ ومُقاتِلٌ: المُرادُ مِن السُّجودِ: الصَّلاةُ. وقال أبو مُسلِمٍ: الخُضوعُ والاستِكانةُ. وقال آخَرونَ: بل المرادُ نفْسُ السُّجودِ عندَ آياتٍ مخصوصةٍ، وهذه الآيةُ منها). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٠٤).

وممَّن ذهب إلى أنَّ معنى: ﴿لَا يَسۡجُدُونَ﴾: لا يُصَلُّونَ: ابنُ أبي زَمَنِين، والقرطبيُّ، والخازن، والعُلَيمي، ونسَبَه ابنُ تيميَّةَ إلى عامَّةِ العُلَماءِ ومُفَسِّري السَّلَفِ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٢٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ١٥١، ١٥٢).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المعنى: لا يَخضَعونَ ولا يَستَكينونَ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي، والزمخشري، والقاسمي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٦٢)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٦٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٠).

قال البِقاعي: (أي: يَخضَعونَ بالقَلبِ ويَتذَلَّلونَ للحَقِّ بالسُّجودِ اللُّغَويِّ، فيَسجُدونَ بالقالَبِ السُّجودَ الشَّرعيَّ لِتِلاوتِه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٤٩). =

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢﴾.

أي: لا يُوجَدُ ما يَمنَعُهم مِن الإيمانِ والسُّجودِ؛ فدلائِلُ الحَقِّ واضِحةٌ ومُتوفِّرةٌ، وإنَّما مِن سَجِيَّةِ الَّذين كَفَروا وعادتِهم المُستَمِرَّة: التَّكذيبُ بالقُرآنِ، والبَعثِ، والجنَّةِ والنَّارِ؛ عِنادًا أو كِبْرًا منهم دونَ حُجَّةٍ وعُذرٍ[1]!

كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ﴾ [البروج: ١٩].

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣﴾.

أي: واللهُ أعلَمُ بما يَجمَعُه الكافِرونَ في صُدورِهم مِنَ التَّكذيبِ والآثامِ[2].

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤﴾.

أي: فبشِّرْ -يا محمَّدُ- أولئك الكافِرينَ بعَذابٍ مُوجِعٍ في غايةِ الإيلامِ[3].

= وقيل: المرادُ به: سجودُ التِّلاوة. وممَّن ذهب إليه: الماتُريديُّ، واستدلَّ بالآيةِ على وُجوبِها. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٤٧٨).

لكنْ قال ابنُ الجَوزيِّ نقلًا عن القاضي أبي يعلى: (وقد احتجَّ بها قَومٌ على وُجوبِ سُجودِ التِّلاوةِ، وليس فيها دَلالةٌ على ذلك، وإنَّما المعنى: لا يَخشَعون، ألَا ترى أنَّه أضاف السُّجودَ إلى جميعِ القُرآنِ، والسُّجودُ يختصُّ بمَواضِعَ منه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٢). ويُنظر: ((التعليق الكبير في المسائل الخلافية بين الأئمة)) لأبي يعلى (١/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ * يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١١ - ١٤].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: إلَّا الَّذين تابُوا منهم فآمَنوا بكُلِّ ما وَجَب عليهم الإيمانُ به، وأطاعوا اللهَ تعالى، فامتَثَلوا أمْرَه واجتَنَبوا نَهْيَه؛ فأولئك لهم في الآخِرةِ أجرٌ كامِلٌ غَيرُ مَنقوصٍ، ودائِمٌ غيرُ مَقطوعٍ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ سؤالٌ: لِماذا يُقْسِمُ اللهُ تعالى على خَبَرِه وهو سُبحانَه الصَّادِقُ بلا قَسَمٍ؟! وكذلك يُقْسِمُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه

= (٨/ ٣٦٢).

وقال ابنُ عثيمين: (الخِطابُ في قَولِه: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ عامٌّ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسَلَّم، ولكُلِّ مَن يَصِحُّ خِطابُه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٨)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٤، ٢٣٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قال عامَّةُ المفَسِّرينَ: غيرُ مَقطوعٍ ولا منقوصٍ... وقد شَذَّ بَعضُ النَّاسِ فقال: غيرُ مَمْنونٍ عليهم... وهذا القَولُ مع مُخالَفتِه لأقوالِ السَّلَفِ والجُمهورِ هو خطأٌ؛ لوُجوهٍ: أحَدُها: أنَّ اللهَ يَمُنُّ علينا بكُلِّ نِعمةٍ أنعَمَ بها علينا، حتَّى بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ؛ قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]...). ((الرد على من قال بفناء الجنة والنار)) (ص: ٨٤، ٨٥).

وقال ابن كثير: (وقال بعضُهم: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ عليهم. وهذا القولُ ... قد أنكره غيرُ واحدٍ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ له المِنَّةُ على أهلِ الجنَّةِ في كلِّ حالٍ وآنٍ ولَحظةٍ، وإنَّما دخَلوها بفَضلِه ورحمتِه، لا بأعمالِهم، فله عليهم المِنَّةُ دائمًا سَرْمَدًا، والحمدُ لله وحْدَه أبدًا؛ ولهذا يُلْهَمونَ تسبيحَه وتحميدَه كما يُلهَمونَ النَّفَسَ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٢).

وسلَّم على خَبَرِه، وهو صادقٌ بلا قَسَمٍ؟!

الجوابُ: أنَّ القَسَمَ يُؤَكِّدُ الكلامَ؛ والقرآنُ الكريمُ نَزَلَ باللِّسانِ العربيِّ، وإذا كان مِن عادتِهم أنَّهم يُؤَكِّدون الكلامَ بالقَسَمِ صار هذا الأسلوبُ جاريًا على اللِّسانِ العربيِّ الَّذي نَزَلَ به القرآنُ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ سؤالٌ: أنَّه قد ورد الحَظْرُ بأنْ يُقسَمَ بغَيرِ اللهِ تعالى، أو بصِفةٍ مِن صِفاتِه!

الجوابُ: أنَّ ذلك الحَظْرَ في حَقِّ الإنسانِ، وأمَّا اللهُ تعالى فإنَّه يُقسِمُ بما شاء مِن خَلْقِه[2].

٣- قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ * وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ * وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ * لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ مُناسَبةُ الأُمورِ المُقسَمِ بها هُنا للمُقسَمِ عليه؛ لأنَّ الشَّفَقَ واللَّيلَ والقَمَرَ تُخالِطُ أحوالًا بيْنَ الظُّلمةِ وظُهورِ النُّورِ معها، أو في خِلالِها، وذلك مُناسِبٌ لِما في قولِه: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ مِن تَفاوُتِ الأحوالِ الَّتي يَختَبِطُ فيها النَّاسُ يَومَ القِيامةِ، أو في حياتِهم الدُّنيا. ولعلَّ ذِكرَ الشَّفَقِ إيماءٌ إلى أنَّه يُشبِهُ حالةَ انتِهاءِ الدُّنيا؛ لأنَّ غُروبَ الشَّمسِ مِثلُ حالةِ المَوتِ، وأنَّ ذِكرَ اللَّيلِ إيماءٌ إلى شِدَّةِ الهَولِ يومَ الحِسابِ، وذِكرَ القَمَرِ إيماءٌ إلى حُصولِ الرَّحمةِ للمُؤمنينَ[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ القَسَمُ بالقَمَرِ مِمَّا يدُلُّ على عِظَمِ آيتِه، ودِقَّةِ دَلالتِه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٣٧).

٥- استُدِلَّ بقَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ﴾ على مَشروعيَّةِ سُجودِ التِّلاوةِ هنا(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أنَّ البِشارةَ قد تُطلَقُ على الإخبارِ بما يَسوءُ(٢). فالآيةُ حُجَّةٌ في أنَّ البِشارةَ تكونُ في الخيرِ والشَّرِّ(٣).

٧- قَولُه تعالى: ﴿ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، على القولِ بأنَّ الخِطابَ في قوله: ﴿ فَبَشِّرۡهُم ﴾ عامٌّ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم ولكلِّ مَن يصِحُّ منه الخِطابُ، فنحن نُبَشِّرُ كلَّ كافرٍ بعذابٍ أليمٍ يَنْتَظِرُه، كما قال تعالى: ﴿وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾(٤) [السجدة: ٣٠].

٨- قَولُه تعالى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾ فيه دوامُ نعيمِ المؤمنينَ العامِلينَ الصَّالحاتِ؛ فقولُه تعالى: ﴿غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾ أي: لا يُقْطَعُ، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةً وَعَشِيًّا﴾(٥) [مريم: ٦٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ * وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ * وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ * لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾

- قولُه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ الفاءُ لتَفريعِ القَسَمِ وجَوابِه على التَّفصيلِ الَّذي

(١) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٥).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٨٠).
(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٩٧).
(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٣٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٥٤).

في قولِه: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانشقاق: ٧] إلى هُنا؛ فإنَّه اقتَضى أنَّ ثَمَّةَ حِسابًا وجَزاءً بخَيرٍ وشَرٍّ، فكان هذا التَّفريعُ فَذْلَكةً[١] وحَوصَلةً لِما فُصِّلَ مِن الأحوالِ، وكان أيضًا جَمعًا إجْماليًّا لِما يَعترِضُ في ذلك مِن الأهوالِ[٢]. وهذه الفاءُ هي الفاءُ الفَصيحةُ؛ لأنَّها في جَوابِ شَرطٍ مُقدَّمٍ، أي: إذا عرَفْتَ هذا، أو إذا تَحقَّقْتَ الرُّجوعَ بالبَعثِ، فلا أُقسِمُ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ * وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالالْتِزامِ، أو لُزومِ ما لا يَلزَمُ، ومِنهم مَن يُسمِّيه الإعْناتَ[٤]؛ فالآيةُ قد الْتَزَمَتِ السِّينَ قبْلَ القافِ[٥].

- قولُه: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ * لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ اتِّساقُ القَمَرِ: اجتِماعُ ضِيائِه،

---

(١) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. والفَذْلَكةُ كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملةِ) و(الحوقَلةِ)، من قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٢٦).

(٤) التزامُ ما لا يَلزَمُ -أو الإعناتُ-: هو أن يجيءَ قبْلَ حرفِ الرَّويِّ، أو ما في معناهُ مِن الفاصِلةِ، بما ليس بلازمٍ في التَّقفيةِ، ويُلتزَمُ في بيتَينِ أو أكثَرَ مِن النَّظمِ، أو في فاصلتَينِ أو أكثَرَ مِنَ النَّثرِ، مشروطًا بعدَمِ الكُلفةِ. وهو في القرآنِ كثيرٌ، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ * وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ [الضحى: ٩، ١٠]؛ فقد التُزِم بحرفِ الهاءِ قبْلَ الرَّاءِ. يُنظر: ((البديع)) لابن المعتز (ص: ١٧٥)، ((الإيضاح)) للقزويني (ص: ٣٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٣/ ٤٠٧) و(١٠/ ٤٢٨).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٢٨).

وهو (افْتِعالٌ)، مِن الوَسْقِ بمَعْنى الجَمعِ، وذلك في لَيلةِ البدْرِ، وتَقييدُ القَسَمِ به بتلك الحالةِ؛ لأنَّها مَظهَرُ نِعمةِ اللهِ على النَّاسِ بضِيائه[١].

- وجُملةُ ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ نُسِجَ نَظمُها نَسجًا مُجمَلًا؛ لتَوفيرِ المَعاني الَّتي تَذهَبُ إليها أفهامُ السَّامِعينَ، فجاءَتْ على أَبدَعِ ما يُنسَجُ عليه الكَلامُ الَّذي يُرسَلُ إرسالَ الأمثالِ مِن الكَلامِ الجامِعِ البَديعِ النَّسْجِ الوافِرِ المَعْنى، وذلك ما جَعَلَ لإيثارِ هذَينِ اللَّفظَينِ في هذه الآيةِ خُصوصيَّةً مِن أَفْنانِ الإعجازِ القُرآنيِّ[٢].

- قولُه: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، أي: لتَركَبُنَّ حالًا بعْدَ حالٍ، وهو تَهديدٌ بأَهوالِ القِيامةِ؛ فتَنوينُ (طَبَق) في المَوضِعَينِ للتَّعظيمِ والتَّهويلِ، و(عن) بمَعْنى: (بعْدَ)، والبَعديَّةُ اعتِباريَّةٌ، وهي بَعديَّةُ ارتِقاءٍ، فقيل: المعنى: لَتُلاقُنَّ هَولًا أَعظَمَ مِن هَولٍ. وإطْلاقُ الطَّبَقِ على الحالةِ؛ لأنَّ الحالةَ مُطابِقةٌ لعَمَلِ صاحِبِها[٣]. وقيلَ: لَتركَبُنَّ مَنزِلةً بعْدَ مَنزِلةٍ، على أنَّ طَبَقًا اسمٌ للمَنزِلةِ، أي: لَتَصيرُنَّ مِن طَبَقِ الدُّنيا إلى طَبَقِ الآخِرةِ، أو إنَّ قَومًا كانوا في الدُّنيا مُتَّضِعينَ فارْتَفَعوا في الآخِرةِ؛ فالتَّنوينُ فيهما -﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾- للتَّنويعِ[٤]. وقيلَ: مَن كان على صَلاحٍ دَعاه إلى صَلاحٍ آخَرَ، ومَن كان على فَسادٍ دَعاه إلى فَسادٍ فَوقَه؛ لأنَّ كُلَّ شيءٍ يَجُرُّ إلى شَكلِه، فتَكونُ الجُملةُ اعتِراضًا بالمَوعِظةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وتَكونُ (عن) للمُجاوَزةِ، والتَّنوينُ للتَّعظيم(١).

- ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ الرُّكوبُ مُعبَّرًا به عن السَّيرِ، أي: لَتَحضُرُنَّ للحِسابِ جَماعاتٍ بعدَ جَماعاتٍ، وهذا تَهديدٌ لمُنكِريه(٢). ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ الرُّكوبُ مُستعمَلًا في المُتابَعةِ، أي: لَتَتَّبِعُنَّ، وحُذِفَ مَفعولُ (تَرْكَبُنَّ) بتَقديرِ: لَيَتَّبِعَنَّ بَعضُكم بَعضًا، أي: في تَصميمِكم على إنكارِ البَعثِ، ودَليلُ المَحذوفِ هو قولُه: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، ويَكونَ ﴿طَبَقًا﴾ مَفعولًا به(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الفاءُ) لتَرتيبِ ما بعْدَها مِن الإنكارِ والتَّعجيبِ على ما قبْلَها مِن أحوالِ القِيامةِ وأهوالِها المُوجِبةِ للإيمانِ والسُّجودِ، أيْ: إذا كان حالُهم يومَ القِيامةِ كما ذُكِرَ -وذلك على قولٍ-، فأيُّ شَيءٍ لهم حالَ كَونِهم غيرَ مُؤمنينَ؟! أيْ: أيُّ شيءٍ يَمنَعُهم مِن الإيمانِ مع تَعاضُدِ مُوجِباته(٤)؟!

ويَجوزُ أنْ يَكونَ هذا التَّفريعُ ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ على ما ذُكِر مِن أحوالِ مَن أُوتيَ كِتابَه وراءَ ظَهرِه، وأُعيدَ عليه ضَميرُ الجَماعةِ؛ لأنَّ المُرادَ بـ (مَن) المُوصولةِ: كُلُّ مَن تَحقَّقُ فيه الصِّلةُ، فجَرى الضَّميرُ على مَدلولِ (مَن)، وهو الجَماعةُ، والمَعْنى: فما لَهم لا يَخافون أهْوالَ يَومِ لِقاءِ اللهِ فيُؤمِنوا؟! ويَجوزُ أنْ يَكونَ مُفرَّعًا على قولِه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، أي: إذا تَحقَّقْتَ ذلك، فكيف لا يُؤمِنُ بالبَعثِ الَّذين أنكَروه؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٣).

وجِيءَ بضَميرِ الغَيبةِ؛ لأنَّ المَقصودَ مِن الإنْكارِ والتَّعجيبِ خُصوصُ المُشرِكينَ مِن الَّذين شَمِلَهم لَفظُ الإنسانِ في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾؛ لأنَّ العِنايةَ بمَوعِظتِهم أهَمُّ، فالضَّميرُ الْتِفاتٌ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ تَفريعًا على قولِه: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ [الانشقاق: ١٩]، فيَكونَ مَخصوصًا بالمُشرِكين باعتِبارِ أنَّهم أهَمُّ في هذه المَواعِظِ، والضَّميرُ أيضًا الْتِفاتٌ. ويَجوزُ تَفريعُه على ما تَضمَّنَه القَسَمُ مِن الأحوالِ المُقسَمِ بها باعتِبارِ تَضمُّنِ القَسَمِ بها أنَّها دَلائلُ على عَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالى وتَفرُّدِه بالإلَهيَّةِ، ففي ذِكرِها تَذكِرةٌ بدَلالَتِها على الوَحدانيَّةِ، والالْتِفاتُ هُوَ هُوَ[1].

- وأيضًا الاستِفهامُ ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ مُستَعمَلٌ في التَّعجيبِ مِن عَدَمِ إيمانِهم، وفي إنْكارِ انتِفاءِ إيمانِهم؛ لأنَّ شَأنَ الشَّيءِ العَجيبِ المُنكَرِ أنْ يُسأَلَ عنه، وجُملةُ ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ؛ والحالُ هي مَناطُ التَّعجيبِ[2].

- ومُتعلَّقُ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ مَحذوفٌ يدُلُّ عليه السِّياقُ، أي: بالبَعثِ والجَزاءِ. ويَجوزُ تَنزيلُ فِعلِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ مَنزِلةَ اللَّازِمِ، أي: لا يَتَّصِفونَ بالإيمانِ، أي: ما سَببُ ألَّا يَكونوا مُؤمِنينَ؛ لظُهورِ الدَّلائلِ على انفِرادِ اللهِ تعالى بالإلَهيَّةِ، فكيف يَستَمِرُّون على الإشْراكِ به؟! والمَعْنى: التَّعجيبُ والإنكارُ مِن عدَمِ إيمانِهم مع ظُهورِ دَلائلِ صِدقِ ما دُعُوا إليه، وأُنذِروا به[3].

- قولُه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ﴾ ظَرفٌ قُدِّمَ على عامِلِه ﴿لَا يَسۡجُدُونَ﴾؛ للاهتِمامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣١).

به، والتَّنويهِ بشأنِ القُرآنِ[١].

- على القولِ بأنَّ السُّجودَ مُستعمَلٌ بمَعْنى الخُضوعِ والخُشوعِ، فقيل: المعنى: إذا قُرِئَ عليْهم القُرآنُ لا يَخضَعون للهِ ولِمَعاني القُرآنِ وحُجَّتِه، ولا يُؤمِنون بحَقِّيَّتِه، ودَليلُ هذا المَعْنى مُقابَلتُه بقَولِه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ﴾[٢] [الانشقاق: ٢٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ۞ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾

- قولُه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ﴾ يَجوزُ أنَّه إضْرابٌ انتِقاليٌّ مِن التَّعجيبِ مِن عدَمِ إيمانِهم وإنْكارِه عليهم، إلى الإخْبارِ عنهم بأنَّهم مُستمِرُّون على الكُفرِ والطَّعْنِ في القُرآنِ، فالكَلامُ ارتِقاءٌ في التَّعجيبِ والإنْكارِ؛ فالإخبارُ عنهم بأنَّهم ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ والإنْكارِ؛ فلذلك عُبِّرَ عنه بالفِعلِ المُضارِعِ الَّذي يُفيدُ استحضارَ الحالةِ[٣].

- ويَجوزُ أنْ يَكونَ (بَل) إضْرابًا إبْطاليًّا، أي: لا يوجَدُ ما لِأجْلِه لا يُؤمِنونَ ولا يُصَدِّقون بالقُرآنِ، بلِ الواقعُ بضِدِّ ذلك؛ فإنَّ بَواعِثَ الإيمانِ مِن الدَّلائلِ مُتوفِّرةٌ، ودَواعيَ الاعتِرافِ بصِدقِ القُرآنِ والخُضوعِ لدَعوتِه مُتظاهِرةٌ، ولكنَّهم يُكذِّبون، أي: يَستَمِرُّون على التَّكذيبِ عِنادًا وكِبرياءً، ويُومِئُ إلى ذلك قولُه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾. وفي اجتِلابِ الفِعلِ المُضارِعِ دَلالةٌ على حُدوثِ التَّكذيبِ منهم وتَجدُّدِه، أي: بل هم مُستمِرُّون على التَّكذيبِ عِنادًا، وليس ذلك اعتِقادًا، فكما نُفِيَ عنهم تَجدُّدُ الإيمانِ وتَجدُّدُ الخُضوعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٣٣).

عندَ قِراءةِ القُرآنِ، أُثبِتَ لهم تَجدُّدُ التَّكذيبِ(١).

- وقولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ؛ لأنَّ مُقتَضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: (بل هم يُكذِّبون)؛ فعُدِلَ إلى المَوصولِ والصِّلةِ؛ لِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن ذَمِّهم بالكُفرِ؛ للإيماءِ إلى عِلَّةِ الخَبَرِ، أي: إنَّهم استَمَرُّوا على التَّكذيبِ لتأصُّلِ الكُفرِ فيهم، وكَونِهم يُنعَتونَ به(٢). وأيضًا وضَع الظَّاهرَ موضعَ المُضمَرِ؛ تعميمًا(٣).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾، وقال في سُورةِ (البُروجِ): ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٍ﴾ [البروج: ١٩]؛ فاختُصَّ الأوَّلُ بقولِه: ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ بلَفظِ المضارِعِ، والثَّاني بقولِه: ﴿فِي تَكۡذِيبٍ﴾ بلَفظِ المصدَرِ، مع اتِّحادِ المعْنى المقصودِ؛ وذلك لوَجهينِ؛ الأوَّلُ: أنَّ آيةَ الانشقاقِ تَقدَّمَها وَعيدٌ أُخرويٌّ كلُّه لم يَقَعْ بعدُ، وهم مُكذِّبون بجَميعِه، فجِيءَ هنا باللَّفظِ المَقولِ على الاستِقبالِ -وإنْ كان يَصلُحُ للحالِ- ليُطابِقَ الإخبارَ؛ لأنَّه عمَّا يأْتي ولم يقَعْ بعْدُ؛ فجِيءَ بما يُطابِقُه في استقبالِه. أمَّا آيةُ (البُروجِ) فقدْ تَقدَّمَها قولُه تعالَى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ * فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾ [البروج: ١٧، ١٨]، وحديثُ هؤلاء وأَخْذُهم بتَكذيبِهم قد تَقدَّمَ ومَضى زَمانُه، وهؤلاء مُستَمِرُّون على تَكذيبِهم، فقيل: ﴿فِي تَكۡذِيبٍ﴾، وجِيءَ بالمصدرِ؛ ليُحرِزَ تَماديَهم، وأنَّ ذلك شَأنُهم أبدًا فيما أخبَرَهم به، وفيما يَدْعوهم إليه ويَنْهاهم عنه، ولَفظُ المصدَرِ أعْطى لِما قُصِدَ مِن هذا مِن لَفظِ المضارِعِ؛ فجِيءَ في كلٍّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٩).

مِن الآيتَينِ بما يُناسِبُ[١]. الثَّاني: أنَّه مُراعاةٌ لفَواصلِ الآيِ، مع صِحَّةِ اللَّفظِ، وجَودةِ المعنى[٢].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٢]، وجُملةِ ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤]، وهو كِنايةٌ عن الإنْذارِ والتَّهديدِ بأنَّ اللهَ يُجازيهم بسُوءِ طَويَّتِهم[٣].

- ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ معنَى الإيعاءِ: جعْلُ الشَّيءِ وِعاءً، والوِعاءُ: الظَّرفُ؛ لأنَّه يُجمَعُ فيه، ثمَّ شاع إطلاقُه على جمْعِ الأشياءِ لئلَّا تَفوتَ؛ فصار مُشعِرًا بالتَّقتيرِ، واستُعمِل في هذه الآيةِ في الإخفاءِ؛ لأنَّ الإيعاءَ يَستلزِمُ الإخفاءَ[٤]. وعِلمُ اللهِ تعالَى بذلك وبكلِّ شيءٍ أمرٌ ثابتٌ، وهو كِنايةٌ عن مُجازاتِه سُبحانَه عليه. وقيل: المرادُ الإشارةُ إلى أنَّ لهم وراءَ التَّكذيبِ قبائحَ عظيمةً كثيرةً يَضيقُ عن شرحِها نِطاقُ العِبارةِ. وقيل: يَحتمِلُ أن يَكونَ المعنَى: واللهُ تعالَى أعلَمُ بما يُضمِرونَه في أنفُسِهم مِن أدِلَّةِ كَونِه -أي: القرآنِ- حقًّا؛ فيكونَ المرادُ المُبالَغةَ في عِنادِهم وتكذيبِهم على خِلافِ عِلمِهم[٥].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٥٠٥).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٩٢).

- قولُه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ تفريعٌ على جُملةِ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٢]، وعلى القولِ بأنَّ التَّبشيرَ هو الإخْبارُ بِما يَسُرُّ ويَنفَعُ فِفعلُ (بَشِّرْهُمْ) مُعبَّرٌ به عن الإنْذارِ والوَعيدِ على طَريقةِ التَّهكُّمِ، فلمَّا عُلِّقَ بالفِعلِ (عَذابٌ أَليمٌ) -في قولِه: ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾- كانتْ قَرينةُ التَّهكُّمِ كَنارٍ على عَلَمٍ[1].

- قولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ الاستِثناءُ مُتَّصلًا؛ إمَّا على أنَّه استِثناءٌ مِن الضَّميرِ في قولِه: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩] جَريًا على تَأويلِه برُكوبِ طِباقِ الشَّدائدِ والأهْوالِ يَومَ القِيامةِ وما هو في معنى ذلك مِن التَّهديدِ، وإمَّا على أنَّه استِثناءٌ مِن ضَميرِ الجَمعِ في ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ [الانشقاق: ٢٤]، والمَعنى: إلَّا الذين يُؤمنون مِن الَّذين هُم مُشرِكون الآنَ، وفِعلُ ﴿ءَامَنُوا۟﴾ على هذا الوَجْهِ مُرادٌ به المُستقبَلُ، وعُبِّرَ عنه بالماضي؛ للتَّنبيهِ على مَعْنى: مَن تَحقَّقَ إيمانُهم، وما بيْنَهما مِن قولِه: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٠] إلى هُنا تَفريعٌ مُعترِضٌ بيْنَ المُستَثنى والمُستَثنى منه، خُصَّ به الأهَمُّ ممَّن شَمِلَهم عُمومُ ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩]. ويَجوزُ أنْ يَكونَ الاستِثناءُ استِثناءً مُنقَطِعًا مِن ضَميرِ ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ [الانشقاق: ٢٤]، فهو داخِلٌ في التَّبشيرِ المُستعمَلِ في التَّهكُّمِ -على قولٍ-؛ زِيادةً في إدْخالِ الحَزَنِ عليهم؛ فحرفُ (إلَّا) بمَنزِلةِ (لكنْ)، والاستِدراكُ فيه لمُجرَّدِ المُضادَّةِ، لا لدَفْعِ تَوهُّمِ إرادةِ ضِدِّ ذلك، ومِثلُ ذلك كَثيرٌ في الاستِدراكِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٣٤، ٢٣٥).

- وقولُه: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لِما أَفادَه الاستِثناءُ مِن انتِفاءِ العَذابِ عنهم، ومُبيِّنٌ لكَيفيَّتِه ومُقارَنتِه للثَّوابِ العَظيمِ[١]، وهو استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ كأنَّ سائِلًا سأَلَ: كيف حالُهم يومَ يَكونُ أولئك في عَذابٍ أَليمٍ[٢]؟



تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ الثَّاني والأربعونَ

ويليه المجلدُ الثَّالثُ والأربعونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ البُرُوجِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٥).









الفهرس







الفهرس

سُورةُ النَّازِعاتِ



تم الصف والإخراج في مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠